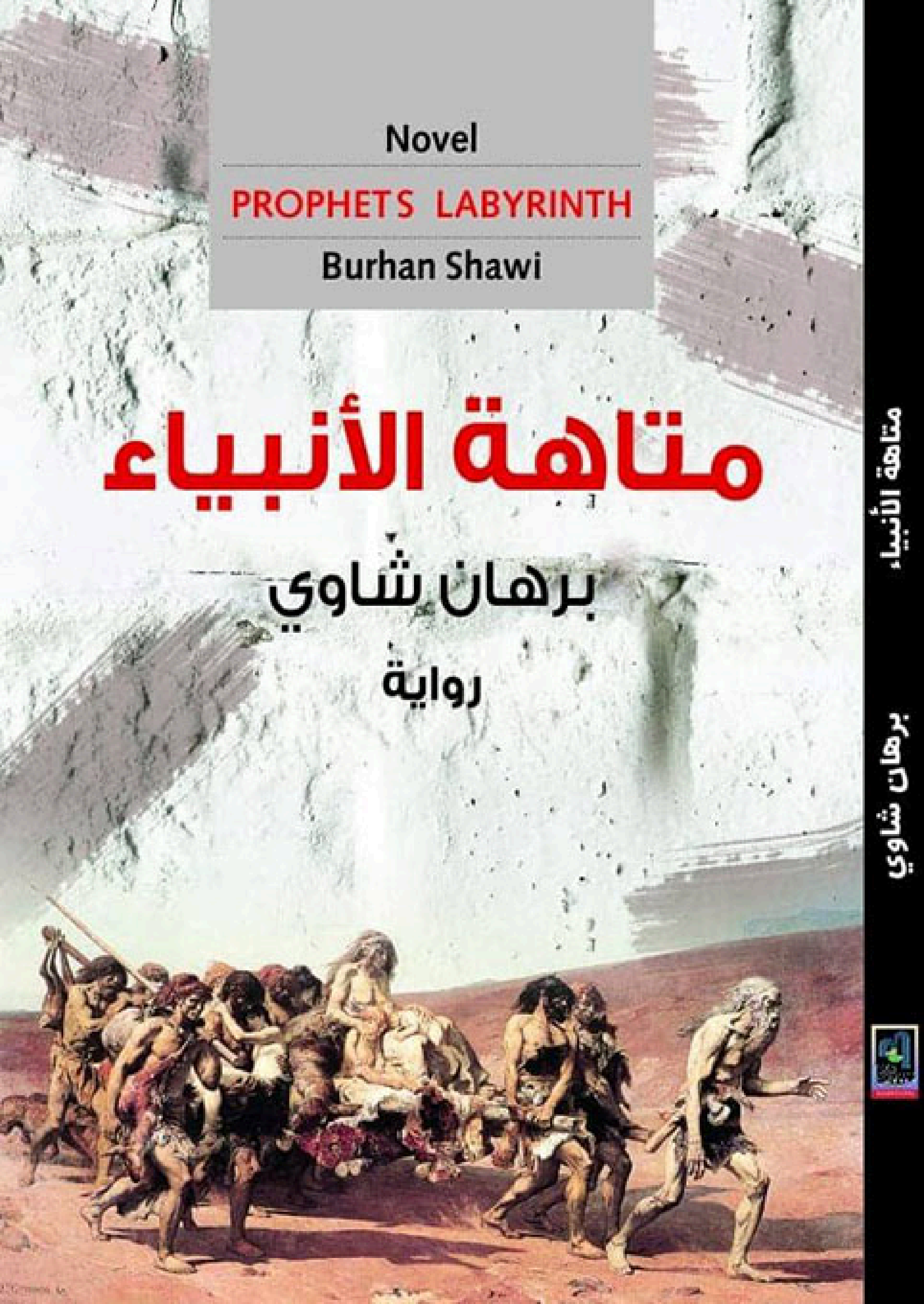

Novel
PROPHETS LABYRINTH
Burhan Shawi
متاهة الأنبياء
برهان شاوي
رواية
متاهة الأنبياء
برهان شاوي

# متاهة
# الأنبياء

## PROPHETS LABYRINTH

طبعة عراقية

# متاهة الأنبياء

# PROPHETS LABYRINTH

رواية

بُرهان شاوي

Burhan Shawi




دار ميزوبوتاميا.طبع.نشر.توزيع
العراق.بغداد.شارع المتنبي
mazin774@gmail.com
mazin24@ymail.com
07707960771

---



---

الكتاب : متاهة الانبياء
المؤلف : برهان شاوي
التصنيف : رواية
الطبعة الاولى: 2019
عدد النسخ: 1000
عدد الصفحات: 400
قياس الكتاب: 17 × 24

ISBN 978-9922-9053-4-1
9 789922 905341

**وقال لي: سدّ باب قلبك الذي يدخل منه سواي؛ لأن قلبك بيتي.**

عبد الجبار النفري (المخاطبات ـ المخاطبة 13)

# المحتويات

# البـاب الأول

## نـداء حـواء الـورد

رنّ الهاتف الجوال في الصالة المظلمة خلال الساعات الأولى من الفجر، ظل يرنّ ولا أحد يجيب، شاشته الصغيرة تضيء الصالون المعتم بأشعة فسفورية لازوردية! ظلّ الهاتف يرنّ للحظات ليست بالطويلة، صمت بعدها لثوانٍ، ثم تعالى الرنين مرةً أخرى. ظل يرن لفترة أطول من المرّة الأولى، وبعد نصف دقيقة توقف الرنين.

في الساعات الأولى من الفجر الغريب الذي تلى تلك الليلة الغامضة؛ حيث حضر الرجال الأربعة الملتحون وهم في ملابسهم السود ليتحدثوا عن الطفل هابيل باعتباره البشارة والأمل المنتظر، ثم اختفوا فجأة بطريقة غامضة ومعهم بشارتهم وأملهم، في تلك الساعات، وفي الصالة المظلمة..في تلك الشقة الضيقة رنّ الهاتف النقال الموضوع على الطاولة قرب الصوفا.

فزّ آدم الشبيبي، رأى ضوء شاشة هاتفه الجوال على الطاولة المجاورة، كان الرنين قد توقف في تلك اللحظات، تذكّر آدم الشبيبي نفسه قبل لحظات من يقظته بأنه رأى نفسه في الحلم، كيف كان غارقًا في النوم على سرير خشبي أبيض، مغطى بأفرشة فضية اللون، في قاعـة واسعة بيضاء، قاعة فارغة، جدرانها من الألمنيوم الأبيض، سقفها أبيض وأرضيتها من المرمر الأبيض، نوافذها مغلفة بطبقة من الستائر الفضية اللون، لا شيء في القاعة، لا أثاث ولا خزانات! وكانت هناك طاولة فضية قريبة من السرير الخشبي الأبيض عليها هاتف جوال فضي اللون يرنّ!

كان يسمع رنين الهاتف الجوال لكنه لم يستيقظ، وهو في الحلم كان يعرف بأنه يحلم، لذا كان يصيح بالنائم على السرير الخشبي الأبيض؛ كي يستيقظ ويجيب على

الهاتف، لكن صوته كان مكتومًا في الحلم! ثم فجأة استيقظ، مدّ الراقد على السرير الأبيض الخشبي يده إلى الهاتف الجوال، نظر إلى الشاشة فقرأ: **المتصل مجهول!**

استغرب آدم الشبيبي وهو في عتمة الصالة هذا التطابق بين ما رآه في الحلم، وما جرى في الواقع! تلفّت فيما حوله في الظلام، خطر في ذهنه سؤال: هل سمع صديقه آدم أبو التنك وزوجته حواء الفارسي رنين الهاتف، لا سيما وأن الاتصال كان لمرتين متتاليتين؟! أو، ربما لم يكن هناك اتصال أصلًا؟ لا، لا، فهناك إشارة مكتوبة بأن المتصل غير معروف..!

بقي للحظات جالسًا على الصوفا الجلدية التي يتخذ منها سريرًا للنوم، ثم نهض، اتجه إلى المطبخ المقابل والقريب، ضغط على زر الضوء فأنار المطبخ. فتح الثلاجة، أخذ قنينة ماء بارد، ارتشف منها عدة رشفات، رأى صحنًا فيه حبات زيتون أسود، أخذ حبة، لاكها داخل فمه، أحس بملوحة الزيتون الطيبة، أخرج النواة من فمه، وضعها قرب الصحن، وحين صار عند باب المطبخ، رجع، أخذ الحبة وألقى بها في جردل القمامة وعاد إلى الصالة. جلس على الصوفا الجلدية. ظل يفكر بالمتصل الغامض، من تراه يكون؟! من يتصل في مثل هذا الوقت، نظر إلى ساعته اليدوية التي كانت على السرير ليعرف الوقت، أحس بشيء مريب، فالساعة متوقفة، عقرباها يقفان على وقت غامض بالنسبة له، فعقرب الساعات يقف على الرقم 8، وعقرب الدقائق كان يقف على الدقيقة 8 أيضًا! تذكر أنه الوقت الذي عاد فيه إلى البيت! وفكر مع نفسه بأن ما جرى بعد ذلك ليس له علاقة بالواقع..فما معنى توقف الساعة والزمن عن الجريان..؟! ما الذي يجري معه! هل هو يتوهم كل هذه الأشياء!

أُضيئت شاشة الهاتف، وانطلق صوت يشير إلى وصول رسالة، أخذ الهاتف وقرأ: "لماذا لا تجيب يا آدم؟".

لم يكن الرقم موجودًا، تردد للحظات في الإجابة والرد، فكر أنه ربما سيوقظ آدم أبو التنك وزوجته حواء الفارسي إذا ما ردّ على الاتصال صوتيًّا، لكنه قرر برغم ذلك أن يتحدث بهدوء، أو على الأقل لا يتكلم هو وإنما يسمع صوت الشخص المقابل على الجهة الأخرى! ضغط على زر الاتصال، لكنه فوجئ بالصوت الآلي يقول له: "الرقم الذي طلبته مغلق أو خارج نطاق الخدمة حاليًا!"، سأل نفسه: كيف هذا وأنا قد استلمت

للتو رسالة منه! ولم يتردد في كتابة رد: "من أنت؟"، ولم تمض ثوان حتى جاء الجواب في رسالة أيضًا: "كيف لا تعرفني يا آدم؟! أنا حواء الورد!".

"حواء الورد؟! أنا لا أعرف امرأة بهذا الاسم!" فكر مع نفسه، وأخذ يقلب في ذاكرته هذا الاسم، ولم يتذكر شيئًا، إذ لم يلتقِ بامرأة في حياته تحمل هذا الاسم: حواء الورد!

راوده فضول حارق، ضغط على زر الاتصال مرة أخرى، فعاد الصوت الآلي مكررًا: "الرقم الذي طلبته مغلق أو خارج نطاق الخدمة حاليًا!" زاد استغرابه وتصاعد توتره، فكتب رسالة هاتفية: "من أنت؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم!".

وبعد لحظات امتدت قليلاً جاء الجواب في رسالة طويلة نسبيًّا:

"أنا حواء الورد، كيف نسيتني بهذه السهولة؟! أنا التي توجهت إليك لأني بحاجة إلى مساعدتك"، فوجئ بهذه الرسالة، وأخذ يعتصر ذاكرته عسى أن يتذكر هذا الاسم لكن دون جدوى! فرد عليها برسالة نصيّة مستغربًا: "هل توجهت إليّ لأنك في حاجة لمساعدتي؟ متى، ولماذا تحتاجين مساعدتي؟".

بعد دقائق قليلة استلم منها رسالة طويلة نسبيًّا: "أنا قد أخبرتك عندما التقينا، بأنني مخطوبة، بل عقدت قرآني على شخص ما يحبني، لكن هناك شيئًا ما يزعجني، ويوترني، ويشعرني بالذنب، وقد أخبرتك عنه، وهو أن شبابًا يتواصلون معي عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بين فترة وأخرى، وأحسهم متعلقين عاطفيًّا بي، ثمانية أشخاص، وهذا الأمر أتعبني كثيرًا، أنا عادية جدًّا في التعامل مع الجميع، علاقتي معهم فيها احترام، لكنني أحسهم يعشقونني، وشرحت لك بصدق بأني لا أفسح لهم المجال ولا أعبّد لهم الطريق، لكنني بصراحة شديدة، أريد الابتعاد عنهم ولا أريد، أحس أنني لا أستطيع الابتعاد عنهم لأن بيني وبين بعضهم صداقة ومعرفة قديمة، وفي الوقت نفسه أشعر أنني أعمل شيئًا خاطئًا، وطلبت مساعدتك في إيجاد حل لي، كيف لا تذكر كل ذلك!".

ظل آدم الشبيبي تائهًا في هذه الرسالة الطويلة، كان متيقنًا بأنّ هناك التباسًا ما قد حصل، فهو لا يعرف حواء الورد، وهي تتحدث معه بيقين بأنه يعرفها! فكتب لها، "ربما أنت أخطأت الرقم سيدتي؟! صحيح أنا اسمي آدم، لكنني لا أعرفك، ولا أذكر أني التقيتك، ولا أعرف أية امرأة باسم حواء الورد".

ظل آدم الشبيبي ينتظر جوابها، لكن دون جدوى، مرت دقائق وهو ينتظر، لم تجبه، شعر بشيء من عدم الرضا عن نفسه، وفكر مع نفسه: لماذا لم أستدرجها بالحديث ولم أدعها تتحدث عن نفسها أكثر، فكما يبدو أن حكايتها مثيرة!..لم يستطع النوم ثانية، ظل جالسًا على الصوفا، نظر إلى الساعة فاستغرب أن عقرب الدقائق يتحرك، والزمن يجري! راوده فضول أن يقرأ الرسائل النصية التي وصلته على الهاتف، أخذ الهاتف الجوال وذهب إلى وظيفة الرسائل، لكن الدهشة كانت كبيرة، فلا يوجد في ملف الرسائل أية رسالة نصية، استغرب، فأراد التأكد، ذهب إلى وظيفة المكالمات الفائتة، وكانت الصدمة، فليست هناك أية مكالمة فائتة. كيف هذا! أحس بنفسه مشوشًا.

استلقى على الصوفا..لم يستطع النوم..ظل ساكنًا..شعر بالضيق من هذا التشويش الذي يعيشه..ولا إراديًّا أخذ إحدى مخطوطات آدم البغدادي! وتاه!

## الفصـل الأول

# القـاتـل الـرحـيـم قـابـيـل الـموسـى

في بلاد بعيدة وغامضة، وفي غرفة بعيدة مظلمة، أفاق رجل ما، وهو في سريره، مذعورًا، ظل للحظات يحاول أن يدرك أين هو! كان جسده مبتلًّا بالعرق، مدّ يده في الظلام ليضغط على زر المصباح المنضدي المجاور. أضاء الغرفة ضوء شاحب لم يكشف عن كل جوانبها، كان الضوء المنبعث من المصباح لا يكفي لإنارة الغرفة لكنه منح الأشياء ظلالًا على السقف، ومع ذلك اكتشف أن الغرفة ليست هي الغرفة التي استيقظ فيها في المرة الأولى، أترى ما رآه في المنام لم يكن سوى كابوس ثقيل؟ وفجأة، أحس بأن تفاصيل ما رأى في النوم أخذت تهرب من ذاكرته، أراد أن يستذكر التفاصيل لكن من دون جدوى!

نظر إلى الساعة المنضدية قرب المصباح التي تكشف عن الوقت والتاريخ فرأى أنها تشير إلى الثامنة، كما أن تاريخ اليوم هو الثامن من الشهر الثامن! ظل ساكنًا للحظات، خطر في ذهنه هذا التطابق في الوقت واليوم والشهر واشتراكهم بالرقم ثمانية "8"، ثم فجأة اختفت هذه الخاطرة، مرت لحظات كان فيها خاليًا من أي أفكار أو خواطر في الذهن، وكأنها لحظات خارج تدفق الزمن، ثم فجأة انبثقت الأسئلة في ذهنه مجددًا: "من جاء بي إلى هنا؟ وإذا كان ما رأيته كابوسًا فلِماذا لا أدرك أين أنا الآن؟ ولا من أين جئت؟ وكيف ولماذا وصلت إلى هذه الغرفة؟ بل ولماذا لا أستطيع التعرف على نفسي؟! من أنا؟ هل أنا هو ذاك الرجل نفسه في الكابوس؟ هل أنا مثله فاقدْ الذاكرة؟ هل أنا ما زلت أحلم الآن أم أفقت من كابوسي وأعيش الآن في الواقع؟"، وظلت هذه الأسئلة تدور للحظات في ذهنه، ولا إراديًّا مد يده ليتلمس جسده، هو موجود؟ لكنه تذكر بأن ذاك الرجل في المنام قد تحسس جسده ليتأكد من وجوده أيضًا!، وسأل نفسه:

"لكن ما معنى أن أكون موجودًا؟ كلنا موجودون حتى لو كنا في الأوهام والرؤيا!".

ظل للحظات ينظر إلى السقف والجدران المزخرفة بنقوش عربية مثل لوحة فنية! أين هو الآن؟ ليس في حلم بالتأكيد. فقد كان رأى كابوسًا لرجل في ممر مخيف لا نهايات له! فكر مع نفسه، هذه النقوش الأندلسية توحي له بأنه في مكان أسطوري، لكن أين؟ ظل على تلك الحالة لدقائق أخرى، ثم راوده فضول أن يتعرف على المكان الذي هو فيه.

غادر سريره، توجه إلى ثلاجة صغيرة كانت موجودة في زاوية الغرفة، أخرج قنينة ماء بارد، أخذ يرتشف منها رشفات طويلة، أغلق القنينة، وأعادها إلى الثلاجة، تلفّت في الغرفة، الغرفة شبه عارية، يتوسطها السرير العريض الذي كان راقدًا عليه، ثمة مرآة كالحة جالسة على طاولة مكتب من خشب الصندل، وعلى الطاولة حاسوب متنقل "لابتوب" مفتوح لكنه مُطفأ، وإلى جانبه حقيبة يدوية جلدية سوداء صغيرة، في زاوية أخرى ثمة ما يشبه مصطبة عريضة مستوية عليها حقيبة سفر جلدية صغيرة، باب الغرفة مفتوح على صالة أشبه بالبهو الأندلسي!

توجه إلى خارج الغرفة مستطلعًا، وجد نفسه في بهو أندلسي صغير نسبيًّا، لكنه يسحر الرائي لجماله؛ ثمة أعمدة وأطواق ونقوش، وكأنه يعيش في عصر آخر، تحيط جوانب البهو مقاعد ذات طراز خاص من الأرابيسك والفن الأندلسي. في الجانب المقابل لغرفته باب صغير، توجه إليه فعرف أنه الحمام ومرحاض الشقة، لكنه استاء من كون المرحاض على الطريقة الشرقية، فهو ليس أكثر من شق في الأرض!

انتبه لنفسه ولخواطره عن المرحاض الشرقي وانقبضت نفسه: "أنا في أية حال الآن كي أفكر في المرحاض الشرقي؟! ثم ربما أنا لا أزال أعيش في الحلم الغامض، أنا لست واثقًا من حقيقة وجودي!".

وقف وسط البهو الصغير الذي تقطعه الأعمدة وقوسها الجميل إلى نصفين، انتبه إلى الباب الخشبي المطلي باللون الأزرق الذي يقود إلى خارج الشقة، تقدم ببطء، وبحذر فتح الباب الخشبي الأزرق، فأطل على باب مقابل لشقته لا يبعد عن بابه سوى أمتار قليلة ودرج يهبط للأسفل، وآخر يلتف صاعدًا! في تلك اللحظات وصلت إلى أذنيه همهمات بالعربية، لكن بلكنة غريبة تذكره بلهجات شمال أفريقيا، وضجيج يأتي من مكان ما! أغلق الباب.

وقف حائرًا عند الباب من الداخل، فكر مع نفسه، "إذن أنا أعيش في الواقع وليس في كابوس، لقد فهمت الهمهمات التي وصلتني، صحيح أنني لم أدرك ما تعني لكنها باللغة العربية، وأنني في بيت طرازه أندلسي، لكن أين أنا؟!".

دخل غرفته، ألقى نظرة عابرة على طاولة المكتب، انتبه إلى الحقيبة الجلدية الصغيرة، السوداء، إلى جوار الحاسوب. توجه إلى حيث الطاولة، نظر إلى المرآة التي تتوسط الطاولة. انتبه إلى التوتر وملامح الارتياب والتيه على وجهه، جلس على كرسي أمام الطاولة، أخذ الحقيبة الجلدية الصغيرة، فتحها، وجد فيها وثيقة سفر ألمانية، تصفحها، قرأ اسم "آدم التائه"، وصورته على صفحة المعلومات في الجواز! "إذن أنا آدم التائه" ومن ألمانيا. قال لنفسه!

مَدّ يده في الحقيبة وأخرج منها تذكرة الطيران من لندن إلى مراكش! إذن هو في المغرب، وبالتحديد في مراكش، لكن كيف حصل هذا ومتى؟ دقّق النظر في التذكرة وقرأ تاريخ الإقلاع من لندن، كان منتصف ليل السادس من الشهر أي أنه وصل نهار يوم السابع، أي أنه هنا منذ يوم فقط، هكذا فكّر مع نفسه! أحس بغموض ما يجري معه، حاول أن يستذكر شيئًا يفسر له كيفية وصوله إلى مراكش، فلم يجد أي تفسير! أخذ يفكر في هذا الذي اسمه آدم التائه، والذي يفترض أنه هو!

ترك جواز السفر وتذكرة الطيران على المكتب، نظر إلى جهاز الحاسوب الذي أمامه، خمّن أنه يعود له، وفكّر بأن ذاكرة هذا الحاسوب ربما ستكشف له شيئًا عن نفسه، وعن شخصيته، كيف وصل إلى هذ المكان الذي يفترض أنها مدينة مراكش في المغرب حسب تذكرة الطيران، لكن كيف حصل كل هذا؟!

ضغط على زر تشغيل جهاز الحاسوب فظهرت الشاشة بلونها الأزرق المريح، ثم أخذت الأيقونات والملفات الصفر تظهر على سطحها، وقرأ اسم أحد الملفات، "الأرشيف"، ضغط عليه فظهرت مواد كثيرة، وقرأ عناوين كثيرة موجودة داخل ذلك الملف، من بينها عنوان نص كان تأثيره كالبرق في ذاكرته، "**متاهة آدم ـ المرأة المجهولة**"، ثم "**متاهة الأشباح**"، لكنه لم يتذكر شيئًا بعد، انتبه لنص آخر يحمل عنوان "**متاهة الأنبياء**"، تصفح تلك النصوص بسرعة فانتبه إلى أنها تحمل اسم الكاتب آدم التائه! إذن هو كاتب روائي! وبرغم ذلك لم يتذكر شيئًا.

فكّر مع نفسه، ربما هو مرهق جدًّا بحيث حصل له فقدان مؤقت للذاكرة، وأنه سيسترجعها بعد أن يرتاح نفسيًّا وجسديًّا، وأن عليه ألا يقلق، بل عليه الاسترخاء، وحاول أن يقنع نفسه بهذه الفكرة، فقام عن الكرسي، وأخذ ينزع عن نفسه ملابسه ويلقي بها على السرير، فتح حقيبته وأخذ منها منشفة، ثم توجه إلى خارج الغرفة حيث الحمام في الجهة الأخرى المقابلة لغرفته في البهو الأندلسي.

***

أحسّ آدم التائه بالضيق من طبيعة غرفة الحمام، فلم تكن الشقة حديثة من ناحية خدماتها الصحية، لم يكن هناك دُش للاستحمام، وإنما هناك حنفية تصب في دلو من البلاستيك فيه طاسة من الألمنيوم، ودكة حجرية صغيرة، عليه أن يجلس عليها ويسكب الماء على نفسه من الدلو، وكانت رائحة كريهة تنبعث من ثقب المرحاض الموجود على مقربة منه، ولحظتها فكّر مع نفسه بأصحاب هذه الشقة الأنيقة كيف أنهم لم يهتموا بمرافقها الصحية!

عند الاستحمام واجهته مشكلة صغيرة، فلم تكن لديه المواد اللازمة من شامبو ومعطر للجسد، لكنه صبّ الماء على جسده كي يتخلص من بقايا التعرق لذا اضطر لسكب الماء على نفسه فقط.

عاد إلى الغرفة، ارتدى سروالًا وقميصًا، فالجو معتدل في الشقة، خلال ذلك فكر في أن يفتح بعض الملفات الموجودة في جهازه عسى أن يتذكر تفاصيل عما جرى معه!

فتح الملف الذي يحمل اسم "**متاهة الأنبياء**"، تصفح النص الذي يحتويه، قرأ في فصل منه عنوانًا يحمل اسم "**الاعتراف الأخير، آدم الخليل**":

# متاهة الأنبياء

## 1

## السِّفر الأول

## الاعتراف الأخير، آدم الخليل

أنا حواء كازابلانكا، سأتحدث هنا عما جرى، عن أشياء رأيتها، وعرفتها، وعشتها، لكنها جرت في المستقبل، فهي لم تحدث بعد؟! أية حماقة هذه؟! ما هذا الهذيان؟!

سأروي كل شيء، سأروي حكاية آدم الخليل، زوجي، المؤمن، المثقف، حامل لواء المحبة والخير للبشرية جمعاء، لكنه في الوقت نفسه ذلك الرعديد، النذل، الزنيم، الديوث، الذي قدّمني لرجال آخرين على أني أخته من أجل دفع مستحقات لقروض بنكية، ومن أجل تحقيق طموحه في الحصول على عقد مقاولة كان يطمح إليه!

لقد سعى أن يقنعني بأن الرجال كالذئاب، ما أن يشمّوا رائحة الدم حتى يسيل لعابهم وتزداد شراستهم، وربما بتقديمي كأخت له فربما ستهدأ غريزة البطش والهجوم والاغتصاب لديهم ويدعوننا أن نعيش بسلام! وحين حاججته بأن ما يفعله شيء مخزٍ، أجابني قائلًا: "إنني أمشي على خطى أبي الأنبياء نبي الله الخليل، حينما قال لزوجته بأن تقول لجنود فرعون إنها أخته خوفًا من بطشهم!"، ولم يكن أمامي إلا أن أطلقت سيلًا من الشتائم عن هذا الفعل الزنيم حتى لو صدر عن نبي!

سأحدثكم عن زوجي المثقف، القوّاد المحترم، آدم الخليل، الذي تعرفت عليه من خلال وسائل التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت! لا، لا، سأبدأ حكايتي من البداية، لكن كما قلت لكم، كل شيء جرى في المستقبل، لكني عشته، ورأيته، ومررت به!

## الانتحار

حين رأيته للمرة الأولى سرّحت النظر فيه، كان يتناقش مع أصدقاء له، كنت أتأمله من دون أن أنتبه لنفسي، أعجبتني خصلات شعره ولحيته وحركاته ولبسه ووقفته وطول قامته، وكل شيء فيه، كان هو يخطف النظر إليّ أحيانًا فيجدني أنظر إليه فأحسّ بارتعاشات تسري في جسدي، ما زلت أتذكر تلك اللحظة وكأني ألمح كوكبًا جديدًا.

بعدها بأيام بعث لي دعوة في الفيسبوك، لم أعرفه، ظننته كاتبًا أو أديبًا، تحاورنا كتابة، ذكّرني بنفسه فخفق قلبي. تحدثنا ومن ثم بدأت مشاعري تهيج، وقلبي يرتجف، تعمقنا في الحديث، اتصل بي ليلًا، وتحدثنا إلى أن وصل الحديث بنا إلى الجنس، صار الجنس والعلاقة الحميمة موضوعنا في الحديث الهاتفي، لكنه كان لاعبًا مراوغًا، إذ صار يبتعد ويقترب بأسلوب يجيده، أسلوب غريب جدًّا، فمرة يكلمني على أساس أنه حبيبي، وفي اليوم التالي يتحدث معي بحيادية وكأنه صديق، أو حتى غريب، ومع ذلك كنت أنظر إلى هذه العلاقة بجدية، لكن ذات يوم قرر هو أن ينهي علاقته بي، كانت الصدمة قوية، اكتشفت عمق حبي له وقوة تعلّقي به، فتعرضت لحالة اكتئاب، بيد أنه عاد ذات مساء ليتحدث معي، وظننت أنه عاد لأنه يحبني، لكن الأمر لم يكن كذلك، وإنما عاد ليوضح لي بأن العلاقة مستحيلة!

صار لا يكلمني إلا نادرًا، حبي كان من طرفٍ واحدٍ فقط، فأنا أحبه بكلي وهو يعاملني على أساس أنني صديقة، كانت تجربة صعبة، ولم أطق صبرًا فعبّرت له عن حبي العميق له وأنني لا أستطيع العيش دونه! التقينا وشرحت له بالتفصيل طبيعة مشاعري تجاهه فجاء الجواب كالصاعقة، قال إنه لا يحبني، وإنما يتعامل معي كصديقة لا أكثر، فأقدمت على الانتحار.

نعم، كان هو واضحًا، إذ قال إنه لا يحبني وإنما يحترمني فقط، وإن العلاقة تبدو مستحيلة. حينها لم أجبه، ولم أنطق بأية كلمة أمامه، شعرت أنني مشلولة، وأحسست برأسي فارغًا لكن مشاعري كانت ملتهبة، أزعجه صمتي، فكان يرغمني على الكلام، لكني لم أقدر على النطق بأية كلمة، عدت إلى البيت، اجتاحني يأس عنيف، تواصلت معه فيما بعد على الفيسبوك من خلال الحاسوب، أخبرني أن سكوتي لم يعجبه وكأني غير مهتمة لوجوده، ولما أوضحه لي، حاولت أن أشرح له، لكن بعدما أنهينا حديثنا ازداد

حزني، وأدركت أن العلاقة معقدة جدًّا، شخصيًّا لم أكن أفهم سرّ حبي له، فهو متدين سلفي، وأنا ملحدة!

أذكر حينها كنت أتنفس بصعوبة ودخلت متاهة مظلمة، فقدت المقدرة على الحركة وبقيت أبكي، كنت حينها عند خالتي، والمنزل كان مليئًا بالضيوف وبأمي وجدتي.

كنت قد قررت الانتحار والخلاص من ألمي الذي يخنقني، لذا كنت أنتظر اللحظة المناسبة، وفعلًا ذهبت إلى صيدلية قريبة واشتريت علبة من الحبوب المنوّمة، فكّرت بأني سأتناولها وأنام ولن أشعر بموتي، ولم تزعجني أية فكرة تتعلق بالحياة.

فقدت شهيتي للطعام، كنت أنظر إلى أهلي حابسة دموعي لأني سأراهم للمرة الأخيرة، لكن فجأة جاءت ابنة خالتي لتروي لي بأنها حلمت بي وكأني مت، بيد أن هناك من أنقذني، رجل ما أنقذني وأخذني لأقيم عنده، وظل يعتني بي!

حلمها دفعني للإقدام على الانتحار أكثر، لكن هذه المرة ليس من أجل الموت وإنما من أجل أن يأتي ذاك الرجل لينقذني وليأخذني لأقيم عنده!

***

دخلت الحمام وأنا أخبئ علبة الحبوب المنومة في صدري، كنت خائفة وفي الوقت نفسه مندفعة بإصرار، نظرت إلى وجهي في المرآة وكأنما أريد أن أحتفظ بذكرى وجهي، لكن لمن ومتى سأراه إذا كنت سأموت؟، أحسست بالتردد، ولكي أحسم ترددي تناولت 15 حبة على دفعتين، وعدت وأنا أرتعش خوفًا من أن يعلم أهلي بأمري، عدت إلى الغرفة وجلست على السرير متكئة على الجدار.

أرسلت للسلفي رسالة وأخبرته بأن حبي له صار يغرقني، وأني لم أعد أتحمل العيش دقيقة من دونه، ودّعته ويبدو أنه انتبه ليأسي فظل يتصل بي. طلبت منه ألّا يتصل كي لا يعرف أهلي بالقصة بعد.

وأنا أتحدث الآن عمّا جرى في المستقبل البعيد، أشعر بنفس الشعور الذي شعرت به أثناء ابتلاعي للحبوب المنوّمة!

ارتعش قلبي وأخذ يخفق بشدة، ولكي أتجنب التفكير في موتي أخذت جهاز تسجيل

أخي مع سماعة توضع في الأذنين وصرت أستمع إلى الأغاني منتظرة الموت، لكن الموت لم يأتِ، على العكس فقد كنت أشعر باسترخاء، كنت أرى نفسي مقسّمة إلى جزئين؛ جزء نائم وآخر مستيقظ، وكنت حاضرة مع أهلي وفي الوقت نفسه كنت في عالم آخر!

وبرغم أن الحبوب هي للنوم لكني لم أنعس! نهضت، انتبهت إلى أني صرت أمشي بصعوبة شديدة، في تلك اللحظة بالذات شعرت بالخوف، مشيت مشية آلية، شعرت بأن الموت بدأ يدبُّ في جسدي، وتجلّى في مشيتي وحركتي، أصابني الرعب، أشفقت على نفسي، عدت واستلقيت على سريري، ثم لا إراديًّا بعدها نهضت فسقطت وصرت شبه مغمي عليّ! ولأن غرفتي مفتوحة على الصالون فقد رأتني أمي ملقاة على الأرض حتى صرخت، أقبلت نحوي، رفعتني ووضعتني على السرير، وجلست إلى جانبي، عانقتني، كنت أسمعها تسألني: ما بكِ؟ لا أعرف إلى الآن من أين تدفقت دموعي، صرت أبكي وأقول: لم أعد أرغب بالعيش، فقالت: لِمَ ذلك يا ابنتي؟ ما الذي ينقصك؟

كنت مستمرة ببكائي، بينما كانت أمي تنظر إليّ خائفة، ظنّتْ أنه أُغمي عليَّ لأني لم أمس الطعام منذ ثلاثة أيام؛ لذا قامت بسرعة إلى الصالون وجاءت وبيدها تفاحة، أعطتني إياها، لكني تفاديًا للكلام أخذت الثمرة ووضعتها في فمي وأخذت قضمة، كان طعمها كريهًا جدًّا، بصقته، ذهبتْ بسرعة إلى الصالون وعادت وبيدها كأس، أعطتني أمي ماءً محلى، فبصقته باشمئزاز. كانت في أعماقي رغبة دفينة بأن أخبرهم ماذا فعلت بنفسي وبأني لا محال ميتة، بل أنا جثة تتنفس!

أحيانًا نؤذي أنفسنا من أجل أن نلبّي رغبة في أعماقنا بأذية مَن نحب، ونجعله يقلق علينا بل ويحزن لفقدنا!

بدأ قلبي ينبض بشدة ويهتز داخلي، شعرت بخوف كبير، وشعرت بالشفقة على كل كائن موجود في العالم، صرت أستشعر وجود الإنسان ومعاناته، ومجهوداته التي ستذهب هباء حين يعيش هذه اللحظة التي اعتبرتها آخر لحظة في حياتي!

حياتي مرت كشريط سينمائي أمام عيني الداخلية، أشفقت على كل الناس، تذكرتهم وهم يتعبدون فلعنت فكرة الإله. فجأة وجدت نفسي أنهض حين شعرت بالاختناق، مشيت من دون أيما هدف، أمي تمشي ورائي وهي تسألني: إلى أين أنت ذاهبة؟، أتذكر أني أجبتها: إلى الحمام!

بدأت رجلاي ترتعشان كمن ضرب بطلق ناري وظل يواصل المشي، ثم فجأة سقطتُ على ركبتيّ، سمعتُ صوت عظامهما وكأنهما تكسرتا، صرخت أمي بأعلى صوتها، ومسكتني وأنا كالجثة لا أستطيع أن أحرّك يديّ، جاء بقية أفراد العائلة، حملوني، صاروا يتساءلون عمّا حصل!

كنت مستغرقة في مقاومة ذاك الشعور الحزين، كنت أشعر بأني أقتل في أعماقي كل من حولي، قتلت أمي، وجدتي، وخالاتي، وأبي الذي كان بعيدًا، قتلت في داخلي كل شيء!

صارت ابنة خالتي تصفعني لأستيقظ، جدتي بخبرتها العميقة أدركت أني انتحرت، وأني ابتلعت شيئًا قاتلًا، حين تأكدوا من الأمر أخذوا يصرخون ويولولون، حملوني بسرعة إلى الصوفا وأجبروني على شرب الحليب فصار يتدفق على ملابسي، الأطفال الصغار جلسوا مذعورين في زاوية يبكون، نقلوني بسرعة إلى المستشفى.

بعد شربي للحليب أفقت قليلًا. كان ذلك في تلك المسافة ما بين باب بيتنا وحتى باب السيارة التي جاءت لتقلني، أتذكر الآن حين كنا في السيارة كانت جدتي تنظر إلى أمي بغضب، ثم أخذت تشتمني، بينما أمي تحاول إسكاتها. كانت جدتي تخاف من أن أموت وألطخ شرف العائلة بانتحاري! وعلى الرغم من غضبها فقد حملتني، حين وصلنا المستشفى، على ظهرها، وأدخلتني الرواق حيث مددوني على السرير النقال!

***

في غرفة الفحص سألتني الطبيبة مبتسمة: مَن يكون؟

فهمت ماذا كانت تقصد فأجبتها قائلة: لا أحد.

كانت تلعب معي دور المحقق الجنائي وليس الطبيب المعالج، ظلت تطرح عليّ أسئلة أتعبتني فقلت لها بعصبية ونفاد صبر: لا أعرف أحدًا، لا أعرف شيئًا، قالت: هل لديك أصدقاء؟ فأجبتها بعد تفكير طويل: لا، لا.

طلبت مني أن أشرب قنينة ماء، أخذتها، وبدأت أعبّ منها حتى أكملتها، وتقيأت، ثم أعطتني الدواء، ونصحت أمي بأن تأخذني لطبيبة نفسية! حين سمعتُ ذلك أحسستُ

وكأن قلبي سينقلع من مكانه! يداي أصبحتا باردتين كالثلج، راودني شعور أنني سأموت! خطرت لي وأنا في تلك الحالة الجسدية والنفسية خاطرة، فمسكتُ جهاز الهاتف النقال، وأرسلت رسالة لحبيبي السلفي، فأجابني متصلًا على الفور، لكن أمي أخذت الجهاز مني وأخبرته بأني ما زلت على قيد الحياة! طلبتُ منها أن أتحدث معه، فأعطتني الهاتف، تحدثت إليه وأنا أبكي، قلت له: أريدك بحياتي أخًا أو صديقًا؛ فأنا لا أستطيع العيش بعيدًا عنك، كن مَن شئت، المهم أن تكون في حياتي!

***

ومرّت الأيام، واتصلت به، لأننا بعد خروجي من المستشفى والاتصال اليتيم ذاك لم نتواصل، قلت له إني أريد رؤيته لآخر مرة، لأعطيه هدية وأرحل، أجابني: ولِمَ سترحلين؟ نستطيع أن نلتقي، تعطيني ما تريدين دون أن ترحلي.

فرحت جدًّا، هذه الكلمات أخرجتني من عذابي، وصرت أقفز من الفرح بعد انتهاء المكالمة، إذن هو يريدني أن أظل موجودة في حياته! الآن أنظر لكل تلك الأحداث كمن يرى فيلمًا في قاعة السينما، فيلمًا لا يخصه!

لم نحدد موعدًا، لكنّا صرنا نتحدث هاتفيًّا، ليس دائمًا، أحيانًا، ومرة أخرى أحسست أنه لا يهتم بي ولا يعيرني انتباهًا وإلا ما كان ينقطع عني، وذات ليلة فكرت أن أتزوج من أي رجل يصادفني كي أنساه! وفكرت بأن عليّ أن أتحدى نفسي وأخطو للزواج بغيره.

أمي فرحت حينما أخبرتها بفكرتي!

أخذت أبحث، تعرفت من خلال الفيسبوك ومواقع التواصل على رجل سوري يقيم في النمسا، اسمه آدم الخليل، ظننته أول الأمر فلسطينيًّا لأن لقبه يشي بذلك، وسألته، لكنه قال لي: لا، إنه شامي، ولقبه الخليل تيمنًا بأبي الأنبياء الذي اصطفاه الله خليلًا. المهم، تطورت علاقتنا، كنت قد رسمت لنفسي هدفًا، أن أتزوج وأغادر هذه البلاد، وعلى الرغم من عدم ارتياحي له من خلال الحديث، إلا أني دفعته إلى أن يتقدم لخطبتي من نفسي! كان يدّعي بأنه كاتب وشاعر يكتب وينشر، وأنه معارض للنظام، ومرة ادعى أنه رجل أعمال، كان يحيط نفسه بالغموض وبالأهمية الاستثنائية، وبصراحة على الرغم من اندلاقه العاطفي نحوي، لا سيما بعد أن أرسلت له صوري عبر الواتساب والماسنجر

والبريد الإلكتروني، لم أستطع أن أحبه، فثمة حاجز نفسي كان بيني وبينه، المهم وافقت على أن أتزوج منه في سبيل أن أغادر هذه البلاد وأطوي صفحة من حياتي، لكن حبيبي السلفي لم يهجر بالي قط.

أتذكر الآن ما حدث في ذلك المستقبل البعيد!

ذات مرة في الدار البيضاء، حيث عشت أثناء دراستي الجامعية، وفي باحة كلية الفلسفة التي أدرس فيها كنت أحدّث زميلًا لي، فسألني عن الشخص الذي أحبه! وفي تلك اللحظة تذكرت حبي اليائس للسلفي، واغرورقت عيناي بالدموع، ولم أشأ أن يرى زميلي حالتي فالتفت مبتسمة ابتسامة حزينة إلى الجهة الأخرى محاولة الإجابة فقلت له إن الشخص الذي أحب، ولم أكمل، إذ رأيت حبيبي السلفي الذي تقاطعت بيني وبينه السبل قادمًا، صُدمت، اقشعر جسدي وكأنها إشارة إلهية على الرغم من أني ملحدة، وتمتمت بوجه زميلي: مستحيل! لم يفهم ماذا قصدت، وما يحصل معي فأخبرته، أخبرته أن الذي يقبل علينا هو من أحب!

أقبل علينا، ووقف إلى جانبي، بدأ يتحدث مع زميلي الذي كما يبدو صديقه وأنا أصغي إليهما، فجأة، التفت زميلي نحوي فوجدني شاردة الذهن فقال لي وهو يلوح بيده: لو، أين أنت؟ أين رحلت هذه المرة؟ فسأله السلفي: هل يشرد ذهنها؟! فأجابه زميلي: دائمًا، وأخذا يتفلسفان حول حالتي، فقال زميلي: هي تغيب لتحضر أنت! ابتسم السلفي بفرح، وقال: هي تغيب لتحضر، لتحضر هي في الغياب! ابتسمتُ بحزن ولم أعلّق.

جلسنا على دكة أسمنتية صُبت كطاولة للجلوس، صارا يتحدثان عن آخر الإصدارات من الكتب الفلسفية المترجمة إلى العربية، وانتبهت إلى أن السلفي يقترب مني أكثر ويحاول أن يلتصق فخذه بفخذي، وبدأ يحدثني على الرغم من وجود الآخر معنا، ودعاني أن نقضي اليوم والليل في بيت زميلي الذي يبدو كان قد اتفق معه حول الأمر، وطبعًا كان هذا التقارب يحدث لأول مرة بيننا، ولم أصدّق ما عرضه عليّ، لكن لم يكن بمقدوري ذلك، فطلبت من أختي أن تأتي معنا، لم أعرف سرّ دعوة زميلي لنا، فسألته عن المناسبة، فقال إن السلفي أخبره بأني سأتزوج وأغادر البلاد، وهو يريد أن نحتفل للوداع!

اجتمعنا في شقة زميلي الصغيرة، لم تكن سوى صالة ليست كبيرة وملحقاتها من

مطبخ صغير وحمام، قضينا الليل في النقاش الفلسفي والثقافة، انتبهت إلى السلفي، نظر إليّ نظرة غامضة جدًّا فيها عتاب وتساؤل، نظرة هزت مشاعري وأفقدتني توازني!

وفي وقت متأخر من الليل نمنا نحن الأربعة في الصالون، نام هو إلى جانبي، كان يريني صورًا لأمه بهاتفه النقال ويطلب مني أن أشمّ رائحته، أن أتشمم قميصه، كان يسعى إلى أن يقودني لمنطقة الرغبة، كنت أنظر إليه وأنا منبهرة، ومتقطعة الأنفاس، ولا أعرف كيف أتصرف، لأني لم أصدق نفسي أنني سأستلقي إلى جانبه، وأتشممه، وأحس بأنفاسه!

أحسست بخدر لذيذ، بقيت أنظر له، كان الضوء خافتًا، كان ساحرًا يمارس سحره عليّ بوعي، ويعرف ذلك، ويتفنن فيه، مثل أفعى تتسلى بطريدتها التي تعرف أنها ستلتقمها وقتما ترى اللحظة التي تحددها، أو مثل قط يلعب بفأرة صادها ولا تستطيع الفرار من مخالبه!

أغمض عينيه، بقيت أنظر له وأفكر بتلك اللحظات وذلك المشهد غير مصدّقة، كنت أريد أن أحتفظ بها حية في ذاكرتي وأعماقي، إذ لم أكن أصدّق ذلك الحضور معه، كانت أروع لحظة في حياتي خلال تلك الليلة، ها هو حبيبي السلفي، حبي الميؤوس منه، وها أنا أرقد كالمحتضرة السعيدة إلى جانبه، أتأمل حضوره الطاغي!

فتح عينيه قليلًا، نظر إليّ نظرة زلزلتني، فحوّلت نظري إلى الجهة الأخرى، لكني لم أستطع ألا أسترق النظر إليه وأنا أمثل دور النائمة، بيد أنه اقتنص اللحظة التي فتحت عينيّ لأنظر إليه فيها بينما أمثل دور النائمة، وبحجة النائمة أخذت أحرك كفي لألمس شعره أو جزءًا من جسده، وصار الأمر مثل لعبة بيننا، فقد أغمض هو عينيه وكأنه نائم، لكن ما أن مسستُ شعره حتى أمسك بكفي وكأنه فوجئ بشيء! ثم عاد ليغمض عينيه، لكني لم أعد أمثل دور النائمة، لم أبعد عينيّ عنه، إلى أن فتح عينيه، واقترب مني قائلًا: ألم تنامي بعد؟ أجبته وأنا أحس بنشاط ورغبة: لا. ابتسم، واقترب مني أكثر، ابتسمت له، حطّ خده على يدي، اقتربت منه ومددت يدي الأخرى ألمس وجهه ولحيته، اقتربت منه أكثر، كان قلبي يخفق بشدة، كنت أسمع صوته بأذن أعماقي، ترددتُ قليلًا، ثم قبلته من شفتيه قبلة سريعة، لكنه وكأنني أعطيته الإشارة، إذ أخذ يقبلني بشبق، لم أكن أصدق أن هذا يجري معي في الواقع، كنت أشعر وكأنني أعيش أحلام يقظتي، تعانقنا، صرنا نقبّل بعضنا البعض، وكنت في ذرى شبقي..!

بعدها تحدثنا عن رغبتي في الزواج من الرجل السوري النمساوي آدم الخليل، لكنني قلت له: أنا لا أستطيع العيش من دونك، لا قدرة لي على ذلك، وهو أيضًا عبّر لي عن مودته.

في الصباح ذهبنا إلى الجامعة، لكني، وبرغم ما جرى بيننا، كنت لا أعرف لماذا وجدت نفسي مكتئبة وخائفة من الآتي!

أنا امرأة معقدة، صحيح أنا أُعدّ مثقفة، وبارعة في الفلسفة، ونيتشوية بامتياز، وملحدة، أعلن إلحادي استفزازًا للبعض، ومشهورة بذلك بين زملائي، لكني لا أعرف نفسي وتحولاتي جيدًا، إذ وجدتني أتحدث مع السلفي من خلال الفيسبوك، وأطلب منه أن يبتعد عني لأني لا أريد أن أراه مرة أخرى، ولا أريده في حياتي! وبعد أن أنهيت حديثي ندمت على كل حرف كتبته له، لأني أعرف أنني لا أستطيع أن أتصور حياتي دونه! أحيانًا أستغرب من نفسي، كيف أنا ملحدة وفي الوقت نفسه أحب سلفيًّا متشبثًا بربه وبشريعته التي يرى العالم من خلال غربالها، لكنه لا يمانع أن يزني معي!

بعد مرور يومين من المعاناة والكآبة السوداء، وانقباض القلب، والشعور بالحرقة في صدري، والاحتراق الداخلي الفعلي وليس العاطفي فقط، حيث كنت أرش الماء على نفسي دون جدوى، اشتريت دواءً من الصيدلية لكن دون فائدة. أمي أخذت تشعر بالخوف؛ إذ كنت أتعرض أحيانًا إلى حالات إغماء قصيرة الأمد، ثم أخذت أتصنع الضحك وأقترب من أمي لعل حنانها يشفيني قليلًا، لكن الألم في داخلي كان ينمو كل دقيقة.

أتذكر أن أمي التفتت إلى أختي وسألتها: ما الذي يحدث مع أختك؟ أجابت أختي التي أشاركها كل أسراري، وهي تتهرب من القول الصريح: لا شيء يحدث معها، ألا ترين أنها تضحك! فأجابتها أمي معتمدة على فراستها وحاستها الأنثوية، بأنني أمثل حالة الضحك، لأنني أخفي أمرًا ما هي تخمّنه وقلبها منقبض!

بعد أيام شفيت، غادرت مدينتي الصغيرة عائدة إلى الدار البيضاء حيث جامعتي، المدينة التي لا يود الرجل السوري النمساوي الذي أنوي الزواج منه إلا أن يسميها باسمها الأوروبي كازابلانكا!

وذات مساء اتصل بي السلفي ليطمئن على حالي، قفزت فرحة وحدثته بصوت

مرتعش فظل يسألني ما بكِ؟ وأنا أجيبه: لا شيء! كنتُ لا أستطيع أن أتنفس من فرط السعادة، بعدها بقيت أضحك وأبكي من الفرح ونمت، ثم صارت الأمور بيننا بخير، هكذا ظننت، لكن لم أعرف أنني كنت مريضة بالسلفي، مريضة بوهم الحب، ولم أشف منه إلا بعد أن دخلت البئر، العميقة.

2

## السِّفر الثاني

# البئر العميقة

بصراحة، أحس أن لديّ قطيعة مع طفولتي، لا أكاد أتذكر شيئًا مهمًّا منها، حين أسمع كلمة "الطفولة" أتذكر لحظة عناق أمي لي وبكائها، الطفولة بئر سوداء، بئر عميقة مظلمة، لا أنسى وجه أبي، ما زالت الصورة في أعماقي حاضرة وأنا أراه يحدّث أمي وجدتي ودمعة تسيل ببطء على خده، كان ذلك في أحد الحقول، كان جالسًا القرفصاء، ويداه ممدودتان أمامه، يتحدث بصوت هادئ حزين، لكن دمعة سالت من عينه، كنت أراقب الدمعة بتمعن، لكنني لم أكن أفهم ما الذي حدث!

وأتذكر أيضًا أنني كنت أراقب جدتي وأنا جالسة بجانب رأسها، بينما كان أبي يتحدث معها وهو مخنوق العبرات، ثم وضع رأسه تحت الغطاء وراح يبكي كالطفل بينما كانت ثمة موسيقى بجانبه، رفعت جدتي الغطاء عن وجهه وسألته: لماذا تبكي، قل لي ما الذي يبكيك؟ حينها لم أفهم شيئًا، بعد سنوات استذكرت ما قال وفهمت إنه كان يمرّ بأزمة مادية ونفسية كبيرة!

وأتذكر أمي وهي تحزم حقيبتها وتجرّها خارج البيت فتمسكها عمتي! هذا المشهد تكرر مرّات ومرّات، والسبب كان الخصام بين جدتي وأمي وعماتي!

وأتذكر أنني كنت في سيارة أبي، كان ذاهبًا ليقضي أمرًا، وحين عاد وجد عينيّ محمرّتين من البكاء، فسألني: هل كنت تبكين؟ أجبته: لا، لكن الشمس أحرقتني! ثم وضع شيئًا يشبه المظلة ليحميني من الشمس، لكنني طوال الطريق كنت أبكي، لأنه كان يأخذني من جديد لأسكن عند جدتي لأمي في مدينة أخرى.

كما أتذكر أني كنت جالسة في السيارة مع صديق أبي ونحن في الطريق مرة أخرى إلى حيث جدتي، نزل أبي لأمر ما، فسألني صديقه هل جدتي تعتني بي، فقلت له نعم، فقال أبوك يحدثني عنك دائمًا ويقول لي بأنه ليس مرتاحًا لأن وضعك يقلقه لأنك بعيدة عنه! لم أفهم قصده وأنا في ذلك السن، وبقيت أستفسر مع نفسي عمّا يقصده!

وأتذكر ذات مرة كنت ألعب فضربتني جدتي بعصا، فركضت باكية إلى أمي، فعانقتني وبدأت تبكي معي بشدة أكثر مما أنا بكيت، لم أفهم حينها لماذا كانت تبكي، توقفت أنا عن البكاء، وصرت أستمع لها وهي تبكي وتعانقني بقوة، بعدها فهمت أنها أفرغت همومها في تلك اللحظات من البكاء.

أتذكر أمي وهي تحيط بابنها، أخي المريض جدًّا، الذي لم يبق له سوى أيام قليلة ويموت، فقد كان مريضًا في رأسه مرضًا مميتًا. كنتُ أراقبها وهي تحتضنه وتبكي، كانت تنظر إليه من دون أن تتكلم وتمسح دموعها بصمت، وبين فترة وأخرى كانت ترفع رأسها إلى سقف الغرفة وتقول: ربي اشف لي ابني! لكن ربّها لم يشف ابنها!

أتذكر لحظة وفاته، حين عدتُ من الدار البيضاء مع جدتي عانقتُ أمي وبكيت، فقالت لي بصوت عالٍ: لا تبكي يا ابنتي، والنساء من حولها يقلن لي نفس الكلام فاستمعت لقولهن، وسكتُّ، عدت للغرفة أنظر لملابس أخي، أخذت أتخيله، كانت عيناه زرقاوين وشعره أشقر، كان جميلًا جدًّا، تذكرت ابتساماته، فبكيت وحدي.

ومن ذكريات البئر السوداء، أتذكر عمّة أبي كيف كانوا يحملونها في التابوت وأنا أسير وراءهم وأبكي، فأخذتني إحدى النساء وسقتني ماءً، ثم مسكتني أمي ومسحت دموعي والنساء من حولها يقلن: انظروا المسكينة تبكي، وكأنها تدرك ما معنى الموت!، لأني كنت حينها صغيرة جدًّا.

وأتذكر مشهدًا آخر، كنت أسير بجانب حقل كان عمي ومجموعة من الرجال يسقونه فسقطت في الطين، وصار الكل يضحك عليّ، وأتذكر أمي وهي تحمل حذاءً لتضربني به، وهذا ما كان يتكرر كلما عدت متأخرة من عند صديقاتي!

أتذكر لقطات أخرى، أتذكر ابنة عمّتي وهي تلبس فستانًا أصفر وتهزه فكنت ألتصق بها، كنت أتمنى لو كنت ولدًا لأني أراهم يتبولون واقفين! كنت أحب فعل ذلك، لذا كنت أمسك شيئًا صغيرًا أضعه داخل سروالي وأملأه ماء، ثم أفتح سروالي وأمسك به كقضيب

وأضغط عليه ليخرج الماء في نافورة كما كان الأولاد يفعلون عند التبول فأفرح.

أتذكر أنني ولدت في قرية، في بيت كبير يسكنه جدي وأعمامي وزوجاتهم، كنت أنتمي لعائلة غنية، وكان أبي يوفّر لي كل ما أحتاجه وأنا صغيرة، لكن حين وصلت إلى سن السادسة تغيرت الأمور، صار أبي يعيش أزمة مالية ونفسية. اضطررت لأن أسكن مع عمّتي بمدينة صغيرة انتقل لها أهلي بعد سنوات كي أدرس، بعدها انتقلت لمدينة كبيرة عند جدتي لأمي، وكما هو ظاهر فإن طفولتي لم تكن عادية لأني لم أكبر بجانب والدايّ فكنت أفتقد حنانهما، ولأني كنت خجولة وكتومة كنت أبكي ليلًا في صمت حين أشتاق إليهما، وكنت لا أراهما إلا في العطل، كنت أعيش لحظات اللقاء والمغادرة بجيشان عاطفي!

أتذكر مشهدًا قويًّا هو أن أبي كان ينتظرني في السيارة أمام البيت، خرجتُ بينما أمي كانت تحمل حقيبتي وتشمّني، وكنت لا أريد الذهاب بينما هي تطلب مني الذهاب للإقامة مع جدتي، كان سني آنذاك سبع سنوات، كنت أرفض الذهاب، بكيت، وصرخت، ثم استسلمت، ولأني كنت غاضبة من ذهابي رفضت أن أودع أمي، لكنها شدّتني إليها وارتميت في حضنها وبكيت، ولم تصبر هي إذ سرعان ما صارت تبكي أيضًا. كانت تقول لي: اصبري يا بنيتي، ليست بيدي حيلة، فصعدت السيارة، ولمحت أبي يمسك دموعه، وهكذا كانت مثل هذه الذكريات ترافقني فأبكي وحدي!

في المدينة، عند جدتي لأمي، كنت محاطة بخالاتي، خالي كان يراجع معي الدروس، وكنت أنام أحيانًا إلى جانبه، كان مثل أبي، لكنه كان يعنّفني، فكنت أكنّ له الكره وفي الوقت نفسه أخاف منه، طيبًا كان وعصبيًّا، إذ كان يغضب لأتفه الأمور، وكان يمسكني من شعري ويضربني ويكسر القلم أو يضرب الطاولة حتى تنكسر إذا عجزت عن حل معادلة رياضية! وكنتُ أُصاب بالرعب كلما ناداني ليراجع معي الدروس، لكن أحيانًا كان يلعب معي، نمزح ونتصارع، وأشدّه من شعره فيحملني على كتفيه، أو كنت أضربه وأهرب فيلاحقني، وهكذا، وكان يغضب على جدتي حينما تصرخ بي وتجبرني على القيام بعمل ما في البيت كغسل الأواني مثلًا، فيصرخ في وجهها قائلًا: هي لم تأت إلى هنا لتخدمك! لكن كان لي خال أصغر منه، كان يضربني إلا أن خالي الكبير كان يضربه ويوبخه على ذلك، بالمناسبة، في المراهقة تحرش بي أستاذي، نعم أستاذي كان

يدّرسني في السلك الإعدادي، كان يقوم بإلقاء دروس الدعم في مدرسة للأطفال، طلب مني أن أمسح السبورة في نهاية الدرس ففعلت ولما أدرت رأسي وجدت الكل قد ذهب وبقيت أنا وهو فقط! طلب مني أن أجلس بلطف قربه فجلست، وبدأ يحدثني عن الدراسة ثم لمس شعري وحلقتي أذني، ثم بدأ يمس عنقي فأبعدتُ يديه، لكنه صار يلمس صدري وكنت أسمع تنهيداته، فنهضت بسرعة وقلت له أريد أن أذهب، كنت خائفة جدًّا فسمح لي بالذهاب، لم أخبر أحدًا سوى صديقة لي فقط، كنت حينها ما بين 14 أو 15 تقريبًا! في الجامعة أيضًا كنت صديقة مقربة لأستاذ جامعي، كان صديقي، كنا نتناقش ونتحدث في الفكر والفلسفة، وفي نيتشه. هذا الأستاذ طلب مني الزواج فرفضت، ثم طلب مني ذلك مرة أخرى فرفضت، ثم طلب أن يقيم معي علاقة جنسية حرة، فرفضت. صرت أكرهه ولا أحب الحديث عنه، كنت حينها أحب السلفي، وذات مرة دعاني إلى الكابينة المخصصة له، ودار بيننا الحوار التالي، إذ قال لي:

- أتدرين، أحيانًا أشك أنك ملحدة كنيتشه كما تعلنين دائمًا، ففي أعماقك ترقد فتاة متدينة، لكنها متمردة على الدين مثلما تمرّدت على أمك وأبيك.

- كيف؟ سألته مستنكرة، صدمني كلامه، لا سيما حينما أنكر عليّ إلحادي، إذ شعرت حينها أنه يهينني.

أخذ يفلسف الأمر، إذ وجد في ذلك مناسبة لإذلالي وسلبي ما كنت أتباهى به وهو إلحادي، إذ قال:

- إنك تحاولين أن تؤثثي حياتك بعلاقات سرعان ما تملّين منها، بل أنت تلهثين وراء كل من يهملك، أنا لو كنت قد أهملتك لربما ما رفضتني.

صدمني كلامه أكثر، فقلت محاولة أن أمسك ما بداخلي من توتر، فقلت:

- كنت أكنّ لك محبة كبيرة كصديق وأستاذ، ظننتك صديقًا لكنك كنت تطمح في جسدي فقط.

فقاطعني مواصلًا كلامه وكأنه لم يسمعني:

- أنت تتلذذين بهذا الدور الذي تعيشينه، تحبين أن تتعذبي عندما تُهملين.

كلامه استفزني فقلت بتوتر:

- هذا ليس صحيحًا، أنا لست كذلك صدقني، ما يجذبني إلى الرجل هو ثقافته وفكره. أنا لا أستطيع مثلًا أن أمارس الجنس مع رجل غير مثقف، ثقافة الرجل هي "فيتش ـ صنمية" بالنسبة لي، ثم كان هناك من أعجبت بهم ولم يهتموا بي، لكني مع ذلك كنت أدوس عليهم وأكمل طريقي، ولم يكن أحد منهم يعذبني هكذا مثلك!
- وأنا، ألستُ مثقفًا؟

لم أستطع لحظتها أن أجيب أو أن أوضح بل وفي واقع الأمر لم يكن لديّ أي تفسير، فقمت خارجة دون أي استئذان.

## الفصل الثاني

## لقاء غامض في ساحة الفنا بمراكش

توقف آدم التائه عن القراءة، إذ أحس، فجأة، بما يشبه البريق في ذهنه، تذكر اسم حواء كازابلانكا، وانبثق وجهها من الغيب في ذاكرته، بل تحرك شريط سينمائي في ذهنه، بدأ يتذكر نفسه بصعوبة، نعم، يتذكر الآن أنه التقى هذه المرأة هنا في مراكش، لكن كيف هذا! البطاقة تشير إلى أنه منذ يوم واحد في مراكش، فكيف التقاها؟! ثم هل هو كتب هذا عنها أم أنها كتبت ذلك فعلًا؟ كان يسأل نفسه، لكنه أحس بغمامة سوداء تهبط من أعماق جبينه لتثقل على عينيه، تطبق جفنيه، ودبيب خدر في جسده ونعاس قوي يجتاحه، وبالكاد استطاع أن يقوم عن كرسيه ويلقي بنفسه على سريره. وغرق في ظلام النوم.

***

رن الهاتف النقال طويلًا، فزّ آدم التائه من رقدته المفاجئة، كان ضوء النهار يضيء جانبًا من الغرفة، كان رنين الهاتف مستمرًّا، تلفّت إلى ما حوله باحثا عن جهة الرنين!

كان الرنين ينطلق من حقيبة جهاز الحاسوب النقال، غادر السرير، أخذ حقيبة الحاسوب النقال وفتح جيبها الأعلى فأخرج الهاتف النقال، لم ينظر إلى شاشة الهاتف ليعرف من المتصل وإنما أجاب مباشرة بنبرة ممزوجة بالنعاس والانزعاج:

- ألو.
- هل نمت جيدًا؟ جاء الصوت نشيطًا وقويًّا.

صُدم آدم التائه بنبرة الصوت، أحس بالصحو المفاجئ، عرف صاحب الصوت، لكنه أراد أن يكسب بعض لحظات من الوقت كي يستعد لمواصلة المكالمة، فسأل وكأنه لا يعرف المتكلم:

- من يتكلم معي رجاء؟

مرت لحظة صمت أجاب الصوت في الطرف الآخر ساخرًا وكأنه عرف ما يجول في ذهن آدم التائه:

- هل نسيتني بهذه السهولة؟ أتريد أن تبيّن لي بأنك لم تعرفني؟ ماشي يا آدم، ألستُ الذي أخذتك إلى مطار "هيثرو" بلندن وأركبتك الطائرة المتجهة إلى مراكش؟ ألا تتذكرني أيها الكاتب الجبان؟ أنا قابيل الموسى، هل نسيت كيف كنتَ تتوسلني ألّا أقضي عليك، وتنكّرت لحبيبتك الساقطة، طليقتي! أتمنى ألّا يراودك التفكير بأنك الآن في مراكش بعيد عن متناول يد؛ فأنا كالموت أقرب إليك من حبل الوريد، وأحذرك من التواصل معها وإلا ستكون نهايتك الحقيقية، هل سمعتني؟! لقد رأفت بك، لأني أعرف أنها هي من ألقت بنفسها عليك، فتلك الساقطة لا تستطيع أن تعيش دون عشيق أو تكون دون علاقة مع رجل أو امرأة.

انتبه آدم التائه بأن جبينه قد صار مبتلًّا وخيطًا من العرق البارد أخذ ينزل على عموده الفقري، وقلبه يخفق بشدة، وتنفسه يكاد يخنقه، ليس لنقص الهواء وإنما لتسارع نبضات قلبه وتنفسه فقال بصوت مبحوح:

- اسمعني أستاذ قابيل، أرجوك اسمعني، أستاذ.

قاطعه صوت قابيل الموسى بنبرة يشوبها الغضب والسخرية:

- لا أستاذ ولا بطيخ، الأستاذية أتركها لك ولأمثالك من المثقفين لتفرحوا بها، وعلى أية حال، سأكشف لك سرًّا، ربما هو السبب الذي أنقذك ولم يدعني أقتلك في تلك الشقة بمنطقة "ريتشموند" بلندن، فحين رأيتك في المطعم الصيني مع طليقتي وتلك الممثلة السحاقية إيفا ليسنج، وكنت حينها قد سمعت بالمأدبة الكبيرة التي أقيمت في بيتي الذي تركته لطليقتي، وعرفت من عيني التي في المنزل أنك كاتب عراقي؛ لذا فتشت عن رواياتك، لم أجدها في مكاتب لندن، لكنّ صديقًا مقربًا حمل لي من بيروت رواية واحدة لك، رواية بعنوان "**المرأة المجهولة ـ متاهة آدم**"، وقرأتها لأعرف من أنت، لا أخفيك أن الرواية أعجبتني، لذلك أشفقت عليك، لأني أحسست بأنك خروف تائه

لا أكثر، وأنت بعيد عن عالم طليقتي، بل أنت مثلي خروف، تيس بقرنين، زوجتك بعلاقتها مع آدم اللبناني قد ألبستك قرنين مثلما فعلت طليقتي بي؛ لذا تعاطفت معك فلم أقتلك، وعرفت أنك جئت لندن ضحية مؤامرة دنيئة لامرأتين سحاقيتين أرادتا إبعاد الشبهة عن نفسيهما بالظهور معك.

سرت رجفة في جسد آدم التائه، وأحسّ بالإهانة الخفية والإذلال من نعته بالخروف التائه، فتمتم:

- لكني يا أستاذ قابيل.

فقاطعه قابيل الموسى مرة أخرى بنبرة حاسمة:

- اسمعني أيها الخروف، الشقة التي أنت فيها تعود لي، صحيح هي في منطقة شعبية تقريبًا في مراكش القديمة، لكنها قريبة جدًّا من "ساحة الفنا"، يمكنك البقاء فيها لشهرين أو لثلاثة، والموظفين تحت في استعلامات البناية سيهتمون بك، صحيح أن المبنى لا يسمح بدخول النساء الغريبات، لكني تفاهمت معهم بأن تُدخل من تشاء من النساء وسيغضّون النظر عن ذلك.

- يا أستاذ قابيل.

فجاء صوت قابيل الموسى:

- لا ترهقني بهذه الكلمة، سأتصل بك إذا ما وجدت لذلك ضرورة، ولا تنس شيئًا واحدًا، أنت بالنسبة لي خروف تائه يمكنني ذبحه في أية لحظة إذا فكرتَ أن تلعب دور البطل! هل فهمت..!، أنا حولك في أيّ مكان تتجه إليه، ستجدني أحيط بك أنَّى اتجهت. ستتذكرني حين ترى من جاء بك إلى هنا، أنا موتك الذي يمكنك أن تشمه في الهواء الذي تتنفسه الآن!

وانقطع الخط من طرف قابيل الموسى.

ظل آدم التائه مذهولًا، مستغربًا هذا الاتصال الذي أوضح له كل تفاصيل وضعه، وانقشع الضباب عن ذاكرته بلحظة خاطفة، وجد نفسه يتذكر كل شيء، طفولته، أمه الحزينة، والده الشرس، دراسته الجامعية، الدكتوراه في تركيا، عمله في الجامعة بعد عودته إلى بغداد، زواجه من المطلقة حواء المؤمن، لقاءه بحواء الغريب، مقتلها، هروبه

إلى الأردن ثم ألمانيا، خيانة زوجته له مع آدم اللبناني، طلاقه منها، رحلته إلى ميونخ، لقاءه مع إيفا ليسنج، سفره إلى لندن، تعرفه على حواء صحراوي طليقة هذا القاتل الغريب الأطوار، القاتل الرحيم، الزوج الغيور، المليونير الخليجي قابيل الموسى!

وتذكر المشهد المرعب حين فاجأه قابيل الموسى مع مجموعة من القتلة المأجورين الأجانب بعد منتصف ليلة من الليالي الغريبة وهو في شقة صديقته الممثلة إيفا ليسنج، ولم يعد يتذكر شيئًا بعد ذلك المشهد، ولا كيف صار في مراكش!

بل يتذكر الآن كيف صحا هذا الصباح في الساعة الثامنة لم يكن يعرف نفسه، ولا أين هو؟ ولولا جواز سفره وتذكرة الطيران لم يدرك هويته، الآن أعاده هذا الاتصال إلى لنفسه بصورة مخيفة وصادمة!

فكّر مع نفسه بهذا الشخص قابيل الموسى غريب الأطوار، أراد أن يسترجع ملامحه التي بقيت في ذاكرته من لقاء تلك الليلة المشؤومة في لندن، وتساءل مع نفسه: "لماذا أراد هذا القاتل تمثيل عملية اغتيالي! أحقًّا كما قال الآن عبر الهاتف بأنه تعاطف معي بسبب خيانة زوجتي لي! وإذا ما قبلت هذا الرأي فالسؤال هو: لماذا أرسلني دون إرادة مني إلى مراكش بمعية شخص من طرفه، ويوفر لي الشقة! ماذا يريد مني؟ هل أنا مختطف؟".

انتبه لنفسه بأنه كان متضايقًا حينما لم يتذكر نفسه، لكن الآن صار متضايقًا أكثر بعد أن عادت إليه ذاكرته، إذ وجد نفسه في وضع غامض، معتم الأفق، لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل وكيف يتصرف، ولم يجد أمامه سوى أن يأخذ الحقيبة الجلدية الصغيرة، التي أودع فيها جواز السفر وتذكرة الطيران وهاتفه النقال. كما انتبه إلى وجود بعض الأوراق النقدية لعملة اليورو، والجنيه الإسترليني، وحزمة من النقود المغربية، حينها سأل نفسه: "من أين جاءت هذه المبالغ؟"، ولم يتذكر شيئًا.

***

خرج من المصعد الضيق إلى الباحة الصغيرة والضيقة، وجد في الزاوية مكتبًا صغيرًا وخلفه شاب أسمر مغربي الملامح. ابتسم الشاب له، ألقى آدم التائه عليه تحية الصباح، وسأله بالعربية شبه الفصحى عن أي مكان قريب يمكن أن يفطر فيه، فشرح

له الفتى المغربي بعربية ذات مفردات مغربية وبلكنة مغربية بأن عليه حينما يخرج من المبنى أن يتجه يمينًا، وبعد عشرة أمتار ينعطف إلى اليمين مرة أخرى حيث الشارع ـ السوق الذي يقود إلى ساحة الفنا، مركز المدينة القديمة وأشهر معلم من معالم مراكش الحمراء!

***

كان السوق يضج بالناس، على جانبيه دكاكين ومطاعم ومقاهٍ متنوعة، حشد من المواطنين ومن الأجانب، من العرب والأوروبيين، الحياة تضج هنا. أعجبه هذا الكرنفال من الألوان، ولم يمر إلا دقائق قليلة حتى وجد نفسه في ساحة كبيرة جدًّا وواسعة ورحبة، ساحة تضج بالناس من كل الأجناس، ووجد نفسه أمام حاوٍ يعلق ثعبانًا على رقبته ويراقص عقدة من الأفاعي وفي فمه ناي، ظل واقفًا أمام الحاوي الذي تجمع حوله الناس، لم يكن يفكر بالرجل الذي يعزف على الناي، لكنه ركّز بصره على رؤوس الأفاعي، وحدق في عيونها ونظراتها الباردة، وكيف كانت تنتبه لموسيقى الناي، وفكّر مع نفسه عن سر هذا الأمر!

أفاق من تداعياته حينما انتبه إلى الحاوي وهو يمسك بأفعى كوبرا ويقربها من فمه، لم يستطع أن يواصل المشهد، فتحرك مبتعدًا، انتبه إلى يمين الساحة، فوجد سلسلة من المقاهي والمطاعم، أخذ يمشي باتجاه المقاهي، صار بمحاذاتها، وأخذ يستطلعها بنظراته، فهو جائع ويريد أن يفطر، فجأة، تسمّر في مكانه، رأى امرأة محجبة حجابًا أنيقًا جالسة وحدها في أحد تلك المقاهي والمطاعم، لم يستطع أن يتحرك متجاوزًا المكان، ولا إراديًّا دخل إلى المقهى الذي مُدّت في مقدمته ما يشبه الخيمة كي تعزل رواد المقهى والمطعم عن عيون السابلة.

كانت المرأة المحجبة الأنيقة جالسة وحدها على مصطبة خشبية طويلة وأمامها طاولة ليست عريضة لكنها طويلة، كانت المرأة المحجبة وحيدة، ترتدي ثوبًا أزرق طويلًا، وعلى رأسها منديل أزرق حريري يتخلله اللون الأرجواني يحجب شعرها وجوانب وجهها!

حين لمحها آدم التائه كانت تمسك بالهاتف النقال منكبة على شاشة تقرأ فيها،

بدت وحيدة ومنعزلة بينما معظم الطاولات مشغولة وحولها أناس يأكلون أو يشربون الشاي الأخضر!

في اللحظة التي دخل هو فيها إلى المقهى نهضت المرأة الفتية المحجبة خارجة، ارتبك؛ هو دخل بسبب حضورها المثير، وها هي تغادر المقهى! ظل واقفًا، انتبهت هي إلى نظراته الشاردة والذهول والانجذاب في ملامحه، أسعدها ذلك لكن ابتسامتها كانت في أعماقها، بينما ظلّ وجهها لا يعكس أي شيء مما فكرت فيه، وحين صارت على مسافة أقلّ من متر منه نظرت إلى وجهه فالتقتْ نظراتهما لثوانٍ، ثوانٍ كانت كافية لتهزّ كيانه وتترك أثرًا طيبًا في نفسها.

حين مرت من جانبه وصله عطرها، عطر زكي لماركة فرنسية شهيرة، أحس بتيار من الانفعالات يغمره، وقف للحظات وكأنه يبحث عن شخص ما في المقهى ـ المطعم ثم استدار مغادرًا المقهى كي يتبعها، لكنه ذهل حينما لم يجد لها أثرًا.

أخذ يتلفّت إلى كل الجهات لكنها كانت قد اختفت وكأنها لم تمر من أمامه منذ لحظات لا غير! وعلى الرغم من الصخب والضجيج والضوضاء في "ساحة الفنا" حوله لكنه لم يسمع شيئًا، العالم صامت ومكتوم الصوت.

فجأة، وقف على رؤوس أصابعه ليرى أبعد مما فوق رؤوس المارّة فإذا به يلمحها تدخل السوق الذي جاء منه، حيث تقع شقته، فأخذ يحث الخطى عسى أن يلحق بها، لكنها كانت قد انعطفت داخلة إلى السوق، وحين وصل السوق لم يجدها.

كان السوق يضج بالعابرين، ويتعالى صوت البائعين الذين يجذبون الناس إلى المطاعم التي تقع على جانبي السوق لكن موائدها تمتد في وسط الطريق، والبائعون وصبيانهم هنا وهناك يتشبثون بالمارة يدعونهم للدخول إلى دكاكينهم، وبعض المسنين الذين يبدو عليهم الوقار يمدون أيديهم متسولين المارة، لا سيما من غير المغاربة، داعين بالجنة لذويهم!

ظل آدم التائه يفتش كالمجنون عن اللون الأزرق ومنديل الرأس الأرجواني وأي جسد أنثوي يرتدي الأزرق! لكنه لم يكن في الأفق المنظور أمامه أي أثر لذلك، فأخذ يفتش في المحلات على الجانبين، ويسأل نفسه: أين اختفت؟ وهكذا قطع جانبًا كبيرًا

من السوق وصار على بعد عشرة أمتار من الفرع الذي تقع شقته فيه، فجأة انتبه إلى مشهد أطفأ لهيب رغبته في رؤية المرأة بلمحة عين!

في مقهى جانبي على الجهة المقابلة للفرع الذي تقع فيه شقته رأى وجهًا كان على يقين من أنه يعرفه، نعم، نعم، هو أحد الرجال الذين دخلوا عليه الشقة في تلك الليلة المشؤومة، وهو ربما الرجل نفسه الذي أشار إليه القاتل الغامض قابيل الموسى في اتصاله صباح اليوم! "أهذا يعني أنني مراقب منهما، ويعرفان تحركاتي أنّى توجهت؟! ولماذا يجلس في هذا المقهى ـ المطعم قرب الشقة التي أسكن فيها! أتراه ينتظرني؟!" هكذا تدفقت الأسئلة في ذهنه.

فجأة وكأنما ستارة أزيحت عن نافذة في الذاكرة، إذ انتبه إلى أن هذا الرجل لم يكن جالسًا وحده وإنما معه امرأة مغربية الملامح، أنيقة القسمات، ذات تسريحة غلامية، تميل إلى النحول، ترتدي بنطالًا من الجينز، وقميصًا أبيض، لكنه كان على يقين بأنه يعرف هذا الوجه، بل يعرف هذه المرأة، "لكن من هي؟!" سأل نفسه، فجأة برق في ذهنه الفتاة التي كتبت نص "متاهة الأنبياء"! لكن سرعان ما سأل نفسه: "النص مكتوب ومحفوظ عندي في الحاسوب، فهل هي التي كتبته أم أنني دونت اعترافاتها! لكني متأكد أنني التقيتها، وأعرفها جيدًا. نعم، نعم، هي التي كانت تسمّي نفسها حواء كازابلانكا، لكن كيف التقيتها؟ أيعني أني كنت هنا قبل هذه المرة في مراكش؟! عليّ أن أتيقن من أمري!"، هكذا كان يحاور نفسه، وخلال ذلك قرر أن يذهب إلى غرفته ليقرأ نص اعترافات هذه الحواء! ومن شدة المفاجأة صار أمر المرأة الأنيقة المحجبة ثانويًّا، وبلا تردد توجه إلى شقته في الفرع المجاور.

* * *

حين دخل المبنى المتواضع الذي تقع شقته في الطابق الثامن منه، وجد فتى آخر غير الذي كان عند مغادرته قبل قليل من الوقت! ظل واقفًا ينتظر المصعد، فسمع صوت الفتى يأتيه من الخلف:

- مسيو آدم، أحببت أن أقول لك بأن المسيو آدم غضب الله كان هنا وسأل عنك.
- هل ترك شيئًا!

- لا، وإنما قال لي أبلغ مسيو آدم التائه بأن مسيو قابيل الموسى يبلغه السلام!

ظل آدم التائه واقفًا كالتمثال إلى أن وصل المصعد، وفتح بابه، فدخل إليه، أغلق الباب. وبدأت الأرقام على اللوحة الإلكترونية تتصاعد.

***

جلس آدم التائه أمام جهاز الحاسوب، شغّله، أخذ يفكر بمعنى السلام الذي بعثه له القاتل الغيور قابيل الموسى عبر تابعه آدم غضب الله، وسأل نفسه: ألم يكلمني هو بنفسه صباحًا؟ وما معنى تواجد هذا المدعو آدم غضب الله حول طاولة واحدة مع هذه المرأة الأنيقة! أنا على يقين بأني أعرفها وأني التقيتها سابقًا لكني أجهل متى وكيف.

بعد لحظات ظهرت النصوص والملفات المحفوظة على شاشة الحاسوب الزرقاء، وضغط على ملف "متاهة الأنبياء"، فظهر النص المكتوب الذي حاول قراءته صباحًا على الشاشة لكنه توقف عن القراءة حينها.

3

## السِّفر الثالث

# آدم الخليل، نبي من هذا الزمان

لقد يئست حقًّا من الوضع الذي أنا فيه، لأنني خفت أن أنتحر أو أجن، صرت أعيش ظواهر مخيفة، لم أكن أعرف إن كانت عادية أم هي حالة اضطراب نفسي وعقلي مريب، فقد كانت تراودني حالات أنسى فيها شكل وجهي كيف هو؟! ويحدث أحيانًا أن أشعر بفرح مفرط، حتى كنت أحاول حينها أن أتخيل كيف كنت حزينة في أوقات ما! أو معنى أن يكون المرء حزينًا! لم أكن أستطيع تصور ذلك! صرت أهتم بشكلي وجسدي، شعري صار يشكل مصدر إزعاج لي، كنت أغير تسريحته بين فترات قصيرة، والأخطر من كل هذا كنت أحيانًا لا أدرك أين أتواجد! مثلًا أكون في مدينة وأعتقد حينها أنني في مدينة أخرى!

صارت تراودني أحلام غريبة، حلمت مرة بأني كنت في جنازة والكل يبكي بحرقة ثم سرعان ما تحول الأمر لحفلة فيها رقص وغناء، كانت جنازة امرأة، كان المكان يشي بأنه في أوروبا، كانت المقبرة خضراء، مشذبة الأزهار وفيها مساحة واسعة من العشب الندي، والغريب كان الرجال يحملون التابوت على أكتافهم وليس حسب الطريقة الأوروبية في سيارة، فجأة، والتابوت على الأكتاف، فُتح، وظهرت المرأة الميتة، وقفت وسط التابوت وهي على أكتاف الرجال، وبدأت ترقص، أنا أخذت مكبّر الصوت الذي كان بيد أحدهم، ولا أعرف لماذا، وأخذت أغني، أنزل الرجال التابوت، وبدأ جميع المشيعين للجنازة يرقصون!

ومرة حلمت بأني أطعن الآخرين بسكين وأشرب دمهم! ومرة حلمت أنني طعنت

خالي! لذلك خفت مما أنا فيه، وفي تلك الفترة كثّف صديقي السوري النمساوي والذي كان اسمه آدم الخليل اتصالاته، كنا نتحدث لساعات ليليًّا، إلى أن بدأ يكشف لي عن انجذابه الجنسي ومشاعره، وطلب مني بعض الصور المكشوفة، فصورت له ما هو مثير لكن ليست صورًا فاضحة، فتعلق بي أكثر، وعرض هو عليّ المجيء إلى هنا حيث أعيش، ليتزوجني ويأخذني معه! ولأني أريد التخلص من وضعي ومغادرة البلاد وافقت! وفعلًا جاء! لم أخبر أهلي طبعًا، سكن في العاصمة، أخذتُ سرًّا كل هوياتي ووثائقي الرسمية وقابلته.

كان لقائي الأول به صادمًا، فقد كانت صورته على صفحته في وسائل التواصل الاجتماعية تصغر ما هو عليه بحدود خمسة عشر عامًا، لكني كنت أريد مغادرة البلاد بأي شكل، فتزوجنا بشكل سريع شرعًا، ثم ذهبنا إلى السفارة النمساوية، إذ كان قد حصل على الجنسية النمساوية، وفي السفارة قيل لنا علينا الانتظار ما بين أسبوعين إلى شهر!

كان قد نزل في فندق رخيص، ولكني حاولت أن أنقله إلى شقة مجهّزة، كي أكون معه بشكل دائم وأيضًا لأوفر له مصاريف الأكل والشرب من خلال الطبخ في البيت، وهذا ما حصل! استأجرت شقة في زنقة بيروت بالرباط، وبعد أسبوعين اتصلت السفارة به وأخبرته بأن الإجابة لم تأت بعد، وربما ستتأخر لأكثر من شهر آخر، فجن جنونه، فهو لا يستطيع الانتظار كل هذه المدة لأنها ستكلّفه مالًا، وهكذا قرّر الرجوع إلى فيينا على أن أراجع أنا السفارة أو يتصلوا بي حينما تصل الموافقة على الزواج، لكي يمنحوني تأشيرة الدخول إلى النمسا! وهذا ما حصل.

كل شيء سار وكأنه في الأفلام، فبين ليلة وضحاها صرت زوجة، وخلال شهر ونصف حصلت على تأشيرة الدخول إلى النمسا، لكن خلال هذين الأسبوعين اللذين عشت خلالهما معه اكتشفت أنني أدخل غابة مظلمة! فخلال هذين الأسبوعين اكتشفت ساديته الجنسية، وبخله، وتعامله مع جسدي باحتقار وكأنني دمية وجارية له، بل كان يعاملني كعاهرة! وكان ينام معي، لا، لا، لم يكن ينام معي، وإنما كان يضاجعني، لا، لا، حتى اللغة العربية عاجزة عن التعبير الصحيح عمّا جرى، لم يكن ينام معي، بل كان يفعلها وقتما يشاء هو، في السرير، في الصالة، في المطبخ، في الحمام، وقوفًا، أو يطوي جسدي ويجبرني على الانحناء ليولجني من الخلف. المهم كان هو الذي يقرر المكان

والوضع، وحينما ينتهي هو ينتهي كل شيء، فلا يهمه ما كنت أحس به حينها، كنت أريد أن أحتج وأرفض وألغي كل شيء، لكن كان لدي هدف أيضًا أن أغادر هذه البلاد، فكنت أقنع نفسي بأن هذه المدة ليست كافية على أن أحكم عليه، والأهم عليّ السفر والحصول على الإقامة هناك، من أجل أن أواصل دراستي العليا.

سافر هو، من دون أن يترك لي ثمن التذكرة، وهو يعلم أنني لا أملك مالًا. حين ودعني أعطاني مائتي درهم، أي ما يعادل عشرين يورو بعملتهم، أي ربما هي وجبة غداء في مطعم، وقال لي هذه للتاكسي كي تصلي إلى مدينتك، وحينما اتصلت السفارة بي كي أستلم الفيزا اضطررت إلى أن أبيع حلق أذني وأن أضيف عليهما مبلغًا اقترضته من صديقة لي، كانت الوحيدة التي أخبرتها بما جرى ويجري معي، كي أتمكن من شراء التذكرة.

***

أحيانًا تكون خساراتنا اللاحقة ربحًا مضيئًا، بينما يكون ربحنا الحالي خسارة مكتومة وغير مرئية! وبالنسبة لي هذا الزواج الذي يُعد ربحًا آنيًّا وحلمًا للكثيرات، بل وأُحسد عليه، لكني كنت أحسه خسارة مكتومة لا أريد الاعتراف بها والإقرار بها! لذا كنت أحدّق إلى مستقبلي وإلى ما ينتظرني بعينين جامدتين وبنظرات باردة، كنت مشغولة بترتيب خساراتي!

خلال شهر من غيابه لم يتواصل معي كالسابق، كان يروّضني، فقد صرت أنتظر اتصاله، وأسعى إليه، أدخل الماسنجر فأراه موجودًا، أكتب له، تأتيني إشارة أنه قرأ رسائلي، لكنه لم يكن يجيبني، وإذا ما أجابني كنت أطير فرحًا، كان يتصل بي عن طريق هاتف الواتساب، مرة في الأسبوع، دقائق قليلة لا أكثر، ويوم السفر اتصلت به وطلبت منه أن ينتظرني في المطار، لا سيما وأنه يوم السبت وهو يوم عطلة في أوروبا.

***

حين دخلت المطار بعد عبور محطة التفتيش أدركت أنني دخلت عالمًا آخر، وأني تركت كل شيء ورائي؛ ذكرياتي، طفولتي، البئر السوداء، عشقي المرضي للسلفي. هناك فقط أدركت وهم حبي، شعرت وكأني أولد من جديد!

بعد أن تجولت في بعض الأروقة أدركت أن البشرية تعيش مرحلة لا نعرفها في بلداننا، فكل شيء يوحي بالنظام والدقة والسلام الاجتماعي والاسترخاء الشخصي والتطور التقني والجمال والتناسق، انبهرت، وفكرت مع نفسي أنه من الممكن أن نرى شخصًا فاسدًا ومنحطًّا، ومع ذلك توجد شعوب فاسدة ومنحطة، مثلما توجد شعوب تعشق الحرية، شعوب تواجه السماء والمجرات من أجل اقتحامها، وشعوب فقدت الشعور بالكرامة وأحنت ظهرها للخرافات وأذلّها الفقر والجهل، والسوط!

خرجت وأنا أسحب حقيبتي، رأيته ينتظرني، ضمني إليه بشكل تقليدي كما يفعل الجميع حين يستقبلون الأصدقاء أو الأهل، لكن ليس المحبين! كان يحدثني وكأنه لم يفارقني إلا البارحة! حتى أنه لم يسألني كيف كانت الرحلة وإنما دخل مباشرة في الحديث عن برنامج وجودي في فيينا، بأنه دعا بعض الأصدقاء على العشاء بمناسبة وصولي، أسعدتني هذه الالتفاتة منه، لكني سألته ونحن في التاكسي، كيف سأتحدث معهم وأنا لا أعرف الألمانية سوى بضع كلمات وجمل حاولت تعلمها خلال هذه الفترة، فقال لي بأنك تعرفين الفرنسية والإنكليزية وبعضهم يعرف إحدى هاتين اللغتين بشكل جيد أو كلاهما، فهما من المثقفين والموظفين الذين يحتلون أماكن ممتازة ومن أصحاب الشأن في بعض الشركات.

الحق يقال لم أكن أتصور أن زوجي آدم الخليل بهذه المكانة؛ بحيث لديه مثل هذه النخبة المتنفذة من الأصدقاء والمعارف، لكن معرفتهم باللغات التي أجيدها منحني بعض الثقة بنفسي، بل وشعرت برغبة غامضة في أن تمر الساعات ويأتي المساء!

وصلنا إلى الحي الذي يعيش فيه تيقّنت أنه ميسور الحال، فالمنطقة راقية، وتأكدت من ذلك حينما دخلنا الشقة، فقد كانت شقة فارهة نوعًا ما، مؤثثة بشكل أنيق لم أتوقعه، ومع أن كل ما لديه يدل على الثراء لكنه يفتقد إلى الذوق، يفتقد اللمسة الأنثوية!

الصدمة جاءت بعد دقائق من وصولنا، صدمني ما قاله لي وما طلبه مني!

كانت حقيبتي لا تزال في الصالون، جلست على الصوفا الجلدية الرمادية اللون، ذهب هو للحظات فعرفت أنه دخل المطبخ، ثم عاد وهو يحمل صينية كريستالية وفيها كوبان كريستاليان أيضًا مليئان بعصير البرتقال.

جلس على الصوفا الجلدية المقابلة لي، مدّ لي بكأس العصير، أحسست من نظراته

بأنه يود أن يقول لي شيئًا، أخذت أرتشف العصير رشفات صغيرة، وامتدت بيننا لحظات صمت، أدرك بأن عليه أن يقول ما يريد قوله، عبّ كأسه في رشفتين كبيرتين، وضع الكأس الفارغة أمامه وليس في الصينية، ثم وجه كل انتباهه نحوي وقال:

- اسمعيني يا حواء جيدًا، أنت امرأة جميلة، وكما ترين أنا أعيش في مستوى معيشي جيد، لكن ذلك كما يبدو في الظاهر، لأنني في الحقيقة غارق في الديون المصرفية، فكل هذه الأبهة التي ترينها هي مدفوعة الثمن من قروض أخذتها من البنوك، لكني كنت وحدي، الآن أنت جئت، يعني ستزداد المصاريف والنفقات البيتية والعامة!

شعرت بالخجل لأنني أحسست أنني صرت عبئًا ماليًّا من أول لحظة وجودي عنده، فقاطعته قائلة:

- لكنني سأشتغل، بعد أن أحصل على الإقامة وأتعلم اللغة، سأشتغل وأساعدك!

فقاطعني بتوتر قائلًا بصوت حاول أن يكون هادئًا:

- أنا لا أريدك أن تشتغلي، أريدك أن تكوني ربة بيت مرتاحة.

- لم أفهم! أنا لا أريد أن أكون عبئًا إضافيًّا عليك، على العكس أحب أن أساعدك.

فقال بنبرة منفعلة حاول جاهدًا أن تكون لطيفة:

- قلت لكِ لا أريد ذلك، لكن يمكننا أن نقوم بشيء آخر.

قال ذلك وصمت، لم يكمل، امتد الصمت للحظات، فسألته:

- ماذا تقترح؟ أنا لم أفهم ما يدور في ذهنك، ما الذي علينا أن نقوم به؟

ركّز نظراته على وجهي وكأنه يريد أن يلتقط أية مشاعر أو ردود فعل على ما سيقوله، وقال بهدوء ولكن بنبرة وكأن الأمر طبيعي:

- سأقدمك للجميع على أنك أختي، وليس زوجتي!

- ماذا؟ قلت بنبرة فيها استنكار مكتوم.

- نعم، سأقدمك على أنك أختي.

- ولماذا؟

أحسست أنه بعد أن ألقى جملته استرخى قليلًا، والآن عليه أن يقنعني، فقال:

- كما أوضحت لك، أنا غارق في الديون، وبعضها مستحق الدفع منذ زمن، لكني أماطل. بين ضيوفي مسؤولون في البنك الذي اقترضت منه، وكذلك هناك من يعمل في المقاولات والتجارة.

لم أكن أفهم بالضبط لماذا يقدمني كأخته وليس كزوجته، فسألته:

- ولماذا تقدمني كأخت لك وليس كزوجتك؟

صمت للحظات وقال:

- أنا أعرف أنك ربما فوجئت، وتشكّلت لديك نظرة سيئة عني، لكن ما أفكر به ليس خطيئة ولا عيبًا، أبو الأنبياء خليل الله نفسه حينما نزح إلى سيناء ورأى جنود الفرعون مقبلين، قال لزوجته الجميلة ساراي قولي لهم عني إنه أخي.

وفي تلك اللحظة تذكرتُ نيتشه، وإنجيله الخامس، وتذكرت قراءاتي للعهد القديم فقلت له:

- لكن جنود الفرعون بعد أن قالت لهم إنه أخي أخذوها للفرعون عشيقة، وبقت عنده إلى أن أعادوها إليه.

ابتسم ابتسامة صفراء وقال:

- يبدو أنك تعرفين العهد القديم جيدًا، لكنك تنسين الجزء الأهم من الحكاية، هو أن الفرعون أعطاه الكثير، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجِمال، أليس هذا ما ورد في العهد القديم!، أنا لا أفعل أكثر مما فعل أبو الأنبياء!

شعرتُ بالإهانة، وأحسست أنه يريد أن يكون قوادًا لي أو ديوثًا يرى أنه هناك من ينكح زوجته وهو راضٍ، فقلت له بنبرة فيها غضب وزعل واضح:

- أأنت تزوجتني من أجل أن تقدمني كأخت لك من أجل مصالحك المادية، ألا تشعر بالإهانة حين تراهم يقتربون مني، كيف يوصف هذا السلوك؟

ابتسم ابتسامة كريهة كأي سمسار رخيص، وقال:

- أتريدين القول بأني قواد، وأنني أريد أن أمارس القوادة عليك! لقد أوضحت

لك الأمر، أكان أبو الأنبياء خليل الله قوادًا حين قال لزوجته الجميلة قولي لرجال الفرعون بأنك أختي، واتخذها الفرعون عشيقة بل بقيت عنده إلى أن كُشف المستور!

شعرت بالاحتقار الكثيف لهذا الشخص الذي هو زوجي، بل انتبهت لفعل أبي الأنبياء كما جاء توصيف فعله في العهد القديم وشعرت نحوه بالاحتقار، كيف لنبي أن يفعل ذلك؟ فقلت له:

- ولماذا لا تقدمني كزوجتك، ما الفرق؟ أم أنك تخجل من أن تقدمني كزوجتك وليقتربوا مني ما دمت راضيًا!

أحسست أنه شعر بالانتصار لأني بدأت أناقشه عن الدور الجديد لي، فقال بكل اهتمام:

- لا، لا، لو قلت لهم إنك زوجتي لما اقترب أحد منهم منك، بل ربما احتاج الأمر إلى فترة طويلة ولقاءات عديدة على موائد الطعام، وفي المسابح، أو المراقص الراقية، أو السفرات الخاصة، أو الاستحمام في الساونا، ولطال الأمر؛ لأنهم سيترددون في الاقتراب منك لكونك زوجتي، لكن حين أقدّمك كأخت لي فإنهم سيسعون، جميعهم وبلا استثناء، للتقرب منك، والسعي للحصول عليك، مع أنهم كلهم متزوجون! وبابتسامة منك، وبعض اللطف، فإنهم سيبذلون المستحيل من أجل أن يتخذك كل منهم عشيقة! وفي الوقت نفسه سيغدقون عليك بالهدايا، وعليّ بالتسهيلات، والمنح، والقروض الجديدة، وبعض المقاولات التجارية!

فقلت بنبرة فيها احتقار مبطن:

- وأنت، أيرضيك أن يناموا معي ويتخذوني عشيقة لهم!

قهقه قهقهة رخيصة وقال:

- وهل أنا أفضل من أبي الأنبياء، ألم يوافق ويترك زوجته أن تصير زوجة للفرعون بينما هو زوجها، بل وحصل على عطايا الفرعون بسبب ذلك. أبو الأنبياء وافق، ورضي، فلِمَ أزعل أنا؟! الفرق بيني وبين أبي الأنبياء هو أن زوجه كانت عند الفرعون لفترة طويلة، بينما أنت ستكونين معي في هذه الشقة، أنت أمامهم أختي، لكننا هنا زوج وزوجة!

ولم أستطع أن أكظم غيظي فقلت بانفعال، لكني كنت لا أريد أن أفصم علاقتي به وأرجع لبلادي التعيسة، وإنما فكرت بسرعة مذهلة بأن أخوض التجربة:

- اسمع يا آدم، يبدو أنك خططت لكل هذا، سأقولها لك الآن ما دمت أنت كنت واضحًا في الكشف عن نواياك، أنا لن أكون زوجتك إلا على الورق، وأمام الدوائر الرسمية، لكني سأساعدك، سألعب دور الأخت، وأدفعهم أيضًا أن يساعدوك؛ سواء بمنح القروض أو الصمت عن سداد الديون أو منحك الوكالات التجارية، لكن هنا في هذه الشقة، كل منا ينام في غرفته، ونستمر كأخ وأخت، اتفقنا؟

كان ينصت إليّ مذهولًا، لم يكن يصدق أنني وافقت، ووافقت أيضًا على أن أساعده، لكنه أيضًا كان مذهولًا مما قلته، إذ لم يعجبه أن نستمر بالقيام بدور الأخ والأخت حتى داخل المنزل أيضًا، وأن ينام كل منا في غرفته! وبعد لحظات قال مبتسمًا:

- اتفقنا، يا حواء، كازابلانكا.

## الفصل الـثـالـث

# الصداقة اختيار، والحب قدر

نهض من مكانه، خرج إلى الصالة، انتبه إلى وجود دلة قهوة كبيرة وفناجين وأكواب فارغة وصحنًا فيه أكياس لأنواع من الشاي وسماور فضي للماء الساخن على طاولة في الزاوية، فكر مع نفسه: "لماذا لم أر هذه الطاولة والسماور قبل الآن؟!"، ولم يتوقف كثيرًا عند هذا الأمر، أخذ كيسين من الشاي ووضعهما في كوب مزخرف بنقوش صينية، وصب الماء الحار من السماور، وحمل الكوب معه ثم جلس على الدكة المغطاة بالسجاد.

كان يفكر بحكاية حواء كازبلانكا الغريبة والمشاكسة، وراوده فضول لما جرى بينها وبين زوجها آدم الخليل!، ارتشف عدة رشفات من الشاي، وفي تلك اللحظات رنّ هاتفه النقال الذي كان على الطاولة قرب الحاسوب، حمل كوب الشاي وذهب إلى غرفة النوم حيث الهاتف ما زال يرن، جلس على الكرسي أمام الطاولة وضغط على مكبّر الصوت وهو يرتشف شيئًا من الشاي.

- ألو.

جاء الصوت مازحًا بنبرة ساخرة:

- أهلًا أستاذ آدم، هل كل شيء لديك تمام؟

عرف صاحب الصوت، فأجاب بلا مبالاة:

- الحمد لله.

- هنا يوجد أحد معارفك القدامى، يحب أن يتحدث معك، ويلقي التحية.

أحس آدم التائه بالارتباك، ظن أن هذا التابع الذيل آدم غضب الله يريد أن يتحدث

معه بطريقته الاستفزازية، فهو يشعر أنه في كماشة ومحاط بمجموعة من القتلة، وبينما هو في خضم أفكاره تلك سمع صوتًا نسويًّا بلكنة مغربية يأتيه عبر الهاتف:

- عليكم أستاذ آدم، كيف حالك، إن شاء الله تكون بخير! تذكرتني!

انتبه للهجتها المغربية، وأحس أنه سمع هذا الصوت لكنه ليس متأكدًا، فقال بارتباك:

- أهلًا وسهلًا، لكن بصراحة لا أتذكر حضرتك بوضوح.

- أنا حواء، حواء التي اتفقنا أن نسميها حواء كازابلانكا، تذكرتني الآن!

فجأة تذكر آدم التائه المرأة التي كانت تجلس مع آدم غضب الله في المقهى القريب، وأنها هي صاحبة الاعترافات، فقال بانفعال:

- أنت، أنت صاحبة الاعتراف الأخير، صح؟

- صح، تذكرتني الآن، التقينا هنا في مراكش.

- كنت أقرأ قبل قليل في الاعترافات التي تحت عنوان "متاهة الأنبياء"، بيد أني لم أكملها، لكن هل أنت على يقين بأننا التقينا، هنا في المغرب.

جاء صوتها مازحًا:

- ما بك أستاذ آدم، هل تعرضت لفقدان الذاكرة؟ طبعًا، وتحدثنا طويلًا، بل وكانت بيننا لحظات لا تنسى، ثم كيف وصلت اعترافاتي إليك إذا لم نكن نعرف بعضنا!

- كل شيء ضبابي، أعتقد أننا التقينا فعلًا.

وصلت مسامعه قهقهة خفيفة ثم قالت:

- حين تنتهي من قراءة الاعترافات كلمني، أنا موجودة في مراكش لفترة شهر أو شهرين، لا أعرف بعد، بعد ذلك أرجع إلى النمسا من جديد، سأتصل بك أنا بعد أيام، سآخذ رقمك من سي آدم غضب الله، وأرسل إليك رقمي في رسالة!

ثم جاءه صوت المدعو آدم غضب الله، مازحًا:

- لديك جمهور من الحواءات في كل مكان يا ملعون!

وقُطع الاتصال من طرف آدم غضب الله، شعر آدم التائه بأنه في مصيدة غريبة، وسأل نفسه عمّا يريدونه منه؟ صحيح أن الزوج الغيور قابيل الموسى فسّر له لغز وجوده في مراكش، لكن ما علاقة هذه المرأة المغربية بهم؟! أحسّ بالضيق والانزعاج، وفكر مع نفسه بأنه يمكن أن يهرب، أن يشتري تذكرة سفر إلى ألمانيا أو إلى أي بلد أوروبي، ويتخلص من هذه المصيدة التي تبدو له مثل شبكة العنكبوت، فالمرء مهدد في أية لحظة بأن يتم الانقضاض عليه!

فجأة، وبشكل غامض انبثق من أعماق ذاكرته وجه المرأة المحجبة التي رآها اليوم في "ساحة الفنا" واختفت في السوق، ووجد في نفسه رغبة قوية لرؤيتها، وقرّر أن يخرج عسى أن يلتقيها في السوق أو في أي مكان آخر، أحس بأنه يدور في عالم ضبابي، في منام غريب فوضوي، ربما هو الآن نائم في مكان ما، وكل ما يجري ليس سوى حلم غريب، غير مترابط! وأن وجود المرأة المحجبة ربما حنين لمغامرة أخرى! لم يجد إجابةً أو لم يجد نفسه يميل لأي من هذه الاحتمالات!

انتبه لنفسه إلى أنه لم يفطر إلى الآن، على الرغم من أنه خرج في البداية لتناول الفطور لكنه لاحق المرأة المحجبة إلى أن وصل شقته، فلم يفطر بعد، وها هو الوقت الآن يقترب من فترة الغداء!

أخذ حقيبته الجلدية السوداء الصغيرة، وهاتفه النقال، وخرج، قفل الباب بالمفتاح، وهبط بالمصعد الذي استغرب وقوفه في الطابق الثامن، وعندما صار في الأسفل وخرج من كابينة المصعد رأى وجه فتى الاستعلامات المبتسم الذي بادره فورًا قائلًا:

- لو سمحت أستاذ آدم أن تعطينا المفتاح من أجل تنظيف الشقة.

فأخرج المفتاح من الحقيبة الجلدية الصغيرة وسلّمه له، وغادر المبنى.

***

لم يصدّق عينيه وهو يدخل إلى المقهى ـ المطعم نفسه الذي التقى المرأة المحجبة فيه أول مرة بعد أن يأس وهو يمنّي نفسه بأن يراها في السوق، وها هو يراها هنا تجلس في المكان نفسه وحول المائدة الرباعية نفسها التي كانت تجلس عليها صباحًا، أحس بأن ثمة إشارة قدرية لهذا اللقاء بينهما.

تلفّت حوله فلم يجد طاولة فارغة، فقد كان الوقت يقترب من منتصف النهار. ولم يبق سوى هذه الطاولة التي يمكن لأربعة أشخاص أن يجلسوا حولها! شعر بالإحراج من الموقف، لكنه في الوقت نفسه يريد التعرف عليها ولا يجد فرصة أجمل من هذه وإلّا فإنه سيفقدها، فتقدم بأدب من طاولتها، وقال بلهجة هادئة ومهذبة:

- أتسمحين سيدتي بالجلوس إلى المائدة.

فوجئت هي، فقد كانت منشغلة بالنظر إلى أعماق المطعم، ويبدو أنها كانت تنتظر أن يأتوها بما حجزت من طعام وتتابع العاملين بعينيها، ارتبكت لثوان، أبدت شيئًا من عدم الارتياح والتحفظ، لكنها لم تبد أي اعتراض، فالمكان يتسع لأربعة أشخاص، وهي وحدها تجلس حول الطاولة.

اتخذ مكانه حول المائدة على الجهة المقابلة لها، وبينما كانت هي منشغلة بمتابعة الشغيلة وهم يعدّون الأطباق داخل المطعم، تأمل هو وجهها الجميل، انتبه لشفتيها الورديتين وعينيها اللوزيتين، وبشرتها المصقولة كوجه تمثال إغريقي، ولنظرتها الطيبة المليئة بحنان مكتوم، كما انتبه لحجابها الأنيق الرزين، حيث كانت تلبس منديلًا يشد شعرها ويحدد المساحة الظاهرة من جبينها ومنديلًا كبيرًا ملونًا آخر فوقه يغطي الرأس والرقبة وجزءًا كبيرًا من الصدر، وانتبه لصدرها الناهد، ولتناسق جسدها الأنيق. إنها امرأة ذات جمال رزين، لا مساحيق مبالغ فيها ولا بهرجة ألوان.

وفي تلك اللحظات جاء عامل المطعم بصينية فيها طبقان، طبق فخاري كبير نسبيًّا فيه ما يشبه الدخن أو البرغل الناعم وعليه بعض الخضار وطبق صغير فيه مرق وخضار أيضًا، وعرف أن الطبق هو "الكسكس" الشهير في المغرب وشمال أفريقيا، لكنه تذكر بأن هذه هي الأكلة الشعبية للمغاربة يوم الجمعة، واليوم ليس الجمعة!

ما أن انتهى عامل المطعم من وضع الأطباق على الطاولة حتى التفت إليه سائلًا عمّا يشتهي، فنظر آدم التائه إلى طبق المرأة المحجبة وقال له:

- أريد طبقًا من "الكسكس" أيضًا. خفضت المرأة المحجبة رأسها للأسفل وكتمت ابتسامة ارتسمت على شفتيها على الرغم منها، فهذا اللفظ يشير إلى مفردة فاضحة عند المشارقة، بينما التفت هو إلى عامل المطعم وواصل كلامه سائلا:

- لكن اليوم ليس الجمعة.

ابتسم العامل وقال له:

- نعم، لكننا نجهزه دائمًا، "الكسكس" و"الطاجين" بأنواعه من أصنافنا اليومية.

انتبهت هي إلى لغته العربية التي كانت بنبرة عراقية فارتسمت على وجهها علامات انبساط حاولت ألّا تبين، ونظرت إليه نظرة خاطفة، صادف أن التقت بنظرته إليها في تلك اللحظة، لم تدم هذه النظرة سوى ثوان، لكنها كانت كافية أن تخلق ارتياحًا وتقبلًا نفسيًّا لديها، مع أنها ارتبكت وكأنها مُسكت وهي تقدم على أمر ما، ونتيجة لحركة غير مقصودة عبّرت عن ارتباكها في تلك اللحظة سقطت ملعقتها على الأرض، ولم تكن قد بدأت الأكل، ارتبكت أكثر، وكأنما عيون كل رواد المطعم تنظر إليها، فانتهز هو الفرصة، والتفت إلى عامل المقهى الذي كان في أعماق المطعم يعد الطعام، أشار إليه، لم ينتبه العامل له، فقام هو من مكانه، وذهب إلى أعماق المطعم، وأتى من هناك بملعقة نظيفة، وتقدم منها مقدمًا الملعقة لها، ارتبكت خجلًا، ليس منه وإنما من هذا اللطف في مبادرته، إذ وجدت فيها لمسة رومانسية، ابتسمت له بخفر وقالت:

- شكرًا جزيلًا أستاذ.
- آدم، اسمي آدم. قال منتهزًا الفرصة لتقديم نفسه.
- شكرًا جزيلًا أستاذ آدم.

انتبه هو لنبرة صوتها اللبنانية، فقال لها بأدب:

- لا شكر على واجب، لم أفعل شيئًا، لكن، لا أريد أن ألهيك عن الطعام، وإنما انتبهت للهجتك، هل حضرتك لبنانية؟

ابتسمت بطيبة ورزانة وقالت:

- نعم، أنا لبنانية، وحضرتك، عراقي، أليس كذلك!

لم يصدق آدم التائه بأن حوارًا عفويًّا بدأ بينهما، لكنه حوار رزين، فقال بنبرة هادئة ومطمئنة:

- نعم، أنا آدم التائه، عراقي، من بغداد، وحضرتك؟!

ترددت للحظات، ابتسمت برقّة وقالت:

- أنا حواء الورد، من بيروت.

- تشرفنا، مدام حواء.

رفع كفه موجهًا إياها ليصافحها، لكنها تشاغلت عنه وغضّت بصرها، ففهم أنها لا تتصافح، ارتبك، لم يمد يده إليها، لكن في الوقت نفسه أعجبته طريقتها في الرفض، أحس بالإحراج قليلًا مع أنه لم يمد يده إليها وإنما رفعها من دون أن يمدها، فقال مداريًا الوضع الذي هو فيه:

- أرجو ألّا أكون قد قطعت عليك شهيتك لهذه الوجبة الشهيرة.

- لا أبدًا.

أخذت الملعقة لكنها لم تبدأ الأكل، أدركت أنها أحرجته، لكن هي هكذا لا تصافح أحدًا، ولم تود أن يكون ذلك سببًا في قطع الحوار بينهما، لذا لكي تصلح الموقف بينهما سألته بهدوء:

- يبدو أنك تعيش هنا منذ زمن؟

شعر بالحيوية لهذه المبادرة الطيبة منها بالتواصل، فقال بدفء:

- لا، أنا لا أذكر أنني كنت هنا، لكن كما يبدو أنني كنت هنا مرات عديدة.

نظرت إليه نظرة مستفسرة ومستغربة وكأنها تختبر جديّته فيما قال، فسألته:

- ما معنى كما يبدو كنت هنا مرات، لكنك لا تذكر؟ ألست متأكدا من أنك كنت هنا؟

فقال بنبرة حزينة:

- لا.

نظرت إليه نظرة طويلة مليئة بالاستغراب ولم تقل شيئًا، وفي تلك اللحظة جاء عامل المطعم بصينية فيها طبقه الذي طلبه، وما أن غادر عامل المطعم، حتى رفع رأسه قائلا:

- شهية طيبة.

- شكرًا.

لم يشأ آدم التائه أن ينتهي الحوار بينهما عند هذه المحادثة، لذلك اصطنع الحوار على الرغم من أن ما يقوم به لا يحبذ عند الأكل، إذ أنه سألها بعفوية:

- هل هذه هي أول مرة تزورين المغرب!

توقفت عن الأكل للحظة، ثم أجابت:

- نعم، أول مرة.
- وهل أعجبتك مراكش؟
- جدًّا، وأنت؟

ثم استدركت قائلة بنبرة فيها سخرية مبطنة وكأنها لم تصدق قوله بأنه لا يتذكر عدد مرات تواجده في المغرب، وقالت:

- أنا افترضت بأنك لا تدري إن كانت تعجبك أم لا، لأنك لا تدري إن كنت هنا أو لا!

انتبه هو إلى نبرة صوتها وأدرك أنها لم تصدّق كلامه، فقال لها موضحًا بصبر:

- أنت لم تصدقيني حينما قلت لك إنني لا أذكر إن كنت هنا أو لا أذكر عدد المرات التي كنت فيها في المغرب، أليس كذلك؟

صُدمت، واستغربت توغله لأعماق تفكيرها ومعرفته ما خطر في بالها، فقالت:

- لا، ليس للأمر علاقة بالصدق، لكن خطر ببالي ربما أنك لا تريد أن تفصح عن ذلك لأسباب تخصك.

نظر لها، مبتسمًا بطيبة وقال:

- لا أريد أن أشغلك عن الأكل، فهذا الطبق يُفضل ألّا يؤكل باردًا، لكنها الحقيقة، أنا لا أذكر أنني كنت هنا، لكنني متأكد من أنني كنت هنا! ولدي أدلة عديدة على أنني كنت هنا، لكن كم مرة كنت هنا؟ ومتى؟ وكيف؟ فهذا ما لا أدركه، وسأروي لك كل شيء بعد أن ننتهي من الطعام، نشرب الشاي الأخضر، إذا كانت لديك الرغبة، اتفقنا!

نظرة إليه وشعرت برغبة غامضة في أن تواصل الحديث معه، فهناك شيء غامض يجذبها إليه، ابتسمت له وقالت:

- اتفقنا.

بعد أن أنهيا وجبة الغذاء انتقلا إلى طاولة أخرى لشخصين، وطلبا شايًا مغربيًّا أخضر، ولم يكن الحديث سهلًا، كان كل منهما يريد أن يعرف كل شيء عن الآخر، وفي الوقت نفسه يتجنبان أن يحرج كل منهما الآخر في السؤال عن شخصه، لكن الانجذاب الخفي بينهما دفعهما لتجاوز العقبات النفسية.

ولأنه هو الذي اقترح عليها شرح وضعه فإنه بادر بالحديث عن وضعه، لكنه لم يرو كل تفاصيل حياته الزوجية وما جرى معه مع زوجته حواء المؤمن، وإنما قدم نفسه لها بأنه كاتب، وروى منذ تعرفه على الممثلة الإنكليزية إيفا ليسنج في القطار، ثم دعوته إلى لندن كمساعدة لها لتخليصها من ورطة عائلية في حياتها الزوجية، ولقائه هناك بالمرأة العربية الأصل البريطانية المولد والجنسية الدكتورة حواء صحراوي، وما تعرّض له من محاولة اغتيال على يد طليقها الغيور، ولا يعرف بعد ذلك كيف وجد نفسه هنا في مراكش، وكيف انتبه هنا إلى أنه يعرف الأماكن وكتب عن لقائه بإحدى الحواءات مما يعني أنه كان هنا، لكنه لا يتذكر شيئًا!

كانت هي تنصت إليه باهتمام وتركيز، تألقت عيناها وابتسمتا حينما ذكر لها في البداية بأنه كاتب، لكنها لم تشأ أن تقاطعه بالسؤال عما يكتب، بيد أن شعورًا مؤلمًا اجتاحها حينما أخذ يحدثها عن قصة حواء صحراوي وطليقها قابيل الموسى، وحصارهم له، وفقدانه الجزئي لذاكرته!

كان هو يحاول أن يختزل حكايته عن حياته كي يسألها عن نفسها وعن حكايتها وسبب تواجدها في مراكش! انتبه هو إلى أنهما شربا كل ما في الإبريق من شاي، فأشار من بعيد لعامل المطعم مشيرًا بأن يكرر الطلب، فأشار له العامل بإشارة الفهم وتلبية الطلب، وقبل أن يسألها عن نفسها قالت له بحنان وبهدوء:

- فلتكن في طمأنينة ولتحفظك روح العالم.

نظر إليها بدهشة وفي نظراته إعجاب ومودة كبيرة وقال بانفعال حاول كتمانه:

- (لتحفظك روح العالم)، هذه دعوة راقية، ونادرة، تشي بفهم خاص للكون والوجود.

أحست هي بالارتباك وبفرح خفي يغمرها، فقالت بخجل وتواضع:

- صح، معك حق، عندي نظرة معينة، تحتاج إلى وقت طويل للشرح.

ابتسم هو وكأنما التقط إشارة مبطنة، وقال:

- الوقت؟ إنه فائض أكثر مما ينبغي، لقد شوقتني كي أستمع إليك بكل محبة وانتباه، هل أنت روحانية، سواء بالمعنى الديني أو اللا ديني؟

وقبل أن تجيب على سؤاله جاء عامل المطعم بدورق جديد من الشاي الأخضر، صمتت هي للحظات إلى أن ذهب عامل المطعم، ثم فجأة أخذت تصب الشاي في الكوبين الجديدين وقالت بهدوء:

- أنا أحتفظ بتعاليم دينية أساسية لا غنى عنها وبديهية نوعًا ما، لكنني روحانية أكثر من المعنى الديني المتعارف عليه، ونظرتي للدين فيها احترام أكثر مما هي طقوس يدعونا لها رجال الدين وبعض المتدينين المتطرفين، يعني بمعنى أوضح أشعر بوجود الله في داخلي، ولدي صلة دائمة ومستمرة به تختلف عما يحاولون ترسيخه في ذهننا بأن نتوجه له عبر الصلاة، أنا مؤمنة تمامًا بالوجود، وبروح العالم الموجودة فيه إلى الأبد، يعني أنا متدينة بهذا المعنى على طريقتي التي ربما هي في نظر البعض تجديف وليس لها علاقة بالدين!

كان يصغي لها بمودة، ويفكر بأنه على الرغم من حساسيته من الحجاب والمتدينين الذين عادة لهم أحكام سابقة عن الآخرين، إلا أنه وجد في هذه المرأة الباهرة اللطف والأناقة شيئًا قريبًا ومشتركًا، وحاول أن يقترب منها فقال:

- وأنا مثلك روحاني، لكني لا ديني، هذا لا يعني أني لا أعرف الأديان ولم أقترب منها، على العكس فقد درستها كلها، لكن بصراحة لدي رغبة في أن أتعرف على شخصك، فشخصيتك بالنسبة لي غامضة، وأظن أن لديك رؤيتك.

ابتسمت بطيبة وقالت:

- هذه طريقة الكتاب لاستدراج الآخرين إلى البوح، أليس كذلك؟ لأطمئنك، لست غامضة أبدًا، أنا إنسانة بسيطة، طيبة، أو هكذا يمكنني أن أصنف نفسي لأني لا أفكر بإيذاء إنسان، بل ولا أي مخلوق، وحياتي كتاب للألم والخيبات! وما وجودي هنا إلا محاولة لتجاوز الألم والخيبة!

أحس بتعاطف خفي معها، فقال بطيبة:

- لكنك لا تزالين شابّة، وتتحدثين عن الألم والخيبة، الحياة أمامك.

نظرت في عينيه لأول مرة وكأنها تحاول أن تكتشف أعماقه وتتأكد من نواياه نحوها، وقالت وعلى وجهها ابتسامة طيبة:

- أتمنى ذلك، فقد نلت ما يكفي من التعاسة والمعاناة، على الرغم من أن من يراني لا يظنني كذلك أبدًا!

نظر إليها بتركيز وهو يحاول أن يقرأ في ملامحها احتمالات رد فعلها إذا ما سألها، ولم ينتظر إذ سألها:

- الحقيقة يراودني فضول أن أعرفك أكثر.

ارتشفت شيئًا من الشاي وقالت:

- ليس لدي شيء استثنائي في حياتي، حكاية مكررة من حكايات الألم والتعاسة.

ابتسم بحزن وقال:

- الكاتب الروسي ليف تولستوي قال في بداية روايته "آنا كارنينا": "كل العوائل السعيدة متشابهة في سعادتها، بينما العوائل التعيسة كل منها تعيسة بطريقتها"، وللناس حكايات، كل حكاية هي عالم بحاله.
- نعم، قصص التعاسة مختلفة لكن الشعور التعيس يتشابه، قد تختلف أسبابه ودوافعه، لكن في النهاية الشعور التعيس مؤلم للجميع!.

ابتسم بحزن وخيبة وقال:

- يبدو أنك مترددة في الحديث عن نفسك، أو سرد حكايتك!

شعرت أنها ربما أساءت التعبير لأنها انتبهت لملامح الانكسار على وجهه، لكنها تعرف أن من طبيعتها ألّا تتحدث عن خصوصياتها لأي كان من أول لقاء بينهما، علمًا أن رغبة قوية في أعماقها كانت تدعوها للحديث معه عن نفسها، واستغربت من هذه الرغبة، فهي فعلًا تميل للتواصل معه، لكنها على الرغم من ذلك لم تتحدث عن نفسها، وقالت له:

- لستُ مترددة أبدًا، لكن كما سترى أنها حكاية مكررة تحدث مع آلاف النساء

الخائبات الحظ، وببساطة يمكنني سردها دونما تردد، لكني لا أشعر بالرغبة في الحديث عن تلك المرحلة. لا أعرف، ربما لاحقًا.

انتابته مشاعر خيبة خفيفة لأنها لم تود أن تتحدث عن نفسها، لكنه عزّى نفسه بجملتها الأخيرة، "ربما لاحقًا"، أي أنها تركت الباب مفتوحًا للقاء، فلم يلح عليها وإنما قال بنبرة فيها انكسار:

- ولماذا أنت هنا، هل جئت زيارة عمل أم سياحة؟

ابتسمت محاولة أن تتناسى الحزن الذي اجتاحها من سرد قصة طلاقها، فقالت:

- يمكن القول سياحة وعمل.

- كيف يفهم ذلك!

وقبل أن تجيبه ارتبكت ملامح آدم التائه بشكل واضح، انتبهت له، لا سيما وأن نظراته كانتا قد تركزتا على رجلين دخلا المطعم، وكانا هما ينظران إليه باهتمام وتركيز ووقاحة، وجلسا حول طاولة قريبة كانت خالية مصادفة!

انتبه آدم التائه لنظراتهما إليه ولجليسته، أحس بالارتباك وعدم الارتياح وبمشاعر من الغيرة تتسرب إلى نفسه، استغرب من ذلك، ووجد نفسه من دون أن يهيئ قولًا، ينظر إليها ويقول:

- علينا أن نغادر المكان، طبعًا إذا رغبت، وإلا فيمكننا أن نبقى.

ومن دون أن ينتظر ردها أشار إلى عامل المطعم بيديه بأن يحمل لهما الفاتورة، فهمت هي مباشرة بأن له شأنًا خطيرًا ومقلقًا مع هذين الشخصين ولا يريد البقاء بسببهما، وتذكرت ما رواه لها من محاولة اغتياله، وتخديره، وحملة إلى السفر من لندن إلى مراكش بمعية مرافقين من القتلة، وعلى الرغم من المخاطر والغموض الذي يحيط بهذا الرجل، فإنها وجدت نفسها قد ارتاحت له، كما تدفق في أعماقها شعور إنساني بالتعاطف معه ومساندته في هذه اللحظة، فقالت له وكأنه صديق قديم:

- طبعًا نغادر، لا أريد البقاء، كنت أنتظر أختي وزوجها، لكن لا ضير يمكنني أن ألتقيهم في الفندق.

- أي فندق، هل هو بعيد من هنا؟

وقبل أن تجيب أشار هو إلى عامل المطعم بأن يأتي بفاتورة الحساب، وسمعها تجيبه:

- لا أعرف، لقد جئنا بسيارة أجرة، هو فندق "كنزي فرح هوتيل"، في شارع الرئيس كينيدي.

وبرغم القلق الواضح الذي حاول أن يكتمه منذ أن شاهد الرجلين يدخلان، إلا أنه قال لها باحترام وبمودة:

- هل تمانعين أن أوصلك إلى الفندق؟

ارتبكت هي لكنها أحست بارتعاشة مريحة تسري في جسدها وقالت بخجل:

- ربما سأشغلك وأستقطع من وقتك، كما أن المكان ليس بعيدًا بالسيارة.

في تلك اللحظة جاء عامل المطعم حاملًا صحنًا فيه حبوب مطيبة لرائحة الفم بعد الطعام ومحفظة جلدية تضم الفاتورة، ارتبكت هي لأنها لم تعرف كيف تتصرف في الأمر، هل ستدفع حسابها فقط أم لكليهما، لكنه ألقى نظرة سريعة على الرقم النهائي في الفاتورة، وأخرجت هي محفظتها، لكنه ابتسم لها قائلا:

- اليوم أنت ضيفتي، أنا سأدفع هذه المرة.

ارتبكت هي من مبادرته بالدفع، ومن جملته الغامضة التي لم يقلها بشكل عفوي "أنا سأدفع هذه المرة"، أي هناك مرات مقبلة، أفرحها ذلك، ووجدت روحها تنفتح عليه بحنان، ولم تكن تعرف سر ما يجري معها، لكن عليها أن تبدي شيئًا من الرزانة، لذا اعترضت بلطف قائلة:

- هذا غير ممكن، نحن التقينا مصادفة، ولم تكن هي دعوة سابقة، لذا علينا على الأقل هذه المرة أن يدفع كل منا حسابه، ونترك أمر الدعوة لاحقًا.

ابتسم هو لها بلطف برغم توتره، ووضع المبلغ المطلوب مع مبلغ كبقشيش داخل المحفظة الجلدية على الصحن، وقال لها:

- لنعتبر هذا اللقاء ليس مصادفة، وأنني دعوتك، إلا إذا أردت أن يكون أول وآخر لقاء بيننا.

ابتسمت لطريقته الذكية في التعبير عن مقاصده، وأعجبها ذلك، فقالت:

- على العكس، يسعدني أن نلتقي مرة أخرى، لكن...

- بلا لكن، هل نغادر، يمكنك أن تتصلي بأختك وزوجها وتخبريهما بأنك متجهة إلى الفندق.

قاما، وأثناء ذلك قالت:

- فكرة جيدة.

وغادرا المكان تتبعهما نظرات الرجلين الغامضين الحانقة، وعند باب المطعم ـ المقهى اتصلت هي بأختها وأخبرتها أنهما ستلتقيان في الفندق.

***

لم يكن من السهل الحصول على سيارة تاكسي إلا من الفروع التي تمتد من الساحة الكبيرة، هما يعرفان أن في نهاية السوق توجد ساحة تتواجد فيها سيارات الأجرة، لذا توجها إلى السوق المزدحم.

في زحمة السوق كان يسير إلى جانبها، وكان لا إراديًّا يلتصق كتفاهما، ويحدث أحيانًا أن تأتي موجة من السياح أو المارة مما يضيق السير لا سيما في بعض الأماكن حيث تتوسط موائد المطاعم الطريق، فإنه يصير خلفها، ومرة منها صارت الزحمة شديدة فوجد نفسه يلتصق بها من الخلف للحظات، ارتبك جدًّا، واعتذر منها بسبب الزحمة وتدافع الناس، شعرت هي بمس كهربائي حينما التصق بها، وأطبق على مؤخرتها وظهرها، جرى ذلك للحظات لا أكثر، وهي تعرف أنه لم يتقصد ذلك وإنما فعلًا كان بسبب الزحمة وتدافع الناس، لذا لم تجب على اعتذاره وكأنما لم يحصل شيء بينهما.

وحدث أن قابلتهما موجة أخرى من العابرين، مجموعة من السواح تتقدمها امرأة تشرح لهم معالم السوق الذي كان فيه بعض الأماكن التي تثير فضول السائحين، ووقوفهم أمام دكان ما أو محل ما أو مطعم كان بيتًا أثريًّا يسد الطريق مما اضطره أن يمسك بها من ذراعها للحظات بشكل عفوي كي لا تتوه عنه وتمرق من الزحمة، وبرغم أن تلك اللمسات تثيرها وتحرك مشاعر خفية في جسدها إلا أنها لم تفسر ذلك بقصدية منه للمسها.

في نهاية السوق وجدا عددًا من سيارات الأجرة مصطفة هناك، فتح لها الباب الخلفي فدخلت جالسة وصعد هو إلى المقعد الأمامي كي لا يزاحمها، وأخبر السائق المغربي بالعنوان، فانطلق بهما.

كانت هي محرجة من مرافقته لها لكنها في الوقت نفسه فرحة لهذا الاهتمام بها بل ووجدت في تعامله الكثير من الرزانة والاحترام، على الرغم من أن أثر العلاقة بينهما صار من ناحية المشاعر يتطور بسرعة ضوئية.

عند باب الفندق أراد ألّا يخرج، لكنها وبرغبة لا واعية طلبت منه أن تدعوه لفنجان قهوة أو دورق شاي أخضر في اللوبي، تردد للحظة سائلًا إياها بأنها ربما تود أن ترتاح لكنها أجابت بأنها لا تشعر بالتعب ويسرها أن تجلس معه لو أحب ذلك ولديه الوقت، فاستجاب بابتسامة ودودة.

كانت واجهة الفندق ليست بتلك الأبهة الظاهرة إلا أن الفندق من الداخل يبعث الراحة في النفس، فقد قادته إلى قاعة لاستراحة النزلاء، أرضيتها من المرمر الضارب للصفرة، وجدرانها بيضاء تتخلل بعض الجدران خطوط عريضة تتوزع بشكل متساوٍ ومتناوب بين الأبيض اللون والأصفر، وتتوزع القاعة طاولات حولها كراسيّ منجدة بقماش القديفة البني المائل للون البنفسجي، كما تتوزع زوايا أخرى تضم صوفات وكراسي من النوع واللون نفسه وتتوسط تلك الزوايا طاولات زجاجية.

كانت القاعة شبه فارغة في تلك الساعة من الوقت، ففي أقصى القاعة تجلس فتاة وأمامها لابتوب ومنشغلة بالكتابة، أما هما فجلسا في زاوية في منتصف القاعة، وبعد كلمات قليلة حول أناقة الفندق جاء النادل إليهما، فطلبت قهوة، أما هو فطلب كوبًا من الشكولاتة الساخنة، وسألها عن رقم الغرفة فأخبرته بأن غرفتها تحمل الرقم 8 في الطابق الثامن، والغريب أنها ما أن نطقت هذا الرقم حتى استذكرت مَن يحومون حولها من العشاق وهم ثمانية، وهي في وضعها الحالي لا تعرف كيف تتخلص منهم!

كانت حواء الورد تشعر بالطمأنينة، فعلى الرغم من أنها في فندق بمراكش إلا أن شعورها أنها في بيتها؛ فهنا مكان سكنها وهنا غرفة نومها وهنا هي بمعية أختها وزوج أختها، لذلك شعرت بالاسترخاء، وبفرح غامر أنها معه الآن، شعرت في أعماقها بأنه قريب منها، واستغربت من هذا الإحساس، ودت أن تعرفه أكثر، فسألته بجرأة لم تعرفها في نفسها:

- أنت لم تحدثني عن نفسك، ماذا تكتب، وما هي مهنتك، وعائلتك!

نظر إليها بمودة مستغربًا ميلها إلى أن تتعرف إليه أكثر، فقال مبتسمًا:

- أتعرفين، كان المفروض أن تتكلمي أنت عن نفسك، وأجلّت ذلك لمناسبة أخرى، بينما تسألينني الآن عن نفسي. طيب، سأجيبك من السؤال الأخير، لست متزوجًا، أو بدقة أكبر مطلق، وغير مرتبط. مهنتي، لا أدري كيف أجيبك، أنا الآن لا مهنة لي، كنت أستاذًا جامعيًّا، بيد أني غادرت العراق لاجئًا. أما الذي أكتبه فليس سوى كلمات، كلمات، كما قال هاملت شكسبير.

أعجبتها إجابته وطريقته في الحديث، وأكثر ما أعجبها هو أنه غير مرتبط، وانتبهت لنفسها ولهذا الخاطر في أعماقها، فهي تعرفت عليه منذ ساعتين لا أكثر، بينما أفرحها أنه مطلّق، لم تعلّق مباشرة على إجابته إذ أنقذها من دفق مشاعرها مجيء النادل حاملاً صينية فيها ما طلبا إلى جانب الفاتورة، وسألها للتأكيد إن كان رقم غرفتها 808 صحيحًا، فقالت له مؤكدة بأنه صحيح، ووقعت على الفاتورة، وفجأة، خطر في ذهنها أن تسأله عن مشكلتها مع عشاقها، فابتسمت قائلة:

- لا أعرف كيف أسألك، لكني وقبل أن أتحدث عن نفسي بودي أن أستمع لنصيحتك في أمر ما يخص صديقة لي، ممكن!

نظر إليها بتركيز وكأنه يريد أن يتأكد إن كانت صديقتها هي نفسها لكنها مترددة في الكشف عن ذلك، ولم يشأ أن يحرجها بالسؤال، وإنما ابتسم لها قائلا:

- كل النصائح باطلة، وخائبة، تجارب البشر الخائبة هي نصائح بطريقة أو بأخرى، والنصائح هي تجارب خائبة، لا سيما النصائح في الحب، فهي لا تنفع.

نظرت إليه وفي عينيها انكسار حزين وقالت:

- أنت تعقّد الأمر عليّ.

- لم أفهم، أنت قلت أنك تحتاجين النصيحة لصديقتك.

ارتبكت. أحس أنه قبض عليها متلبسة. ابتسمتْ له بحزن وخجل وقالت:

- تلك الصديقة هي أنا، أنا أنظر لها كصديقة ويجب أن أنقذها بجواب شافٍ، أي

أن أنقذ نفسي من دائرة مزعجة بالنسبة لي.

نظر إليها للحظات متأملًا وجهها الأنيق الملامح، أحس نحوها بمشاعر لطف وحنان كبيرين، وقال:

- أحيانًا تتشكل لدينا مشاعر معادية وعدوانية نحو شخص ما لم يؤذِنا قط، ولا نعرف سببًا لتلك المشاعر العدوانية!
- صح. قالت مؤكدة باستسلام.
- وأحيانًا نشعر بالانجذاب ومشاعر المودة والحب نحو شخص ما من أول نظرة لنا نحوه من دون أن نعرف السبب.
- صح، معظم صداقاتي تبدأ هكذا.

أكّدت مبتسمة وفهمت أنها إشارة منه، إلا أنه واصل حديثه:

- الصداقة اختيار، أما الحب فقدر.

صعقتها جملته، أحسّت أنه كشف لها عما يجول من مشاعر غامضة في أعماقها، بل هو كشف الغطاء عما يدور بينهما. كانت هذه الجملة قد هزتها بقوة، وأدركت وكأنها رسالة غيبية موجهة إليها، وسمعته يواصل:

- نحن نختار الأصدقاء بإرادتنا، بينما الحب يختارنا لا إراديًّا، لكننا البشر عميان، كائنات غيورة بشكل ملتبس ومثير للحزن. لا نلمس الخيط الرفيع بين الصداقة والحب، فنسمي الصداقة حبًّا، فلا نرى أمامنا سوى المتاهة، متاهة الغيرة ودروبها الخانقة!

نظرت إليه وفي عينها مشاعر إعجاب ورددت جملته:

- لا نلمس الخيط الرفيع بين الصداقة والحب، فنسمي الصداقة حبًّا، نعم، لقد كشفت لي شيئًا مهمًّا.
- الحب الحقيقي حين ينضج يتحول إلى صداقة عميقة، صداقة قدرية، كالنبيذ المعتق كلما مرّ عليه الزمن ترقرق وجاد أكثر. أما الحب المزيف فإنه يتلاشى أمام نار الوقت، وأعتقد أيضًا أن الصداقة الحقيقية تتحول إلى حب هادئ بمرور الزمن، الصداقة الحقيقية حب غير أناني، حب بعيد عن التملك!

كانت تنظر إليه وفي عينيها إعجاب وكانت تلتهم كلماته وتثمل بها وكأنها لأول مرة تشعر بهذا الوضوح في أعماقها. هو إذن من بحثت عنه، هو وجهها الآخر، مرآتها التي رأت فيها نفسها، هي تريد أن تحدّثه عن "عشاقها" الذين كل واحد منهم اختارها لنفسه، بينما هو قدرها الذي جاء على غير انتظار!

انتبه هو لحالة الذهول في عينيها وأدرك أنها في حوار مع ذاتها، فابتسم، وقال:

- هل أنت بحاجة فعلًا لنصيحتي؟!

ارتبكت، خجلت، وقالت وهي تبتسم:

- لا، وصلتني الإجابة دون قصد منك، سأروي لك ذلك فيما بعد.

ابتسم هو وقال ضاحكًا:

- ماذا؟! إنك تؤجلين كل شيء، فإلى الآن لم تتحدثي عن نفسك..!

ابتسمت له بطيبة، وقالت:

- طيب..لكي لا تقول عني إنني أؤجل كل شيء سأعرّفك بنفسي، لتعرف كم هي تعيسة ومظلومة هذه المرأة التي تجلس أمامك!

- أنا هنا كي أستمع لك، لكن انتظري كي أرتشف شيئًا من الشكولاتة، فهي حين تبرد تفقد مذاقها الشهي، وأنت أيضًا قد بردت قهوتك.

وفعلًا توجه كل منهما إلى مشروبه ليرتشف منه، بل وانشغل كل منهما مع نفسه للحظات، ثم بعد ثوان، بدأت تسترسل في الحديث عن نفسها:

- لقد ولدت في ضيعة ربما لا تعرفها لو ذكرتها لك، ترعرعت فيها إلى أن أنهيت الثانوية وانتقلت للجامعة الموجودة في مدينة كبيرة نسبيًّا بالقرب منا. درست الأدب العربي، وبصراحة، على الرغم من حبي للضيعة وهدوئها لكني وجدت نفسي وشخصيتي في المدينة. نحن ستة من الأخوة والأخوات، أنا الثانية، الأولى أختي التي تكبرني بعامين ثم جاء بعدي أخي. عائلتي محافظة وملتزمة دينيًّا لكن باعتدال، وفي الضيعة قضيت طفولتي وصباي، إلى أن حصلت أحداث في حياتي قلبتها رأسًا على عقب كما يقال، وذلك قبل انتقالي إلى المدينة!

- ماذا جرى؟ سأل آدم التائه وهو يتأمل وجهها الذي تتجاذبه براءة الطفولة وغواية الأنوثة في الوقت نفسه.

ارتشفت ما كان في فنجاها، وعبّ هو ما في كوبه من شكولاتة، نظر إليها وكأنه أشار إلى استعداده لسماعها، فواصلت:

- حينما كنت في السنة السابعة عشرة من عمري، وكنت في السنة الأخيرة من مرحلة الثانوية دخل عالمي شاب أعجبه شكلي، دخل من الباب المفتوح، دخل بيتنا مع أهله، مع أمه بالتحديد، وبعد قليل من التعارف دام ثلاثة أشهر تمت الخطوبة، وفي الوقت نفسه عقد القران!

قاطعها حينما ذكرت جملتها بربط الخطوبة وعقد القرآن معًا فسألها بتردد:

- هل كانت بينكما علاقة حب أو مشاعر؟
- لا أبدًا، كانت علاقة تقليدية تمامًا، لكنه بعد الخطوبة تعلّق بي جدًّا وصار يعشقني، وبسبب ظروفه الاقتصادية الصعبة؛ استمرت فترة خطوبتنا ثلاث سنوات، كنت قد أنهيت خلالها إجازتي الجامعية، طبعًا كما تعرف أن عقد القرآن يعني زواجًا شرعيًّا دون دخول وحفل زفاف، لكن هذه السنوات الثلاث كانت عذابًا تخللتها بعض لحظات الفرح القليلة جدًّا، يمكن أن نقول في كل شهر ثمة ساعة للفرح، والباقي حزن أسود ومشاكل!

انتبه لنبرة الحزن والخيبة في صوتها ووجد ذلك مدخلًا طيبًا لإبداء التعاطف الإنساني معها، فسألها:

- لماذا؟

لم تنظر إليه مباشرة وإنما شردت بنظراتها في أرجاء المطعم فانتبهت إلى الفتاة التي كانت منهمكة بالكتابة في حاسوبها المتنقل، التفتت إليه لتواصل حديثها:

- لأني اكتشفت أن بيننا هوة واسعة، اكتشفت غيرته المرضية، يمكن القول ربما أنا وأهلي نتحمل الخطأ، فقد كان شابًا غير متعلم، أنهى الابتدائية فقط، هل تصدق أنني إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف وافقت عليه حينما سألوني عن رأيي!

- ربما بسبب وسامته؟ علق آدم التائه مع ابتسامة مودة.
- لا أبدًا، كان شكله عادي جدًّا.
- ربما رغباتك، وأنت في عمر المراهقة! قال آدم التائه محاولًا التوغل أكثر في عالمها النفسي.

فردت مباشرة وكأنها تسترجع تاريخًا:

- ولا حتى رغباتي، الآن أفسّر الأمر بأنه ربما كان رغبة مني في التباهي أمام صديقاتي في الضيعة بالخطوبة، وفرحة الاحتفال بالزواج، والتحرر والحلم ببيت خاص، لم أكن واعية، كما أن قرار الخطوبة كان بيد أهلي، فقد أقنعوني بالزواج لا سيما وأن والدي اشترط أن أكمل دراستي ووافق خطيبي على ذلك! لا أطيل عليك، صار الذي صار، وللأمانة، أذكر أنني كنت فرحانة، ربما لأني كنت مراهقة ولم أدرك أهمية تلك الخطوة، لأني اصطدمت بكابوس مرعب، كابوس اسمه والدة زوجي، فقد كانت أُمًّا متسلطة، ومشاكسة بوقاحة، كلمتها لا تتكرر، حادة وقاطعة كالسيف، وكان القرار في كل أمر بيدها، ولم أكن أعرف ذلك في البداية، لكني أدركته بعد عقد القرآن، صحيح أنني كنت أعيش عند أهلي في فترة الخطوبة لأننا لم نقم حفل زفاف رسمي، لكنه كان يأتي كل يوم تقريبًا ليأخذني كي نزور أمه بحجة الإعداد لشقتنا التي سنتزوج فيها، كانت شقة في الطابق الأول، إذ أن أمه كانت تسكن الطابق الأرضي! أمه كانت غيورة جدًّا، وعلى الرغم من أنها هي التي جاءت لخطبتي، لكنها كانت تسمعني بمناسبة وبغير مناسبة كلامًا فيه وعد ووعيد، بألّا يذهب بي التفكير بأني سآخذ ابنها منها، إذ يمكن تعويض الزوجة لكن الأم لا تعوض! وطبعًا كانت تقول هذا الكلام أمامه!

كان آدم التائه يسعى لحرق المسافات بينهما إذ وجدها مرتاحة ومنفتحة في حوارها معه، فسألها:

- وكيف كانت علاقتكما، أقصد أنت شرعًا تعتبرين زوجته.

صمتت للحظات، أحست برعشة داخلية من السؤال لأنها فهمت ما يرمي إليه، أعجبتها جرأته، ترددت لثوان، لكنها وجدت نفسها تقول:

- فهمت ما ترمي إليه، وللأمانة كان هو أول رجل في حياتي، معه عرفت اللمسات الأولى، أذكر أنه كان سعيدًا جدًّا بعلاقته معي من كل النواحي، كان يعتبرني كل شيء عنده، كان يحبني جدًّا، ويغار عليّ.
- وأنت؟ سألها بنبرة مباغتة.
- أنا لم أكن مثله، كنت أحبه، لكن ليس حبًّا كافيًا ليجعلني سعيدة، وما زاد حزني الداخلي اكتشافي لتفاصيل الفرق الشاسع بيني وبينه سواء في بيئة العيش والثقافة!

في تلك اللحظة مر عامل المطعم فأراد آدم التائه أن يجعل لقاءهما أكثر دفئًا وحميمية وتواصلًا فأشار له، وحينما اقترب منه سأله إن كان لديهم أي نوع من الحلويات التي تؤكل بعد الطعام، فعدد له العامل أصنافًا قليلة مثل كعب الغزال، والسلو، وأصابع التمر والجينواز، فسألها لكنها رفضت أكل الحلويات، وإنما طلبت قهوة تركية، أما هو فطلب دورقًا من الشاي الأخضر، وحينما ذهب أحسّا كلاهما بأن ثمة ألفة وبذور صداقة نمت بينهما، ولم يترك آدم التائه فضول الكاتب في داخله بأن يفقد التواصل بينهما حرارته، فسألها بنبرة محايدة:

- لكنك قلت كنت تحبينه أيضًا، صحيح ليس بقوة حبه لكن أحببته ولو بمقدار! من أين جاء الحب إذن!

صمتت للحظات، بدت وكأنها تحاول أن تنظر إلى الوراء، وقالت بنبرة فيها حزن وخيبة ومعاناة مكتومة:

- ربما أحببته من خلال كلماته عن حبه لي، وتصرفاته الرقيقة أول فترة الخطوبة! المهم، كانت علاقتنا طيبة طوال تواجدي في بيت أهلي، إلى أن تزوجنا رسميًّا وأقمنا حفل زفاف بعد ثلاث سنوات من فترة الخطوبة، وانتقلت للعيش معه في بيته، بيت أمه، لكن حياتي المشتركة معه كانت كابوسًا حقيقيًّا، لم أعش معه كزوجة سوى أربعين يومًا، عاشرني فيها كزوجة مرتين فقط، ليلة الدخلة، وبعد ذلك بليلتين، ثم أهملني وكأنني لم أكن تلك الفتاة التي كان يعشقها ويعشق كل شيء فيها، فقد صار عصبيًّا بشكل مخيف، صار يصرخ بي لأبسط الأمور التي لا تعجبه، فيأخذ بتهشيم الصحون والأواني الزجاجية

والكريستالية. صرت أخافه، أربعين يومًا دفعت بي إلى حافة الجنون، (صمتت للحظات، ثم واصلت)، هل تصدق أنه كان حينما يغادر البيت كان يقفل باب الشقة الخارجي عليّ كي لا أستطيع الخروج!، حتى أنه أخذ هاتفي النقال كي لا أستطيع الاتصال بأهلي أو بأحد ما من صديقاتي! وذات مرة صرخ بي حينما سألته عن سبب تعامله معي بهذه القسوة، فصدمتني إجابته، إذ قال لي بأنه ينتقم مني لسنوات الخطوبة التي كان يشعر فيها بالذل أمامي وأمام عائلتي، لأنه من عائلة فقيرة، ولأني من عائلة ميسورة نوعًا ما وطالبة جامعية! وجاءت الصدمة الأخرى، فبعد أربعين يومًا بدأت عليّ أعراض الحمل، انقطاع الدورة والتعب والإرهاق، كنت خلال سنوات الخطوبة قد أنهيت مرحلة الإجازة الجامعية وبدأت مرحلة الماجستير، وربما ستفكر بأنه كيف سمح لي بالدراسة! سأجيبك قبل أن تسأل، لقد أنهيت مرحلة الإجازة الجامعية وأنا في بيت أهلي خلال فترة الخطوبة، وكما ذكرت أن شرط والدي عليه كان أن أكمل دراستي وإلّا سيتدخل هو، وحين دخلت مرحلة الماستر صرت في كنفه، فأخذ يمنعني من حضور الدروس ومقابلة الأساتذة، ولم يسمح لي بالذهاب إلى الجامعة إلا في أيام الامتحانات، (صمتت مرة أخرى للحظات، ثم واصلت)، ربما ستسأل لماذا لم أطلب الطلاق، سأجيبك قبل أن تسأل، لقد طلبت الطلاق منه مرات عدة، لكنه كان يرفض، بحجة أنه يحبني ولا يستطيع العيش دوني. وحدث أنني بعد ثلاثة أشهر أردت الذهاب إلى الجامعة لأمر يخص بحثي للتخرج، فصار عصبيًّا وضربني، فوقعت على الباب وتأذت خاصرتي، لم يأخذني إلى الطبيبة، بل اتصل بالعيادة وأخذ لي موعدًا بعد ثلاثة أيام، كنت خلال هذه الأيام الثلاثة أشعر بألم شديد وبتعب قوي، وحينما كان موعدي مع الطبيبة اتضح أن الجنين مات في رحمي، كانت صدمة كبيرة لي، صرت كالمجنونة أبكي طفلي الذي لم أره، بينما هو كان يرمقني بنظرات حقودة وغاضبة وكأنني السبب في ذلك! الطبيبة طلبت إجراء عملية إجهاض بسرعة، لكنه بمشورة من أمه رفض أن أذهب إلى المستشفى لإجراء العملية، بل أمرته بأن يشتري من الصيدليات أدوية كي تمكنني من إنزال الطفل في البيت، في حمام الشقة، وكان يتحجج بأن الأمر أصبح غير مهم ما دام الجنين ميت، وبعد صراخ

مجنون من قبلي، طلبت منه أن يتصل بأهلي كي يأخذوني إلى المستشفى، ولا أعرف كيف حدث ووافق على ذلك، ربما بشعور ندم لأنه كان سبب موت الجنين، جاء والدي وأخذني إلى المستشفى، وأجريت العملية، ومن المستشفى توسلت والدي ألّا يعيدني إليه، شرحت لوالديّ الوضع كله، فقرر والدي أن يطلقني منه مهما كانت النتائج، لكن زوجي رفض، وبدأت رحلة عذاب جديدة استمرت لسنوات ثلاث أخرى! لقد طلب من أهلي عشرين ألف دولار كي يوافق على الطلاق، وبدأت بيننا حرب انتقامية، فقد رفعت عليه دعوى عنف زوجي وضرب وإسقاط جنين، وتم توقيفه لعشرة أيام، لكن أهله وأخواله تدخلوا ورشوا المحاكم والقضاة وتدخلت شخصيات سياسية فأخرجوه براءة! وهكذا استمرت عملية طلاقي ثلاث سنوات من الدوران في المحاكم! خلال هذه السنوات الثلاث كنت أعيش أصعب أيام حياتي، يمكنك أن تتصور ثقل الكلام، والذل الذي عشته، إشاعات أهل الضيعة، بل وما زاد في ذلي وإهانتي أنه تزوج امرأة أخرى بينما أنا غير طالق منه بعد! ولا أريد أن أعيد تفاصيل تلك السنوات في صراعي معه، لكن بجهود من والدي تدخلت شخصيات دينية وسياسية في الأمر، إلا أن أمه الخبيثة كانت تصرّ بأنها تريد مالًا مقابل موافقتهم على الطلاق. الغريب أن أحد رجال الدين البارزين ومن وجهاء أحد الأحزاب الدينية، وهو من أقرباء أم زوجي، كان قد أفتى بعدم أحقيتي بطلب الطلاق، لكن بعد دخولنا في بورصة التعاملات المالية، تم تخفيض الطلب إلى سبعة آلاف دولار، وطبعًا حتى هذا المبلغ لم يكن لدينا متوفرًا، تعاون عليه أبي وجدتي، وحصل الطلاق!

طوال روايتها لحكايتها لم يقاطعها، وإنما كان يرى تيارات المعاناة والألم تتماوج على ملامح وجهها وفي نبرة صوتها وكثافة الحزن في نظراتها، كان يستشعر ارتجافات جسدها وهي تستذكر تفاصيل الألم والذل والإهانات التي تعرضت لها طوال ست سنوات من عمر هذه العلاقة المريضة، كان يود أن يقوم ليحضنها لكنه لم يستطع ذلك، على الرغم من أنه شعر بأنها قريبة منه جدًّا.

- حكاية مؤلمة.

فجأة رنّ هاتفها النقال، وفهم من حوارها أن أختها هي المتصل، شعر بالإحراج، انتظر أن تنهي مكالمتها إذ سمع جملة منها وهي تقول بأنها ستأتي بعد قليل، أحس بالحرج قليلًا، وما أن أنهت مكالمتها حتى قال لها:

- لا أدري ماذا أقول لك، لقد أخذت الكثير من وقتك، ربما تنتظرك أختك الآن.

ابتسمت بحزن، وقالت له:

- أتعرف، أنا سعيدة جدًّا بحديثنا، بل أحس إن القدر جاء بي إلى مراكش كي ألتقيك.

لا تعرف كيف نطقت بتلك الجملة، وبذلك الاعتراف الواضح، ارتبكا كلاهما، ولكي يتجاوزا الارتباك نتيجة حالة الوجد التي كانت لا إرادية، ابتسم هو وقال:

- أتدرين أننا لم نتبادل أرقام هواتفنا بعد!

ضحكت هي مثل طفلة، وقالت:

- صحيح.

وتبادلا الأرقام، ووجد هو من الملائم أن يغادرها الآن كي ترتاح وتلتحق بأختها، نهض ونهضت هي أيضًا، غادرا القاعة، أوصلها إلى حيث المصاعد، لم يكن هناك ثمة أحد غيرها يريد الصعود، فُتح باب المصعد، ولأول مرة تمد هي يدها له مصافحة، فمد يده بارتباك غير مصدق جرأتها، وقبل أن يغلق المصعد بابه قال لها إنه سيتصل بها، وسألها في أي وقت يلائمها، ضغطت هي على زر الانتظار كي لا يغلق المصعد بابه، وقالت له في أي وقت يريد بلا حدود، حتى في آخر الليل، ويفضل أن يكون كذلك كي تكون وحدها في غرفتها، فقال لها بأنه سيفعل، وأنها تستطيع الاتصال به أيضًا في أي وقت، وأنهى قوله لها: كما قلت لك، الصداقة اختيار، والحب قدر. ابتسمت له بينما أغلق المصعد بابه.

***

غادر آدم التائه فندق "كنزي فرح هوتيل". توقفت إلى جانبه أكثر من سيارة أجرة، إلا أنه لم يشأ أن يصعد فقد كان يغمره فيض من المشاعر الجميلة المتضاربة، وكان

يسأل نفسه عن هذه المرأة التي اسمها حواء الورد، والتي اجتاحت عالمه بقوة، من هي؟ هي تبدو ذات شخصية قوية وليست بهذا الضعف الذي كانت تتحدث به عن نفسها في مرحلة خطوبتها وزواجها! وماذا تعمل؟ هي لم تتحدث عن عملها الآن؟ وما معنى إشارتها إلى صديقتها ؟ صحيح أنه لحظتها راوده الشك بأنها كانت تريد أن تتحدث عن نفسها لكنها أحالت الموضوع إلى صديقتها؟ هي ليست امرأة لعوبًا وليست مبتذلة إلى درجة أن يكون لديها عشاق.. لا، لا، هذا غير ممكن!

انتبه إلى أنه قطع مسافة طويلة مشيًا على الأقدام، لكن الطريق إلى شقته لا يزال بعيدًا إذا ما أراد أن يقطعه مشيًا على الأقدام، وقبل أن يأخذ سيارة أجرة، أرسل لها مسجًا عبر الهاتف النقال كتب فيه: الصداقة اختيار، والحب قدر. ثمّ أوقف سيارة أجرة طلب من صاحبها أن يقله إلى حيث يسكن.

***

ما أن دخل غرفته حتى وجد نفسه يذهب إلى جهاز الحاسوب النقال ويشغله. كان يشعر بفرح يغمره، أمل أخرس، شعور بارتياح غريب يسري في أعماقه ويجدد له ثقته بالحياة ويمنحه شعورًا وهاجسًا يهمس في أعماقه بأن عليه أن يعيش حياته ويخرج من قوقعته الحلزونية التي وجد نفسه فيها، وبعد دقائق وجد نفسه لا إراديًا يفتح ملف: "متاهة الأنبياء" ليواصل قراءة اعترافات حواء كازابلانكا.

4

# السِّفر الرابع:

# كارثة آدم الخليل الأخرى

في ذلك المساء الأول لوصولي إلى فيينا كنت متعبة حقًّا وكنت أعاني من آلام الدورة الشهرية التي جاءتني بعد صدمتي باقتراح زوجي بساعة تقريبًا، لذا وجدت في تأكيداته على أن أتصرف بلباقة مع ضيوفه، الذين دعاهم على شرف وصولي، نوعًا من الابتزاز والتهديد المبطن. لكني كنت أعرف أن ما أبديته من شجاعة في مواجهته عندما اقترح عليّ أن يقدمني على أني أخته لم يكن سوى مقامرة ومغامرة مني لمواجهة هذه الخديعة القذرة التي قام بها معي، لأنه لو أبدى شيئًا من الصرامة على أن أكون زوجته في البيت وأخته أمام الرجال الآخرين لكنت وافقت، ففي كل الأحوال أني قطعت كل أواصري مع ذاكرتي وماضيَّ!

في الساعة السادسة طرق باب غرفتي وسألني إن كنت جاهزة، ونبهني بأن عليّ أن أركز على مدير القروض في أحد البنوك واسمه آدم جوردانو وآخر اسمه آدم فان هايدن، وهو مسؤول العطاءات في إحدى الشركات، أخبرني بأنه سيقدمهما بالتسلسل، الأول ثم الثاني!

لكن حدث أن وصل في السابعة تمامًا اثنان منهم معًا، وقدمني إليهم وقدمهم لي، كانا آدم فان هايدن الذي عليّ التركيز والتساهل معه وآدم فون موتر الذي لم ينبهني له، أما الشخص الأهم آدم جوردانو فلم يأت بعد، بقينا ننتظر الثالث الأهم بينهم، إلى أن جاء المدير آدم جوردانو، حاملًا باقة كبيرة من الزهور! والحقيقة كانت التفاتة جميلة منه، وكان يعرف الفرنسية بشكل ممتاز وكذلك الإيطالية والإسبانية إلى جانب الإنكليزية!

كان حديثهم خليطا من الألمانية والفرنسية والإنكليزية احترامًا لأخي وزوجي الذي لا يجيد الفرنسية، اثنان فقط كانا يتحدثان الفرنسية بتمكُّن، الأول هو آدم جوردانو، والثاني آدم فون موتر، الذي كما عرفت أنه من أصول عربية! وهو الذي أحسست نحوه بانجذاب حقيقي، وكان يتحدث الألمانية والفرنسية والعربية بلهجتها العراقية، ويبدو أن زوجي آدم الخليل بحكم خبرته في الحياة والعلاقات قد انتبه لنظراتي المليئة بالانجذاب نحوه. أما الشخص المهم الثالث وهو آدم فون هايدن فقد كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة أما الفرنسية فقد كان يفهمها لكنه يتكلمها بشكل سيئ.

آدم الخليل، زوجي، ذهب إلى المطبخ بحجة أن يأتي بشيء ما، ومن هناك ناداني كي أذهب إليه لأنه لا يجد ذلك الشيء، وسمى شيئًا ما ففهمت أنه يريد أن يتحدث معي، وحينما ذهبت إليه قال لي هامسًا: ليس هذا الآدم فون موتر هو المهم، وإنما الآخر والأهم آدم جوردانو، فلا داعي للعب دور العاشقة مع هذا العراقي، امسكي لي بالاثنين اللذين أخبرتك عنهما وبعدها العبي كما تشائين، "يا شاطرة، يا بتاع كازابلانكا"، وقال الجملة الأخيرة بطريقة مبتذلة، فشعرت بالاحتقار لنفسي، ووددتُ لو بصقت على وجهه في تلك اللحظة، لكن لا أعرف من أين جاءتني القوة بأن أصبر، بل وشعرت بكثبان من رمل الحقد تنهمر على روحي!

رجعت إلى الصالة وأنا ألبس قناع المرح والسعادة، جلست قرب الرجل الأهم مدير القروض في البنك آدم جوردانو، وكان رجلًا وسيمًا قارب الستين من العمر!

كان زوجي يبصبص بعينيه من المطبخ، والتقت نظراتنا أكثر من مرة، وحينما وجدني مسترخية مع آدم جوردانو ارتاح، وجاء حاملًا نوعًا من النبيذ الجيد، وهو يبتسم ويلقي النكات بالألمانية.

آدم فون موتر رجل هادئ يقارب الأربعين، وسيم، حزين النظرات، وكان يراقب المائدة وأجواءها أكثر مما يشارك فيها، وفي لحظة ما وأنا أتحدث باسترخاء ومزاح مع آدم جوردانو لمحت نظرة غيرة في عينيه!

زوجي جعل الأجواء مرحة، وكان كريمًا في قناني النبيذ أو ما حجز من طعام على المائدة من المطاعم العربية الموجودة في المدينة، واسترخى الضيوف، وانتقلوا من المائدة إلى الصالة، وقام زوجي بوضع موسيقى هادئة، وبعد دقائق، وبينما الجميع

يتحدثون، طلب آدم جوردانو بأدب أن يراقصني، فالمساحة في القاعة كبيرة.

لم أكن أعرف إن كان ذلك مقبولًا أم أن جو الاسترخاء والثمالة النسبية بعد ثلاث قناني نبيذ وقنينة كونياك تتيح مثل هذا الأمر! لكنني كنت متأكدة من أمر واحد وهو أن زوجي وأخي آدم الخليل كان قد خطط لكل شيء، وقد وضع الموسيقى الناعمة الراقصة عن قصد وتعمد! بل هو أشار إليّ بعينيه أن أراقص مدير قسم القروض في البنك.

كان الآخران يتحدثان، لكن ما أن قمت لمراقصة زميلهما حتى توقفا عن النقاش ترقبًا، وأخذا يتأملانني! وكان زوجي يحاول إشغالهما وتشتيت تركيزهما بالحديث وصب النبيذ في الكؤوس، وتقديم أصناف أخرى من الحلوى والفواكه والنبيذ!

وفي أقل من ساعة راقصت الضيوف الثلاثة بالتناوب، وأثناء مراقصتي لآدم فون موتر، العراقي، تبادلنا بعض الجمل بالعربي من باب المزاح، وسألني بالفرنسية إن كان يستطيع الاتصال بي، فقلت له بأنه ليس لدي أي شريحة هاتف نمساوية، سوى رقمي المغربي، فقال إذن سيترك لي رقمه على ورقة دون أن يرى الآخرون ذلك، وإذا ما صار لدي رقم فيمكنني أن أتصل به، لكن الغريب أثناء مراقصة الضيوف لي رأيت الغيرة في عيون زوجي آدم الخليل.

***

حين انتهت الأمسية كان الجميع ثملين إلا زوجي وأنا، قبّلوا يدي عند الوداع بطريقة احتفالية كملكة، ووعد كل منهم أن يدعونا إليه، وأكد آدم جوردانو بأنه سيدعونا إلى بيته الخاص للراحة في نهاية الأسبوع، ولم يصدق زوجي وأخي آدم الخليل ما سمعه، وأكد على أن ذلك سيكون شرفًا لنا. المهم، كانوا ثملين، وكان مع المدير سائقه الخاص، لذا تركوا سياراتهم قرب المبنى الذي نسكنه وركب الجميع في سيارة آدم جوردانو حيث طلب من سائقه أن يوصلهما إلى حيث يريدان بعد أن يوصله للبيت.

حين أغلقنا الباب خلفهم فوجئت بزوجي آدم الخليل يحضنني بحجة الفرح ونجاح الأمسية، فدفعته بقوة، أنا نفسي ارتبكت لشدّتها، لأنه تدحرج بطريقة كاد يسقط فيها، فركضت نحوه ماسكة بذراعه كي لا يقع، واستطعت أن أجلسه على الصوفا وجلست ماسكة بذراعه، شعرت بالخجل إذ وجدت نفسي أبالغ في ردود أفعالي معه، وقلت له

عفوًا لم أقصد ذلك، وبقيت ممسكة به، أحسست بانكساره، وغضبه، لكن نبرة صوتي الصادقة في الاعتذار، وبقائي ماسكة به وركضي بلهفة نحوه والإمساك به جعله يهدأ ويكتم غضبه، ولكي أبرر تصرفي وأتجنب أي رد فعل من طرفه سعيت جاهدة لتخفيف الأجواء بيننا فقلت:

- أنا تعبت من السهرة، ولم أصدق متى يغادرون كي أستريح، فأنت تعرف أني أتألم من دورتي الشهرية، وطول ساعات وأنا أمثل وأبتسم وأتحدث بسخافات وأضحك لنكات تافهة، وأشرب وأصطنع السكر، ولا أبدي لهم بأني متعبة من السفر ومن آلام الدورة الشهرية، بل عليّ أن أرقص مع الجميع، ولم أصدق أنهم غادروا وإذا بك تفاجئني باحتضانك لي. أنا آسفة حقًّا على ردة فعلي المباغتة.

كان ينظر لي ويستمع لكلماتي واعتذاري بانتباه، وكأنه يبحث عن مصداقية ما أقول، ورأيت كيف ارتخت ملامحه شيئًا فشيئًا، تجاوز الموقف وارتسمت ابتسامة على وجهه وتألقت عيناه وهو يقول:

- لقد كنت رائعة، لم يشكُّوا قط بأنك أختي، وهذان الآدمان جوردانو وفون هايدن قد تعلقا بك جدًّا، وحتى آدم فون موتر قد تعلق بك، لكنه بالنسبة لي صديق قديم ووظيفته ليست مرتبطة بمصالحي كما مع هذين الآدمين جوردانو وفون هايدن! كنت بارعة جدًّا، علينا أن نفكر في الخطوة التالية!

انتبهتُ أنا إلى أنني ما زلت ممسكة بذراعه، فسحبت نفسي، وقلت له:

- عليّ أن أذهب إلى غرفتي لأغير ملابسي وأنظف حالي، أحتاج لأخذ حمام ساخن.

نظر إليّ دونما ضغينة ثم ابتسم وقال بمودة فاجأتني:

- ما زال الوقت مبكرًا، استحمي وغيري ملابسك بينما أنا أرتب المائدة، بعدها نجلس لنتابع فيلمًا ونتحدث بما علينا فعله!

كانت تلك ليلتي الأولى، حيث بعدما عدت أخذ يحدثني عن الحياة هنا وكيف يمكن أن يكون المرء ثريًّا إذا ما ترك بعض المفاهيم الأخلاقية التي تربى عليها جانبًا، وأنه سيساعدني بأقصى ما يستطيع بأن يرتب أموري القانونية من إقامة وما شابه، وهذا الأمر سيساعدنا فيه آدم فون موتر لأنه يعمل في الجهاز الإداري بقسم الأجانب في بلدية

المدينة، أما الآدمان الآخران فعلينا الاستفادة القصوى منهما، حيث إذا ما حصلت على الإقامة فيمكنني إذا ما طاوعتهما وأوهمتهما بالحب فإنهما سيصيران بيدي، ويمكنني أن آخذ قرضًا كبيرًا من البنك الذي يعمل فيه آدم جوردانو مسؤولًا عن قسم القروض، حيث يمكنني أن أفتتح مشروعًا تجاريًّا لي!

ووجدت نفسي أسير في طريق الدعارة الأنيقة، وتذكرت قصيدة لشاعر إنكليزي أحبه، كان يتحدث عن العاهرات اللاتي يتجولن أمام الفندق وهن يتحدثن عن ميكائيل أنجلو! وها أنا التي كان اسمي في الجامعة "مس نيتشه" الآن أمثل دور الأخت بينما شرعًا أنا زوجة، كمثل أبي الأنبياء مع زوجه أمام جنود فرعون مصر! بل نسيت "نيتشه"، لا، نيتشه حاضر في عالمي أبدًا، لقد تذكرت شذرة له يقول فيها: "مَن يحتقر نفسه ما زال يحترم نفسه بوصفه قادرًا على الاحتقار"، ووجدت في هذه الجملة عزائي.

***

في اليوم التالي اشترى لي زوجي وأخي شريحة موبايل نمساوية فصار لدي رقم هاتفي جديد. ولم يكتفِ بذلك بل أعطاني أرقام الأوادم الثلاثة إلى جانب رقمه طبعًا، واستغربت أنه أعطاني رقم آدم فون موتر، على الرغم من أنني أمتلك الرقم إذ كان قد كتبه لي على ورقة، ويبدو أنه لم يشأ أن يدخل في مواجهة معي لا سيما أنه انتبه لارتياحي له، كما أنه فكر بأن آدم فون موتر سيساعدني في إنجاز معاملة الإقامة!

ذهبت مع زوجي آدم الخليل إلى بلدية المدينة، إلى قسم الأجانب، والتقينا بآدم فون موتر الذي ساعدنا في تجاوز الكثير من الأمور البيروقراطية! واختزل بعضها إلا ما هو رسمي جدًّا وضروري، كنا عنده في مكتبه، وبينما انشغل زوجي بالذهاب لدفع رسوم الإقامة اتصلت به، نظر هو مستغربًا، ابتسمت وقلت له هذا رقمي فاحفظه، واتفقنا بأن يهاتفني ليلًا في وقت متأخر، وحين عاد زوجي تحدثنا بالعربية قليلًا عن الأمسية، واتفقنا على الأمسية المقبلة في بيت الاستجمام لدى آدم جوردانو، إلا أن ما أزعجني هو أن آدم فون موتر لم يؤكد حضوره وقال بأنه ينتظر ضيفًا قادمًا من جنيف! وتحدث مع زوجي بالألمانية عن أمور لم أفهمها مباشرة، ووعدني بأن الإقامة ستكون جاهزة في اليوم التالي، علمًا هي تستغرق وقتًا أطول من ذلك!

وأخذني زوجي في جولة للتعرف على المدينة التي سحرتني بنظافتها، وتناولنا وجبة الغداء في أحد المطاعم، والحقيقة لا أعرف إلى الآن كيف شعرت بالاسترخاء والرضا والتقبل لهذا الرجل الذي هو زوجي وقوادي، فبعض الناس يشدنا إليه بخيوط حريرية من المجاملات المجانية ويبالغ في مديحنا ويرش علينا من عطور الكلمات الرقيقة الكثير، ونحن نعرف أنه لا يقصد ما تعني كلماته من مديح ومبالغة لكننا على الرغم من ذلك نتقبل كل ذلك منه بأريحية، بل نسعى إلى أن نرد له مجاملاته بأكثر أو أقل! تُرى لماذا نتقبل كل تلك المجاملات المزيفة وكل ذلك النفاق منه؟ هل نحن في حاجة لإرضاء غرورنا وإشباع نرجسيتنا! هل نحن في حاجة فطرية إلى النفاق!

قضيت اليوم الأول مع زوجي في التجوال بمدينة فيينا، أشبعني بكلامه ومجاملاته المليئة بالأوصاف والمبالغات إلى حد التخمة، بل إلى حد التقيؤ، ومع هذا كنت أتقبل ذلك منه برضا، علمًا أنني أدرك أن كل ما يقوله لا يعنيه، وأنها جزء من مهنته!

وطوال النهار كان هو في اتصالات مع ضيوف الليلة البارحة ومع آخرين، بعضهم عرب أيضًا، حيث تحدث معهم بالعربية غاضبًا، ويبدو أنه قد اقترض من الجميع، لأنه تحدث مع أكثر من شخص ودائمًا كان يعتذر بأنه الآن ليس قادرًا على الدفع لكن قريبًا سوف تحل كل الأمور المادية العالقة!

لكن في تلك الليلة، جاءتني الصفعة الثانية من زوجي وقوادي آدم الخليل، والتي وضعت حدًّا لعلاقتي به!

***

عدنا في وقت متأخر تلك الليلة، غيرت ملابسي، وتحممت، وارتديت بيجامتي، وجئت الصالون لنواصل السهر، وجاء هو بما تبقى من بقايا نبيذ في القناني من وليمة البارحة، لم أشرب أنا وإنما هو عبّ على كل ما موجود من بقايا.

كنت أعرف بأنني أنتظر اتصالًا هاتفيًّا من آدم فون موتر، لذلك ولكي لا ينتبه هو وضعت الهاتف على الوضع الصامت إلى جانبي بحيث أرى شاشته وأنتبه لأي اتصال دون أن يعرف!

كان هو منشغلًا باتصالاته التي كان بعضها بالعربي وبعضها بالألماني، بينما كنت

أنا أتابع قناة عربية تبث من دبي، وبعد فترة ليست بالقصيرة لمحت إضاءة الشاشة، عرفت أنه هو، تثاءبت مدّعية التعب وبحاجتي إلى النوم، وبعد لحظات افترقنا، كل منا إلى غرفته.

ولم أصدق انفرادي وعزلتي في غرفتي، اتصلت به، وتحدثنا بالفرنسية التي لا يفهمها زوجي إذا ما أراد التنصت، حدثني آدم فون موتر عن حياته، عن أمه العراقية ووالده النمساوي، وكيف أنه تعلم العربية من أمه، وكيف أنه درس بتخصص يبعد قليلًا عن وظيفته، وأنه كان يحب الفن لكن أمه التي ربته بعد وفاة والده الموسيقي عازف الجلو الذي غادر فيينا مع الفرقة الأوركسترالية لمدينة فيينا إلى البرازيل، وهناك تعرض إلى أزمة قلبية ومات هناك، رفضت أن يدخل هذا المجال. اضطر أن يدرس نظم الإدارة! وكان يحب قريبة له لكن والدتها لم توافق على زواجه منها لأنه كان لا يزال طالبًا، وكيف أنه على الرغم من ذلك كان يتسلل إلى أحد المسارح ليمثل هناك ولو أدوارًا ثانوية في مسرحيات معروفة، وكيف كانت إحدى الممثلات تأتي بابنتها التي في السادسة، وكيف كان هو يذهب إلى محل قريب من المسرح ليشتري لها البوظة، وبعد اثنتي عشرة سنة تقريبًا، وكان قد بدأ يعمل موظفًا في شركة خاصة، وكانت قريبته قد تزوجت من رجل غني وغادرت البلاد، التقى هو تلك الفتاة الصغيرة التي كان يشتري لها البوظة، فاندهش لجمالها، وتعلق بها، ونشأت بينهما علاقة جارفة انتهت بزواجهما برغم الاعتراضات، وأثمر هذا الزواج طفلة، لكن إحدى الأرامل الثريات الشابات ألقت عليه شباكها. ولم يواصل حكايته، ووعدني بأن يكمل حكايته لي لاحقًا، ثم سألني إن كنت أخت آدم الخليل حقًّا؟ لحظتها صدمني سؤاله، لكن أعجبتني فراسته، فسألته من أين جاء شكّه، فقال لي بأنه يعرف آدم الخليل منذ سنوات، وهو لم يحدثه عن أخت له بمثل عمرك، لا سيما وأنه سوري، بينما أنت لكنتك مغربية، فوجدت نفسي أنهار وأعترف له، وأحكي له قصتي طالبة منه أن يساعدني فليس لي غيره!

الصدمة الثانية خلال حديثي معه جاءت حينما روى لي بأن زوجي آدم الخليل كانت لديه زوجة وطفل، لكنه أجبر زوجته على أن ترحل بابنها بعيدًا، لا سيما وأنهما لم يسجلا زواجهما رسميًّا في المحكمة ودائرة عقود الزواج، فكانا أمام القانون غير متزوجين، وكان هو حينها قد ارتبط بامرأة نمساوية أصغر منه عمرًا، وحين طلبها للزواج

رفضت، واشترطت عليه ألّا تكون زوجة ثانية، وكان هذا قبل مجيئك بثمانية أشهر، ولا أحد يعرف مصير تلك المرأة المسكينة وابنها، هو أخذهما بنفسه إلى الشام وتركهما هناك وعاد إلى النمسا!

والمضحك والمبكي في آن هو أنه حين عاد إلى النمسا فرحًا وجد أن المرأة النمساوية قد اتخذت عشيقًا آخر، وحين واجهها قالت له بأنها تخاف منه، ولا تأتمن إليه، فقد غدر هو بامرأته وأم ابنه بسهولة من أجل الارتباط بها، بينما هو ليس مضطرًّا لذلك إذ أنه يعيش في النمسا بأمان، لكنه أرسلهما إلى المجهول من دون رفة جفن، وأنها ربما كانت ستحترمه ولربما كانت فضلت أن تبقى عشيقته لو أنه رفض عرضها بسهولة مدافعًا عن زوجته وابنه. ومرة أخرى تذكرت أبا الأنبياء الذي أخذ زوجته وابنه وأعطاهما قربة ماء وتركهما للمصير المجهول في الصحراء تلبية لرغبة زوجته الأولى التي جاءت له بالثروة والثراء بسبب مقايضتها لتكون زوجة للفرعون!

دمرتني تلك الحكاية، ووجدت نفسي أمام إنسان مخيف، وحش بلا قلب، وتذكرت ذلك النبي الذي قام بذلك قبله، ولم يكن ذاك النبي مضطرًّا فهو ليس بأمر إلهي وإنما أمر زوجته التي جلبت له الثراء، والتي ادعى أنها أخته! أي نبوة هذه!

واتفقت معه هاتفيًّا على أن أجيء دائرة الأجانب صباحًا لأستلم إقامتي، ويمكنني أن أسجّل عند دائرة المساعدات الاجتماعية مباشرة كما نصحني لأحصل على سكن ومرتب إعانة إلى أن أجد عملًا، هذا إذا أردت أن أعيش مستقلة!

***

صباحًا ذهبت وحدي إلى دائرة الأجانب، استلمت جواز سفري وفيه ختم الإقامة لثلاث سنوات، وأخذ آدم فون موتر إجازة لبقية اليوم، جاء معي ليساعدني في التسجيل عند دائرة المساعدات الاجتماعية، وخلال ذلك كان زوجي يتصل بي ولا أجيب! بعد ذلك أجبت زوجي بأني ذهبت لدائرة الأجانب وأخذت إقامتي، فرح كثيرًا، لكني لا أعرف لماذا وجدت قلبي ينقبض حينما ذهبت إلى دائرة المساعدات الاجتماعية، ولم أخبر زوجي بأن آدم فون موتر معي مثلما لم أخبره بأني ذهبت لدائرة المساعدات الاجتماعية، وحينما ودّعت آدم فون موتر ورجعت إلى الشقة فكّرت في الطريق، ولا

أعرف لِمَ كنت أميل إلى البقاء والعيش مع زوجي وقوادي آدم الخليل، فشقته نظيفة، وكل شيء متوفر، ثم إن علاقاتي الآن مع شخصيات مهمة، وإذا وافقت زوجي على خططه فربما سأصير ثرية حقًّا، لكني قررت مع نفسي بأن أكون عشيقة لآدم فون موتر.

# الفصـل الرابـع

# الوضوح ممل أحيانًا

في اللحظة التي انتهى آدم التائه من الفصل الذي كان يقرأه من اعترافات حواء كازابلانكا سمع وصول رسالة هاتفية، أخذ الهاتف ونظر إلى الاسم، فعرف أنها من حواء الورد، "هل يمكن أن يجد الإنسان كيانه وذاته في إنسان آخر، هذا أمر لن يحدث بإرادتنا، وإنما هو أمر يأتي بشكل قدري، وعلى غير توقع، بل استحالة توقعه، وكأنه رسالة من الغيب، صرت غير واثقة من شيء، كل شيء رهن الغيب والضرورات الغامضة، لكني أشعر أن روح العالم تحميني".

أعاد قراءة رسالتها مرات عدة، فكتب لها ردًّا سريعًا: "أقسم بالله ونوره في هذا الوجود، وبكل الخلائق والموجودات أني وجدت كياني وذاتي، لقد كتب جبران خليل جبران ذات مرة إن الجمال هو الأبدية تنظر إلى نفسها في مرآة، وأنتم الأبدية وأنتم المرآة"، وبعد لحظات جاءته رسالة نصها: "هل أنت مشغول هذا المساء؟ ما رأيك أن نلتقي في الساحة أو في أي مكان آخر"، فكتب: "يسعدني ذلك، الساعة الثامنة هنا في "ساحة الفنا" الأجواء ستكون رائعة، سأنتظرك أمام المقهى ـ المطعم نفسه"، وجاء الجواب بعد أقل من دقيقة: "اتفقنا".

***

عصر ذلك اليوم حاولت حواء الورد أن تجد الطريقة اللبقة التي ستخبر بها أختها وزوجها بأنها ستخرج وحدها هذا المساء، فقد رافقتهما في السفر بإلحاح منهما كي ترتاح نفسيًّا! وهما يسعيان جاهدين إلى أن تستمتع بهذه الرحلة، وتعبيرًا عن هذا الشعور

يسعيان أن تكون معهما أينما توجهوا، سواء إلى المطاعم أو المقاهي أو حينما يزورون قصرًا قديمًا أو روضة من الرياض التي تحولت إلى فنادق ذات حدائق ونافورات يملكها أجانب في معظم الأحيان أو الأماكن السياحية في مراكش وأنحائها! لكنها تريد هذا المساء أن تكون مع هذا الرجل الذي اقتحم حياتها كشهاب غامض! ظلت تفكر بطريقة ما لكنها لم تجد أي عذر مناسب بعد، لكن ثمة إشارة قَدَرية غامضة وصلتها، حينما أعلنت أختها بشكل مفاجئ أنها تتألم وسترقد في غرفتها فقد جاءت دورتها الشهرية قبل أوانها!

جلست حواء الورد في شرفة غرفتها المرفهة في الطابق الثامن والمطلّة على حدائق الفندق التي تلتف حول مبنى الفندق من معظم جوانبه. كانت تحس بتيارات متضاربة من المشاعر، تأنيب ضمير لا يدركه غيرها من جهة، وفرح غامر يعيد لها بهجتها بالحياة ويدفعها لإعادة النظر في ذاتها وحياتها ويضيء لها أفقًا، لكن سألت نفسها: لماذا اهتزت مشاعري وأعماقي ودروبي التي أتخيلها لحياتي منذ أن قابلت هذا الرجل؟ أنا لم ألتق به إلا هذا اليوم، كيف يمكن لمثل هذا الوقت القصير أن يعيد صياغة عالمي النفسي من جديد وكأنني فراشة تخرج من شرنقتها؟!

غادرت الشرفة ودخلت إلى غرفتها بدافع لا شعوري. تحررت من حجاب الرأس، ألقت به على السرير العريض، وتوجهت لا إراديًّا نحو المرآة الكبيرة التي تنتصب على طاولة صغيرة وجلست على الكرسي الذي أمامها، ظلت تنظر لوجهها الأنيق الذي يميل إلى النحول، إلى شفتيها المكتنزتين، وبيديها نفشت شعرها الأسود الطويل الذي انهمر على جبينها وكتفيها بنعومة، كانت تتأمل وجهها وكأنه ليس وجهها، غمرها شعور باللطف والمودة نحو صاحبة هذا الوجه! كانت تدرك أن الوجه الذي في المرآة هو وجهها، لكنها على الرغم من ذلك كانت تحس أنه ليس وجهها أيضًا، وإنما وجه حواء الورد التي في أعماقها والذي لا يظهر بسهولة إلا حين تخلو إلى نفسها، وببطء نهضت عن الكرسي، ابتعدت قليلًا عن الطاولة والمرآة، رأت جسدها كاملًا في المرآة، ببطء أخذت تنزع عنها ملابسها وهي تستعرض مفاتن جسدها أمام المرآة، فجأة انتبهت إلى أن باب الشرفة مفتوح، فأسرعت إلى إغلاقه وسحب الستارة كي لا يراها أحد، انتبهت في تلك اللحظة إلى أنه لم يكن أمام شرفتها أي مبنى وإنما السماء الفسيحة!

وقفت عارية أمام المرآة، راودها إحساس بكبرياء ممزوجة ببهجة حينما انتبهت لجمال جسدها، فجأة، داهمها شعور مريب غامض، ارتسمت ملامح الخوف على وجهها، انقلبت حالتها النفسية، لملمت ملابسها بسرعة ودخلت إلى غرفة الحمام وهي تتعوذ من الشيطان على هذه النزوات التي تجتاحها أحيانًا.

في الحمام شعرت بشيء من الأمان، ووجدت عريها هناك طبيعيًّا بل ومستحبًّا، أخذت تتأمل وجهها، وجسدها، والشامات المنتشرة على جسدها، بل راودتها رغبة طفولية في حساب عدد الشامات المنتشرة على جسدها وظهرها، استدارت لتعدّ ما يمكن أن تراه، استغربت هذا العدد من الشامات الصغيرة جدًّا على جسدها!

طال بقاؤها في الحمام، وبعد أن خرجت كانت ترتدي ثوبًا منزليًّا أسود شفافًا ومخرمًا بنقوش يبدو الجسد من خلالها. لم تجلس أمام المرآة، وإنما اتجهت إلى السرير واستلقت عليه، كانت تشعر بحالة كمن يحلق في الفراغ، لم تكن تشعر بثقل وجودها الجسدي، هي ليست هنا، حدّقت إلى سقف الغرفة، تاه ذهنها في بياض السقف المطلي بالجبس، لم تعرف كم من الوقت مرّ وهي تائهة في السقف الأبيض!

فزّت على رنين هاتفها النقال، بحثت عنه للوهلة الأولى بعينيها في أرجاء الغرفة إلى أن أدركت بعد ثوان أن الرنين يأتي من حقيبتها الجلدية السوداء، قفزت إليها بلهفة وهي متيقنة من أن المتصل هو آدم التائه، أخذت الهاتف ونظرت لشاشته المضيئة فقرأت اسمًا صدمها لثوان، فلم تكن تتوقع أن يتصل صاحبه بها قط، أرادت أن تجيب على الاتصال لكن خاطرة ومضت في ذهنها، رجعت لتجلس على حافة السرير وهي تحملق بشاشة التليفون وتسمع الرنين، إلى أن توقف.

أحسّت بالضيق من هذا الاتصال، لقد عكّر عليها فرحها. ظلّت جالسة على حافة السرير ووجدت نفسها محاصرة مثل لبوة في قفص حديدي، وخلال لحظات مرت حياتها أمام عينها الداخلية كشريط سينمائي، وسألت نفسها: "أيجب عليّ أن أروي لآدم التائه قصتي، بأنني مخطوبة، بل ومرتبطة كزوجة شرعية على وقف التنفيذ؟ وإنني مررت بتجارب لا يتوقعها مني ربما، ولا يشي بها حجاب رأسي وملابسي المحافظة؟!".

أحسّت بخوفٍ باردٍ بدأ يتسرب إلى أعماقها، خوف من المستقبل، من القادم المجهول، وعلى الرغم من أنها دائمًا متفائلة وتقنع نفسها بأن الذي سيأتي سيكون

جميلًا، لكن منذ فترة صار لديها خوف من خطيبها آدم الشكّاك، من شكوكه، وغيرته، من كل شيء سيأتي منه ومعه، وأخذت تفكر مع نفسها: "تُرى ما هذا الذي سيأتي بالضبط وأخافه؟! أنا لا أستطيع أن أتبين ما سيأتي! بيد أني أشعر بانقباض في نفسي وكأني سأمشي بقدميّ إلى الهاوية، إلى سجن مظلم مخيف يمكن أن يكون مخيفًا بل ومرعبًا مثل زواجي الأول"، كانت متشائمة مما ينتظرها، وخائفة، لكنها تعوّذت بالرحمن وقالت لنفسها: رحمة الله واسعة.

استرجعت في ذهنها كل تفاصيل حياتها العائلية، وزواجها الأول، وكل ما جرى لها أثناء انشغالها بإجراءات الطلاق وبعد الطلاق، وفكرت أنها كانت في حياتها كالسائر في النوم، كانت تمشي مفتوحة العينين لكنها ليست مستيقظة، واليوم فجأة استيقظت حينما التقت آدم التائه! لكن هذا الاتصال هزّ كيانها، أربكها، وفجّر فيها كل هذه التداعيات، وخلال ثوان قليلة أحست أن آدم التائه هو قدرها، على الرغم من أنها ستتزوج من خطيبها آدم الشكّاك!

كانت متأكدة بأن خطيبها آدم الشكّاك ما دام قد اتصل ولم ترد عليه فإنه سيعاود الاتصال، وكانت على يقين أيضًا بأنها ستجيبه في المرة المقبلة ولا تستطيع تجاهل اتصالاته، وعن هذا الاتصال فكّرت مع نفسها بأنها ستقول له إنها كانت في الحمام ولم تسمع رنين الهاتف.

ظلت للحظات تتأمل الهاتف وكأنها تتوقع أن يكرر اتصاله، ومرت دقائق ولم يتصل، خمّنت أنه سيشتعل غيرة، وسيغضب منها لهذا التجاهل، بل سيبدأ معها تحقيقًا بوليسيًّا عن عدم ردها على اتصاله، وفكرت مع نفسها بأن خطيبها آدم الشكّاك هو اسم على مسمّى، فهو إنسان يشك في كل شيء، وفي كل البشر، ولا يقين لديه ولا إيمان سوى يقينه بنفسه وإيمانه بأنه إنسان مهم جدًّا وذكي جدًّا وأن حواء الورد، خطيبته وزوجته شرعًا لا تستطيع أن تفكّ أبسط الأمور الحياتية دون رأيه أو مشورته؛ لذا فهو يتعامل معها كامرأة لا تحسن تدبير الأمور دونه، بل عليها أن تتعامل مع الأشياء والعالم من خلاله!

ولا إراديًّا انهمرت في أعماقها صور متحركة لأول لقاء بينهما، وكان ذلك قبل أربع سنوات، حين كانت تائهة بين أروقة المحاكم لتحصل على حقها في الانفصال عن زوجها الأول والانفكاك من رابط الزوجية التعيس! تذكّرت كيف كان والدها يسعى عبر

الوساطات أن يجد من يساعد ابنته في قضية الطلاق، وكيف أنه مصادفة التقى جارهم آدم الشكّاك الذي يعمل موظفًا في أحد البنوك ببيروت، ودار الحديث عن السفر المتعب بين الضيعة والمدينة الكبيرة، فأوضح الجار بأنه استأجر شقة في بيروت وأنه لا يزور الضيعة إلا في نهاية الأسبوع، ثم أخبره الأب بحال ابنته التي منذ سنتين تدور بين العاصمة ومحاكم مدينة صيدا القريبة بشكل شبه يومي، وحينما استفسر آدم الشكّاك عن المشكلة، شرح له الأب بشكل ليس مسهبًا لكنه كان كافيًا له أن يلمّ بالقضية، استغرب آدم الشكّاك بأن ابنة جاره المثيرة والتي ظنها لم تتزوج بعد، تسعى للطلاق، فوعده جادًّا بالمساعدة؛ لأنه يعرف أشخاصًا مهمين في محكمة العاصمة، هم زبائن البنك الذي يعمل فيه، بل وإنه يشرف بشكل مباشر على مصالحهم المالية! وطلب من والدها أن تمرّ هي عليه في البنك! وهذا ما حصل، وكان اللقاء الأول بينها وبين خطيبها آدم الشكّاك!

تتذكر ذلك اليوم جيدًا حين ذهبت إلى البنك المعروف الذي يقع في بداية شارع الحمرا كي تقابله، لم تكن صورة آدم الشكّاك راسخة في ذهنها، فهي بالكاد تتذكره، فقد رأته بشكل عابر حين كان يزور الضيعة!

حين دخلت البنك سألت أول موظفة تجلس حول طاولتها قرب المدخل عنه، فأشارت إلى عمق الصالة حيث كان يجلس في مكتبه المنعزل بالجدران الزجاجية، فاتجهت إليه، وحين صارت على متر من الباب لمحها، نهض مندهشًا وفتح لها باب مكتبه، مد يده بارتباك ليصافحها فتحركت وكأنها لم تره، فهي لا تصافح أحدًا غريبًا تراه لأول مرة!

انتبهت إلى أنه لم ينزعج وإنما ابتسم مع نفسه ابتسامة دافئة وغير غاضبة وكأنما أعجبه أنها لم تصافحه، دعاها للجلوس مرحبًا بحفاوة، كانت نظراته المنبهرة بها وبأناقتها تفضحه، أدركت هي ذلك، ومنحها مشاعر ثقة بنفسها وأزاح عنها خجل ارتباك اللقاء الأول، لا سيما هي التي جاءته ترتجي مساعدته لها!

تتذكر أنه كان مرتبكًا ومختنقًا من شدة انفعالاته وفرحه بوجودها في مكتبه، وأنه اندلق بسيل من كلمات التودد المقصود والتي تكشف مكانتها لديه، استوعبت الموقف في لحظات، وشعرت بأحاسيس الأمل تتدفق في روحها بعد يأسها الذي خنقها طوال هذه السنوات، وتيقنت بأنه سيبذل المستحيل من أجل أن تحصل على الطلاق، وفعلًا، وأمامها، وبعد أن طلب القهوة لكليهما، وأثناء ارتشافها لقهوتها أخذ يتصل بمعارفه في

المحاكم الشرعية، وطلب منها برقة رقم معاملتها ورقم القضية، لحظتها أحست أنه المخلص، وعليها أن تتمسك به.

حدّثها عن نفسه قليلًا في ذلك اللقاء، وفصل أمورًا عادة لا تقال في اللقاء الأول، عن حياته في بيروت، وعن إمكانياته المادية، وشقته الواسعة، وزياراته المتكررة سنويًّا إلى أوروبا، وبالتحديد ألمانيا لأن لديه صديقًا يمتلك مطعم ومقهى، وتركيا والمغرب، بل وأخذ يتحدث عن شخصه بأنه إنسان متفتح وعصري وليس كرجل قادم من الضيعة ولا يزال أهله يعيشون فيها!

بعد يومين من ذلك طرق باب بيتهم في الضيعة، استقبله والدها أحرّ استقبال، ودعاه للدخول، وتعمقت العلاقة بينهم، وتتذكر الآن أنه كلما يكون عندهم يستقبل بعض الاتصالات الهاتفية من بعض الشخصيات النافذة، فيتقصّد فتح سماعة الصوت عاليًا كي يُسمع أهلها كيف تتحدث تلك الشخصيات النافذة معه باحترام!

وعلى الرغم من أنه لم يساعدها كثيرًا في أمر الطلاق لأنه تم بعد تسوية مالية بين أهلها وأم طليقها، لكن زيارته تكررت أسبوعيًّا، بل صار يزور الضيعة أكثر من مرة أسبوعيًّا بحجة أن والديه المسنّين مريضان، فكان يتلقى المدائح من والديها على برّه بوالديه وندرة هذه الأخلاق في هذا الزمان، لكنها بغريزتها الأنثوية كانت تعرف أنه يجيء من أجلها هي ليتقرب من أهلها! فقد أخذ يتصل بها بعد اللقاء الأول بحجة متابعة قضية الطلاق، لكن العلاقة بينهما كانت بين مد وجزر، ولم يكن التواصل مكثفًا، إلا أن أمها فاتحتها ذات مساء بأن آدم الشكّاك يقوم بكل هذه الزيارات لهم لأنه يريدها هي، وواضح ذلك من كثافة تواصله معهم، واتصاله بوالدها من بيروت ليطمئن على صحته وأحواله ويعرض مساعدته في أي أمر يحتاجونه! وأحست هي أن الأمور أخذت تسير في طريق مرسوم يريده أهلها أيضًا!

تم الطلاق بعد تسوية مالية، وبعده بفترة ليست بالقصيرة فاتحها بالزواج، وكانت قد تعودت عليه، بل صار جزءًا من العائلة، لذا كان يلتقيها بشكل اعتيادي، بل وقبل ذلك وبتشجيع من أهلها كان يوصلها خلال فترة التيه في المحاكم من بيروت إلى الضيعة، وأحيانًا يأخذها صباحًا إذا ما كان لديها موعد في المحكمة!

تتذكر الآن أنها كانت مترددة في البداية، فقد انتبهت لغرابة شخصيته، كانت تراه

غريب الأطوار، شكّاكًا بشكل مخيف، غيورًا بقوة لا يستطيع صدها، أنانيًّا، يفكر بنفسه أولًا ثم يأتي الآخرون أو لا يأتون في الترتيب! وفي الوقت نفسه فهو حنون جدًّا كطفل، وطيب القلب ولديه سماحة تثير الإعجاب، لكنها انتبهت إلى أن حبه للآخرين ليس طبعًا أصيلًا من باب العطاء فيه وإنما هو ملاذ، هروب من وحدته الداخلية، لذلك فهو يحتفي بالآخرين لأنهم يمنحونه بالمقابل الحنان الذي يفتقده، هو يرتاح لعائلتها لأنهم يهتمون به ويحترمونه، مع أن عائلته تهتم به أيضًا لكن عائلتها تشعره بأهميته بينهم ويفيضون عليه بالحنان، ربما أكثر من عائلته، بل واكتشفت أنه يفرح كطفل بحفاوة عائلتها له لأنهم يقومون بذلك بشكل راق ومبالغ فيه أحيانًا، فالإتكيت يحيط بهذه الحفاوة ويصيغ شكلها، وهو يهتم بالإتكيت واللياقات الاجتماعية واللباقة!

تتذكر أنها كثيرًا ما فسّرت ذلك بأنه ربما يعاني من عقدة نقص لذا يشعر بأهميته من خلال الإتكيت، وربما لسنوات ابتعاده عن الضيعة وعن أهله واستقراره في بيروت تأثير في صياغة سلوكه! ومع محاولاتها تفسير سلوكه فإن شخصيته حيّرتها، فعلى الرغم من أنه يظهر حاله بأنه شخصية "مودرن"، معاصرة ومنفتحة، إلّا أنه لا يحبها أن تكون كذلك، بل يريدها محافظة، محجبة، بل لو كان الأمر بيده لأجبرها على لبس النقاب وليس التحجب فقط، فهو يريدها امرأة لا تفكر، طائعة ومستسلمة، تعتمد عليه في كل شيء، يريدها فتاة من الضيعة!

بعد سنة من التواصل المتقطع معها، والكثيف مع أهلها، فاتحها بالزواج، ولأن العلاقة صارت واقعًا، ودخوله وخروجه وقضاء نهاية الأسبوع عند الأهل فقد انتشر الأمر في الضيعة، وكان أهلها يحبونه بصدق، وكانوا حريصين على أن يتزوجها، فهو في رأيهم الرجل المناسب بالنسبة لها، لا سيما وهي مطلقة! طبعًا أهلها كانوا يهتمون بجوانب أخرى، فهو بالنسبة لهم إنسان مثالي، ونافذ، وله حضوره وشخصيته ومكانته بين الناس!

تتذكر أنها لم تجد أفضل منه في تلك المرحلة، لا سيما وأن جميع مغامراتها السرية، التي لا يعرف بها أي مخلوق، لم تنتهي بعروض الزواج والاستقرار العائلي والنفسي، فوافقت عليه دون اعتراض حقيقي، فخطبها من أهلها، وتطورت العلاقة أكثر، وصارت العلاقة علنية أمام أهل الضيعة، حتى وصلت إلى أخذ الصور بجهاز الهاتف النقال الذكي، وصار بينهما احتضان خفيف بريء!

لكنها الآن تتذكر ذلك اليوم ولا تنساه، وكان قبل عقد القرآن، عندما قررت الانفصال عنه وفسخ الخطوبة، تتذكر أنه أوصلها لبيروت لشراء بعض الملابس وأشياء أخرى، حينها وبشكل قدري غامض، لحد الآن لا تعرف تفسيره، وضعت حقيبتها اليدوية الجلدية في المقعد الخلفي، وحينما كانت وحدها في محل الملابس بشارع الحمرا وفتحت حقيبتها لتدفع الحساب وجدت جهاز هاتف نقال أبيض اللون، لم تفهم لحظتها لمن هو؟ وكيف صار في حقيبتها! إلى الآن وبعد هذه الفترة الطويلة التي مرت على ذلك اليوم هي لم تجد تفسيرًا لما حصل!

تتذكر أن شكًّا وشعورًا داخليًّا غامضًا راودها بأن الهاتف يعود لخطيبها! لكن كيف صار في حقيبتها؟ حاولت أن تفتح الجهاز، لكنها لا تعرف رقم الدخول السري، فجأة وكأنما الإجابة جاءت من الغيب، إذ تذكرت أنه قال لها معبرًا عن عمق حبه لها بأنه يستخدم سنة ميلادها ككلمة سر لبعض أجهزته التي تتطلب مفتاحًا سريًّا، وأدخلت الأرقام 1990 فانفتحت صفحات الهاتف لها، ويا ليته لم يُفتح، دفعت الحساب بسرعة دون تدقيق، غادرت المحل لتجلس في مقهى "الحمرا" القريبة من محل الملابس، وهناك أخذت تتوغل بدهشة ولهفة وغضب مكتوم في عالم الجهاز، وعالم خطيبها آدم الشكّاك، صُدمت عندما اكتشفت علاقاته المتعددة، قرأت محادثات مضى عليها سنوات، لكنها انتبهت لمحادثات جرت أثناء فترة خطوبتهما، وتذكرت فجأة بأن إحداهن كانت مغربية، ومن مراكش بالتحديد، هذه المدينة التي هي فيها الآن، وكان قد اتفق معها أن يلتقيا في إستنبول، وهناك أخريات لبنانيات يحدثهن كيف هو الآن وماذا يلبس!

تتذكر صدمتها ذلك اليوم، تتذكر كيف كانت الدموع تنزل من عينيها دون انتباه منها، شعرت بالانكسار، والخيبة، فقد أحست أنه محكوم عليها بالألم والخيبة والصدمات بالرجال الذين ترتبط بهم! ولحظتها هيمن على ذهنها سؤالان: كيف سأواجهه؟ ماذا سأقول لأهلي؟ هم يرونه معجزة هبط من السماء لإنقاذي من وضعي الاجتماعي، بل حتى هي أيضًا أخذت هذه الصورة ترسّخ في نفسها!

تتذكر أنه أثناء قراءتها للمحادثات اتصل بها، كان غاضبًا منها، متهمًا إياها بأنها أخذت هاتفه النقال الآخر لتتجسس عليه، وسألها أين هي الآن، فأخبرته بمكانها، وبعد دقائق قليلة اصطفت سيارته أمام المقهى، دفعت ما عليها وغادرت، صعدت إلى جانبه

وانطلقا نحو البحر، وفي الطريق ما بين الروشة والمنارة، كان هو يصرخ فيها بأنها أخذت الجهاز عمدًا لتراقبه، لكنها بعد صراخه راودها شعور غير يقيني بأنه هو تعمّد وضع الجهاز في حقيبتها كي يريها بأنه محبوب من قبل النساء، يرضي غروره ونرجسيته من جهة وليثير غيرتها من جهة أخرى ويجعلها أكثر تمسكًا به، لكنه كان مخطئًا، فقد غضبت منه، من اتهامه لها أولًا، وثانيًا مما رأت من فضائح مخزونة في الجهاز، وأسمعته كلامًا لم يكن يتوقع أن يسمعه منها، طلب منها أن يجلسا في مكان ما على الروشة، لكنها رفضت بحزم، وقالت له خاتمة حديثها معه بأن عليه أن يوصلها قرب جسر الكولا، ومن هناك سترجع هي إلى الضيعة بسيارة أجرة، لكنه صمت، وقال لها إنه سيوصلها إلى البيت، وأخذها إلى الضيعة، وكانت المسافة كافية بأن تمنحهما الهدوء، لم يتكلما طوال الطريق، لكنها كانت قد اتخذت قرارها بفسخ الخطوبة، وعند دخولها وحدها إلى البيت فقد كان مرتبكًا من الدخول، انتبه الأهل إلى غضبها الواضح وحزنها، وقبل أن يسألوها قالت إنها تريد فسخ الخطبة، وكان كلامها صاعقًا بالنسبة لوالديها، تتذكر كيف كانت الدهشة الصادمة قد شلت لسانيهما فلم يسألها أحد منهما: لماذا؟ وإنما هي بادرت بالتوضيح، أخبرتهما بما جرى، لكنها لم تتوقع أن يكون رد فعلهما بأنها مخطئة، إذ قال لها والدها بأن آدم الشكّاك رجل ويحق له ذلك وأن ذلك كان قبل أن يعرفها، فردت بأن هناك محادثات أثناء فترة الخطوبة فردت والدتها بأنهما مخطوبان وليسا متزوجين!

لم تكن صدمتها بموقف أهلها أقل من صدمتها بما جرى، لكن بعد يومين بالضبط، وصلتها رسالة منه يطلب مقابلتها ويطلب العفو والسماح، ولا تعرف إلى الآن كيف قام بذلك، فهو من هذه الناحية متعجرف ولا يتنازل لأحد، وخمّنت بأن والدها أو أمها تحدث معه حول الأمر، وحين أخبرت والديها بأمر الرسالة لم يتفاجآ، وكأنما كان هذا ضمن الاتفاق بينهم، ونصحاها بلقائه والاستماع له، وهذا ما جرى، فقد التقته، ووجدته مهذبًا، اعترف بخطئه، وبأن ما جرى مجرد نزوة، وأن كل تلك الفتيات لسن النساء اللاتي يفكر فيهن، هن مجرد نساء للهو وقضاء الوقت الفائض، وما جرى مجرد نزوات، وهو يبحث عن امرأة عفيفة، مهذبة، وأنه لن يتزوج غيرها، وللتأكيد على ذلك اقترح عقد القران والزواج شرعًا، وتأجيل أمر الزفاف إلى أن يكون البيت جاهزًا، وهذا ما جرى، إذ احتفل الأهل بعقد القران، وكان ذلك بالنسبة لهم مكسبًا كبيرًا، فهي الآن زوجته شرعًا وقانونًا، لكن بالنسبة لها كان الأمر مختلفًا، صحيح أن عقد القران قرّبها منه أكثر، وكشف

لها جوانب إيجابية في شخصيته، لكنها أيضًا اكتشفت ظلالًا أخرى في شخصيته، ظلالًا تبعث الرعشة في روحها حين تفكر فيها!

فجأة تذكرت مساء يوم عقد القران، حيث اجتمع أهلها وأهله عندهم في البيت، وبينما كان الجميع يجلسون في الحديقة ويتناولون العشاء، غادرتهم صاعدة إلى غرفتها لترتاح قليلًا، وفوجئت به يدخل غرفتها ويغلق الباب خلفه، أرادت أن تطلب منه المغادرة لكنها أدركت أنها الآن زوجته شرعًا، فاقترب منها واحتضنها من الخلف، وأخذ يجول بكفه في جسدها صعودًا ونزولًا، وبطريقة عجولة ومرتبكة وعنيفة لحد ما أخذ ينزع عنها ثيابها، وفي الوقت نفسه يفك حزام بنطاله، تتذكر أنها أُثيرت، لكنها كانت مرتبكة، لا تعرف كيف تتصرف معه، فجأة، ودون مقدمات كثيرة ألقاها على السرير وأولجه فيها، تتذكر أنها في تلك اللحظة فقط أحست أنها لم تمارس منذ شهور طويلة، أحست بأنوثتها، لكن ذلك الإحساس ضاع في لجة الواقع الذي تعيشه في تلك اللحظات المليئة بالارتباك والخجل والخوف من أن ينتبه الأهل لوضعهما، ثم فجأة انتبهت له وإلى ملامحه، كانت نشوة الانتصار ترتسم على وجهه وهو يدفع فيها بقوة وعنف، كان اختراقها وهيمنته على جسدها يثير نشوته أكثر من الفعل الجنسي نفسه. ولا تعرف لماذا أحست بالانكسار في تلك اللحظة أكثر من نشوتها أيضًا.

الآن هي في غرفتها في مراكش، وفي الطابق الثامن من الفندق تفكر بتلك اللحظات، وتتذكر وجهه، وكيف أنها طلبت منه أن يقذف خارجها، وكيف أنه ما أن انتهى حتى غادرها منتشيًا وعلى وجهه ابتسامة غامضة، ابتسامة المنتصر، وكأنه حطم كبرياءها وعزتها بنفسها وكسر شوكة تحديها وتهديدها له بفك الارتباط، وأنه الآن قد انتصر عليها وانتقم لساعة الذل التي عاشها بالاعتذار منها لما شاهدته في جهاز الهاتف النقال، فليس هو الذي يعتذر لواحدة مثلها! وشعرت بالخوف مما ينتظرها معه بعد الزواج، أحست أنها مقبلة على أمر جلل لا تعرف كيف ستجتاز سنواتها التي ستقضيها معه!

فزّت حواء الورد من تداعياتها على طرقات خفيفة على الباب، ظنت أنها تتوهم، أنصتت للحظات، فسمعت بوضوح تكرار الطرقات الخفيفة على الباب، فسألت بصوت عال من مكانها:

- من هناك؟

لم تسمع جوابًا، وإنما ازداد الطرق على الباب، صار أقوى، توجست الأمر، إيقاع الطرق يشي وكأن الأمر مُلح، فكرت لو كانت أختها لاتصلت بها هاتفيًّا من خلال خدمة الاتصال الداخلي، نهضت عن السرير، أخذت الشال وشدته على رأسها كحجاب سريع، وتوجهت بتوجس نحو الباب، وكانت قد أغلقته بالسلسلة الإضافية، فتحت الباب من دون أن ترفع السلسلة، فلم تجد أحدًا، استغربت، رفعت السلسة وفتحت الباب بالكامل، لم تجد أحدًا، أطلّت برأسها لتنظر إلى جانبي الممر، كان الممر خاليًا، لا أحد في الممر، استغربت، فالمصعد بعيد عن غرفتها، وغرفة أختها في الطرف الآخر من الممر، ولكي يغادر الطارق بالمصعد يحتاج لفترة أطول من فترة آخر الطرقات وفتحها للباب، أي يجب أن تراه!

أغلقت الباب وكل ظنها أنها قد توهمت وخُيل لها بأنها سمعت طرقًا على الباب! لم ترجع للجلوس على السرير، وإنما جلست على الكرسي الذي أمام المرآة الكبيرة، وحين نظرت إلى المرآة صرخت وقفزت بحيث كادت تسقط هي والكرسي، فقد رأت زوجها الأول في المرآة، لكن وخلال ثوان اكتشفت أنها وحدها في الغرفة ولا أحد غيرها! فكرت مع نفسها ربما كل هذه الأوهام بسبب التداعيات التي تفجرت في نفسها، انتبهت إلى أن الساعة السابعة، نهضت على عجل ودخلت إلى الحمام وهي مكتظة بالهواجس المظلمة.

حين خرجت من الحمام كانت في ثوب أسود أنيق وبحجاب أرجواني اللون، ويفوح منها عطر خفيف مثير! كانت الساعة قد صارت منتصف الثامنة، لم يبق أمامها سوى نصف ساعة، نظرت إلى الغرفة، أحست بأن شيئًا غريبًا يجري فيها، أخذت حقيبتها السوداء المطعمة باللون الوردي، غادرت الغرفة، أطبقت الباب خلفها وكأنها تهرب من شيء يلاحقها.

***

بعدما صارت في صالة استقبال الفندق انتبهت إلى رجل أشقر وسيم يجلس وحيدًا على صوفا في جانب من الصالة، كان الرجل ينظر إليها نظرات مستفهمة! لم تعره انتباهًا، فقد كانت مرتبكة وقلقة، فكرت أن عليها أن تتصل بخطيبها آدم الشكّاك لأنه سيتصل

مرارًا، وربما سيتصل بأختها أو زوج أختها ليسأل عنها وعن سبب عدم ردها عليه! ولكي تتجنب أن يتصل بها وهي مع آدم التائه ذهبت إلى أقصى القاعة وجلست على صوفا جلدية بيضاء، وأخذت تبحث عن اسمه كي تتصل به. فجأة ارتبكت ووقفت وكأنها في مقام مهيب وهي تقول:

- أهلًا حبيبي، كيفك يا عمري، أعتذر، كنت أتحمم عندما اتصلت (صمت للحظات)، كيف؟ هل اتصلت بأختي؟ (صمت للحظات)، تليفونها مغلق، أي ربما، أنت كيفك! كيف هي صحتك! والشغل! (صمت)، الجو هنا رائع تمنيت لو كنت معنا كان صارت سفرة لا تنسى طول العمر! أوكي حبيبي لا أريد أن آخذ من وقتك الكثير، أكيد أنت مشغول، باي حبيبي!

حين أغلقت الهاتف أحست لحظة بتوقف كل شيء، وكأنها انتقلت من عالم إلى عالم، أحسّت وكأنها ألقت عن كتفيها حملًا ثقيلًا!

بإعياء ألقت جهاز الهاتف جانبًا وكأنها تخلصت من عبء ثقيل، بدت من بعيد لعيني الرجل الأشقر الوسيم الذي لم يبعد عينه عنها منذ رؤيتها، وكأنها لوحة أقرب للوحات الفن الحديث أو لعالم التصوير الفوتوغرافي، امرأة بثوب أسود أنيق وشال أرجواني جالسة على صوفا جلدية بيضاء!

"ما هذا النفاق يا حواء، لماذا تخافين منه هكذا؟ كيف ستعيشين العمر معه إذا كنت ضعيفة أمامه وتخافين شكّه، ليس في حضوره وإنما في غيابه؟! إلى أين تمضين بحياتك؟ لماذا تخافين المجتمع والناس، وتحاولين إرضاء الجميع بالتضحية بحياتك؟ أنت تعرفين أن حياتك ستكون صعبة معه، بل ستكون رحلة في المجهول، ليس واضحًا منها سوى حاضر هذه الرحلة أو التحضيرات لها، وهي رحلة متعبة ومريبة، عليك الزواج بعد الانتهاء من تجهيز الشقة! وما سيجري بعد ذلك هو سؤال مبهم وغامض يرقد في أعماق الغيب! ربما ستسير في سلام إذا نسيت نفسك وروحك وأحلامك وذاتك وكيانك وصرت زوجة عليها تجهيز الطعام وترتيب البيت والاستعداد لاستقبال الزوج الذي يعود من العمل متعبًا ويحتاج جوًّا مريحًا وابتسامة دائمة ومزاجًا رائقًا، وربما سيأتي الحمل ثم الولادة، وهكذا! أما إذا أردت أن تكوني نفسك وكيانك وطموحك فربما ستفتحين على نفسك بوابات الجحيم! وحتى لو سمح لك بمواصلة عملك فالحياة حينها ستكون

رمادية اللون، فكلاكما سيتعب من العمل، كلاكما سيحتاج للراحة والاسترخاء! وكل منكما سينتظر من الآخر تفهمًا وتقبلًا لوضعه ومزاجه، وماذا لو لم يتم ذلك، وهذا هو المنتظر مع الشكّاك آدم الشكّاك!"، كانت تسأل نفسها وكأنها شخص آخر، ثم واصلت الأسئلة: "لماذا الآن بالذات تراودني هذه الأسئلة المخيفة عن مستقبل حياتي الزوجية؟! لماذا بعد لقائي بآدم التائه استيقظتُ من غفوتي!، من هو آدم التائه، ولماذا استقر في أعماقي بهذه القوة، لماذا روحي تدور حوله مثلما الحجيج يدورون حول الكعبة، أو الكواكب حول الشمس! أللحب هذه القوة المهيمنة! هل أنا أحبه! هل أنا عاشقة دون أن أعلم؟! لماذا وجدت نفسي وذاتي وكياني بعد لقائي به؟".

انتبهت إلى أن الوقت يمر وأن عليها الوصول في الوقت المحدد، وأن أمامها عشرين دقيقة، حملت حقيبتها الصغيرة السوداء المطعمة باللون الوردي، اتجهت نحو بوابة الفندق، وحين مرت أمام الرجل الأشقر الوسيم شعرت وكأنها تمشي عارية، فنظراته الشبقة إليها تجردها من ملابسها.

لم تنتظر قط، سيارة الأجرة كانت عند مدخل الفندق. دخلت إليها وهي تقول للسائق "ساحة الفنا".

***

اقتربت السيارة من المنطقة المحيطة بـ "ساحة الفنا" حينما سُمع ارتطام قوي بزجاج السيارة الأمامي تاركًا شقوقًا على الواجهة الزجاجية. كان الصوت قويًا، ارتبك السائق، توقف فجأة، ارتعبت، ظنت أن السائق قد دهس شخصًا ما، ارتعب السائق حينما رأى كتلة سوداء على مقدمة السيارة، خرج السائق ليرى ما حدث وما هذه الكتلة السوداء التي تشبه طيرًا، انتبه إلى أن غرابًا أسودَ قد ارتطم بزجاج السيارة الأمامي، خرجت هي أيضًا، توقف آخرون، السيارات التي خلفهم، انتبه السائق ـ وهو يزيح الغراب عن زجاج السيارة الذي تشقق ـ إلى أن الغراب أعمى، كانت عيناه يغلفهما غشاء أبيض، لا يرى فيه حدق ولا أي شيء سوى الغشاء الأبيض.

ارتعش قلبها وهي ترى الغراب الأسود الأعمى وقد سال خيط من الدم من جانب منقاره. أخذ السائق الغراب الميت من جناحيه وسار إلى جانب الشارع بلا مبالاة، وضعه

إلى جانب الحائط وهو يلعن الغراب والغربان وحظه الأسود، بينما تعكر مزاج حواء الورد فقد رأت في ذلك طالعًا سيئًا.

جلس السائق خلف مقود السيارة، نظر في المرآة الداخلية إلى حواء الورد التي كانت في ثوب أسود طويل، وكأنه يربط في داخله بين الغراب الأسود وثوبها الأسود! أطلق زفرة وهو يحوقل. وتحركت السيارة.

***

وصلتْ إلى حيث موعدهما متأخرة بضعة دقائق. ومن بعيد لمحته، كانت نظراته تائهة، ينظر إلى ساعته اليدوية، ما أن رأته حتى أحست بقلبها يرفرف، منذ أن سقط الغراب وهي كئيبة، لكن ما أن رأته حتى تدفقت مشاعر أخرى مليئة بالأمل في أعماقها، وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أن تنسى الغراب الأعمى وخيط الدم المنساب من جانب منقاره.

رآها مقبلة، أحس بخفقان قلبه، أحس أن كل ما حوله قد اختفى، ولم يرَ سواها وهي تقبل عليه بكل بهاء جسدها المثير وصدرها الناهد الذي يهتز بإثارة واضحة على الرغم من ثوبها المحافظ.

كان يعرف أنها لا تصافح الرجال لذلك لم يُحرج نفس بمد يده إليها، وحين صارت على بعد أمتار قليلة منه لمح في عينيها حزنًا. كان يرى فيها الجمال الأنثوي والطيبة الإنسانية مجسدةً، إنها على غير كل الحواءات اللاتي عرفهن، وأحس أنها قدره الغامض.

لم يدخل معها إلى المقهى ـ المطعم الذي التقيا فيه صباحًا، وإنما قال لها وهو يسير إلى مقهى أبعد بخطوات قليلة من حيث يقفان:

- هل أنت جائعة؟

فاجأها سؤاله، وانتبهت إلى أنها تركت وجبة العشاء في الفندق، وقالت:

- ليس كثيرًا، لكني لم أتعشَّ بعد!

ابتسم لها بمودة وقال:

- الليلة سأدعوك إلى بيروت.

- ماذا؟

قالت باستغراب وكأنها صُدمت لأنه ذكرها بآدم الشكّاك، فقاطعها موضحًا:

- أدعوك لمطعم لبناني ـ مغربي اسمه "آزار" في منطقة راقية بمراكش تسمى "جليز" حيث هناك الأجواء مسلية.

- كما تشاء.

ومضى ماشيًا أمامها فتبعته خارجين من الزحمة إلى فرع جانبي، ومن هناك وقفت قربهما سيارة ليست تاكسي رسميًا، وسألهما السائق عن جهتهما فأخبره آدم التائه باسم المطعم والشارع، طلب السائق منهما مبلغًا أكثر من المعتاد لأنه أدرك أنهما أجنبيان، ولم يشأ هو أن يبدو شحيحَ اليد أمامها فوافق مباشرة، جلس هو إلى جانب السائق وهي في المقعد الخلفي، وبعد أكثر من ربع ساعة كانا أمام باب المطعم.

وجدت حواء الورد نفسها لا إراديًّا تفكر بالغراب الأسود الأعمى، وباحتمال اتصال خطيبها آدم الشكاك، وبالرجل الأشقر الوسيم الذي كان ينظر إليها بشبق وقح، وطرقات الباب الغامضة، وطليقها الذي رأته في المرآة، واستغربت من نفسها في أنها تفكر بكل هذه الأمور دفعة واحدة، وسعت إلى أن تطرد هذه الخواطر عن ذهنها.

استغربت حواء الورد حينما دخلا المطعم، فقد كان فارغًا من الرواد. رحب بهما نادل أنيق أقبل عليهما من أعماق المطعم، قادهما إلى طاولة حولها كرسيان، على مبعدة منهما كانت دكة خشبية تعلو على الأرضية قليلًا بدا واضحًا أنها مكان للفرقة الموسيقية الغنائية التي ستحضر في وقت لاحق.

بعد دقائق جاء النادل بقائمتَي الطعام في مغلفين من الجلد الأسود، وضع قائمة أمام كل منهما وغادر، ابتسم لها آدم التائه قائلا:

- سأترك أمري لك، اختاري لنا من الأكلات اللبنانية ما تجدينه لذيذًا، المهم لا تخلو من المتبل والتبولة.

ابتسمت له وقالت:

- تكرم، أكيد ستكون التبولة، والمتبل، والحمص، والفتوش، ضمن المقبلات، لكن هل تحب الكبة النيئة؟

ارتسمت ابتسامة على شفتيه لكن ملامحه كانت تشي بأنه يفكر بشيء آخر وقال:

- لا. لا أحب الأشياء النيئة.

ابتسمت له، بعد دقائق أقبل النادل ليسجل ما يرغبان به، فطلبت لهما بعض المأكولات اللبنانية المعروفة والمتواجدة في قائمة الطعام، وقبل أن يذهب النادل أضاف آدم التائه قائلا:

- طبعًا، تأتينا قبل كل شيء بشوربة "الحريرة".

ابتسم النادل، وسجل الطلب في الورقة التي بيده، بينما التفت هو إليها موضحًا:

- إنها شوربة شهيرة جدًّا في المغرب وفي شمال أفريقيا تقريبًا، إنها لذيذة جدًّا.

فجأة سمعا لغطًا وقهقهات، التفتا، فوجئا، كان المطعم مكتظًّا بالرواد، كانت هي مندهشة فسألته باستغراب واضح:

- حين دخلنا كان المطعم فارغًا، بينما هو الآن وبعد لحظات صار مكتظًّا، أليس هذا غريبًا؟

نظر آدم التائه بارتياب إلى القاعة وجال بنظراته بين رواد المطعم وطاولاتهم المنفردة والكبيرة والتي كان حولها أناس أنيقون، أجانب ولبنانيون ومغاربة، وكان بعض الرجال ينظرون إليهما، أحس بأن شيئًا غير طبيعي يجري في هذه القاعة، فكأن كل هؤلاء ظهروا فجأة من الغيب، نظر إليها وقال بصوت مرتبك:

- نعم، أنت محقة، كان المطعم حين دخلنا فارغًا، والآن مكتظ؟!

- أين نحن؟ سألته.

- في مطعم " آزار".

- هل أنت متأكد؟

- نعم، متأكد.

ألقى نظرة على قائمة الطعام التي كانت تحمل اسم المطعم، فاطمأن، رفع رأسه إليها وقال بنبرة مطمئنة:

- ربما لم ننتبه حين دخلنا إلى وجود الآخرين، أو جاءوا بعدنا ولم ننتبه لهم.

- ربما! تمتمت بخوف.

كانت غير واثقة من نفسها، فربما فعلًا لم تنتبه، فليس من المعقول ظهور كل هؤلاء فجأة! لكنها انتبهت إلى أن الآخرين ينظرون إليها، ففكرت مع نفسها بأنه ربما أثارهم مشهدُ كونها محجبة في مطعم يقدم الموسيقى والرقص.

كان آدم التائه يقرأ ملامح حواء الورد، فانتبه إلى مسحة الحزن التي لم تستطع أن تخفيها عن وجهها، فسألها بحنان واهتمام أسعدها:

- ما بك حواء؟ أرى ملامح لأفكار وتأملات حزينة على وجهك وفي نظراتك!

نظرت في عينيه بتركيز، أحست وكأن أمواج حنان رقيقة تأتي من أعماق عينيه نحو براري أعماقها الهشة فترويها برفق، أحست بأنه حواء الورد، لكنه الذكر، فقالت بنبرة حزينة وهي تنظر إلى رواد المطعم:

- لا أريد أن أرى نفسي في عيون الآخرين.

لم يفهم بالضبط ما تقصده، تأمل وجهها الرقيق وعينيها اللوزيتين ونظراتها الناعمة الحزينة، وحضورها الأنثوي الطاغي وقال وكأنه يريد أن يبث الثقة في نفسها:

- لكننا أحيانًا نكتشف جوانب لا نعرفها عن أنفسنا في مرآة الآخر، طبعًا إذا كانت مرآة الآخر مستوية وليست محدّبة أو مقعّرة، نعم، نرى أنفسنا إذا كانت مرآة الآخر مستوية، وصافية، وليست عكرة، فحتى المرآة المستوية أحيانًا تشوه الصورة إذا كانت وسخة.

فابتسمت بحزن وقالت:

- هذا ما قصدته، أن تكون المرآة مستوية، وصافية.
- الآخرون ليسوا جحيمًا دائمًا كما يقول سارتر!
- هم كذلك في غالب الأحيان.
- هو لم يقصد الآخرين كبشر، كان يقصد أن يصير موضوعًا لهم، بينما هو يرى الوجود كله موضوعًا له.
- أي، أنا أيضًا أقصد أنني لا أحب أن أكون موضوعًا لنظرات الآخرين.

ابتسم لها وقال بنبرة مرحة:

- يعني أنا آخر بالنسبة لك، أنا جحيمك، لأني أجلس أمامك وأتأملك!

ارتبكت للحظة، وقالت:

- لا، لم أقصد ذلك، فأنت تكاد تكون مرآة لي، وليس آخر!

وما أن انتهت من جملتها حتى ارتبكت أكثر، ولم تكن واثقة بأنها نطقت تلك الكلمات، "ماذا سيفكر بي؟ كيف سيفسر كلامي؟" سألت نفسها مباشرة.

تأملها بنظراتٍ، الوله فيها بادٍ ولا يستطيع كتمانه، وقال بنبرة فيها توتر وارتعاش خفي:

- أتعرفين، إنك غامضة! فيك تكتمل الدائرة وتنغلق على نفسها، ثمة غموض في شخصيتك، إنك مثل أفق ضبابي مفتوح عند أطراف الغابة، أنت تخفين أكثر مما تبدين!

فاجأها كلامه، أحست أنه يكشف عن أعماقها الغامضة، ووجدت نفسها منجذبة لهذا الحديث المتناقض مع جو المكان الذي هما فيه، وقالت:

- الوضوح ممل أحيانًا، لا أريد أن أكون واضحة في عين الآخر، أريد أن أكون مختلفة، مثل أية شخصية روائية غامضة!

صمت للحظات ثم قال:

- لكن الآخر، ربما يحب الوضوح حتى لو كان مملًا، وربما يعشق الغموض، ولا يحتاج الوضوح الممل، وأنا أجد أن غموضك هو أكثر وضوحًا من العتمة والظلام، نحن نعيش دائمًا في ماسكاراد، حفل للأقنعة، لحظة الكشف نادرة.

نظرت إليه باستغراب وكأنها لأول مرة تكتشف أن هذا الرجل الذي يحدثها كان موجودًا معها، وأنها أضاعته، وقد التقته الآن، فقالت:

- أنا لا أسمي قناعي قناعًا بل هو جدار يحميني، القناع أن تغيّر من شخصيتك حتى تُرضي الآخر، بينما أنا لا أحاول إرضاء الآخر أبدًا.

انتبهت حواء الورد، في تلك اللحظات، بأن التي تتحدث ليست هي، وإنما حواء أخرى في أعماقها، فهي عادة تصمت عن الكثير من الأشياء في حوارها مع خطيبها آدم الشكّاك، لا تحاول أن تبدي له ثقافتها لأنها تعرف أنه يريدها ساذجة وبسيطة،

فهو يخاف المرأة المثقفة، لأنها ستكون صاحبة قرار، لا تقبل بأي شيء، وتكشف قناعه مباشرة، لذا صمتت هي عن أسرار شخصية كثيرة تخصها لأنها متأكدة بأنه لن يستوعبها، بل ربما تشكل صدمة مخيفة بالنسبة له، حتى كادت هي نفسها أن تنسى وجهها الحقيقي، بل صارت شبيهة بالشخصية التي أرادها لها خطيبها آدم الشكّاك، وراودها يقين بأنها لم تكن صريحة وواضحة مع أي إنسان، مثلما هي واضحة مع آدم التائه. صحيح أنها لم ترو له كل شيء عن نفسها لكنها تشعر باستعدادها إلى أن تكشف عن كل أسرارها له، كيف؟ ولماذا؟ هذا ما لم تجد جوابًا له، لكنها صارت على يقين أنها معه وجدت نفسها!

انتبه هو إلى أنها تجري حوارًا داخليًّا، فملامح الانشغال بالتفكير كانت واضحة على وجهها، نظر إلى عينيها اللوزيتين، وكأنه يغوص في خضرتهما الزيتية وقال:

- نحن نضطر أحيانًا للبس القناع، لأننا حين نذهب إلى حفلة الأقنعة بوجهنا الحقيقي فإن الآخرين يعتقدون أن وجهنا هو قناع لبسناه، قناع لكنه يجسد وجهًا حقيقيًّا، ولا يعتقدون أنه ليس وجهنا الحقيقي بالفعل، لذا نضطر أحيانًا للبس القناع والذهاب إلى حفلة المقنَّعين. الأمر ليس له علاقة بإرضاء الآخر أبدًا، وأننا نحب الأقنعة، وإنما لتجنب سوء الفهم، وتجنب السفهاء والوقحين!

كانت كلماته تضيء أعماقها مثلما نور يخترق العتمة، نظرت إليه بحنان، أحست بارتعاشة تسري في أعماقها، ابتسمت وقالت بنبرة ودودة وباستسلام:

- مشكلتي أنني أتفق معك فيما تقوله، وكأنك تسبقني قولًا لما يدور في نفسي. نعم، البعض يعتقد أن وجهنا الحقيقي ليس سوى قناع نرتديه!

في تلك اللحظات بالذات قاطعهما وصول النادل الذي يقود عربة عليها المقبلات، رتب لهما الطاولة وأخذ يصف صحون المقبلات.

***

انتهوا من الأكل، كانت الساعة قد قاربت العاشرة حين تقدم على المنصة ثلاثة رجال بثياب سود وهم يحملون آلاتهم الموسيقية. انتبه رواد المطعم إليهم، لكن الموسيقيين انشغلوا بدوزنة آلاتهم. عاد رواد المطعم إلى اهتماماتهم وأحاديثهم، بعد

دقائق قليلة بدأ الموسيقيون يعزفون قطعة موسيقية هادئة، ثم أخذوا بعزف ألحان لأغانٍ عربية شهيرة.

حواء الورد كانت تشعر وكأنها في حلم. كان حديثهما الشائق عن الأدب والفن وآراؤها العميقة التي كشفت عن شخصيتها وأفكارها قد أثار في نفسها شعورًا بقيمتها كإنسانة، فهي كيان مفكر، وليست امرأة ضعيفة من الضيعة عليها أن تسلّم قيادها لرجل شكّاك. في تلك اللحظة بالذات رنّ هاتفها النقال، ارتبكت، كان صوت الرنين عاليًا مما أثار انتباه جيرانهم على المائد القريبة منهم فالتفتوا إليهما، بارتباك شديد فتحت حقيبتها الجلدية السوداء الصغيرة وأخرجت الهاتف، ارتعبت حينما قرأت الاسم على شاشة الهاتف، إنه خطيبها آدم الشكّاك، كانت تلك لحظة صعبة جدًّا بالنسبة لها، فهي لا تستطيع الإجابة لأن الموسيقى كانت عالية ويمكن أن تُسمع، وليس بمقدورها أن تذهب إلى أي مكان هادئ لأنه سيسألها عن مكان تواجدها، فإذا ما قالت له إنها في غرفتها فلربما سيطلب منها أن ترسل له صورة عن غرفتها، فهي تعرفه، عقله شيطاني وينسج القصص والحكايا ليهدئ من شكوكه! لذلك لم يكن أمامها سوى أن تضغط على زر جانبي لتضع الجهاز على الصامت، رفعت رأسها مرتبكة إلى آدم التائه وقالت بنبرة فيها رجاء وضعف:

- هل بإمكاننا الذهاب؟ يجب أن أكون في الفندق.

تأمل آدم التائه وجهها للحظات وانتبه إلى ارتباكها وانفعالاتها التي تتماوج على وجهها وفي أعماق عينها، ففهم بأن ارتباكها له علاقة بالاتصال الذي لم ترد عليه، فقال لها بنبرة ودودة:

- تكرمي، تفضلي.

وأشار من بعيد إلى النادل بحركة تعني فاتورة الحساب، فأومأ الآخر له بالإيجاب. ولم تمض إلا لحظات حتى جاء النادل بالفاتورة، قرأها، انتبه إلى المبلغ، وأخرج محفظته، وضع المبلغ المحدد مع زيادة كبقشيش. تشاغلتْ عندما بدأ يدفع للنادل ونهضت عن كرسيها، وبعد لحظات غادرا المطعم.

حين مرت من جانب الطاولات الأخرى في طريقهما إلى باب الخروج، التفت جميع رواد المطعم نحوها، كان صدرها الناهد موضع نظرات الرجال، عند الباب

التفتت إلى القاعة صُدمت حينما لم تجد أحدًا، فقد كانت الطاولات فارغة، لكنها كانت في حالة ارتباك نتيجة الاتصال الذي وصلها، سألها بتردد:

- هل للاتصال الذي جاء علاقة بإنهاء السهرة؟!

لم تجب مباشرة، لكن بعد لحظات قالت له بحزن:

- لحد ما!

كانت هناك سيارتان عند مدخل الفندق، توجها إلى إحداها واتفق آدم التائه مع السائق على أن يوصلهما أولًا إلى فندق "كنزي فرح هوتيل" ثم يعود به إلى حيث يسكن. واتفق مع السائق على المبلغ، وغادرا.

كانت هي مرتبكة وصامتة طوال الطريق. حانت منه التفاتة إليها وهي تجلس في المقعد الخلفي فانتبه إلى توترها وكأنها تريد أن تصل الفندق بأسرع ما يمكن، ولم يكن المكان بعيدًا عن الفندق لا سيما وأن الشوارع كانت خالية تقريبًا، لذا بعد دقائق قليلة وصلوا، فخرج هو وفتح لها الباب، أعجبتها حركته هذه، ارتاحت لها، وأحست أن هذا الاتصال عكّر عليها سهرتها. أخذت تشكره على هذه السهرة اللطيفة، فسألها إن كان هناك شيء ما قد حدث، فأنكرت ذلك، وقالت له إنها ستوضح له كل شيء لاحقًا، فسألها إن كان بإمكانه أن يتصل بها الليلة، فابتسمت له برقة وقالت ستنتظر اتصاله وستوضح له كل شيء، فعاد إلى السيارة فرحًا، وانطلق إلى حيث يسكن.

# الفصل الخامس

## نيتشه، لقاء في محطة كازابلانكا

دخل آدم التائه إلى المبنى الذي يسكن فيه. انتبه إلى أن موظف الاستعلامات يمد له ظرفًا وهو يقول:

- عفوًا أستاذ آدم، لقد مرّت امرأة وتركت لك هذه الرسالة.

أخذ الرسالة التي كانت داخل مظروف ومكتوب عليها اسمه فقط "آدم التائه". فتح الرسالة فرأى فيها قصاصة صغيرة مكتوب عليها جملة واحدة: "أريد أن أراك على انفراد، هناك أشياء مهمة يجب أن تعرفها، انتظر اتصالي صباحًا، حواء كازا بلانكا".

كان موظف الاستقبال ينظر إليه فانتبه لذلك وسأله:

- متى جاءت هذه المرأة؟

- بعدما خرجت مباشرة.

- حسنًا.

ودخل إلى كابينة المصعد الذي كان مفتوحًا وكأنه ينتظره، وبينما المصعد يتحرك إلى الأعلى كان هو يحاول تذكر حواء كازابلانكا الأنيقة الملامح، التي رآها مع القاتل التابع آدم غضب الله، والتي بات يعرفها تقريبًا من خلال قراءته لاعترافاتها، بل صار على يقين بأنه التقاها ويعرفها جيدًا، وإلا كيف يقرأ اعترافاتها في حاسوبه!

الرسالة التي استلمها من موظف الاستعلامات أقلقته وشوشت عليه نشوة السهرة، وحينها حضرت صورة حواء الورد في ذهنه وعينه الداخلية حتى شعر بتيار لذيذ يجتاح روحه ويهزها!

دخل غرفته، واستلقى على السرير العريض دون أن ينزع حتى حذائه، سحب هاتفه النقال من حقيبته الجلدية السوداء الصغيرة، فكر أن يتصل بها، لكنه تردد، فالوقت متأخر، وفكر مع نفسه لو أنها لم تنم بعد أو كانت ترغب بالكلام فربما هي أعطته الإشارة أو أرسلت له رسالة هاتفية!

أخذ يتأمل سقف الغرفة المزخرف والذي تتدلى منه ثريا ذات طراز أندلسي معشَّقة بزجاج ملون، كانت عيناه تحدقان في السقف بينما في ذاكرته كانت حواء الورد حاضرة، وسأل نفسه: من هي هذه المرأة التي اسمها حواء الورد؟ ولماذا التقيتها في مثل هذا الوقت وهنا في مراكش؟ ما معنى جملتها أن الوضوح ممل أحيانًا؟ ولماذا حين رن الهاتف وقرأت اسم المتصل ارتبكت وفزعت مثل غزالة رأت نمرًا مفترسًا فجأة، فأنهت السهرة، علمًا أن الفرقة الموسيقية كانت تعد حالها لبدء السهرة. أفكارها ورؤيتها الفلسفية وجرأتها في البوح الشخصي متقدمة على هيئتها المحافظة وسلوكها وكأنها تعيش في حالة انفصام نفسي، هل تُرى أنها تخفي أسرارًا وراء مظهرها المحافظ؟ في تلك اللحظة رنّ هاتفه النقال، نظر إلى شاشة الهاتف فلم يستطع أن يعرف المتصل، أخذ الهاتف وضغط على مكبر الصوت وأجاب، لكنه قبل أن ينطق بأية كلمة جاء صوت نسوي عرفه مباشرة:

- مساء الخير أستاذ آدم.
- مساء النور.

أجاب آدم التائه وهو ما زال مستلقيًا على السرير.

- هل عرفتني؟
- أعتقد ذلك، ألست من أرسل الرسالة؟
- بالضبط، أنا أتصل لأن تغييرًا جرى في الموعد، لا أدري إن كان لديك الوقت أن نلتقي الآن، وليس غدًا!
- الآن؟
- نعم، أعرف أنك قد عدت من العشاء في مطعم "آزار" بمنطقة "جليز"، وكانت معك امرأة محجبة! لقد كنا هناك، أنا والأستاذ قابيل الموسى، والسيد آدم غضب الله.

صُدم آدم التائه حين سمع ذلك، كيف عرفتْ كل هذا؟ هل هو مراقب منها أيضًا، وقبل أن يسألها أجابته:

- لا تستغرب، لقد كنا هناك، الأستاذ قابيل الموسى، والسيد آدم غضب الله وأنا، كنا نجلس حول الطاولة التي خلفكم، أنت لم ترنا لكن المرأة الجميلة التي معك بالتأكيد انتبهت لنا!

- ماذا؟

نهض آدم التائه عن السرير مستفزًّا، تاركًا الهاتف النقال ملقيًّا على السرير، فجاء صوتها مازحًا:

- لماذا فززت ونهضت عن السرير مستفزًّا!

- ماذا!

قال آدم التائه ذلك وهو يتلفت متفحصًا جدران الغرفة وسقفها، إذ خطرت في ذهنه بأن هناك كاميرات مخفية وضعت لرصد حركاته، فجاء صوتها مازحًا:

- أنت تعرف أنك مراقب، لكن لا تخف. يبدو أن قابيل الموسى سيتركك في حالك، فقد تأكد بأنه لا علاقة لك بطليقته، هكذا هو قال لنا الليلة في المطعم، وربما لن أكشف لك سرًّا إذا ما قلت لك أنه قرأ لك رواية، وأعجب بها..يا إلهي لقد قلت لك ما وددت أن ألتقيك من أجله.

لم يطق آدم التائه صبرًا على هذه المحاثة فمدّ يده وأخذ الهاتف النقال قائلا:

- اسمعيني. أنا متعب، لا مزاج لي الليلة إلى الخروج، ثم إني أريد أن أقرأ اعترافاتك كلها لأتأكد من أنت. اعذريني، ماذا تقولين، (صمت للحظات)، لا ضير، نعم نعم، أنا أتذكر أنني التقيتك لكن الصورة غير واضحة في ذهني، أريد أن أقرأ اعترافاتك أولًا، وسنرى كيف نرتب لقاء بيننا، (صمت)، ماذا لديك، اعترافات جديدة لم تخبريني بها، دعيني أقرأ ما جرى ثم نلتقي، ليلة سعيدة.

أغلق آدم التائه الهاتف، كان في حالة استنفار داخلي، هل ما أخبرته به صحيح!! أمن المعقول أنهم كانوا جالسين في المطعم على مقربة منه دون أن ينتبه هو؟!

ظل واقفًا لدقائق دونما أية حركة وكأنه تمثال يتنفس، ولا إراديًّا توجه إلى

الحاسوب. جلس على الكرسي حول الطاولة وضغط على زر التشغيل، بعد لحظات تكشفت له الملفات الموجودة على سطح الحاسوب، ضغط على ملف "متاهة الأنبياء"، وتوجه إلى حيث توقف، وبدأ مقطعًا جديدًا من اعترافات حواء كازابلانكا.

5

## السِّفر الخامس

# لوط النمساوي

لم يكن أمام عطلة نهاية الأسبوع سوى يوم واحد، وكنت قد تطهرت من دورتي الشهرية قبل يومين، وكان زوجي آدم الخليل طَوال الوقت يتملقني، بل ويتذلل لي، شارحًا لي أهمية أن أسترضي آدم جوردانو وآدم فون هايدن؛ لأن الأول سوف يتخلى عن ضغطه بدفع الديون والفوائد المترتبة عليها والتي فات موعد سدادها، بل وسيجد الطريقة التي تمكنه من منحه هو ومنحها قروضًا جديدة.

كنت أشعر وكأني أطير في الهواء، أو وكأني في حلم يقظة طويل، كنت أدرك أنني دخلت معركة خاسرة، لكنني في الوقت نفسه كنت أشعر بنشوة أنني لم أغرق في مستنقع الرفاهية التي تتصاعد منه روائح تبعث على التقيؤ، هكذا كنت أعتقد. كانت لدي أوهامي عن نفسي، كانت لدي أحكامي القاطعة، ولم أنتبه إلى أنني كنت أغوص في الوحل، كنت أظن أنني قادرة على الإتيان بشيء خارق وأنني المتفردة التي ستجترح مفاهيم جديدة في الفكر والحياة، لكنني وجدت نفسي ممثلة في مسرحية دنيئة، إذ قبضت على نفسي وهي تتخيل الثراء والمال الذي طالما حُرمت منه، وحياة الرفاهية؛ الفساتين التي أحب أن ألبسها، السيارات الفارهة التي سأمتلكها، الأموال التي سأساعد أهلي بها، وأبني بها بيتًا لوالديّ وأجعل أبي يعيش بكرامة وراحة ورفاهية، كان بإمكاني أن أرفض كل هذه الدناءات وأرجع فورًا إلى بلادي، بل لو فعلت ذلك لكنت أشعر بالكبرياء لأنني تركت أوروبا وراء ظهري وعدت لفقري وقلة حيلتي المادية، لكنني كنت أسعى جاهدة أن أجد التبريرات لنفسي في هذه اللعبة الخاسرة!

أتذكر مقولة لأحد المفكرين الذين قرأت لهم بالفرنسية، وأعتقد أنه فونتاني، يقول فيها: ثمة خسارات ظافرة تنافس الانتصارات. نعم لقد أدركت أنني أخسر، لكني أردت أن أحوّل هذه الخسارة إلى انتصار، ربما كنت أبالغ في قوتي وصمود أفكاري، نعم، أدركت هذا أيضًا، وإلّا كيف لي وأنا النيتشوية المتمردة أن أعشق سلفيًّا دماغه مغلق على أحكام الشريعة ويملك مفاتيح الحياة وما بعد الحياة، ويرى أن الدوران حول حجر أسود فريضة تُطهر الذنوب ما تقدَّم منها وما تأخَّر، وأن هذه الفريضة لا تكتمل دون رمي سبع حجارات على نصب هو رمز للشيطان، وأنه ومن معه منذ أربعة عشر قرنًا، بل وقبله بقرن فهذه الفريضة وثنية أصلًا، كلهم يرمون نصب الشيطان بالحجارة بينما الشيطان يسخر من الجميع ولا يموت. بل في اليوم الواحد يتعوذون بالله من شره! كيف لي تفسير ذلك، وكيف هو المؤمن اخترقني من الخلف، بل وشربت ماءه! أتُرى أنا هشة إلى هذه الدرجة، هل أعيش انفصامًا نفسيًّا، وشيزوفرينيا؟! ربما!

بالمناسبة، لم أعد أفكر في السلفي قط، لم أعد قادرة على تخيل صورته في ذهني، بل إن ذاكرتي صارت تُستفز من حضوره لثوان فتطرده منها. مررت بلحظات حاولت فيها أن أراجع نفسي، وأن أعرف حقيقة مشاعري نحوه، لكن عقلي لم يتقبل استحضاره ولا تحليل وتفسير علاقتي به. أحيانًا، في بعض الليالي، أنهار باكية ليس اشتياقًا له وإنما تذكرًا للعذاب الذي ذقته معه. قبل سفري بليالٍ أرسل لي شريطًا مصورًا يظهر فيه وهو يعزف على البيانو ويحيط إصبعه خاتم كنت قد أهديته له! الغريب أني لم أعر الأمر اهتمامًا.

كان ثمة آدم آخر التقيته صدفة في الدار البيضاء التي كان يحب أن يسميها باسمها الأسطوري الأوروبي الأسباني "كازابلانكا" والذي يعطي المعنى العربي نفسه " الدار البيضاء"، آدم التائه، وعلى الرغم من أننا التقينا مصادفة في مقهى المحطة المركزية للمدينة، على مقربة من فندق "إيبيس Ibis" الذي سكنه لقربه من المحطة منتظرًا امرأة مغربية يعرفها ويكنّ لها محبةً خاصة، لكنها لم تفِ بوعدها لأسباب رفض الكشف عنها.

حين دخلت المحطة صباحًا كانت ساعتها تشير إلى التاسعة، كنت أود الذهاب إلى الرباط للقاء صديقة لي، في المحطة اشتهيت أن أشرب كوبًا من الشاي سريعًا، وما أن توجهت نحو جهة المقهى حتى رأيته بمعطفه الأزرق النيلي الطويل! كنت أحمل مع كتابي المقدس "هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه، كان هو حزينًا وتائهًا ومسالمًا وكأنه

يتواجد في المكان الخطأ وفي الزمان الخطأ. أثار انتباهي بحضوره الرجولي، وبإشعاع الهدوء الذي ينبعث من حضوره، أخذت كوبي من القهوة، فتشت عن مكان فارغ أجلس فيه لأرتشف قهوتي فلم أجد، كان هناك طاولتان، يجلس حول كل منها شخص واحد، شخص يمكنني مجالسته! وحين لمحته آثرت الجلوس معه، لما يمنحه شكله من طمأنينة! اقتربت منه واستأذنته، فرحب بلا مبالاة وكأن الأمر تحصيل حاصل أن يجالسه أحد ما، إذ حول الطاولة كرسيان. وضعت كتابي وأشغلت نفسي بحقيبتي، انتبهت إلى أنه كان ينظر إلى الكتاب، ارتشفت عدة رشفات متواصلة من القهوة الساخنة، كان هو منشغلًا في التفكير، لكنه لم ينظر إليّ وكأني غير موجودة إذ كان جلّ اهتمامه يتمركز في الكتاب، وبصراحة، انزعجت من إهماله لي وعدم النظر لي كامرأة تجالسه، فقررت أن أقتحم عالمه، فسألته بمشاكسة واضحة:

- هل قرأت لنيتشه؟

فوجئ من سؤالي، وبعد ثوان استرخت ملامحه، وابتسم قائلا:

- أيام شبابي، حينما كنت قريبًا من عمرك.
- وماذا وجدت؟
- كنت متحمسًا له.
- والآن؟!

أحسسته غير راغب في مواصلة الحديث معي، كنت متحفزة وكلي انتباه لأشرب كلماته، انتبه لي، أحسست أنه خجل من لا مبالاته فقال بهدوء وبنبرة باردة:

- الآن أفهمه بشكل آخر، نيتشه واعظ ثوري أكثر مما هو فيلسوف، نيتشه نبيٌّ ملحد، عدميٌّ جاء بالأدب إلى حقل الفلسفة، ودفع بالفلسفة ركلًا ورفسًا إلى حقل الأدب!

بجمل بسيطة جدًّا وبتلقائية أقرب للّلا مبالاة ضرب كل قناعاتي وكبريائي الفلسفية والفكرية ضربة قاضية، طوحتني جمله المكثفة، ترنّحت فكريًّا وأنا جالسة أمامه. من تُرى هذا الرجل التائه الملامح، الشارد الذهن الذي يتعجل الرحيل إلى مكان مجهول؟ قدمت له نفسي: حواء، ولأن اسم عائلتي الذي فيه أصول أمازيغية يصعب لفظه بالنسبة إليه فقد قال لي سأسميك: حواء كازابلانكا!

ودار بيننا حوار كان بالنسبة له لمجرد قضاء الوقت إلى أن يحين سفره، حينها شعرت وكأنني أمام سفينة كبيرة على وشك الإقلاع، تمنيت لو لحقت بها وصعدت على متنها! سألته عن نفسه، فأجابني باللا مبالاة نفسها وشرح لي قصته مع المرأة المغربية التي جاء من أجلها، وسألني ليس من باب الفضول وإنما لتزجية الوقت، فحكيت له قصتي كلها! قصتي مع السلفي، والبئر السوداء، وتعارفنا بشكل أفضل، وعرفت منه أنه كاتب روائي!

بعد ساعة جاء موعد قطاره الذي يقله إلى المطار، طلبت منه أن أرافقه الطريق إلى هناك، تردد قليلًا، ثم نهض متجهًا إلى قاعة بيع التذاكر، اشترى لي تذكرة ذهاب وإياب. أتذكر أننا كنا في انسجام تام، بل ذهبتْ عنه وحشته، وشروده، حتى أنه قال لي بأنه لو كان يعرف بأنه سيلتقي بي لكان أجّل سفره إلى أيام أخرى، لكننا اتفقنا أن نتواصل عبر الماسنجر والفيسبوك والبريد الإلكتروني، كنت معه حين سلّم حقيبته، واتجه لتفتيش الجوازات، ولا أعرف لماذا لحظة الوداع احتضنته وودعته كأني أودع شخصًا أعرفه، وفي طريق عودتي أحسست أنني أفتقده، وأنني صرت حواء أخرى، والغريب أنني أردت أن أنزوي بنفسي وأسترجع تفاصيل هذا اللقاء؛ لذا اتصلت بصديقتي واعتذرت من لقائي بها، عدت إلى مدينتي الصغيرة القريبة، وفي وقت متأخر من الليل تواصلنا عبر الفيسبوك، كنا نتواصل، لكنه اختفى، لا أعرف أين، وحين ظهر مرة أخرى في المغرب.. التقينا مرارا.. تحدثنا طويلًا، وطلب مني أن أكتب له كل ما يجري معي وبالتفصيل الممل وأرسل ذلك على عنوانه الإلكتروني، كتبت له الكثير من الاعترافات، وواصلت الإرسال مع أنه لم يرد عليّ مباشرة، وأخذت أكتب عن نفسي، حتى بعد أن وصلت إلى النمسا، رويت له كل ما كان يجري معه! بما في ذلك هذه الأسطر!

كثيرًا ما كنت أسأل نفسي: أيمكن لساعة واحدة أو أكثر بقليل أن تغير مفاهيم إنسان اعتاد عليها لسنوات طوال واعتبرها من ثوابته؟ نعم، لقائي بآدم التائه لم يدم سوى وقتٍ قصيرٍ، لكن إشعاعه الفكري خدرني، وحينما غادرني وجدت نفسي في حالة هيام وحبٍ غريبٍ! حب لا علاقة له بالجنس والرغبة وإنما بكياني كله، لقد توغل هذا الرجل إلى أعمق أعماقي بسهولة ساحرة! وما زلت أستغرب طبيعة علاقتي به، وعلى الرغم من انقطاعه واختفائه، فقد كنت أتذكره، ومررت بلحظات كنت فيها أحتاجه!

مرة قرأت كتابًا عن الساعات الحرجة التي تغير مصائر البشر، أعتقد أنه كتاب للنمساوي ستيفان سفايغ وأنا عشت هذه الساعة مصادفة، ساعة كالحلم، كاللا معقول، مشهد صرت لا أصدق أنني مررت به، لأن هذا الرجل اختفى!

آدم التائه حاضر في ذاكرتي، فكلما تنتابني نوبة حزن يحضر في ذهني، بعد تواصلي معه وحواري معه على الماسنجر قبل اختفائه، علّمني أن أتحكم في عقلي وأوقفه عن التفكير متى أردت، ليس التفكير بشكل كلي طبعًا وإنما أن أجعله يفكر في حدود معينة وأطلق العنان للا وعي، الأمر ليس سهلًا ولكن صار سهلًا بالنسبة لي لأنه علمني تقنيات ذلك.

أحيانًا أتمرد على حضوره في ذهني، أحاول أن أستغني عنه وأقول في نفسي أنا لست بحاجة إلى أحد، لكن سرعان ما يحضر في ذهني، لا سيما حينما أريد أن أقرر شيئًا! ربما أحد الاهتزازات في حياتي هو اختفاؤه المريب والغامض!

أنا لست أنا دائمًا، أنا ما زلت أعيش تقلبات نفسية وفكرية متباينة، أحيانًا تظهر لي الحياة بلا معنى وأفكر في كل صغيرة وكبيرة ولا أرى سوى التفاهة، لكني صرت أتحدى ذاك الشعور بالفراغ ولا أستسلم له. نعم، أشعر بفراغ عميق أحيانًا لكن سرعان ما أنخرط في العيش والحياة الجديدة، وأحيانًا أعيش سعادة عارمة وفي الوقت نفسه يتقلب مزاجي إلى سوداوية مخيفة، لكني اعتدت كل شيء، فلا السعادة والمال والحفلات تسعدني ولا الحزن يقتلني.

ساعدت أهلي في الأشهر الأولى التي رتبت أموري فيها مع آدم الخليل، والأوادم الآخرين، لا سيما بعد أن تطلقت من آدم الخليل وتزوجت رجلًا نمساويًّا، أرسلت مالًا لأهلي، اشتروا به شقة في مراكش، كما أرسلت لهم هدايا، أرسلت ثيابًا وساعة يد وقنينة عطر لوالدي، وأودعت له مبلغًا في البنك، لكن كما أخبرتني أمي كان فرحه بساعة اليد والعطر والثياب أكبر من البيت والمال في البنك!

لم أعد أهتم للعلاقات الاجتماعية سوى علاقتي بآدم فون موتر، وعلاقتي بإيفا، إيفا جوردانو، ابنة آدم جوردانو! أعتقد أنني لم أخرج من البئر العميقة بعد، أما المستقبل فأحيانًا أصاب بالخوف من التفكير فيه، يرعبني مستقبلي ونهايتي.

***

نهار يوم الجمعة، موعد ذهابنا إلى البيت الصيفي لآدم جوردانو، زوجي كان كمَن ينتظر نتائج اليانصيب وهو على شبه يقين بأنه سيفوز بالأرقام السحرية! لمحته حين ذهب إلى المطبخ ليعدّ القهوة لكلينا، دندن بلحن أغنية عربية راقصة، ثم فجأة أخذ يهز كتفيه في حركة رقصة الدبكة مبتهجًا، لكنه حين انتبه لنظراتي ارتبك.

أقبل من المطبخ وهو يحمل صينية عليها فنجانَا القهوة وكأسَا الماء، جلس أمامي، قدّم لي القهوة بتملق يكشف عن شخصيته الضئيلة، تنحنح وكأنه يريد أن يلقي خطبة، ثم انطلق ليعيد لي القصة من البداية، مبررًا لي أسباب ما يقدم عليه، أحسسته ديوثًا أكثر مما هو قواد زنيم، كان لا يتوانى عن الاستشهاد بأبي الأنبياء كمرجعية له في تبرير موقفه، وتوسل بذل وخنوع أن أوافق، بل ولا أعترض على أي شيء يفعلونه بي مهما كانت غرابة نزوات هذين الآدمين، آدم جوردانو وآدم فون هايدن، ولم يأت على ذكر آدم فون موتر قط!

أحسست برجفة تسري في جسدي حينما سمعت لفظة "غرابة نزواتهما"، وسألت نفسي بينما هو مسترسل بنصائحه عن طبيعة هذه النزوات الغريبة!

وأثناء حديثه رن هاتفه النقال، وانتبهت إلى ملامحه التي توترت وارتبكت، كان لا يتحدث وإنما يستمع فقط، وكنت أرى الخنوع وعدم الرضا يرتسمان على وجهه، فقط كنت أسمعه يرد على المتصل: حاضر، حاضر، فهمت، حاضر. وانتهت المكالمة.

أطرق برأسه إلى الأسفل، كان حزينًا وكئيبًا ومرتبكًا، لم أفهم السبب لهذا الانقلاب المفاجئ في تصرفاته ومزاجه، فسألته بتوجس:

- هل حدث شيء مكروه لا سمح الله؟!

لم يجبني مباشرة، لكن بعد لحظات رفع رأسه فلمحت عينيه تترقرقان بالدمع وقال بحزن مشوب بغضب:

- لم يحدث شيء، لقد وصل..هو ينتظر في موقف السيارات أمام البناية، ينتظرك أنت فقط. فقد طلب هذا الخنزير أن تنزلي وحدك دوني، وتذهبين معه، بحجة أنه يريد أن يعرفك على ابنته إيفا، ثم تذهبان إلى البيت الصيفي حيث يلتحق بكما آدم فون هايدن الذي سيمر ليقلني معه!

لا أعرف كيف أصف مشاعري في تلك اللحظة، شعرت بفرح خفي لأن آدم

جوردانو أذله وأهانه بطريقة وقحة لكن مهذبة، وفي الوقت نفسه شعرت برخصي وعاري، شعرت وكأني سلعة تم الاتفاق على ثمنها، ومع هذين الشعورين المتعارضين كان ثمة رغبة وتوق غامض يجتاحني للتعرف على إيفا ابنة آدم جوردانو!

تذكرت نفسي، وأنا جالسة أمامه في تلك اللحظات، بل استغرقت في ذكرياتي حين كنت مريضة بثنائي القطب وأزور الطبيبة النفسية كل شهر، كنت حينها أشك بأني واقعة في حبها. كان إحساسًا غريبًا، لأول مرة أحس برغبة تجاه أنثى! كنت حين أدخل عليها في غرفة الفحص تبتسم في وجهي، لحظتها كنت أشعر بخجل شديد وكأني أخاف أن ينكشف سري. لم أكن أعرف ما إذا كان الأمر عاديًّا أم لا، ولم أفهم جيدًا ما هي دوافع هذا الإحساس. لكن نظراتها الطويلة لي وابتسامتها وهي تنظر لي لمدة 10 ثواني أو أكثر دون أن تنطق شيئًا، وإنما تبتسم فقط، تدفعني إلى حالة ارتباك شديد!

الغريب أنني كنت أتمنى حين أكون عندها أن ينتهي الوقت المخصص لي بسرعة كي أتخلّص من ارتباكي مع أني أحس بحبي لها، لكن حين أعود إلى البيت كنت أتأسف على أن وقت المقابلة انتهى بسرعة خاطفة، وأظل في حالة هيجان منتظرة موعد المقابلة من جديد.

كانت نظرات الطبيبة النفسية تبعث الطمأنينة والارتياح في نفسي. أتذكر الآن عينيها الخضراوين وابتسامتها المريحة، وأشعر وكأن قطرة نبيذ باردة تسقط على صدري تقترب من حلمتي. طبعًا حينها لم أفهم كنه تلك المشاعر، فحاولت أن أنسى ذلك!

نعم، كنت أعرف فتيات عديدات، وألتقي بهن وأعجب بجمال أجسادهن، وتنتابني رغبات غامضة في أن ألتصق بهن، وأسعى كالمجذوبة نحوهن لتحقيق ذلك، لكن كل تلك العلاقات كانت تفشل قبل أول خطوة مني.

كنت أتمنى لو أجد فتاة أنام في حضنها، كنت أشعر بهذه الرغبة كثيرًا، لكن لم أجرب ذلك بشكل حقيقي، سوى مرة وبشكل سريع وخائف، حين نمت في حضن أستاذة أربعينية، تبادلنا القبلات وبعض المداعبات، كانت هي المبادرة، وهي التي احتضنتني بكلي وكأنها تغتصبني، جسدها لم يثرني، إلا أني شعرت برغبة تجاهها حينما احتضنتني، لكنها في اللقاء الثاني جاءت مع صديقتها التي أرادت أن تنام معي أيضًا، خفت من ذلك ولم أرغب فيه، رفضتهما، ومحوتهما من عالمي. لم يعجبني أن أكون

الأنثى في العلاقة، أردت أن أكون أنا رجل العلاقة، وأنا من يمتلك جسد الأخرى ويقود الممارسة.

وتذكرت أيضًا صديقة لي، كانت قريبة مني جدًّا، عشنا مغامرات غامضة معًا، سافرنا معًا، كنا نثمل فنتعانق وتقول لي: عديني يا حواء أنك لن تتخلي عني، فأنا لا أتخيل إنسانًا آخر في حياتي غيرك! كنت أنام في حضنها وأقول لها أحبك لدرجة لا تتخيلينها فكوني واثقة بأني سأكون معك إلى آخر يوم في حياتي، كنّا نفترق لساعات حتى تعود إليّ أو أذهب إليها، كانت فنانة تشكيلية ومصممة أزياء وديكور، ولم تتجاوز الواحد والعشرون من عمرها، كانت شخصية مضطربة، تتصرف كالمجنونة وهذا أكثر شيء كنت أحبه فيها، لكني لم أفكر فيها كعشيقة قط، كانت بمثابة أمي وأختي، أحيانًا كنت أنزعج منها لكن سرعان ما أشعر بحب عميق تجاهها، كان لها الفضل أيضًا في إخراجي من وحدتي وبؤسي، كانت تأخذني لأماكن ممتعة، حياتها صاخبة، زحمة من الناس والفنانين، كنت أسير معها وخلفها خطوة خطوة، هي مثلي كانت مدمرة نفسيًّا، لكن بعد فترة مللتُ من الحياة الصاخبة، أصبحت أكره وجود الناس حولي فقررت أن أظل في البيت، أقرأ وأستمع لمحاضرات، وأجلس وحدي لساعات، نعم هذه هي الحياة التي أريد، البقاء وحدي قدر المستطاع، لم أعد ألتقي بأحد ولا أكلم أحدًا، لم أكن مكتئبة، ولم أشعر بشيء، أجد نفسي مخدرة. أنا لست أنا حين أكون مع الناس، أجد ذاتي حين أكون وحدي.

هذه التداعيات راودتني وأنا أرتشف القهوة، وأنظر لوجه زوجي آدم الخليل الذي كان يجسد الخذلان والذل، فجأة رفع وجهه إليّ قائلًا بحقد وحزم لم أعهده فيه منذ معرفتي به:

- هذا الرجل يحتقرني، صحيح أنني أحتاجه، أحتاج سكوته عن دَيني للبنك، وأحتاج موافقته للحصول على قروضٍ أخرى، لكني لن أغفر له هذه الإهانة، كيف يريدك أن تذهبي معه ويطلب مني البقاء وانتظار آدم فون هايدن، ليأخذني معه فيما بعد، سألقنه درسًا.

ورن هاتفه النقال مرة أخرى، نظر إلى شاشته المضيئة للحظات ثم أجاب:

- لقد نزلتْ، هي في الطريق إليك!

التفت إليّ قائلا:

- إنه هو، ينتظرك في البارك، يبدو أنه يفح كالثور، لا يستطيع الانتظار، رجاءً دعيه يفعل بك ما يشاء، وحسابه سيأتي لاحقًا، المهم يجب أن يوافق لك على مقترحات لقروض لك ولي، قولي له إنك تفكرين بتأسيس مشروع ولا مال لديك.

لم أجبه، كنت أفكر لحظتها بابنته إيفا ومحاولة الحصول على قرض مالي لي! وخرجت إليه، شعرت بأنني صرت عاهرة.

***

أحسست بنشوة مخدرة حين رأيت ذاك الملاك الخمري البشرة والأشقر الشعر مع نمش قليل في الوجه. إذن هي المرتجى والحلم المستحيل الذي كنت أنتظره، ما أن رأيتها لأول لحظة حتى أدركت أنني وقعت في الحب بضربة مفاجئة قاضية، وأدركت لحظتها أنني مستعدة أن أكون عبدة لأبيها من أجل أن أكون قريبة منها فقط. إذن، هذه هي إيفا جوردانو ابنة آدم، الفتاة ذات السادسة عشرة ربيعًا، هذه هي الفتاة التي أراد والدها أن يعرفها بي، وهو الذي روى لي في الطريق إلى بيته بأنه يعيش مع ابنته بعد طلاقه من زوجته، وأنه يود أن أتعرّف إليها فهي وحيدة وانطوائية نوعًا ما قياسًا لفتاة تعيش بحرية وفي وضع اجتماعي واقتصادي فوق الممتاز، وأنه يريد أن أكون قريبة منها، وأن تكون هي قريبة مني، فهو لا يستطيع أن يعرف ما يجول في أعماقها! وحينما نظرتُ إليه بدهشة واستفسار أجابني مباشرة وكأنه قرأ ما يدور في ذهني من سؤال بألّا أقلق فهي تتكلم الفرنسية بطلاقة!

لا أدري كيف أن الحياة ابتسمت لي هذه المرة، فقد كانت مثل والدها تتكلم الفرنسية، بل هي تتكلمها أفضل مني وبلا لكْنة تقريبًا، ما أن رأيتها حتى اشتعلت رغبتي المجنونة في أن أقبلها، وأضغط صدري بصدرها، لكن هذا مستحيل الآن.

في مرآب البيت المخصص لسيارته، وقبل أن ننزل من السيارة مسك كفي وضغط عليها، وقال لي بنبرة يمتزج فيها الشبق بمشاعر الأبوة:

- أنا أريدك، أقصد أريد أن تكوني إلى جانب إيفا، سأوفر لك كل الظروف التي

تجعلك قريبة منها، أتمنى أن تدخلي قلبها وتدخل قلبك، إنني أعتمد على هذا اللقاء، اتفقنا؟!

كنت أشعر بنبرات صوته المتقطعة وكأنها لهاث شبق وحرارة يده بدأت تتسرب إلى كفي، فسحبت يدي بهدوء ولطف وقلت وأنا مندهشة وهو يرسم بيده علامة التصليب الدينية:

- اتفقنا، وسأبذل كل جهدي.

ولأنهي هذا الموقف الذي أحسست أنه لو طال قليلًا لتحول إلى مشهد غامض لا أعرف كيف سأخرج منه، فتحت باب السيارة وخرجت!

حين فتحت لنا إيفا الباب أحسست أن قلبي يهبط إلى بئر بلا قرار، وأني ضعت بنشوة دوختني للحظات. أخذتني بحركة ترحيب مفاجئة حيث صافحتني وضمتني إليها ضمًّا خفيفًا. أدركت أنها تعرف بمجيئي، لكن ما أثار انتباهي هي أنها لم تسلّم على والدها، بل نظرت إليه نظرة لا مبالاة تشي بتوتر وعدم احترام مضمر، لم يعجبني ذلك، أدركت أن الأمر لن يكون مع هذه الفتاة الفاتنة سهلًا، وفي الوقت نفسه أدركت أنني انجذبت إليها بطريقة لا فكاك منها.

آدم جوردانو قدمنا لبعضنا بالفرنسية، قادتني هي بترحاب إلى الصالة. أثاث البيت أنيق جدًّا، معاصر وغريب، يتوسط الصالة طاقم كبير من المقاعد والصوفات الجلدية صفراء اللون تميل للون الكركمي، حتى أني استغربت أن تكون الصوفا بهذا اللون، كلها موزعة بشكل أنيق ومدروس، تتوسط المسافة بين الصوفات والمقاعد منضدة زجاجية ترتكز على قاعدة ذهبية لم أعرف إن كانت من الذهب الخالص أم أنها مطلية بالذهب، على الجدران ثمة لوحات مختلفة لفنانين لا أعرفهم!

حاول الأب أن يمنحنا فرصة للتواصل فاتجه نحو باب قريب مفتوح عرفت أنه يقود إلى المطبخ، ما أن جلست على الصوفا حتى سألتني بوقاحة لم أتوقعها:

- هل أنت عشيقة أبي الجديدة؟

صُدمت بل ارتبكت من سؤالها الجريء والوقح، صمتُّ للحظات دون أن أعرف بماذا أجيبها، يبدو أنها انتبهت لارتباكي وصدمتي من السؤال، فابتسمتْ ابتسامة مشرقة وطيبة منحتني فرحة مفاجئة وقالت:

- عفوًا، أعتذر عن وقاحتي، ظننتك عشيقته الجديدة!

وجلست على الطرف الآخر من الصوفا الجلدية التي أجلس عليها، وأخذت تتأملني بفضول جريء وقالت:

- أنت مثيرة، شكلك جميل، كما أن لديك ذائقة في الملابس، أنت أنيقة.

- شكرًا.

تلتفت حولها وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد وقالت بصوت منخفض:

- أتمنى أن نكون أصدقاء، أنا لا أصدقاء حقيقيين لدي، لا، كيف أوضح لك، لديّ طبعًا أصدقاء وزملاء، لكنني أجدهم فارغين، واهتماماتهم سخيفة، لا أجد نفسي معهم. أحيانًا أشعر أنني امرأة عجوز، وبالمناسبة، سأقول لك شيئًا، لا تثقي بأبي إنه ديناصور مقيت.

استغربت طريقة كلامها، لا سيما جملتها الأخيرة فسألتها:

- ماذا تقصدين؟

- أخبرك فيما بعد، لكني أريد أن تكوني صديقتي، أتوافقين أن تكوني صديقتي؟

- أكيد.

وفوجئت بأنها تمدّ يدها مصافحة وكأننا نتفق ونتعاهد على أن نكون أصدقاء، وقالت لي بسرعة:

- سنلتقي كل يوم، هل أنت تعيشين مع أخيك؟

وقبل أن أجيب قالت:

- هكذا أخبرني أبي، لكن هل لديك الوقت لي؟

- سأجد الوقت بالتأكيد.

في تلك اللحظة جاء الأب وهو يحمل صينية فيها كأسان مليئان بعصير البرتقال ووضعها على الطاولة أمامنا وقال بلطف:

- اشربا عصير البرتقال، إنه طازج.

وقبل أن أمدّ يدي لأتناول كأس العصير قالت ابنته بطريقة فيها لؤم واضح وتأنيب غير لائق:

- أنت لم تسألني إن كنت أريد عصير برتقال أو نوعًا آخر من العصير، والآن تطلب مني أن أشرب ما أنت تريده. شكرًا، لا أريد عصير البرتقال، أريد عصير التفاح، لكن يمكنني أن أشكرك على أنك عرّفتني على السيدة الجميلة صديقتك.

استغربت من طريقة تعاملهما، وتأكدت أن ثمة شيئًا غير طبيعي وراء هذه العدوانية من فتاة مراهقة نحو أبيها، شعرت بالتوتر والحرج، وانتبهت إلى أن الأب آدم جوردانو أُحرج أيضًا، لكنه تمالك نفسه، فلم يجبها، ونظر إليّ وقال:

- أنا سأنتظرك في السيارة، اشربي عصيرك بهدوء.

واستدار متجهًا إلى خارج الصالة.

أخذت أرتشف العصير برشفات سريعة وطويلة كي أنهي الكأس بسرعة وألتحق به، على الرغم من رغبتي في عدم مغادرة الصالة، انتبهت إلى أن إيفا جوردانو كانت تتأملني، حاولت ألّا أشرب الكأس كله، وبينما كنت أستعد للنهوض قالت لي بهدوء شديد:

- ربما تستغربين طريقة كلامي وتصرفي معه بهذا البرود والتحدي! حين تكوني معه، ستكتشفين أنه وحش، انتبهي، أقول لك ذلك لأنك صرت صديقتي، ربما هو جاء بك لكي تتعرّفي عليّ، وربما لتنقلي له سرّ تعاملي معه، أو ما أنوي القيام به، ضده أو ضد نفسي. لا تقولي إنه لم يطلب منك ذلك، أنا أعرفه، هو لا يفعل ذلك حبًّا لي، وإنما خوفًا مني.

- خوفًا منك. قلت لا إراديًّا.

- نعم خوفًا، ستعرفين ذلك فيما بعد، اذهبي الآن إليه فهو ينتظرك، لكن أعطيني رقم هاتفك.

وأخذتْ من منضدة جانبية صغيرة جهاز هاتف نقال لم أنتبه له وطلبت رقمي فذكرته لها، وبعد ثوانٍ رن هاتفي، ابتسمت وقالت:

- هذا رقمي، سأتصل بك ليلًا، ألا يزعجك ذلك!

لم تكن تعرف أنني كنت في حالة ذهول مما حصل لي منذ لحظة فتحها للباب وإلى الآن، وأنها صارت تتحكم بي بطواعية مني، وأنها قدري.

## الفصل السادس

# حواء الورد والأشباح

دخلت حواء الورد بهو الفندق مسرعة، كانت تريد أن تصل غرفتها كي تتصل بخطيبها آدم الشكاك لتبرر له عدم ردّها على اتصاله حينما كانت في المطعم. المصاعد كلها معلقة في الطوابق العليا. ضغطت على زر النزول وأخذت تنتظر.

فُتح باب المصعد، لم يخرج أحد، دخلت، وقبل انغلاق الباب بالكامل امتدت كف لتوقف الانغلاق ففُتح الباب ثانية ودخل الرجل الأشقر الوسيم، ابتسم لها ونظر إليها نظرة شبقة متفحصة. ضغطت على زر الطابق الثامن، بينما الرجل الأشقر لم يضغط على أي زر، وإنما واصل النظر إليها بشبق ووقاحة وكأنه يجرّدها من ثيابها.

تحرك المصعد، انتابها رعب صادم حينما انتبهت إلى أن المصعد أخذ ينزل إلى الأسفل بدل أن يصعد إلى الأعلى!

هبط المصعد بسرعة شديدة، كانت ترى أرقام الطوابق تحت الأرضية تتبدل بسرعة من خلال الشاشة الإلكترونية في أعلى كابينة المصعد، توقف المصعد عند الطابق الثامن تحت الأرضي، فجأة انطفأ الضوء لثوان داخل كابينة المصعد، وحينما عاد الضوء لم تجد أحدًا معها، بل إن المصعد كان يشير إلى الطابق الثامن الاعتيادي، طابقها!

فُتح باب المصعد، لم تكن تصدّق ما جرى، خافت، مدّت رأسها من باب المصعد فتأكدت من أنها في طابقها الصحيح حيث رقم غرفتها، "كيف حدث هذا؟ لقد كان المصعد يهبط إلى الأسفل بإشارة السالب وأنا كنت متأكدة من ذلك فكيف حدث أنه الآن في الطابق الثامن الأعلى حيث غرفتي؟"، كانت دهشتها ممزوجة بخوف وتوجس، خرجت مسرعة تكاد تهرول، فتحت باب غرفتها وكأنها تهرب من شبح يطاردها.

دخلت غرفتها لاهثة، أسندتْ ظهرها إلى الباب من الداخل، بقيت واقفة إلى أن استعادت إيقاع أنفاسها، مشت إلى داخل الغرفة، وضعت حقيبتها على الطاولة، ألقت نفسها على السرير. نظراتها تحدق إلى السقف لكنها لم تكن ترى شيئًا، أرادت أن تفسر ما جرى لها، وبدأت تستعيد تفاصيل الأمسية والحوار العميق بينها وبين آدم التائه، وغوامض ما رأته في المطعم، إلى ما جرى لها في المصعد، لكنها لم تستطع أن تجد تفسيرًا منطقيًا لكل هذا، شعرت بالخوف، فجأة انتبهت إلى أن خطيبها آدم الشكاك يشكل لها رعبًا أكثر من أي كائن آخر في الوجود، نهضت عن السرير، مشت إلى حيث حقيبتها، أخرجت جهاز الهاتف النقال، وطلبت المكالمة الفائتة، اتصلت به.

وقبل أن تنطق بأية كلمة وصلها صوت خطيبها الذي بدا غاضبًا، رجعت لتجلس على حافة السرير وهي تشعر بالارتباك وبدأت تحدثه بنبرة منكسرة فيها مشاعر ذل وشعور بالذنب واستياء من أسلوبه ونبرة صوته الغاضبة، فقالت:

- حبيبي آدم، لا تحرق دمك هكذا، لماذا أنت عصبي إلى هذه الدرجة، أنا كنت أتحمّم، (صمتت للحظات)، كيف؟ نعم صحيح قلت لك العصر بأنني تحمّمت، لكن يا حبيبي جاءتني الدورة فجأة، فدخلت أتحمّم، ولم أسمع رنين الهاتف، الآن خرجت من الحمام، وها أنا أتصل بك، (أحسّت بالارتباك لأنها تكذب)، طيب حبيبي أنا أعتذر، مرة ثانية سآخذ جهاز الموبايل معي إلى غرفة الحمام، ماذا؟ اتصلت بأختي؟ تفاهمت معها؟ على أي شيء تفاهمت معها؟ سألتقيها غدًا على مائدة الإفطار، أمرك حبيبي، حاضر، (صمت للحظات)، لا، ما راح أسهر، سأنام حبيبي، تصبح على خير حبيبي.

أنهت الاتصال بخطيبها آدم الشكاك. كانت تشعر بالذل، والانكسار، أخذت تفكر مع نفسها والحزن يخنقها بأنها تكذب بطريقة مبتذلة، وتعرف أنها تكذب، بينما هي في طبيعتها صادقة وتكره الكذب لكنها تجد نفسها مجبرة على الكذب، بل هي إلى الآن لم تكشف له عن شخصيتها الحقيقية، عن أسرارها، عمّا يدور في نفسها، عن رغباتها، فهي تعرف أنها لو كشفت عما هي عليه حقيقة لهرب منها، بينما هي تريد أن تتخلص من وضع المطلقة في مجتمع النساء ينظرن فيه إلى المطلقة كخطرٍ عليهن، والرجال يعتبرونها مشروع مغامرة جنسية وفي أحسن الأحوال مشروع عشيقة في السر، وحده آدم الشكاك أرادها زوجة رسمية وشرعية له، "لكن لماذا؟"، سألت نفسها!

كانت تحاور نفسها بوضوح، وأحست بالكآبة تقبض على نفسها حينما انبثق وجه آدم التائه والأمسية الجميلة في ذاكرتها، إنها تعيش بذاتها وكيانها مع هذا الرجل بينما تتحول إلى ذليلة ومنكسرة وحذرة حينما تكون مع زوجها المستقبلي! ودون إرادة منها انثالت ذكريات حياتها السرية التي عاشتها أثناء الطلاق وبعد الطلاق مع رجال آخرين لا يعرف بسرّهم أحد قط!

تذكرت كيف أنها تعرّفت على عدد من الرجال في بيروت خلال السنوات الثلاث التي كانت فيها تدور بين المحاكم لإنجاز معاملة الطلاق، كانت عشيقة لثلاثة منهم، أحدهم، آدم الحسامي الذي كان يعمل مصورًا تلفزيونيًّا، وكان وسيمًا وبلحية مشذبة جميلة، وعلاقتها معه كانت أطول علاقة عاشتها مع رجل، تتذكر الآن كيف أن تعاطفه معها أثناء صراعها من أجل الطلاق وحنانه ووسامته وشبقه المفضوح نحو جسدها هو ما شدها إليه، إلى أن أخذها ذات يوم إلى شقته، وهناك على الصوفا عرّاها، تتذكر أنها اعترضت، فهي لا تزني ولا تقبل علاقة غير شرعية! لذلك اتفقا على الزواج الاختياري بينهما وفق تعاليم مذهبها وطائفتها، زواج المتعة، سرًّا، فهي لا تستطيع أن تخبر أحدًا بهذا، ومن ناحية أخرى لا تستطيع أن تصمد أمام الرغبة المتدفقة والملحة في جسدها، وهكذا صارت له زوجة حسب مفاهيمها وقناعاتها الطائفية، وقد استمرت علاقتها به لشهور عديدة ارتوت خلالها من اللذة التي كانت محرومة منها! وتذكرت كيف تعلّق هو بها أيضًا إلى الحد الذي فاتح أهله للزواج منها، أو هكذا قال لها، لكنهم رفضوا لأنها امرأة مطلقة! هذه التجربة هزّتها من الأعماق، كانت الضربة الثانية بعد طلاقها!

فجأة، انبثق في ذاكرتها وجه الرجل اليماني الذي كان يعيش في بيروت، والذي معه عاشت حياة شبه ماجنة، وأيضًا من خلال عقد زواج متعة سري بينهما، ولفترة قصيرة جدًّا، فترة عاشت فيها كل ما يمكن أن يخطر في ذهنها آنذاك من خيالات جنسية، بيد أن هذه العلاقة لم تستمر لأنه هذا الرجل لم يكن حرًّا أيضًا، إذ فرض عليه أهله الزواج من بنت عم له! تذكرت بمرارة شخصًا ثالثًا حاولت أن تحافظ عليه من خلال منحه جسدها، لكنه بعد أن ارتوى منها انسحب بطريقة ماكرة، حتى صارت تكره نفسها، فهي ليست عاهرة ورخيصة تنتقل من رجل إلى آخر!

صحيح أنها كانت تضع صيغة دينية شفوية قبل السماح لهم بمضاجعتها، لكنها

تعرف أنها لا تستطيع أن تعلن ذلك، وإلا سيتبرأ أهلها منها وستتحول في نظر الناس إلى مومس رسمية، عاهرة مقدسة كما في المعابد القديمة التي قرأت عنها!

لكن الحياة كانت شفيقة معها حينما أهدتها آدم الشكاك! نعم لقد كان آدم الشكاك هبة سماوية لها، وعليها أن تتجرع المهانة والذل معه من أجل إتمام الزواج، ومع أنها تحاول إقناع نفسها بالوضع الذي هي فيه، إلا أن موجات شعورية تتدفق في داخلها تدفعها للتمرد النفسي على وضعها الذي هي فيه، "لماذا عليّ أن أتحمل كل هذا؟ ما الذي فعلته بحياتي كي تعاقبني الحياة هكذا؟ لماذا عليّ أن أستغفر عن ذنوب لم أقترفها؟ لماذا هذا الشعور وكأني مدانة بخطيئة لم أقترفها؟"، هكذا كانت تسمع صوتها الداخلي يعلو في أعماقها.

شعرت بحزن يغمرها، وبانقباض نفسي ووحشة تهيمن عليها، وأحست بأنها تكاد تختنق في هذه الغرفة. فكّرت أن تتصل بآدم التائه لكنها عدلت عن ذلك، وخطر في ذهنها أن تمر على أختها أولًا، وانتبهت إلى الساعة الجدارية، لم يكن الوقت متأخرًا جدًّا، التفتت إلى جهاز الهاتف الأرضي الموضوع قرب رأسها من الطرف الآخر، تمددت بجسدها وأخذت السماعة، طلبت وهي مستلقية رقم غرفة أختها، رن الهاتف مرات، لكن لا أحد رد عليها، فكّرت مع نفسها: "ربما هي نائمة! لكن الوقت ليس متأخرًا، ربما خرجت مع زوجها إلى أحد مطاعم الفندق!". وضعت السماعة على الجهاز، ووجدت نفسها متأهبة للاتصال بآدم التائه من هاتفها النقال، وفي تلك اللحظة سمعت طرقًا على الباب، فزت قلقة، "مَن تُرى يطرق عليّ الباب في مثل هذا الوقت؟ ولماذا يطرق بكفه ولا يضغط على الجرس؟". سألت نفسها بارتياب.

توجهتْ لفتح الباب بحذر، وقفت أمامه، نظرت من خلال العين السحرية، استغربت أنه لا أحد يقف أمام الباب، "هل صرت أتوهم أشياء غير موجودة؟ ما الذي يحدث معي؟ كيف لا يوجد طارق للباب بينما سمعت طرقات بالكف على الباب؟" سألت نفسها، وكي تتأكد من واقعية ما سمعت فتحت الباب بشكل مفاجئ، في تلك اللحظة بالذات أحسّت نفسها تُدفع بقوة داخل غرفتها، ووجدت نفسها في أعماق الغرفة قرب السرير!

لم تعرف لحظتها ما الذي جرى، كانت تحس وكأن ما يجري لا يجري معها، حتى

أنها لم تشعر بأي ألم عندما دُفعت بقوة، وفي تلك اللحظة انتبهت فزعة إلى شبح غير مرئي يدخل الغرفة ويغلق الباب خلفه، كانت تراه ولا تراه، شبح من مادة شفافة جدًّا أشبه بكريستال شفاف، هيكل لإنسان غير مرئي ولا تبين ملامحه، وحين تقدم الشبح نحوها حاولت أن تتبين حقيقة ما ترى، وكلّما تقدم نحوها تجسّدت ملامحه الكريستالية بشكل أفضل، وحينما صار قريبًا منها أدركت ملامح طليقها، كانت ابتسامة هازئة ترتسم على الوجه الكريستالي الشفاف!

أحسّت كأنها مشلولة، وقف هو أمامها بالضبط، نظر إلى وجهها مركزًا على عينيها بطريقة غاضبة، شعرت بشلل جسدها وتخشبه، وخافت من أن يصفعها على وجهها كما كان طليقها يفعل عادة قبل أن يضاجعها بعنف، تهيأت لكي تدافع عن نفسها وتصد ضرباته إن حاول، أرادت أن تقول شيئًا لكن ذهنها كان عاجزًا عن استيعاب ما يجري، لم تستطع سوى أن تتمتم بكلمة:

- أنت!

ولم تكمل كلمتها إذ دفعها إلى السرير فسقطت على السرير بحيث صار نصفها الأعلى مستلقيًا على السرير فقط، وبلا مقدمات وبسرعة خاطفة تقدم نحوها، رفع ثوبها إلى الأعلى، كانت في حالة ذهول وعجز، وكأنها تستعيد مشهدًا متكررًا، كانت تحس وكأنها ليست هي، وما يجري ليس معها وإنما مع واحدة تشبهها جدًّا، نسخة منها!

في تلك اللحظة نظرت إلى سقف الغرفة ورأت وكأن السقف تحول إلى مرآة تعكس الوضع الذي هي فيه، وراودها شعور بأن هذا المشهد قد جرى معها، رأته بالضبط قد جرى معها في فندق ما، وفي غرفة مطابقة لهذه الغرفة، وكأنها الآن ترى إعادة للمشهد ذاته! وفي اللحظة التي فتح الشبح الكريستالي الشفاف ساقيها ليدخل بينهما، رنّ جرس الباب، فزّ كلاهما، نظرت لجهة الباب لثوانٍ بينما الجرس مستمر في الرنين، فجأة، انتبهت إلى اختفاء الشبح الكريستالي الشفاف، لم يكن أحد غيرها في الغرفة!

اضطربت، كانت مشلولة عن الحركة تقريبًا، اجتاحتها مشاعر متناقضة في تلك اللحظات، لكنها انتبهت لرغبة في أعماقها تمنّت فيها لو أن الجرس لم يرن، "لكن أين اختفى شبح طليقي؟"، سألت نفسها، ثم نظرت إلى نفسها في مرآة السقف فوجدت ثوبها مرفوعًا وهي عارية بالكامل ومفتوحة الساقين! صُدمت مما رأت، وكأنها عادت من عالم

آخر كانت فيه، نهضت قافزة عن السرير، بينما جرس الباب يرن بل ويرافقه طرق بالكف على الباب الخشبي، ثم سمعت صوت زوج أختها يناديها أن تفتح، انتبهت إلى أن سروالها منزوع وملقى على الأرض، "كيف جرى ذلك وهو لم يمد يده لسروالي؟" سألت نفسها.

كان الطرق عجولًا، لم تتمكن من لبس السروال، وضعته على عجل تحت المخدة، وأسرعت إلى الباب لتفتحه، واجهت زوج أختها الذي قال لها بأن أختها اتصلت بها مرات، والآن تدعوها لكي تخبرها بأمر ما، لم تستفسر عن الأمر المهم وإنما قالت له بأنها اتصلت بهما أيضًا، ولم يرد أحد منهما على اتصالها، فأخبرها بأنه كان في اللوبي وأختها ربما كانت في الحمام، فأجابته بأنها ستأتي بعد دقائق! لكنها غيّرت رأيها بسرعة إذ قالت له قبل أن يذهب: انتظر، سآتي معك! ظل هو واقفًا عند الباب. فأسرعت إلى المخدة وسحبت سروالها الداخلي، انعطفت في جانب الغرفة بحيث لا يراها، لبسته، أخذت الهاتف النقال فوضعته في حقيبتها والتقطت البطاقة العاجية الإلكترونية التي هي مفتاح الباب، وخرجت.

كانت في حالة ذهول من نفسها ومما جرى ويجري معها، أطبقت الباب خلفها ومشت مع زوج أختها في الممر.

***

سمع آدم التائه طرقًا خافتًا على الباب الخارجي. توقف عن القراءة. ظن أنه توهم، إذ انقطع الطرق، لكنه سمع طرطشة ماء وكأن هناك من يتحمم في الغرفة المقابلة ويصب الماء على نفسه من الدلو. كانت طرطشة الماء وقرع الطاس يصله واضحًا. ظل ساكنًا مرهفًا السمع ليطمئن بأن ما يسمعه ليس وهمًا كما هو قرع الباب الخارجي الخفيف. شعر بارتباك في نفسه من هذا الغموض الذي يطوقه هنا في هذه الشقة الغريبة.

بحذر غادر الغرفة متوجهًا إلى الصالة ليتأكد من وجود الشخص الذي يتحكم في غرفة الحمام المقابلة. كانت الصالة معتمة، بينما غرفة الحمام مفتوحة الباب دائمًا كانت في تلك اللحظات مغلقة ولا يتسرب سوى خيط من الضوء من فتحة قفل مخلوع عليها!

كانت طرطشة الماء تصل مسامعه. تقدم إلى منتصف القاعة، تأكد من وجود شخص ما يقوم بالاستحمام وبسكب الماء على جسده غارفًا من الجردل الذي يعرف

أنه موجود هنا، بقي للحظات يفكر في الخطوة التي عليه اتخاذها، تقدم ببطء شديد وباحتراس كي لا يُسمع صوت حركته نحو الباب! انحنى بقامته ووضع إحدى عينيه على فتحة القفل المخلوع! هاله ما رأى، ثمة مؤخرة مثيرة جدًّا، رفع عينيه ليرى أفضل، حدّق بعينه من خلال ذلك الثقب فرأى جانبًا من جسد امرأة شفافة، أثيرية، ترتدي ثوبًا شفيفًا جدًّا ملتصقًا بجسدها المكشوف على الرغم من شفافيته وأثيريته، كان يرى ظهرها وشعرها الطويل الذي ينسدل مبتلًّا على ظهرها مغطيًا كتفيها لينحدر إلى الأسفل أيضًا، مؤخرتها المثيرة أمام عينيه. فجأة توقف كل شيء، أحس بأن هذه المرأة الشفافة قد انتبهت لوجوده، توقفت عن سكب الماء على جسدها على الرغم من أن طاسة الماء كانت بيدها المرتفعة لتسكبها على رأسها، وبحركة بطيئة استدارت بكامل جسدها نحوه، عرف أنها استدارت. فقد صار ما بين فخذيها أمام مسقط نظره مباشرة. وفجأة سمع صرير الباب وحركة انفتاحه فتراجع إلى الوراء لا إراديًّا حتى صار في منتصف الصالة، بينما الباب انفتح إلى آخره.

ذهل آدم التائه حين رأى هذه الكائن الأنثوي الشفاف والأثيري الجسد، وأحس بهبوب نسائم عطرة، تحمل رائحة طيبة جدًّا من جهتها، تشمم عطرها الأثيري النخدر، انتبه لجسدها الأنثوي المثير، لنهديها الفخورين باستدارتهما المثيرة، وحلمتيها النافرتين والمحاطتين بهالة وردية واضحة، ولانحناءات جسدها وسرتها التي كانت تبان من خلف الثوب المبتل الشفاف الملتصق بجسدها الأثيري الشفاف، ونزل بعينيه لما بين فخذيها، ركز بصره لثوان هناك حيث الوعود باللذة الطافحة، ثم واصل سفر عينيه في فخذيها هبوطًا إلى قدميها منتبهًا لأظافر قدميها الملونة بالأحمر.

كان وجهها أنيقًا جدًّا، جميل القسمات، حاد الملامح وكأنه تمثال منحوت من المرمر، من عينيها يشع حنان ودفء غير عاديين، بينما كانت تنظر إليه مستغربة، نظرات فيها تساؤل رقيق وحزن شفيف، وكأنها كانت تعرفه أو تتوقع وجوده، وللحظة أحس وكأنه رأى علامات الخجل على وجهها الأنثوي الأنيق القسمات.

خرجت من غرفة الحمام، ومع أنها اتجهت إلى حيث يقف ونظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة خجولة، إلا أنها ما أن وصلته حتى مالت في سيرها وتوجهت نحو غرفته وكأنه لم يكن موجودًا.

ظل هو متخشبًا في مكانه، حين صارت قربه انتبه إلى أنها تشبه المرأة التي رآها في كابوسه المخيف، لكن تلك كانت في ثوب أسود بينما هذه كانت عارية مع أنها كانت ترتدي ثوبًا شفافًا!

لم يكن يصدق ما رآه لولا أنه لاحظ آثار قدميها المبتلتين على الأرضية الخشبية. وحين التفت ليتتبعها أحسها وكأنها تلاشت كالدخان في الهواء. فجأة، انتبه لنفسه وكأنه أفاق من حلم غامض، لا، لم يكن حلمًا، فرائحتها الزكية منتشرة في الصالة، رائحة عطرة، نسيم مخدر يبعث النشوة في الروح، بقي للحظات كالمشلول، ثم فجأة استدار واتجه نحو الغرفة.

حين دخل غرفته وقف عند العتبة ونظر ناحية السرير فلم يجدها، لكنها موجودة، فالغرفة تفوح بعطرها الزكي، وحين التفت نحو طاولة المكتب رآها بحضورها الأثيري الشفاف جالسة على الكرسي أمام المرآة الكبيرة وكأنها كانت تمشط شعرها المبتل، وحين حدّق ثانية، لم يكن ثمة أحد.

اقترب من الكرسي مذهولًا، أراد أن يتأكد من أن ما رآه صحيحًا، وضع كفه على مكان الجلوس فأحس ببعض الرطوبة والبلل على كفه، أدرك أنه لا يتوهم. تلفت في الغرفة فلم يرَ شيئًا، انتبه لنفسه بأنه لم يكن خائفًا أو متوترًا على الرغم من غرابة الحدث، وقال لنفسه حتى لو كانت الشقة مسكونة بالأرواح، مسكونة بروح هذه المرأة الفاتنة فلا ضير، فهي مذهلة في جمالها وأنوثتها، وابتسم مع نفسه وقال بصوت داخلي ذهني: أهلًا بهكذا أرواح.

جلس على الكرسي أمام المرآة الكبيرة. نظر إلى شاشة اللابتوب ليواصل قراءة اعترافات حواء كازابلانكا، لكنه وجد اللابتوب مفتوحًا على صفحة أخرى، وبعنوان بارز مكتوب "الرواية الغامضة"!

يتذكر أنه كان يقرأ في اعترافات حواء كازبلانكا حينما سمع صوت طرطشة الماء في الحمام، يتذكر بأنه لم يكن هناك نصًّا يحمل هذا العنوان وإلا لكان أثار انتباهه، وخطر في ذهنه بأن هذا النص له علاقة بالمرأة الأثيرية التي رآها قبل قليل، وأنها هي من وضع الملف على جهازه كي يقرأه، لكن لماذا، وماذا في النص! راوده فضول في قراءته، وفعلًا قرر التوغل في هذه الرواية الغامضة.

***

انتهى آدم التائه من قراءة نص "الرواية الغامضة" الذي تركته له هذه المرأة الأثيرية، شعر بالخوف، فما جاء في النص هو سرد لتفاصيل الكابوس الذي رآه في المنام!.

ظل لدقائق يفكر في هذه الرواية الغامضة فعلاً، ودلالتها، ولماذا كتبت هذه المرأة سردًا للكابوس الذي رآه في الحلم! ولكي يهرب من ضجيج الخواطر والأسئلة، فتح ملف اعترافات حواء كازابلانكا ليتابع ما جرى معها ويفهم قصتها قبل أن يلتقيها، ضغط على ملف "متاهة الأنبياء" وواصل القراءة.

# 6
# السِّفر السادس

## النذل

لم يكن البيت الصيفي قريبًا من المدينة، إذ استغرقنا في الطريق الخارجي أربعين دقيقة تقريبًا، ثم انعطفنا في درب جانبي يخترق غابة كثيفة الأشجار، توغلنا عميقًا حتى أحسست بالخوف الغريزي مما ينتظرني، لم أكن أخافه هو، فقد كان طوال الطريق يحادثني ويرفّه عني ويشرح لي تاريخ بيته الصيفي وكيف بناه، وكان يقاطعني أحيانًا مستفسرًا عن حياتي الخاصة وطبيعة سلوكي وهل لديّ عشيق سريّ ما دمت بهذا العمر ولم أتزوج! وكان مستغربًا من إجادتي للفرنسية، وخفت كثيرًا حينما سألني بذكاء عن مدى انتشار اللغة الفرنسية في سورية، حتى أنني شككت بأنه يعرف أني لست أخت آدم الخليل وأني مغربية! وفي تلك اللحظات شكرت في أعماق نفسي آدم فون موتر لأنه أخبرني بتلك القصة المؤلمة عن زواج آدم الخليل من تلك المرأة المسكينة التي أرسلها لكي تعيش مع ابنها في جحيم الحرب الأهلية السورية، فقد سألني آدم جوردانو عنها وكيف هي الآن مع ابنها هناك! كان مسترسلًا في حديثه، بينما كنت أحاول أنا أن أُدير الحديث لأستفسر عن ابنته إيفا، تلك الفتاة المشمشية التي لم أستطع أن أتناساها ولو للحظة!

لم أكن أعرف عن آدم جوردانو الكثير، معلومات عابرة رواها لي زوجي آدم الخليل، بأنه موظف كبير يترأس قسم القروض في أحد البنوك المعروفة في فيينا، لكنه في الطريق إلى بيته حدّثني عن ابنته التي تعيش حالة نفسية خاصة بعد طلاقه من أمها، وروى لي قصة طلاقه الصادمة من زوجته التي كانت قد غادرت البيت لتعيش مع شاب يصغرها بخمس عشرة سنة، بل إن هذا الشاب كان الصديق الحميم والحبيب لابنتها الكبيرة،

حينها عرفت أن له ابنة أخرى أكبر من إيفا حبيبتي الساحرة، وإن علاقة الابنة بهذا الشاب قد مرت بأزمة حادة نتيجة تلاعب ذاك الشاب بعواطفها من خلال اكتشافها لمغامراته العاطفية الجانبية مع غيرها! صدْمتها فيه كانت كبيرة فقطعت علاقتها به، وعاشت أزمة نفسية وكآبة سوداء. الأم أرادت أن تنقذ ابنتها من المحنة النفسية التي تعيشها، وفكرت بالتدخل لإصلاح العلاقة بين ابنتها والشاب، فوقعت هي في غرامه، بل إنها تصرفت كأية مراهقة لكن في منتصف الأربعين، إذ اختفت لثلاثة أيام، اتصلت مساء الليلة الأولى بزوجها وأخبرته بأنها لن تعود إلى البيت وأن عليه أن يجد لها العذر عند بناتها بشكل ما، على أن يمضي هو بإجراءات الطلاق، لكنها عادت بعد أسبوع لتواجه العائلة بقرارها، إذ أعلنت له ولبنتيها بأنها تريد الانفصال لأنها لا تريد أن تعيش في ازدواجية مع نفسها، وأنها تريد أن تعيش وحدها لأنها لا تستطيع أن تواصل الحياة الزوجية، وخلال تلك الأيام اختفى الشاب من حياة الابنة الكبرى فلم تعد تراه لا في مكتبة الجامعة ولا في أروقتها، بل إنها تأكدت من أنه غيّر رقم هاتفه وانتقل للسكن في مكان مجهول لها، لكن راود الابنة إحساس غامض بأن ثمة أسرار وراء اختفاء حبيبها وترك أمها للمنزل. بيد أنها لم تكن على يقين مما راودها من إحساس، لذا حاولت بكل الوسائل أن تتعرف على عنوانه من الدوائر الرسمية، وفكرت مع نفسها بأن أفضل وقت لضمان تواجده في البيت هو وقت الصباح الباكر، ومضت إليه، كان ثمة شعور غير مريح يهيمن عليها بأن مفاجأة مأساوية تنتظرها، فكّرت أنه ربما يعيش مع واحدة أخرى، وأنها ستقبض عليه بالجرم المشهود، لكن الضربة القاضية جاءت من حيث لم تتوقع!

وقفت أمام باب المنزل الصغير الأنيق مستغربة، هي تعرف أنه يعيش عيشة كفاف، يعمل ليصرف على نفسه ودراسته، فكيف يعيش في هذا البيت الأنيق! خمّنت بأنه ربما يعيش مع امرأة ثرية، أرادت أن تعود أدراجها وتنتظر خروجه من البيت، لكن غيرتها ويأسها دفعاها للضغط على زر جرس الباب، وبعد أقل من دقيقة جاءت الصدمة، الضربة القاتلة، إذ فتحت أمها لها الباب وهي في قميص النوم، بينما جاء حبيبها خلفها وهو في سروال قصير وتي شيرت، الصدمة أخرست الثلاثة، لكنها لم تتحمل الصدمة، هربت من ذلك المشهد، لا أحد يعرف ماذا جرى بعد هروبها من أمام الباب، لكنه وجدها منتحرة في غرفتها!

أخرستني هذه القصة، فلم أتجرأ أن أسأله عن زوجته، ومصيرها، وأين هي الآن، لكني وجدت في ذلك مدخلًا للحديث عن إيفا، وتأثير الصدمة عليها! فقال لي بأن إيفا تحمّله ذنب رحيل أمها وانتحار أختها لذلك تتصرف معه بخشونة!

ونحن نتوغل في الغابة، رأيت مجموعة من الناس يشكلون دائرة حول شجرة منفردة في مرج جانبي فسيح نسبيًّا من الغابة، وكانوا يحدثونها بالألمانية، يصلّون إليها، ويركعون، وبعضهم يسجد، فسألته عنهم، قال لي هؤلاء يعبدون الأشجار، وهذه شجرة معمرة جدًّا، وهم يصلّون لها وللروح التي تسكنها، وهم يتوسلونها ويبوحون لها بأحزانهم وإحباطاتهم وأحلامهم.

ألقيت نظرة على وجه آدم جوردانو الذي يكبت غمًّا كثيفًا، مع أنه يحاول أن يبدو سعيدًا وفرحًا بوجودي معه، فاجتاحتني مشاعر تعاطف معه، أحسست أنه غير سعيد ويعاني بصمت على الرغم من مكانته الوظيفية وثرائه الفاحش!

كان يغيب للحظات في عالم ذكرياته، إلا أنه ينتبه لنفسه فيعود مبتسمًا، بل ويبالغ في محاولة اختلاق المرح وكأنه يكفّر عن لحظات غيابه الأليمة، فجأة، مدّ يده في صندوق فليني جانبي وأخرج قنينتي عصير قد أعدّتا في البيت كما يبدو، أعطاني إحداهما، كان عصير برتقال، بينما أخذ هو قنينة فيها عصير أخضر، وبنبرة مرحة طلب مني شرب العصير لأنه طازج ودون مواد كيماوية. فجأة، انشغل عني حينما دخلنا دربًا أشبه بالنفق، ضيقًا، معتمًا من أثر الظلال، استغرق السير فيه بضعة دقائق لنخرج منه على مرج صغير مفتوح على الفضاء، حيث أمامنا على بعد عشرين مترًا ينتصب البيت الصيفي وكأنه مشهد نراه في الأحلام، لكني كنت متوجسة بل خائفة مما ينتظرني في هذا البيت وفي هذه العزلة التي تبعث القشعريرة في الروح، ولا أعرف لماذا تمنيت في تلك اللحظة أن تكون ابنته إيفا معنا، أو نكون معًا، أنا وهي، وحدنا هنا في هذه العزلة الخضراء، والغريب أنني نسيت كل ما يتعلق بوجودي في هذه البلاد، نسيت آدم الخليل، وزواجي، وإقامتي، ومستقبلي، بل نسيت الدار البيضاء، والسلفي، ومدينتي الصغيرة، والبئر السوداء، وكأنني امرأة بلا ذاكرة، حالة أشبه بنعاس ثقيل يشلّ الذاكرة، وكأنني لست سوى ذهن لا يعي سوى اللحظة الواقعية التي أنا فيها، ولا يحس سوى بهذا المكان وفي هذا الوقت في أعماق الغابة الغامضة حيث أنا محاطة بكل هذه الأشجار التي بدت لي وكأن لها

عيونًا وأفواهًا وأرواحًا تسمعني وتنظر إليّ! وفكرت مع نفسي، ما الذي يحدث معي؟، كنت كالسائرة في النوم! وحين توقفت السيارة، جاء إلى جهتي وساعدني على الخروج، ومسك بي وهو يقودني إلى البيت الغامض الأنيق، كنت في حالة خدر شبه كامل.

***

لا أتذكر بالضبط ما جرى لي هناك، أفقت من نومي وصداع يقبض على نفسي وكياني، انتبهت لنفسي إذ وجدتني عارية في سرير عريض بغرفة فارهة، ما الذي جرى لي، أين أنا؟ حاولت أن أتذكّر ما جرى لي منذ لحظة وصولي إلى هنا وخروجي من السيارة، تدفّقتْ على ذهني صور مشوشة غير مترابطة، تقبيل محموم وشبق بيني وبين آدم جوردانو، مص، قنينة الويسكي بيدي وأنا أرتشف منها رشفات كبيرة كأية مدمنة محترفة، جنس إباحي عنيف، عري، موسيقى صاخبة، كريمة وعسل بين فخذي ورأس آدم جوردانو ولسانه العريض هناك، وشعوري بالاختناق والتمزق عند اختراقي من جميع الجهات..وتفاصيل مشوشة أخرى لم تكن واضحة لي، أي فيلم بورنغرافي داعر عشته دون أن أعي؟!، تلفّت في الغرفة، لم يكن ثمة أحد، حين تحركت قليلًا انتبهت إلى أن السرير يميل مع جسدي بنعومة، فأدركت أنه سرير مائي!

غادرت السرير إلى الحمام القريب الذي ضمن ملحقات الغرفة، كان حمامًا أنيقًا، أحواضه من المرمر المائل للخضرة، تتوسطه مرآة عريضة مؤطرة بإطار ذهبي، وقفت أمام المرآة الكبيرة والعريضة، انتبهت لبعض الكدمات على فخذي، وآثار عض على كتفي ورقبتي وصدري، دخلت تحت الدُّش، وتركت الماء الدافئ ينهمر، وينهمر، بينما الأسئلة تنهمر في ذهني أيضًا، إذن كيف جرى كل ذلك دون أن أعي؟ هل خدرني بعصير البرتقال أم كان من أثر الويسكي؟ هل كان وحده؟ لماذا هذه الكدمات!

خرجت من تحت الدش، جففت جسدي بالمناشف المصفوفة بكثرة هناك، ثم وجدت برنسًا قطنيًّا أبيض! حين غادرت الحمام راودتني رغبة في أن أعرف أين أنا، فخرجت من غرفتي، وجدت نفسي في باحة أشبه بالممر تطل على البهو من خلال سياج يحيط بالغرف الموجودة في الطابق كلها، تقدمتُ ثلاث خطوات ونظرت إلى الأسفل فرأيت آدم جوردانو في برنس حريري أزرق، منشغلًا مع جهاز الحاسوب المتنقل

(اللابتوب)، في تلك اللحظة تذكرت أن آدم الخليل زوجي يفترض أن يأتي مع آدم فون هايدن فيما بعد، لكنهما لم يكونا موجودين! تمنيت لو أن زوجي كان موجودًا، واستغربت من رغبتي تلك، أهي الرغبة نفسها التي تشد العاهرات لقوادهن نتيجة شعورهن بالأمان معه على الرغم من احتقارهن وحقدهن وخوفهن منه، كحالتي! لا أدري، لكني شعرت بالغربة مع آدم جوردانو على الرغم من تواصلنا اللغوي الممتاز!

وعلى غير توقع مني رفع آدم جوردانو رأسه إلى الأعلى فرآني، ابتسم لي وقال:

- هل صحوت؟ انزلي افطري، لقد نمت طويلًا.

ومن دون أن أجيبه أشرت بيدي وكأني أرد التحية، دخلت الغرفة، لم أكن أعرف ما أريد، الصداع خف قليلًا، لمحت ثيابي ملقاة على مقعد جانبي، أردت أن أرتدي ثيابي، لكني فكرت أنه يجلس بالبرنس، إذًا لا ضير أن أكون في البرنس أيضًا، وغادرت الغرفة نازلة السلّم الجانبي! حين لمحني وأنا مقبلة عليه وضع اللابتوت جانبًا ووقف فاتحًا ذراعيه، ولا إراديًّا صرت أمامه وفتحت ذراعي أيضًا، واحتضنا واحدنا الآخر، احتضان أصدقاء، احتضان بريء، لكن في تلك اللحظات استغربت لحالي كيف أني فتحت له ذراعي أيضًا، ثم فجأة وعلى غير توقع نزع عني البرنس فصرت عارية، مسكني من كتفيّ، وأرجعني للوراء خطوة، وأخذ يتأملني كلوحة، كتحفة، كجارية، وبكفيه أخذ يجول في جسدي، وجهي، كتفي، نهدي، بطني، ومد يده إلى الأسفل، وأخذ يداعبني من بين فخذي، وإلى الآن لا أزال مستغربة من نفسي، إذ كنت لحظتها أشعر بالإثارة، أمن المعقول أنني مغرمة بهذا الرجل الغريب دون أن أعرف؟! ودون أن يقول شيئًا، أخذني من ذراعي وتوجه بي صاعدًا إلى الغرفة.

لا أدري ما الذي جرى، وماذا فعلت، فقد دخلنا الغرفة، كنت عارية، فالبرنس بقي على الأرض في الصالة، أوقفني أمامه وخلفي السرير، مسك وجهي فصار حنكي في كفه، ضغط على جانبي فمي، وبلا مقدمات التقم فمي بشراهة، طريقته العنيفة في التقبيل دفعت بمشاعر مختلطة في نفسي، بين الغضب والإثارة الشبقة اللا إرادية والاشمئزاز.. فجأة.. أبعدني قليلًا، وبلا مقدمات صفعني، اندهشت وأنا مستفزة، آلمتني الصفعة، لم أفهم السبب، ثم أخذ يصفعني مثنى وثلاث، أحسست بسخونة وجهي من أثر الصفع وبخدر يسري في كل جسدي، دفعني بقوة على السرير الذي ورائي، سقطت على السرير،

وأخذ يقبل جسدي كالمجنون..ووجدت نفسي أستجيب وأتأوه لا إراديًا، وأصرخ به أن يلجني بقوة، ولا إراديًا لفظت كلمة: حبيبي أنت، أحبك، أموت فيك. فجأة توقف، وقف منتصبًا، وتلفّت فيما حوله، وسحب جارور الطاولة القريبة حيث يقف، وأخذ كرباجًا جلديًّا يتشكل من خصلة من الخيوط الجلدية كان قد خبّئه فيه لمثل هذه المناسبات، ثم نظر لي بغضب، وأخذ يصرخ قائلا:

- ماذا قلت؟ حبيبك؟ أنا لست حبيبك أيتها العاهرة، أنت قحبتي أنا، هل فهمت؟ أنت عاهرتي، وستبقين عاهرتي، بل ستصيرين قوادتي أيضًا، هل فهمت؟! لست حبيبك، هل فهمت! اعترفي الآن وقولي لي بأنك قحبتي الخاصة، وعاهرتي المطيعة، وعبدتي، وجاريتي، قولي الآن، هيا!

وأخذ يسوطني بالكرباج الذي بيده، وأدارني على بطني وأخذ يسوط مؤخرتي وظهري، ويصيح بأعلى صوته:

- قولي، اعترفي، إنك قحبتي، عاهرتي، توسليني وقولي إنك عاهرتي.

في تلك اللحظات المرعبة والمؤلمة أحسست أن الأمور خرجت عن السيطرة، كنت أحس بالنار في مؤخرتي وظهري مع كل ضربة سوط، أحس وكأنه كان يقتلع لحمي معه، لكن ثمة لذة حارقة تسري في جسدي مع كل سوط، ووجدت نفسي أصرخ خائفة مرعوبة ومتألمة ومنتشية:

- أنا قحبتك، أنا عاهرتك، وقوادتك، وجاريتك، وكل شيء تريده، فقط لا تعذبني هكذا، سأكون خادمتك، قوادتك، سآتيك بالعاهرات، فقط كف عن ضربي، أرجوك!

فجأة ألقى الكرباج من يده، وقرفص ثانية وأخذ يقبل أماكن السوط المحمرة على جسدي، ويمرّغ وجهه على جسدي، وهو يولول ويقول لي:

- أنت حبيبتي، وقحبتي، اطلبي ما تشائين، ستكونين عشيقتي الملكة، نعم ستكونين عشيقتي، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ لديك مؤخرة مذهلة، سأجن بجسدك الشرقي الغامض!

استدرت بجسدي وتناسيت ألمي قليلاً..وهززت رأسي موافقة والدموع تطفر من عيني، فأخذ يقبلني ويقول لي بنبرة رقيقة ممزوجة بالترجي:

- سأؤجر لك شقة خاصة بك، وأغرقك بالمال والهدايا، وتكوني لي وحدي، لا أريد أن يمسك غيري، ولا فون هايدن. لقد أخبرته بأننا لم نأتِ إلى هنا، حتى أخوك آدم الخليل أرسلت له رسالة هاتفية وأخبرته بأننا وصلنا متأخرين.

غريب هو الإنسان، ففي تلك اللحظات الاستثنائية والمخيفة في حياتي، استيقظت في نفسي غريزة التملك، وكأنني نسيت كل ألمي وخوفي وتوسلي له قبل لحظات، فقلت له:

- أريد أن تمنحني قرضًا، قرضًا كبيرًا من البنك الذي تعمل فيه لأفتح لنفسي مشروعًا، أريد أن أستقل عن أخي، أريد أن أعيش مستقلة عنه.

كان ولهانًا وشبقًا لذا كان يقبلني ويردد:

- سأمنحك، سأمنحك، لا، لا، سأفتتح أنا لك المشروع من مالي الخاص، ولا تحتاجين لأي قرض!

في تلك اللحظة، وكأن ساحرة مخيفة وشريرة استيقظت في داخلي، فأبعدته عني واستدرت نحوه، وقلت بنبرة جادة وحنونة ومتوترة:

- أريد أن أخبرك بسر غامض، أنا أشعر أنك منقذي والرجل الذي قادته الحياة لي لينقذني مما أنا فيه، لذا واجب عليّ أن أخبرك بسري!

فجأة توقف كل شيء، نظر إليّ بخوف وكأنه ينتظر شيئًا كارثيًا. نظرت إليه وفي نفسي صوت شرير يفح ويقول لي: انتقمي لنفسك واستغلي الفرصة، نظرت إليه وقلت:

- آدم الخليل ليس أخي، وإنما زوجي، هو شخص دنيء، استغلني وضحك عليّ، وأجبرني أن أدّعي بأني أخته مثلما فعل أبو الأنبياء إبراهيم الخليل مع زوجته سارة عندما أقبلوا على مصر، فعل ذلك من أجل أن يستغلك ومن أجل أن يطلب قروضًا أخرى، وأنا أحببتك، وأحس معك بالأمان، وأريد أن أكون معك، عشيقتك، وقحبتك، وحبيبتك، وأريد أن تنقذني منه!

نظرتُ إليه، كان كمَن صُعق، صمت لدقيقتين، كان وجهه خلالهما يتبدل، إلى أن ارتسمت على وجهه ملامح قاسية وغاضبة، وقال:

- هكذا إذن، يريد أن يخدعنا، يخدع البنك الذي ساعده، جيد أنك أخبرتني،

سألقنه درسًا لن ينساه. أنتِ لا تخافي، سأزج به في السجن، البنك أقام عليه دعوى لتراكم الفوائد عليه، وستحيل المحكمة شقته إلى المزاد بعد مصادرتها. أنتِ لا علاقة لك بالأمر، سأفتح لك مشروعك، وسأجعلك تنفصلين عنه رسميًّا، هذا المحتال يريد أن يستغفلني، ماذا قلت، بمَن يشبه نفسه، بأبي الأنبياء إبراهام! لن أنسى لك هذا الموقف، بل تعززت ثقتي بك، وسأساعدك كثيرًا.

ووجدت نفسي أتلبّس دوري حتى أني نسيت أنني أمثل فقلت بنبرة خوف وقلق:

- لكني خائفة، لا أريده أن يعرف بأنني أخبرتك، وأنك تعلم بأنني لست أخته، فقد طلب مني أن أقنعك بتمديد فترة الإيفاء بالدين المتراكم، وأن أقنعك لمنحه قروضًا جديدة.
- هو أعرف، لكنه يستغلني من أجل مصلحته، وأجبرني على التمثيل بأني أخته، لكني لا أستطيع أن أخدعك.

نظر إليّ متأملًا وبدا واضحًا أنه يفكر في أشياء بعيدة وقال:

- كل لطفه وكرمه وحديثه الراقي عن التمدن والتحرر لم يكن سوى جلد الأفعى.
- جلد الأفعى! سألت مستغربة وأنا أفكر في تأجيج الشك في آدم الخليل.
- نعم، البعض يعتقد نفسه قد تحرّر من ثقل العادات والتقاليد لمجرد أنه خطى خطوة مغايرة عما كان معتادًا عليه وقرأ بعض الروايات والكتب الفكرية أو التراثية وتعلم بعض المصطلحات الأدبية والنقدية، وسلك سلوكًا أوروبيًّا، لكنه في الحقيقة لم يتغير، وإنما غيّر جلده، مثل الأفعى التي تغير جلدها كل سنة، لكنها لا تتغير. التحرر أعمق بكثير من تغيير الجلد! لقد كان يقدم لنا نفسه كإنسان متحضر، أوروبي التفكير، متجاوز العادات الشرقية، لكنه كما يبدو لم يتخلص من الكذب والخداع.

في تلك اللحظة بالذات سمعنا رنين جرس الباب الخارجي، ارتسمت علامات الدهشة على وجهه، وقال:

- من ترى يكون؟ لا أنتظر أحدًا.

وقام متجهًا إلى جانب باب الغرفة من الداخل وضغط على جهاز صغير، فظهر على شاشة الجهاز وجه آدم الخليل، زوجي، نظر إليّ مستغربًا وقال:

- من أتى به إلى هنا، وكيف، لقد أخبرته بأننا وصلنا متأخرين، والمفروض أن يأتي مع آدم فون هايدن!

فقلت بنبرة فيها هلع وأنا أمثّل دور التي تريد أن تبقى معه فقط:

- ماذا سنفعل؟ ألا يمكنك ألّا تفتح له!

- لا، غير ممكن، أكيد أنه رأى سيارتي في الفناء، لا بد أن أفتح.

- أرجو أن تتعامل معه وكأن كل شيء كما كان.

- لا تخافي.

ضغط على زر فتح الباب، ثم توجه مسرعًا لإحدى خزانات الملابس، فتحها وسحب قميصًا وبدلة وحذاء وجوارب، ودخل غرفة الحمام، بينما قمت أنا ومؤخرتي تحرقني لأرتدي ملابسي!

لم تمض دقائق حتى كنا على أهبة الاستعداد لاستقباله، غادرنا الغرفة، ألقيت نظرة من سياج الطابق الأول فرأيته يقف في وسط الصالة وبيده البرنس، رفع رأسه إلى الأعلى فالتقت نظراتنا، ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية يمتزج فيها الابتذال مع الغيرة، بينما كان وجه آدم جوردانو حياديًّا مع ابتسامة غامضة.

حينما التقينا في الصالة، تصافحا، وبادره زوجي قائلًا بالألمانية وهو يبرر مجيئه المفاجئ بلا اتصال أو إبلاغ، وهذا ما فهمته منه لأني لا أتحدث الألمانية، إذ أخبرني بالعربية بأنه قال له أن آدم فون هايدن أخبره بأنه لن يأتي لأن مكان اللقاء قد تغير، وقد فهم هو بأن آدم جوردانو لم يود أن يكونا معهما، لذا صعد سيارته وأتى بنفسه إلى المكان، لكني استغربت طريقة تعامل آدم جوردانو معه، فكأنه لم يسمع مني شيئًا عن حقيقة علاقتي بآدم الخليل، إذ انبسط معه في التعامل، وكأنني أخته حقًّا، بل روى له ما جرى معي منذ لحظة خروجي معه ثم ذهابنا إلى بيته وتعرّفي إلى ابنته إيفا التي أحبتني كثيرًا ولم تود أن تفارقني، بل أصرت على أن أعود للسهر معها، وقد وعدتها بذلك! هذا ما أخبرني به آدم جوردانو بالفرنسية موضحًا الحديث الذي دار بينهما، بل صار كل منهما

يترجم لي ما يقوله للآخر! وبينما كان آدم جوردانو يترجم لي ما قاله لزوجي انتبهت لنظرة زوجي إليّ!

في الحياة ثمة نظرة ما من شخص ما، لا يهم من هو ولكن النظرة هي المهمة، نظرة لن ننساها طوال العمر، العينان والنظرة تبقيان أمام مخيلتنا ولا تُمحى من ذاكرتنا على مرّ السنين، ومن هذه النظرات تلك التي وجهها لي زوجي بينما كان الآخر يترجم لي بلطف ما دار بينهما.

كان وجه زوجي متشنجًا وهو يرسم ابتسامة صفراء، ابتسامة أقرب إلى التكشيرة التي توحي بها الجماجم العظمية، نظر إليّ نظرة المنتصر الغامضة، نظرة الذي قدم خسارات فادحة فلم يفرحه الانتصار كثيرًا، نظرة فيها الشماتة والتشفي ممزوجة بالفرح المزيف والغضب البارد، والغيرة المقهورة! نظرة لم ولن أنساها، فقد حقق مراده بمبيتي عند آدم جوردانو لكنه لم ولن يغفر له ولي ذلك! نظرة لم تستمر سوى نصف دقيقة ربما، لكنها كانت كافية أن تنصب جدارًا أسمنتيًّا عريضًا ومتماسكًا فاصلًا بيني وبينه!، ثم انتبه لنفسه فلم يعرف كيف يداري ذلك الصراع النفسي الذي كان يعيشه لا سيما وقد انتبه لآثار العض والمص على جانب رقبتي، وفجأة قال لي جملة بلهاء لا تتناسب مع كل الوضع.

- أنا جائع..، هل فطرتم؟!

- لا، لم نفطر بعد.

ولا أدري بماذا كان آدم جوردانو يفكر خلال تلك اللحظات، إذ نظر إلينا نظرة حيادية، وأشار بيده كي نجلس على الصوفا وقال لي بالفرنسية:

- سأعد شيئًا ما لنأكله قبل المغادرة.

ثم التفت إلى زوجي وكلمه بالألمانية، ويبدو لي أنه قال له الجملة نفسها.

توجه آدم جوردانو إلى المطبخ دون أن ينتظر سماع جوابنا، بينما اقترب زوجي مني ومال برأسه وكأنه يهمس في أذني وقال جملة مبتذلة:

- كيف كان هذا الخنزير النمساوي، هل ناكك بشكل جيد.؟ هل انبسطت معه؟!

لحظتها نظرت إليه نظرة لم أستطع أن أخفي الاحتقار الذي فيها والغضب الذي يشع منها، فارتبك وقال بمزاح:

- أف، أف، ما بك؟ ماذا قلت، هل كفرتُ بالمقدسات؟! أنا سألت إن كنت ارتحت معه، وهل قام بالواجب على أحسن ما يكون؟! لا. لا. واضح أنكما كنتما منسجمين على الآخر، واضح من العض على رقبتك، ما علينا، أخبريني، هل فاتحته بموضوعنا!

سمعت كثيرًا عن خبث النساء ومكرهن، لكني في تلك اللحظات عرفت المكر والكيد والخبث في نفسي، لم أكن أتوقع أنني كذلك أبدًا، فما أن ذكّرني بموضوعه حتى ابتسمت بكبرياء، وقلت له:

- وهل يصمد هذا الأوروبي أمام جمالي المغربي؟ لقد حوّلته إلى عجين في يدي، سيوقّع كل ما أريده، وعدني بأن ينظر في أمرك، قال إن موضوع تأجيل دفع الديون ليس سهلًا، لأنك استنفدت كل الإمكانيات القانونية للتأجيل، وستخضع لإجراءات قانونية ضدك من قبل البنك، لكنه سيسعى إلى التدخل لإيقاف أي إجراء، وأن عليك أن تكون مطمئنًّا.

انتبهت إلى أنه لم يرتح لإجابتي كليًّا إذ قال لي:

- لقد وصلني الإنذار الأخير من قبل المحكمة، البنك قدم شكوى ضدي في المحاكم، وقد استلمت قبل يومين من وصولك الإنذار الأخير وإلّا سيصدر بحقي الحكم خلال أسبوعين سواء حضرتُ المحكمة أو لا، ولم يبق سوى أيام قليلة ما لم يتدخل البنك ويوقف الدعوى، وهو المدير المسؤول الذي يمكّنه التدخل متجاوزًا بعض السياقات الإدارية.

لم أكن أعرف بهذه المعلومات القيّمة بالنسبة لي، فقلت محاولة تهدئته مبدية تعاطفًا معه، بينما في ذهني تجري الخطط للاستفادة من هذا الوضع:

- لا تيأس، كل شيء سيكون كما تريد ونريده معًا، قلت لك لقد صار كالعجين في يدي، لقد كان متجاوبًا معي ومتفهمًا لما طلبته منه.

نظر إليّ نظرة فيها شك وقال باستفزاز وغضب:

- لا وقت لدي، هو ينيك فيك وأنا أنتظر رحمته متى يوافق ويفاتح المحكمة بإيقاف شكوى البنك ضدي، ثم، هل وعدك بشيء؟ اطلبي منه مالًا نقدًا كي أستطيع تسديد ديوني، على الأقل ليعطيك مبلغ الفوائد المتراكمة!

- الفوائد المتراكمة، كم هي! سألت.

- خمس وسبعون ألف يورو هي الفوائد المتراكمة، إذا دفعتها سيتم إيقاف الدعوى بشكل اعتيادي.

كانت نزعة الجشع قد نمت كالسرطان في روحي، أنا الفقيرة القادمة من مدينة مغربية صغيرة، والتي يعيش أهلي فيها تحت خط الفقر القاسي. أنا النيتشوية، العدمية، المتحررة. أنا التي تتجه لتتحول بوعي إلى عاهرة، عاهرة مثقفة، امرأة جشعة، خبيثة، ليس لها الآن من همٍّ سوى تحطيم هذا الرجل، تهيمن عليها نزعة الانتقام من هذا الرجل والتخلص منه، والاستيلاء على ما يمكن الحصول عليه منه! لذا سألته بمكر وكأني أتعاطف وأسأل سؤالًا بريئًا:

- لكن، أين هو المال الذي اقترضته بحيث فوائده وصلت خمس وسبعين ألفًا من اليوروات، ماذا فعلت به؟!

جال بنظره في أرجاء الصالون ونظر ناحية المطبخ مركزًا بصره على آدم جوردانو الذي كما بدا لي أنه قد تباطأ في المطبخ ليتيح لنا فرصة الكلام، وليفكر هو على طريقته في الرد والتعامل مع الوضع الجديد الذي نشأ بيننا منذ ساعة بعد اعترافي له، وقال بيأس:

- اشتريت أرضًا في حمص بنيت فوقها عمارة، صارت مقرًّا لأحد التنظيمات المعارضة المسلحة، قُصفت بمَن فيها، وسويت مع الأرض، ولم أستفد من هذه القروض سوى شراء الشقة التي أسكنها!

في تلك اللحظات أقبل آدم جوردانو ليقول لنا في كلمتين بالألمانية والفرنسية:

- سيداتي الجميلات، تفضلوا!

وأثناء توجهنا للمطبخ قال لي زوجي بالعربية هامسًا: فاتحيه أمامي ولْننهِ الموضوع الآن! فقلت له: سنرى! وحين دخلنا المطبخ كانت المائدة جاهزة، حيث صحون الجبن والزيتون وأكواب عصير البرتقال، والقهوة في دورقها، وقطع الخبز المحمص، وحلوى النوتيلا. الصحون المعدة للاستخدام موزعة أمام كل كرسي لنا نحن الثلاثة!

ما أن جلسنا حول المائدة حتى بادرتُ آدم جوردانو قائلة بالفرنسية التي لا يفقه فيها زوجي:

- أنت تعرف بما حدثتك به في الغرفة، والآن تحدثت معه، هو يريد أن يسحب البنك من المحكمة الدعوى المقامة ضده.

ما أن ذكرت جملة سحب الدعوى حتى أحسست غضبًا خفيًّا اجتاح وجه آدم جوردانو لثوانٍ لكنه استرخى باسمًا، وقال لي بالفرنسية أيضًا:

- جيد أنه لا يفقه هذه اللغة، اتركي الأمر عليّ، سأدعه يتخلى عن شقته لك، اتركي الأمر عليّ! ارتبطنا أنا وهو بعلاقة صداقة حدثت صدفة أثناء تواجدنا في حمام "الساونا"، مع الرجلين الآخرين اللذين كانا معنا تلك الليلة، والآن تبين لي بأن حضوره في تلك المرة إلى "الساونا" لم يكن عفويًّا ولا مصادفة، وإنما بتخطيط ذكي كي يتعرف علينا ويبني علاقة صداقة لا سيما أنه كما يبدو لي قد عمل بحثًا عني باعتباري مسؤولًا عن قسم القروض في البنك، بعد ذلك تكرر لقاؤنا في الحمام أسبوعيًّا تقريبًا، لكن الآن تكشف لي بأنه مخادع كبير، سأجعله يدفع ثمن استغفالي.
- كيف؟
- سأدعه يسجل الشقة باسمك بحجة منع مصادرتها، اتركي الأمر عليّ!

كان زوجي ينظر إلى شفتينا وإلى كل كلمة تصدر عنّا، كان يدرك أنني أتحدث عنه مع آدم جوردانو. فجأة، التفت آدم جوردانو نحو زوجي وأخذ يحدثه بالألمانية، لم أفهم شيئًا لكنني كنت ألمح تحولات وجه زوجي، تحول من المفاجأة إلى الدهشة ثم إلى الغضب المكتوم والعصبية، إلى الهدوء المصطنع. كانا يتحدثان بجدية، نبرة صوت آدم جوردانو كانت حاسمة وصارمة وجادة وسلطوية، ثم ساد صمت مليء بالتوتر، ويبدو أن آدم جوردانو بدأ خطته في التعامل مع زوجي لصالحي!

نهض آدم جوردانو مغادرًا المطبخ ليترك لنا فرصة الحوار، حينها توجه زوجي نحوي وأخبرني بمضمون الحوار، قائلًا بتعجب بأن هذا الحيوان الغبي يطلب منه أن يسجل شقته باسمي خوفًا عليها من المصادرة كإجراء وقائي أولي كما قال، فربما ستحصي المحكمة ملكيته وتصادر البيت وتطرحه في المزاد من أجل استرجاع الفوائد والدين الأصلي، لكنه سيسعى لإيقاف الإجراءات إكرامًا لك، ومع ذلك ينصحه بتسجيل ملكية البيت باسمي!

أحسستُ بالارتجاف وبقشعريرة لذيذة تسري في جسدي ما أن سمعت باقتراح نقل ملكية الشقة باسمي، فأبديتُ رفضًا قاطعًا وزهدًا مصطنعًا وقلت له بأن ذلك مستحيل وأنا لا أقبل ذلك، فهذه شقته التي خرج بها من هذا القرض الثقيل، إلى جانب أنني قانونًا زوجته ولست أخته، وهذا سيكشف الأمر، فقال لي المشكلة ليست هنا، فنحن نستطيع نقل الملكية دون الإشارة إلى أنك زوجتي. المهم تخرج الشقة من ذمتي كملكية خاصة يمكن مصادرتها ووضع اليد عليها، إلا أن هذا يعني أن البنك لن يتنازل عن ديونه أو يسحب الدعوى!

ولإبداء استعدادي للتضحية من أجله وعدم رغبتي في شقته، وعدته أنا بالسعي لدى آدم جوردانو حتى إذا تطلب الأمر أن أعيش معه كعشيقة رسمية، المهم أن يحقق لنا ما نريد! ولم أكن أعرف أن في داخلي كل هذا المكر والغدر، ويبدو أنني ممثلة بارعة، إذ مدّ زوجي آدم الخليل كفه ليضعها على كفي وكأنه يشكرني! وقال لي متوسلًا بأن أفعل كل ما يريده مني هذا الحقير جوردانو ولا أعترض على أي شيء يفعله بي! لحظتها وجدت نفسي أكثر تصميمًا على تدمير هذا القواد الحقير والديوث الزنيم الذي اسمه زوجي آدم الخليل!

حين غادرنا المنزل الصيفي، صعدت إلى سيارة آدم جوردانو وغادرنا المكان، لم يقل زوجي شيئًا، وإنما غمز لي بعينيه بما يعني عليّ أن أنجز المهمة كما يجب!

***

كانت تجلس قبالتي على الصوفا، كان الوقت مساء، بعد أن عدنا ذلك اليوم من البيت الصيفي، حيث عليّ قضاء الليل مع إيفا! وحين التقينا كانت نظراتها غاضبة ومتفحصة، نظرت إلى الاحمرار الذي في رقبتي نتيجة العض، تمتمت مع نفسها: إذن فعلها أيضًا!

بقينا لبعض الوقت معًا دونما حديث جدي وإنما تبادلنا بعض كلمات المجاملة، كانت غاضبة مني لأنها كانت متيقنة بأن والدها مارس معي، ظلت طوال الوقت تنظر في هاتفها المحمول وتكتب فيه، ثم وضعت سماعة في أذنيها بعد أن ربطتها بجهاز الهاتف. أخذت تنظر إلى أية جهة سواي وكأنها تتجنبني أو أني غير موجودة، وكنت أفهم غضبها

مني وإهمالها لي وأتقبل ذلك كعقاب مستحق فأنا لها روح وجسد وملكها طواعية! فجأة، نظرت لي نظرة متفحصة، نهضت عن الصوفا، توجهت للسلّم الدائري وقالت لي:

- تعالي معي.

وكما الجارية المطيعة، أو الطفلة التي تتبع مربيتها، قمت أسير خلفها، إلى أن دخلت غرفتها، وقفتُ عند الباب فأشارت لي بالدخول والجلوس على صوفا جلدية حمراء، كانت وكأنها تأمر طفلة صغيرة مطيعة! وكنت سعيدة بذلك، سعيدة بـأنها تأمرني فأطيع!

كانت غرفة نومها كبيرة وتشبه الصالة، مقسمة بشكل جيد. في عمقها سرير النوم العريض وفي الجهة المقابلة له بالضبط وقرب الباب صوفا جلدية باللون الأحمر وعلى جانبيها مقعدان جلديان باللون نفسه، وعلى الجانبين مكتبة تضم رفوفًا عليها تصطف الكتب!

جلستُ وأنا أشعر بفرح غامر لا يمكنني وصفه، فها أنا في غرفتها وقرب سريرها، بينما ذهبت هي إلى أحد الرفوف واستلّت كتابًا جلديًّا ضخمًا على غلافه الجلدي السميك حُفر نقش للصليب، فعرفت أنه الكتاب المقدس للمسيحيين. تقدمتْ بهدوء، إلا أن ملامحها تشي بانشغال الفكر، جلست إلى جانبي، وضعت الكتاب جانبًا، نظرت إلى باب الغرفة، قامت إليه وأغلقته من الداخل بالمفتاح. سرت قشعريرة لذيذة في جسدي لتصرفها ذاك، عادت لتجلس إلى جانبي، فتحتْ الكتاب على موضع يبدو أنها خصصته لقراءته لي، رفعت رأسها وقالت بتوتر وخشوع:

- سأقرأ عليك هذا النص من العهد القديم، من سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر.

ارتبكتُ، لم أكن أتخيل أن هذه الفتاة المراهقة، المشمشية البشرة مع نمش خفيف على الخدين والفم، مهتمة بالدين والكتب المقدسة، بل شعرت بالخيبة، فأنا لا أريدها متدينة، فأجبتُ بصوت خافت:

- سأستمع لك، لكني لست متدينة، كما أني مسلمة، ولا أعرف كثيرًا في كتبكم المقدسة.

نظرت إليّ نظرة متأملة، وركزّت على شفتي وفمي، ثم قالت:

- لا ضير، استمعي فقط، فهو باب الحكاية.

أعجبتني نظراتها المثيرة نحو شفتي وفمي، وقلت وأنا أبتسم بمرح:

- سأستمع.

وبصوت هادئ تخللته رجفة وتوتر خفيف أخذتْ تقرأ متأنية:

**صعد لوط من صوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلًا، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى، وهو أبو بني عمون إلى اليوم.**

ثم صمتتْ، امتدت لحظات صمت مليئة بالأسئلة، كنّا ننظر لبعضنا البعض برغبة عمياء غير واضحة، ولإدراكي لرغبتها، أحسست بالجرأة فأردت اختراق هذا الحاجز من الصمت فسألت:

- وماذا تعني هذه الحكاية، غريب، كيف لنبيٍّ أن يزني بابنتيه ويشرب الخمر.

نظرت إليّ متأملة وقالت:

- أولًا لوط ليس نبيًّا وإنما هو رجل بار.

- لكنه في الإسلام نبي.

- ليس هذا مهمًّا، المهم هنا أن هذه القصة غير صحيحة، فليس ابنتاه مَن أسقيتاه الخمر، وإنما هو الذي أسقاهما عصيرًا مخدرًا، وزنا بهما! فحملت الأولى منه وهربت، وولدت لكنها انتحرت، فسلّم ابنها لملجأ للأيتام، والأخرى ربما بحكم صغر سنها حملت، لكنه أسرع لإجهاضها في إحدى العيادات الطبية الخاصة.

أصبت بصدمة هائلة، أدركت أنها لا تشير إلى النص الذي قرأته وإنما تشير لنفسها، ولأختها التي انتحرت! واختلط عليّ الأمر، فالأب آدم جوردانو حكى لي عن زوجته وابنته التي انتحرت، لكنها كانت رواية أخرى! ولم أمتلك الشجاعة إلى أن أسأل بوضوح وإنما قلت لها:

- هل تقصدين أن هذه القصة جرت لكن بشكل آخر.

صمتت للحظات، نظرت إليّ فأحسست بأشعة الغضب والألم الذي كان يفور في داخلها، استعدتْ بجسدها وتوجهت نحوي وكأنها ذئبة تلقي بنفسها في مواجهة الآخر بعد أن وجدت نفسها في الزاوية، وقالت بصوت مشحون بالغضب:

- نعم، جرت، وهذا الوحش الذي اسمه أبي، هو لوط هذا الزمان لكن ليس بريئًا كما في الحكاية! فحتى في الكتاب المقدس فلوط ليس بريئًا، وليس كما تقول الحكاية أو كما سطرها رجل الدين الذي أعدّها وكتبها، فليس من المعقول أن يكون لوط شيخًا هرمًا وأُسقيَ الخمر بينما هو نائم، ثم زنا بابنتيه، وحبلتا منه، فكما هو واضح أنه كان نائمًا، فكيف فعلها، ثم إنه شيخ وليس شابًّا، كما أنه سكران، يعني في الأمر لغز، والأقرب للحقيقة هو فعلها مثلما فعلها عشيقك، الذي فعلها بابنتيه، واحدة منهما انتحرت لأنها ولدت منه، والتي أمامك هي ضحيته الثانية.

في تلك اللحظة، وعلى الرغم من الوضع الأخلاقي المنحط الذي وجدتُ نفسي فيه، استحضرتُ "إرادة القوة" التي نادى بها فيلسوفي ومعشوقي نيتشه، فكّرت على طريقة زرادشت، شطحتُ بأفكاري مستلهمة فيلسوفي ولغته..نعم، وجدت نفسي في عتمة مضيئة، اكتشفت كيف أن هذه الأناقة الباهرة في عالم آدم جوردانو كم تخفي تحتها من قسوة مرعبة، لكني لم أعرف لحظتها من أين أبدأ! هل أبدأ من نزعات الانتقام من زوجي آدم الخليل أو من آدم جوردانو الوحش الآدمي، أو من مزيج هذه المشاعر والصراعات التي تتداخل في أعماقي، ووجدت نفسي أسألها:

- وأمك! أين كانت؟

بوغتت بسؤالي وكأنها لم تكن تتوقعه فقالت:

- أمي؟ أمي ماتت قبل عشر سنوات، حين كنت أنا في السادسة.

بعد لحظة صمت انتبهت لدلالة سؤالي لا سيما حينما رأت الدهشة والانزعاج على وجهي حين سمعت إجابتها فقالت مستنكرة:

- هل قال لك شيئًا عن أمي؟
- لا.
- بلى، واضح أنه حدثك عنها، وإلا لِم هذا الانزعاج على وجهك حين سمعت أنها ماتت قبل عشر سنوات؟!
- الحقيقة ظننتها قد هجرته.
- لا، لقد انتحرت، وجدها منتحرة في البانيو، مثل أختي التي وجدها منتحرة في غرفتها أيضًا!
- ماذا؟ قلت مصدومة بخوف ودهشة.
- نعم، لقد خان أمي مع أختها المتزوجة التي كانت في زيارة لنا، حيث كانت تعيش هي في باريس مع ابنها بعد أن مات زوجها، وجاءت إلينا لقضاء بعض الوقت. ابنها كان بعمري، لا أعرف تفاصيل ما حصل، لكن أختي روت لي تفاصيل القصة بعد سنوات من انتحار أمي، فقد تسلل هو في الليل إلى غرفة خالتي، وكانت تنام لوحدها لأن ابنها كنا قد أعددنا له سريرًا بغرفتي، وتعالى صوت أمي التي انتبهت لهما في السرير وفي أوضاع مقرفة. أختي استيقظت على صراخ أمي وشتائمها لكليهما، لكن الذي آلم أمي أن أختها أخذت تهينها وتسمِّها بالقبيحة والمعقدة، والباردة، وأنها السبب في هجر زوجها لها في الفراش والمجيء إليها. لا أتذكر تفاصيل تلك الليلة، لكنني حين صحوت صباحًا لم أجد ابن خالتي ولا خالتي! وفي ذلك اليوم دخلت أمي إلى غرفتها وادّعت أنها تريد أن تأخذ حمامًا في الحمام الملحق بالغرفة، ولم تخرج. كانت قد أغلقت الباب خلفها، وقطعت وريدها، حتى أختي لم تنتبه، فقد كانت تظن أن أمي في حمام غرفتها لذا غادرت البيت إلى الجامعة بينما كنت أنا في المدرسة..وعصرا بعد أن عاد هو من البنك وأراد الدخول إلى الغرفة وجدها مغلقة من الداخل، طرق الباب بقوة، اتصل بها هاتفيًّا، لكن لا جواب، فهشّم قفل الباب ودخل الغرفة ليكتشف الأمر، استدعى سيارة الإسعاف لكن بلا فائدة، كانت قد غادرت الحياة!

كانت تتحدث وترتجف، والدمع يترقرق في عينيها، تكورت على نفسها وقالت بصوت ينحب:

أشتاق لها كثيرًا، أحيانًا أحسها تحدثني، لن أغفر له ما فعله بها، وما فعله بأختي، وبي.

مالتْ إليّ، فأسرعت لاحتضانها، كانت ترتجف وتلوذ باحثة عن الدفء والحنان عندي، ولا أدري من أين جاءتني الجرأة، والجنون، لأنني احتضنتها بقوة، ولا إراديًّا رفعت وجهها نحوي وانهلت عليه بالقبل، وأطبقت شفتي على شفتيها بشبق، استجابت للحظة، لكنها وكأنها أفاقت وانتبهت إلى ما فعلت. تراجعت نافرة، نظرت إليّ للحظات وكأنها تدرس خطوتها اللاحقة، وفجأة وضعت كفها على رقبتي ومدت وجهها لتقبلني قبلة حارة، فمسكت بها وألقيتها تحتي وبدأت أعريها، وهي مستسلمة بشبق تحتي، وأخذت أسافر في جسدها المشمشي الريان وهبطت إلى هناك، كنا نتعانق وكأننا حددنا مصيرنا وقدرنا.

***

لم ألتقِ آدم جوردانو تلك الليلة إلا على مائدة العشاء، فبعد ساعتين قضيتها كالحلم مع إيفا، وبعد استحمامنا سوية وجلوسنا على الصوفا الجلدية الحمراء أحسست أنها صارت ضعيفة أمامي، بل تعلقت بي مثلما كنت حين لقائي بها حيث تعلقت بها، وكنت ضعيفة أمامها. بل تحولت إلى عشيقتي برضاها وطاعتها الكلية لي، لكنها لم تتخل عن نزقها الطفولي فتتدلّل قليلًا في حركاتها، كنا سعيدتين! وعلى الرغم من ذلك لم أكن أصدق ما يجري معي، وكنت في حيرة شديدة من التناقض الصارخ بين الروايتين عن أمها وأختها، وبصراحة صرت لا أثق بما سمعت، فهناك شيء لم يُقال في كلتا الروايتين!

بعد العشاء جلسنا نحن الثلاثة في الصالة نشاهد التلفزيون. كان الهدوء والبهجة واضحين على وجه إيفا، وقد انتبه الأب لذلك فنظر إليّ نظرة فيها تشكر وارتياح، لكن الابنة قالت له بشكل مفاجئ بأنني سأنام في غرفتها الليلة، استغرب الأب ذلك، لكنه بعد لحظات من الصمت المشحون بالارتباك، وافق، فهززتُ كتفيّ وكأنما أقول له لا حول لنا ولا قوة!

ودون أن يعير وجود ابنته انتباهًا خاصًّا أخذ يحدثني عن قضية قرض زوجي آدم الخليل، موضحًا بأنه سيقنعه بل سيجبره على تسجيل الشقة باسمي، ثم سألني عن المشروع الذي أفكر فيه، فلم أستطع أن أجيبه بشكل محدد، وأوضحت له بأنني أريد أن أستقل بنفسي وبوضعي وأنفق على نفسي دون أن أضطر لطلب المال منه، فقال لي بأنه سيفكر لي بمشروع لا يعترض البنك على منحي قرضًا لإنشائه! لكن لا أعرف لماذا أحسست بأنني قد دخلت لعبة أكبر مني، فأنا لم أتجاوز بضعة أيام هنا، وعليّ أن أكون أهدأ حتى أستوعب الوضع وأتعلم اللغة الألمانية ويستقر وضعي القانوني، بينما أنا دخلت عالم التقحب والعهر ودائرة الانتقام! فجأة، وأنا أنظر لمشهد جلستنا الثلاثي، المسترخي، في ذلك الصالون البهي، فكّرت بأن أخفف من نزعة الانتقام التي تهيمن عليّ، فآدم الخليل في كل الأحوال قدّم لي خدمة العمر بأن انتشلني من واقعي المرير، وهو يعيش ظروفًا صعبة، وخسارته مريرة، لذا انبثقت في ذهني فكرة استغربت لها، وهي أن أنفصل عن آدم الخليل وأتزوج آدم جوردانو وفي الوقت نفسه سأكون مع إيفا ابنته دائمًا وليل نهار!

أحسست بدفق من الانفعالات تجتاحني، فرح ونشوة وخوف، لكن كيف لي أن أعبّر لهما عن فكرتي، ولا أدري كيف غمرني إحساس بأني جزء من هذه العائلة الغريبة، ويمكنني أن أتصرف بحريتي، التفتُّ لإيفا، وقلت لها بهدوء وتحبب ونظرة خاصة مليئة بالوعود بأني أريد أن أتحدث مع والدها في أمر يخصني ويخص وجودي في النمسا، نظرت إليّ مستغربة لكني غمزت لها مع ابتسامة فيها رجاء، فنهضت ببطء، وحينما صارت في منتصف السلم، قالت من هناك سأنتظرك، فأجبتها من مكاني: أكيد. وحينما دخلت غرفتها وسمعنا إغلاق الباب التفت آدم جوردانو إليّ وقال: ما الذي يجري، ما هذا التغيير، نحن منذ ما يقارب السنة لم نجلس سوية على مائدة الطعام، أي سحر لديك على الآخرين!

في تلك اللحظات طرأت في ذهني قصة زوجته وابنته المنتحرة، لكن الجشع والطمع ونزعة التملك وتفكيري في القرض كان أكبر وأقوى من نزعتي لمعرفة الحقيقة! وفجأة انتبهت إلى أن كل ادّعاءاتي عن التفلسف ونيتشه والإنسان الخارق المتعالي كانت كلها مغامرة ومتعة فكرية وليس قناعة حقيقية وإيمان فلسفي! كم أنا مزيفة! لكني سرعان

ما أقنعت نفسي بأن العالم كله مزيف، لذا قمعت ما دار في نفسي من أفكار لها علاقة بالنزاهة الفكرية، إلى جانب أن كلامه كان من الإغراء بحيث ألقيت بأسئلتي عن نزاهتي جانبًا، واكتفيت ببادرة طيبة تجنبني تأنيب الضمير تجاهه، إذ سعيت لأعبّر عما خطر في بالي فقلت له بأنني لا أريد أن يزجّ البنك بآدم الخليل في السجن، لأن ذلك سيشعرني بالذنب، أتمنى أن يساعدني في الانفصال عنه رسميًّا دون أن يسبب ذلك قانونيًّا إلى إلغاء إقامتي، كي يمكنني أن أتحرر منه، وربما يمكنني الزواج مرة أخرى زواجًا يحفظ لي كرامتي!

لا أدري كيف فهم كلامي، لكنه أخذ بكفي وضغط عليها ووجهه يكتظ بالانفعالات وقال لي: أنت امرأة ذكية، سأحاول أن أوقف إجراءات البنك ضده، وسأضع شرطًا عليه بأن يطلقك، وسأتحدث مع محاميّ حول قضية انفصالك عنه، ربما ستكون هناك بعض التعقيدات لكني سأجد المخرج القانوني الذي يدعم موقفك في الانفصال، وفي كل الأحوال ستمنحكما المحكمة مهلة لا تقل عن ستة أشهر لتراجعا موقفكما، وبعد الانفصال يمكننا النظر في مستقبلك!

وبحركة مدروسة وماكرة ضغطت على يده ونظرت إليه نظرة فيها الحنان والتوسل والرغبة، ثم وكأني تذكرت شيئًا قلت له: أوه، عليّ الذهاب إلى إيفا، يبدو أنها صارت أهدأ، تحتاجني وتحتاج حناني ربما واهتمامي، فأنت على الرغم من كونك والدها لكنك رجل! سأذهب إليها، ولا أدري إن كنت سأستطيع أن أقابلك الليلة!

***

لا أعرف لماذا اعتراني الخجل حين عدت إلى البيت والتقتْ عيناي بعينيّ زوجي آدم الخليل. أحسستُ أنني خائنة وزانية، وأتيت فعلًا مشينًا، وهي مشاعر غريبة عليّ حتى قبل أن أتعرّف عليه وأتزوجه، فأنا لا أعترف بالأخلاق الاجتماعية، إلى جانب أني نيتشوية ملحدة، مع أن ذلك لا يعني الإباحية ولا الغدر والخيانة، على العكس فأغلب الملحدين أكثر صراحة وصدقًا في سلوكهم من مئات بل الآلاف من دعاة الدين والفضيلة، ومع ذلك شعرت بالخجل للحظات. صحيح أنه دفعني لذلك، لكني حينها تقبّلت الأمر وكأنه لعبة، وصحيح أيضًا أنني كنت في كامل وعيي حين ذهبت مع آدم جوردانو وعشقت ابنته

ومارست معها، وصارت عشيقتي، وأنني فوق ذلك تآمرت ضد زوجي انتقامًا لصدمتي فيه بأن يحولني إلى قحبة، وأنه تصرف معي كأي قواد وديوث زنيم، مثل مثله الأعلى النبي التوراتي. بيد أني ما أن دخلت المنزل أحسست بالخجل والارتباك، لكن ما ساعدني على تجاوز مشاعري تلك هي لا مبالاته بكل ما جرى معي وتقبله الأمر بشكل إيجابي وكأنني أنجزت شيئًا مهمًّا وقمت بعمل جليل، وهذا ما ضاعف حقدي عليه. غريب هو الإنسان وغامضة هي مشاعره؛ ففي لحظات تحولت من الشعور بالذنب والخجل من فعلتي، إلى شراسة وحقد ورغبة في الإمعان بالانتقام، لحظات قليلة لا غير؟!

أخبرته بأني رفضت مسألة تسجيل الشقة باسمي، ورجوت آدم جوردانو بأن يسحب الدعوى، لكنه قال بأنه سيتفاهم معك، سينفذ ما أطلبه لكن بشروط سيخبرك بها!

تألقت عيناه حينما حدثته بأنه وافق على سحب دعوى البنك ضده وعدم موافقتي على تسجيل الشقة باسمي، لكنه قلق وامتعض حين قلت إن آدم جوردانو سيفعل ذلك بشرط، وألح عليّ لإخباره بذلك الشرط، لكني أنكرت معرفتي بشرط طلاقي منه! ألحّ عليّ لإخباره بالشرط، متحججًا بأن آدم جوردانو وافق على سحب الدعوى عني لأنني صرت قريبة جدًّا جدًّا منه، فكيف لم يخبرني بالشرط، فكذبت وقلت إنني ألححت عليه أيضًا لكنه رفض الإفصاح عن الشرط قائلًا بأن ذلك من أسرار البنك، فأخذ يشتمه بأوسخ الألفاظ البذيئة باللهجة السورية، ثم سألني فجأة: هل حدثك هذا العرص عن زوجته وابنته! فاستغربت ذلك، وقلت: لا، ما بهما! كنت أود أن أعرف ما يعرف زوجي، فأكيد أنه سيؤيد إحدى القصتين، القصة التي رواها آدم جوردانو أو ابنته إيفا، لكن آدم الخليل روى لي قصة أخرى دفعت بي إلى حيرة أكبر!

روى لي بأن آدم جوردانو اكتشف قبل عامين بأن زوجته تخونه مع رجل هندي، وأنها سحبت من حسابهما المشترك بحدود مائتي ألف يورو على شكل دفعات صغيرة لم ينتبه لها البنك، فهي بالنهاية زوجة شخص له مكانته الإدارية في البنك، ومرة سحبت مبلغًا نقديًّا كبيرًا بحجة إجراء عملية تجميل، المهم، ما سحب نقدًا كان في حدود مائتي ألف يورو، واختفت. أما ابنته الكبرى فقد أحبت عربيًّا متدينًا، متطرفًا إسلاميًّا، من شمال أفريقيا، أعتقد أنه كان جزائريًّا، وكان لديه محلًّا لأجهزة الهاتف النقال وصحون الساتلايت، وأنه تزوجها حسب الشريعة وليس قانونًا، وأنه ألقي القبض عليه

بتهمة الإعداد لتفجيرات، وكسب وتنظيم فتيات أوروبيات، حيث كان على هذه الشاكلة قد تزوج بأربعة فتيات، هي النمساوية الوحيدة بينهم، والبقية من الشيشان، والمغرب وتونس، وسورية، وقيل كان على علاقة مع آخرين وأخريات، بعضهن أرسلهن إلى سوريا وبعضهن إلى العراق، ولكي لا يتم القبض عليها، هاجرت هي إلى تركيا ومنها إلى العراق، والتحقت بتنظيمات إسلامية هناك، بينما هو قابع إلى الآن في السجن، وأنها كانت قد حملت منه. آدم جوردانو صمت عن الفضيحتين، بل سعى بكل ما يمكنه بألّا تتسرب أية معلومات إلى الإعلام فتهتز مكانته الوظيفية ويكون تحت الشبهات! أما ابنته المراهقة فيقال إنها تتعاطى المخدرات!

لم أستطع حينها أن أستوعب كلام زوجي، بل ومن قوة الصدمة لم أستطع أن أناقشه وأحاججه أو أن أخبره بما عرفت عن زوجته وابنته، فما رواه لي آدم الخليل كان صادمًا! ثم أنهى روايته بسيل من الشتائم ضد آدم جوردانو وهدد بأنه سيفضحه إذا ما مارس عليه ضغطًا ولم يسحب الدعوى، فاكتفيت بمحاولة تهدئته، وإخباره بأنه يهدد في الفراغ، لأن الدعوى ضده مقامة من قبل البنك وليس من قبل آدم جوردانو، فحتى لو أساء له وفضحه فهذا لا يسقط الدعوى بل سيزيد من إصرار البنك بمعاقبته! حينها نظر إليّ بغضب وقال لي: يبدو أنه كسبك إلى صفه! فحاولت تهدئته بأنني أقول ذلك من أجل مصلحته هو، وليس من مصلحة آدم جوردانو.

***

كنت أنتظر الليل بلهفة حاولت طوال النهار كتمانها. بعد عودتي إلى البيت وحديثي مع آدم الخليل عمّا جرى من اتفاق مع آدم جوردانو وروايته الغريبة عن ابنته وزوجته، ذهب كل منا إلى غرفته، حاول أن يستبقيني فقلت له إنني متعبة ولم أنم ليلتين متتاليتين، فابتسم لحظتها ابتسامة شيطانية ونظر بغيرة ساخرة ولم يقل شيئًا!

حاول مساء أن يجاريني ويسترضيني لا لشيء سوى ليعرف أكثر من التفاصيل عما جرى بيننا، وبتفاصيل أحاديثنا كلها، كان يراوغني بطريقة ماكرة ثعلبية، يسأل بطريقة وكأن الأمر عادي ولا يهمه كثيرًا. كنت أعرف هذا الأسلوب، وتعاملت به بطريقتي الأكثر مكرًا، فقد كنت أتلاعب كثيرًا بالتفاصيل، أغيظه في موضع وأهدئه في موضع

آخر، ولم أتحدث قط عن إيفا إلا بكلمات عابرة! لكن الغريب أنه طلب مني أن أتصل بآدم جوردانو أمامه وأتواصل معه لا لشيء سوى أن أبقيه ساخنًا ومتهيجًا على الدوام!

في البداية رفضت، لكني فكّرت للحظة بأن الاتصال فعلًا يفيدني، سيظن آدم جوردانو أنني مشتاقة له وزوجي يظن أنني أسير وفق خطته، وهذا ما جرى، حيث فوجئ آدم جوردانو باتصالي فبينت له بأنني مشتاقة له، وأشعر هنا بالغربة، وكنت أحس حينما كنت عندهم في البيت بأنني في بيتي، فعلق بأنه سيكون بيتي، بل هو بيتي بالفعل، وأن الأمر مجرد مسألة وقت، وطبعًا زوجي لم يفهم ما تحدثت به، لكنه كان مرتاحًا لنبرة الإغراء في صوتي، إلى أن طلب مني بأن يحدث زوجي فأعطيته الهاتف وتحدثا بالألمانية. بعد ذلك أخبرني آدم الخليل بأنهما اتفقا بأن يلتقيا غدًا في مكتبه، وحدهما، وكان إلى حد ما مرتاحًا لكن التوتر ونظرات الترقب لم تختفِ عن عينيه!

ومر ذلك المساء بسلام، ولم أبد له بأنني أتعجل الانفراد بنفسي، لكني في حدود الساعة الحادية عشرة والنصف انسحبت لغرفتي، وكنت مشتاقة للحديث مع آدم فون موتر، وتراودني رغبة في معرفة القصة الحقيقية لآدم جوردانو مع زوجته وابنته! ولم أكن أستغرب أن أواجه بصدمة أخرى، فلم يعد ثمة شيء يقيني قط!

بعد منتصف الليل بقليل اتصلت بآدم فون موتر، واستغربت من نفسي، فقد استيقظت مشاعري الأنثوية وغادرت تلك المرأة السحاقية التي في داخلي، ولم يكن يتوقع أن أتصل به في مثل هذا الوقت، إذ شعرت بالفرح والمفاجأة والحرارة في نبرات صوته، وأخذ يكيل عليّ المدائح والأشواق على الطريقة الشرقية!

وفي كل الأحوال لم يكن آدم فون موتر ينتمي إلى ذلك الصنف من المجاملين، فقد كانت مجاملاته ومبالغاته صادقة على الرغم من أنه يعرف بأنه يبالغ، لكنه يفترض أن هذه المبالغات تمنح الشعور بالارتياح لدى المقابل!

سألني عن سر غيابي، لكنه قدم تخميناته التي كانت الإجابة ضمنيًّا فيها! وقد افترض أن آدم الخليل سعى إلى الاستفادة من وجودي ليحقق مصالحه من آدم جوردانو وآدم فون هايدن، فأخبرته بنصف الحقيقة بأنني لم أكن مع الاثنين وإنما كنت في بيت آدم جوردانو مع ابنته!

ما أن ذكرت له ذلك حتى روى لي حكاية أخرى عن آدم جوردانو وزوجته وابنتيه! ما

رواه لي صدمني أكثر من كل الروايات! إذ أخبرني بأن زوجة آدم جوردانو قوادة مشهورة في باريس، كانت عشيقة لرجل فرنسي، تركت عائلتها ومضت معه إلى باريس، ولم تكن تعرف أنه قواد يخطط لاصطياد فرائسه، حيث يمثل معهن دور العاشق وحين يقعن في مصائده يحولهن بطريقة عنكبوتية إلى مومسات طوع بنانه، نساء يتقبلن العهر برضا بعد صدمتهن بالحب وبالحبيب، وبعد حرقهن كل جسور العودة خلفهن! بل إن ابنته كانت عشيقة لآدم فون هايدن صديق والدها، وحملت منه، لكنه أجبرها على الإجهاض، وقد أصيبت الفتاة بخيبة أمل كبرى، فاضطرت أن تختار طريق الرهبنة، وفعلًا دخلت ديرًا بعيدًا في جنوب ألمانيا وانقطعت أخبارها! أما ابنته إيفا فهي بعد أن عرفت بحقيقة أمها ورهبنة أختها وانشغال والدهما تحولت إلى فتاة منفلتة، حتى أنها ذات مرة التقاهما مع والدها في بلدية المدينة وكانت تريد استحصال بطاقة شخصية جديدة بدل التي فقدتها، فاستغلت انشغال والدها وكتبت له رقمها وقالت له أريد أن أحدثك في قضية مهمة!

حينها سألته إن كان قد اتصل بها فعلًا، فصمت للحظات وقال لي: نعم اتصلت بها، ولم أكن أشك في رغبتها بالحديث عن قضية تشغلها، لكنها أخذت تحدثني عن صديقة لها بالعمر نفسه تحب شخصًا أكبر منها، ولا تعرف إن كان ذلك صحيحًا أم لا، فنصحتها بأن مشاعر الحب لا بأس بها، لكن أي تجاوز لذلك من الناحية الجسدية سيكون جريمة يحاسب عليها القانون لأنها قاصر، فشكرتني جدًّا وقالت إنها ستخبر صديقتها، لكن بعد ساعة اتصلت ثانية وقالت إنها تحدثت مع صديقها غير أن تلك لم تصدقها وظنت أنها لم تسأل أي شخص عن ذلك، وحينما أخبرتها بأنني حدثتك طلبت أن تسمع منك مباشرة، وسألتني إن كان بالإمكان أن تقابلاني في مقهى وسط المدينة، ترددت حينها، فأنا لا أريد أن أظهر مع ابنة آدم جوردانو وصديقتها وهما قاصرتان أمام الناس؛ لذا قلت لهما أن تمرا عليّ في البيت لنصف ساعة، حينها كنت متيقنًا بأن هذا الحل هو الأفضل، واتفقنا، وفي الوقت المحدد رن جرس شقتي، وحين فتحت الباب كانت إيفا ابنة آدم جوردانو وحدها، كانت حينها في عمر الخامسة عشر، وكما تعرفين هي تبدو أكبر من عمرها من ناحية نضجها الجسدي، المهم، فوجئت أنها كانت وحدها، ودخلت مرحة، وقالت أنها أعطت العنوان لصديقتها وستأتي، كانت مرحة ومشعة، ومر الوقت، ولم تأت صديقتها، وسألتها عنها، ارتبكت قليلًا، لكنها نظرت إليّ وقالت إنه ليس هناك أية صديقة، وإنما هي التي تحب رجلًا أكبر منها، وهذا الرجل هو، آدم فون موتر، وأنها

لا تستطيع أن تركز في دراستها ولا أن تأكل أو تنام، وأنها تعشقه، وأنها تريد أن تكون له، فوجئت، وجدت نفسي في وضع عصيب، هي شهية ومثيرة، لكنها من ناحية أخرى قاصر، وأخبرتها بذلك، بأنها جميلة جدًّا ولا يمكن لأحد أن يتردد أمام جمالها وشبابها، لكنها قاصر، والعلاقة معها يحاسب عليها القانون، فأخذت تبكي وتقول بأنها ستنتحر إذا أخرجتها الآن من البيت وقطعت علاقتي معها، كان موقف عصيبًا، وحينما سألتها ماذا تنتظر مني، ابتهجت كطفلة وقفزت متعلقة بعنقي، وهي تقول بأنها لا تريد شيئًا سوى أن أتركها تحبني وتمتعني على طريقتها، وستحفظ السر لحين بلوغها الثامنة عشر حينها يمكنني أن أزيل بكارتها وتكون لي بالكامل وإلى ذلك الحين يمكن أن تعيش معي دون أن أمس بكارتها، وبصراحة شديدة، كان عرضها مغريًا، لكنها لم تلتزم بوعدها، فبعد أشهر من علاقتنا السرية، وفي لحظة شبق من الجانبين ألحت عليّ باختراقها، وفعلت، لكن الغريب، بعد ذلك أخذت تبتعد عني، صرت أنا كالمجنون، كنت أغار عليها، وأخذت أترك الدوام لأنتظر بسيارتي بعيدًا عن الثانوية التي تدرس فيها، واكتشفت أنها تخرج مع الشباب، وتتبعتها أكثر، فعرفت أنها في علاقة مع شاب آخر، وأنها كانت تلعب معي لعبة لوليتا! إلا أن صدمتها بأختها وأمها ولا أدري طبيعة علاقتها بأبيها، دفعها أن تبتعد عني شيئًا فشيئًا، إلى أن جاءتني ذات مرة وقالت لي إنها فكرت جيدًا بعلاقتنا، وإنها ستحررني من حبها، وقالت لي بأنها تعرف إنني ألاحقها، وحتى حبيبها يعرف، هددتني بأني لو لاحقتها فإنها ستفضحني وستزج بي في السجن! ومن يومها، ومنذ سنة تقريبًا لم أرها ولا أريد أن أسمع عنها، سوى ما سمعته من صديق لي يعمل في الأمن بأنها تتعاطى المخدرات.

لا أعرف كيف أصف مشاعري وأنا أستمع له، أستمع حكاية مخيفة عن ملاكي الجهنمي أو شيطاني الملائكي، أمن المعقول أنني عمياء إلى هذا الحد بحيث لا أستطيع أن أفهم الآخرين، هل تشوهت نفسي بحيث صرت أنساق وراء غرائزي، الجنس والمال والانتقام والسلطة والتملك والهيمنة! أهذه أنا حقًّا؟ هل أنا خريجة قسم الفلسفة التي كانت تُسمى "آنسة نيتشه"؟! ألم أكن أحفظ على الغيب مقولات نيتشه، وأرددها كالببغاء في أي نقاش؟! ألم أكن قد اشترطت على نفسي ما قاله نيتشه بما معناه: لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصًا في قصده بل عليه أن يترصد إخلاصه ويقف موقف المشكك فيه؛ لأن عاشق الحقيقة إنما يحبها لنفسه بل يهيم بها لذاتها! فعن أية حقيقة أبحث، أنا

أضعت حقيقة نفسي، بل صرت كما قال نيتشه: أتريد حياة سهلة، فابق إذن قريبًا من القطيع وانس نفسك فيه! ويبدو أنني نسيت نفسي وسط القطيع!

لا أعرف كيف أنهيت المكالمة تلك الليلة! وحتى آدم فون موتر أحسسته ندم على اعترافه لي بأشياء خطيرة قد يحاسب عليها القانون. لا أدري ما الذي دفعه للاعتراف بكل تلك التفاصيل الخطيرة، ربما لأنه كان يعاني من ثقل تلك الأسرار فباح بها كما يبوح الخطاة للراهب الراعي في الكنيسة ليخفف من ثقل الخطيئة! لكنني لست راهبة ولا قديسة، وإنما عاهرة مثقفة وسط القطيع!

***

صدمتي كانت كبيرة، أية حكاية مما سمعت عليّ أن أصدق! لا سيما وقد عرفت قصة أخرى رواها لي آدم فون هايدن، حينما قضيت معه أمسية في فندق بالمدينة، بأن زوجة آدم جوردانو ماتت بالسرطان، أما ابنته فقد تزوجت رجلًا إسرائيليًّا وهاجرت معه إلى إسرائيل، فهي يهودية من الأبوين! وكانت هذه مفاجئة أخرى، أما عن إيفا فقد عُرف عنها تعاطيها للمخدرات، وإصابتها بمرض السرقة، فقد كانت في مدرسة داخلية، وقد طردت لأنها قامت بسرقة مبلغ تافه من صديقة لها، فأحيلت إلى مجلس الإدارة الذي قرر طردها من المدرسة الداخلية، وكان آدم جوردانو يشكو لي وضعها، فقد كان لا يأتمن أن يضع محفظته في مكان ما بالبيت وإنما يحملها معه حتى إذا دخل الحمام، ومع ذلك فقد تكرر أن سرقت مبالغ من محفظته، على الرغم من أنه لا يمنع عنها المال أبدًا، الغريب أنها كانت تسرق والدها لتنفق المال على صديقاتها وتعطيهم المال نقدًا، وتبتاع لنفسها ولهم المخدرات، الكوكائيين!، وخلال روايته لي أكد لي أكثر من مرة بأن آدم جوردانو رجل حزين بل تعيس!

***

بعد ستة أشهر، قام خلالها آدم جوردانو بكل مساعيه لمساعدتي، وفعلًا سحب الدعوى عن آدم الخليل، واتفق معه بمقايضة كريهة تجاوز فيها آدم جوردانو صلاحياته الإدارية بمنحه قرضًا من أجل الموافقة على طلاقي، وكأنه باعني له والآخر اشتراني،

وصرت أحتقر نفسي لهذا الابتذال والانحطاط الذي وجدت نفسي فيه!

لا أريد هنا أن أبرر لنفسي، فقد رأيت أن بعض الناس يشدنا إليه بخيوط حريرية من المجاملات المجانية ويبالغ في مديحنا ويرش علينا من عطور الكلمات الرقيقة الكثير، ونحن نعرف أنه يبالغ وأنه لا يقصد ما تعني كلماته من مديح ومبالغة، لكننا برغم ذلك نتقبل كل ذلك منه بأريحية، بل ونسعى إلى أن نرد له مجاملاته بأكثر أو أقل، تُرى لماذا نتقبل كل تلك المجاملات المزيفة وكل ذلك النفاق منه؟ هل نحن في حاجة لإرضاء غرورنا وإشباع نرجسيتنا! هل نحن في حاجة فطرية إلى النفاق! فقد تقبلت كل مجاملات ومدائح آدم جوردانو، الصادقة والتي يقولها مجاملة وتعبيرًا عن لطفه، وصرت لا أستغني عن تلك المجاملات، كنت عشيقته غير الرسمية، لأني كنت أتقبل مجاملات ومدائح غيره أيضًا، والغريب أن علاقتي بآدم فون موتر لم تتطور إلى علاقة حميمية وجنسية على الرغم من رغبة كل منّا بالآخر، لكن ثمة جدار زجاجي سميك وشفاف صار بيننا منذ تلك الليلة التي اعترف فيها بطبيعة علاقته مع إيفا جوردانو، عشيقتي السرية الماكرة!

اتفقنا على الزواج لكن علينا أولًا إقناع ابنته إيفا بالأمر، وأيضًا إلى أن تتضح أموري القانونية، وقد بذل آدم جوردانو تضحيات إدارية ومالية وساعدني في افتتاح صالون تجميل ومساج حيث على أساس ذلك ضمنت وضعي القانوني في البلاد!

وذات يوم فاتحت حبيبتي إيفا بطريقة خبيثة بأنني سأتزوج وأذهب بعيدًا عنها، فاحتجّت وزعلت وانهارت وطلبت مني أن أرفض الزواج دون أن تسألني عن الرجل طالب الزواج، وحاججتها بدوري بأنني أحتاج أن أستقر تحت سقف وأضمن حياتي بعد أن انفصلت عن آدم الخليل، وإذا بها تقترح عليّ الزواج من والدها كي أكون دائمًا معها بل وأعيش معها في البيت نفسه! وحين فاتحت آدم جوردانو باقتراح ابنته إيفا، فوجئ، فرح كثيرًا، وفي مساء ذلك اليوم جلسنا على مائدة العشاء وتحدثنا بالأمر، وفي اليوم التالي قدمنا طلبًا لدائرة الوضع الاجتماعي وحددنا موعدًا للزواج!

خلال أسبوع أقمنا تحضيرات كثيرة، حجز قاعة وشراء ثياب وبدلة عرس لي، وثياب لعشيقتي إيفا، وبعد أيام أخرى أقمنا حفلًا جميلًا متواضعًا للزفاف، لم يحضره آدم الخليل على الرغم من إرسال دعوة له، وحضره مجموعة من أصدقاء زوجي آدم جوردانو، بعضهم حين تقدم لتهنئتنا ضغط على يدي ضغطات خاصة!

أذكر أنني يوم الزفاف كنت قد قررت مع نفسي أن أكون وفية ومخلصة لزوجي آدم جوردانو، ولإيفا عشيقتي، لكني لم ألتزم بذلك، فقد اتخذت لي عشيقين تركيين، صديقين! وتلك قصة أخرى!

## البـاب الـثـانـي

# عقاربٌ وأفاعٍ، كوابيس إيفا مادهوري

آفاق آدم الشبيبي على ضجيج في المطبخ، كانت حواء الفارسي قد فتحت الثلاجة فسقط صحن فخاري فيه بقايا زيتون على الأرض وتهشم، رفع رأسه، تذكّر أنه أغلق صفحات المخطوطة عندما أحس بالنعاس يغلق جفنيه ولم يعد يستطع مواصلة القراءة، إذ كان الوقت قد تجاوز الرابعة فجرًا، وبالكاد كان يتابع اعترافات حواء كازبلانكا في مخطوطة "متاهة الأنبياء" وهي من مخطوطات آدم البغدادي الغريبة!

رأى حواء الفارسي في ثوب النوم، نظر إلى ساعته التي قرب رأسه على الطاولة، إنها الثامنة صباحًا، فكّر مع نفسه "إنها ربما جاءت لشرب الماء، فالوقت مبكر جدًّا، وهي عادة لا تتحرك في البيت بثوب النوم الذي يكشف عن مفاتنها، وهذا يعني أنها سترجع لتواصل نومها"، لكنه ظل يتأملها وهي منحنية لتلملم الزيتونات التي تناثرت على الأرض، وركّز نظره على مؤخرتها المثيرة وكلسونها الأسود الذي كان مرئيًّا من خلال الثوب الشفاف لا يستره. فجأة، التفتت هي إليه، رأته ينظر إليها، ابتسمت له وقالت: "صباح الخير"، ووقفت مرتبكة أمامه فبان جسدها كله، كانت بلا حمالة للصدر، وجسدها كان عارٍ إلا من سروالها الأسود المخرّم، وقفت للحظات وكأنها تدعه يشبع نظره منها، ثم ركضت إلى غرفتها وأطبقت الباب.

ألقى آدم الشبيبي رأسه باسترخاء على الوسادة، شعر بغيرة غامضة من صديقه آدم أبو التنك لأنه يستمتع بجسد حواء الفارسي وقتما يشاء وكيفما يشاء فهي الآن زوجته شرعًا. أحسّ بالإثارة والانتعاظ، ولكي يصرف ذهنه عن خيالاته الشبقة فتّش عن مخطوطة "متاهة الأنبياء" لكنه لم يجدها. فجأة فزّ مستغربًا، وارتطمت في ذهنه الأسئلة:

أين هي؟ قبل أقلّ من أربع ساعات وضعتها هنا قرب رأسي، فمن أخذها؟ وأين اختفت؟ نهض عن الصوفا ليفتش عن المخطوطة، رأى حقيبة جلدية فيها رُزم المخطوطات، ومن النظرة الأولى عرف مخطوطة "متاهة الأنبياء" التي كانت محشورة بين المخطوطات، لكن جزءًا كبيرًا منها كان ظاهرًا ويعلو على بقية المخطوطات. وبسرعة سحب المخطوطة ليتأكد منها، جلس على الصوفا، وأخذ يقلّب المخطوطة بين يديه، ومن الصفحة الأولى حيث العنوان عرف أنها المخطوطة نفسها، لكنه استغرب وجودها في الحقيبة بين المخطوطات، فقد كان حتى الرابعة فجرًا يقرأ فيها، "فمن يا تُرى أخذها من الأرض ووضعها في الحقيبة! أيمكن أن تكون حواء الفارسي هي التي قامت بذلك؟ هذا يعني أنها اقتربت منه وهو غارق في النوم ولم ينتبه لحضورها المثير! لكن كيف لم أنتبه ولم أستيقظ؟ عادة أنا نومي خفيف، فما الذي جرى لي بحيث تقترب مني ولم أنتبه"، هكذا كان يحدّث نفسه!

لا إراديًّا حضرت اعترافات حواء كازبلانكا في المخطوطة التي قرأها في ذهنه، واحتار مثلها في حكايات آدم جوردانو وزوجته وابنتيه، تُرى أية حكاية منها هي الحقيقية والواقعية؟! كما استعاد حلم أو كابوس آدم التائه عن الرجل الغامض الذي استيقظ من نومه في مكان مجهول دون أن يستذكر من هو؟ وما اسمه؟ ومن أين جاء؟ وفي أي مكان يعيش؟ وماذا سيحدث معه؟!

لم تكن لدى آدم الشبيبي رغبة في القراءة، فهو أراد أن يشغل حاله كي لا يفكر في جسد حواء الفارسي المثير، لكن انتباهه صار على أشدّه حينما انتبه لغياب المخطوطة! وبهدوء نهض عن الصوفا وتوجه إلى الحمام الذي يستخدم كمرحاض أيضًا.

***

انتهى من التبول..غسل كفيه..أخذ فرشاة الأسنان..فجأة توقف، أخذ ينظر إلى نفسه في المرآة الكالحة، وسأل نفسه: "أهذا أنا؟"، تأمل انعكاس صورته في المرآة وفكر بصوت عالٍ وهو يوجه سؤاله للوجه الذي يسكن المرآة: "من أنت؟ وماذا تريد؟"، بقي للحظات وهو ينظر إلى المرآة وكأنه ينتظر جوابًا حقيقيًّا، فجأة تذكّر أن هذا النهار هو أول نهار بعد زواج صديقيه آدم أبو التنك وحواء الفارسي، لذا أسرع بتنظيف أسنانه

والاغتسال، كان يفكّر بأن يفاجئهما بشراء وجبه الفطور! وفي الوقت داهمته فكرة مفاتحة حواء الزياني بإجراءات الزواج ما دامت موافقة على أن تتزوجه! عليه أن يقابلها اليوم ويفاتحها في الأمر بوضوح، فوضعه صار صعبًا.

خرج مسرعًا إلى الصالة المفتوحة على المطبخ حيث ينام، وهناك نزع بيجامته وارتدى البنطلون، وأخذ محفظته وغادر البيت وهو يطبق الباب خلفه بهدوء.

في اللحظة التي أطبق آدم الشبيبي الباب فيها خرجت حواء الفارسي يتبعها آدم أبو التنك وهما في كامل هيئتهما وكأنما يستعدان لمغادرة المنزل، وكان آدم أبو التنك يقول لها بهدوء وكأنه يحاول كتمان صوته:

- أنت ابقي في البيت، أنا سأذهب إلى الكراج وآتي بها إلى هنا!

فأجابته حواء الفارسي بهدوء أيضًا:

- لا، أنت لا تعرفها، وحتى لو عرفتها من بين الركاب الواصلين من بغداد فهي سترتاب بك أو ستتحفّظ في الكشف عن نفسها لك، لقد قلت لها إني سأستقبلها في محطة السيارات الواصلة من بغداد لدمشق، ولم أقل لها إن زوجي سيأتي لاستقبالك، لذلك من الضروري أن أذهب أنا معك!

حين اقتربا من المطبخ قليلًا انتبه كلاهما لغياب آدم الشبيبي، نظرا لبعضهما بتساؤل، فقال آدم أبو التنك لزوجته وكأنه يفسّر لها الأمر:

- أعتقد أنه في الحمام.

- لا أعتقد، سمعت ما يشبه انطباق الباب حين خرجنا من الغرفة قبل لحظات، أعتقد أنه خرج، لكن إلى أين؟

تقدم آدم أبو التنك من الحمام لكنه انتبه إلى أن الباب لم يغلق، وهذا يعني أنه لا أحد في الداخل! التفت إلى زوجته وقال لها:

- يبدو أنه خرج فعلًا، لكن إلى أين؟ ولماذا؟

توجهت حواء الفارسي إلى الباب وهي تقول:

- أكيد لديه ما يريد إنجازه دون أن يخبرنا.

نظر إليها متسائلًا عما تقصده، وحين لم تجبه قال:

- لا أعتقد، لم يخبرني بأي شيء، أنا دليله في هذه المدينة، ربما غادر البيت لكي يترك لنا مساحة من الحرية!

نظرت إليه وهي تبتسم بتهكم:

- يترك لنا مساحة من الحرية! وماذا سنفعل بهذه الحرية!

أحس بالحرج لإشارتها الخفية لعجزه الجنسي فلم يرد، تبعها وهو منتكس الرأس مرتبكًا، وغادرا المنزل.

***

تقلّب آدم بوناروتي في نومه وهو مستلقٍ على الصوفا، لقد رقد وهو يقرأ الأنشودة السادسة والعشرين من "الجحيم" لدانته أليغيري، تلك الأنشودة التي تتحدث عن لقاء دانته بأوليسيس في الطبقة الثامنة من الجحيم، وقرأ الشرح الذي فسّره المترجم للأبيات في نهاية الأنشودة، وتذكر أنه أعاد قراءة الأنشودة أكثر من مرة، لكنه غفى دون أن ينتبه، كان لحظتها يفكر بالأفلام التي شاهدها عن أوليسيس، ويتذكر أنه لم يمت غرقًا كما تروي الأنشودة، وهو عند دانته، الذي يلفظ بالعربية (دانتي)، شخصية تبدو حكيمة، وليس كما قدّمها هوميروس محتالًا كثعلبٍ ماكرٍ! فكّر في الاسم الحقيقي له، فهو في الإيطالية أوليسيس، ويترجم أحيانًا أوذيسيوس كما ينطق باليونانية، لكن العرب ترجموه بتأثير من اللاتينية باسم عوليس بينما حرف العين لا يوجد بكل الأبجديات الأوروبية! وابتسم مع نفسه حينما برق في ذهنه مثل عراقي شائع، "عرب وين طنبوره وين!".

شعر بعطش مفاجئ وبمرارة محبّبة في لسانه من أثر نبيذ "كانتي" الذي أنهى قنينة منه ليلة البارحة، نهض عن الصوفا الجلدية التي كانت حواء ذو النورين تجلس عليها قبل أيام، أحس بحنين جارف نحوها، لكن فجأة انبثقت صورة الفتاة الهندية أو السيرلانكية أمام ذهنه، شعر برغبة نحوها، وتذكّر تقاسيم وجهها الأسمر الأنيق، وقرّر مع نفسه بأن يذهب إلى الفندق القريب حيث تعمل، ويقنعها بالمجيء إلى شقته كي يرسمها، وتذكّر أنها كانت متجاوبة حينما امتدح جمالها وأبدى رغبته في رسمها، ومع أنه كتب رقم هاتفه وعنوانه القريب من الفندق فهي لم ترفض طلبه، إلا أنها لم تعطه جوابًا مؤكدًا! وتخيّلها تجلس عارية أمامه كموديل، ابتسم مع نفسه ثم نهض بتكاسل وتوجه نحو المطبخ وهو

يحمل قنينة النبيذ الفارغة، وضع القنينة إلى جانب كارتون قناني النبيذ ثم فتح الثلاجة وسحب قنينة صغيرة من الماء وأخذ يشرب منها مباشرة إلى أن أنهى آخر قطرة فيها ثم ألقى بالقنينة الفارغة في جردل القمامة القريب.

ظل واقفًا للحظات، فكّر بما قرأه ليلة البارحة عن أوديسوس، أحب الاسم الإغريقي له، عاد إلى الصوفا، كان كتاب "الجحيم" بغلافه البرتقالي وصورة تخطيط لدانته عليه ملقى على الطاولة الصغيرة قربه. جلس هناك وأخذ الكتاب، وأخذ يقرأ الأنشودة السادسة والعشرين، وبالتحديد ما قاله أوديسيوس في الطبقة الثامنة من الجحيم:

**لم يكن شغفي بابني، ولا العطف على أبي الشيخ، ولا الحب**
**الواجب الذي كان ينبغي أن يجعل بينليوب سعيدة،**
**لم يكن بمستطيعٍ أن يغلب في نفسي الحماسة التي كانت لديّ،**
**لكي أصبح خبيرًا بالدنيا، وبمساوئ البشر وفضائلهم،**
**ولكني وضعتُ نفسي على البحر العميق المفتوح، في سفينةٍ**
**واحدةٍ، مع تلك الجماعة القليلة التي لم تتخلّ عني.**

واصل القراءة لكنه توقف عند الأبيات التالية:

**قلتُ: أيُّها الإخوان الذين وصلتم إلى الغرب، خلال مائة ألفٍ**
**من المخاطر، إنكم لن تريدوا، في هذه اللحظة القصيرة**
**من يقظة الحواسّ المتبقية لنا، منع اختبارنا العالم الخالي من البشر،**
**فيما وراء الشمس.**

**وحينما أدرنا مُؤخر السفينة في الصباح، جعلنا من المجاذيف أجنحةً،**
**في هذا الطيران المجنون، ونحن نسير إلى اليسار دومًا.**

انتبه إلى أن دانته ألغيري أغرق السفينة لكنه لم يحسم أمر موت أوديسيوس! ففي ملحمة الأوديسة أعاده هوميروس إلى زوجته بينلوبه حيث تبدأ هناك في قصره قصة القوس وعشاق زوجته الذين يريدون الزواج منها عنوة! وابتسم متذكّرًا عظمة هوميروس الذي لم يشأ أن يمدّ الحكاية، إذ أن العشاق كانوا قد اكتشفوا حيلة بينلوبه بالغزل والنسيج

صباحًا وتفكيكه ليلًا، وأرغموها على الاختيار، وكانت هي تميل لأحدهم، بعد يأسها من أوديسيوس!

فكر آدم بوناروتي مع نفسه بأن بينلوبه لم تصبر عشرين عامًا، عشر سنوات حرب طروادة وعشر سنوات تيه أوديسيوس في البحار، حبًّا لزوجها وإنما كبرياؤها منعها من التساهل مع هؤلاء الأوغاد الذين اقتحموا قصرها ليتزوج أحدهم منها، كما أن خجلها من ابنها المراهق تليماك وخوفها من تمرده وتهوره إذا ما تزوجت أحد هؤلاء مما قد يسبب مقتله هو الذي منعها من إعلان رغبتها تلك، لقد كان قلبها مليئًا بالمرارة من أوديسيوس! فجأة برقتْ فكرةُ لوحة يمكن أن ينجزها لبينلوبه وأوديسيوس! لكنه أبعدَ الفكرة قليلًا مفكّرًا بفتاة الفندق!

***

في الغرفة التي تحمل رقم 88 في الطابق الثامن بفندق "كنزي فرح هوتيل" بمراكش استيقظت حواء ذو النورين.. تمططت قليلًا في سريرها العريض والوثير، تذكّرت أنها حين وصلت إلى الفندق توجهت إلى السرير بعد أن أخذت حمامًا، ونامت نومًا عميقًا، وفجأة انبثقت في ذهنها أحداث ليلة الأمس منذ لحظة هبوط الطائرة، نعم، استرجعت خلال ثوانٍ شريطًا مصورًا في ذهنها عمّا جرى، فقد هبطت الطائرة في مطار مراكش المنارة الدولي، وبعدها بدقائق معدودة ازدحم المسافرون أمام شبابيك تدقيق جوازات السفر في طوابير عديدة بعدد الشبابيك التي يتواجد خلفها شرطة تفتيش الجوازات.

تتذكر أنها كانت تشعر برهبة غامضة، منذ أن وزّعت مضيفة الطائرة على الركاب الأجانب بطاقات التعريف بهم لملئها وتقديمها مع جواز السفر، كانت واثقة بأن جواز سفرها سليم من الناحية القانونية فقد مرت به شرطة الجوازات في مطار شارل ديغول بباريس دون أن ينتبه أحد إلى أنها عربية وجوازها روسي باسم إيفا بتروفنا تومانوفا.

امتدت طوابير المسافرين طويلًا، لكن إجراءات الدخول كانت سريعة وبلا تعقيدات! تلفتت حولها مفتشة عن حواء الذهبي التي التقتها في بار المطار بباريس، لكنها استغربت حينما لم تجدها في أي من طوابير المسافرين، وسألت نفسها: أمن المعقول أنها أنهت التفتيش ودخلت صالة أخذ الحقائب؟!

حين صارت أمام شباك التفتيش نظر الشرطي إلى جوازها وإلى المعلومات التي دونتها على البطاقة. كان الشرطي رجلًا أربعينيًّا، نظر إليها بإعجاب ولطف، سألها بالفرنسية في أي هوتيل ستنزل، فهمت من كلمة "هوتيل" أنه يسأل عن الفندق، وكانت قد كتبت اسم الفندق في أحد حقول البطاقة، لكنها أدركت أنه يود الحديث معها استلطافًا وليس لنقص في المعلومات، أخرجت له بطاقة الحجز وقالت له:

- كنزي فرح هوتيل.

ابتسم لها وختم على جواز سفرها مع كلمة ترحيب قالها بالإنكليزية، أحسّتْ بالراحة من لطف التعامل ومن ابتسامة شرطي الجوازات الطيبة. توجّهت إلى الداخل حيث قاعة استلام الحقائب، انتبهت إلى أن الحزام المتحرك كان يتحرك لكن لم تظهر أية حقيبة بعد، ورأت المسافرين يصطفون على امتداده من الجانبين، تأسفت أنها سلّمت حقيبتها الصغيرة للشحن، كان بإمكانها أن تحملها معها إلى داخل الطائرة، إذ عليها الآن أن تنتظر!

في تلك اللحظات فتّشت عن حواء الذهبي بين المسافرين فلم تجدها أيضًا، استغربت ذلك، "أين اختفت؟ فلا هي بين الطوابير التي تركتها خلفها عند شبابيك تفتيش الجوازات ولا هي هنا!" سألت نفسها.

شاهدت حقيبتها تخرج من الفتحة التي تقود إلى ما وراء القاعة كأول حقيبة تتبعها حقائب أخرى، أسرعت إلى حيث الحقيبة وسحبتها. تلفتت في القاعة باحثة عن جهة الخروج، انتبهت لوجود مكتب للصرافة، توجّهت إليه وأخرجت من حقيبتها ما يعادل خمسمائة دولار لتعادلها بالدرهم المغربي، وحينما طلب منها الموظف جواز سفرها أعطته له وهي تقول:

- تفضل.

سألها الموظف بلطفٍ مندهشًا:

- المدام عربية؟!

فجأة انتبهت حواء ذو النورين إلى أنها قالت له "تفضل" بالعربية بينما جوازها روسي، ولا تعرف من أين جاءتها فكرة الإجابة المنقذة، إذ قالت له:

- لا، أنا روسية، لكن أمي عراقية!
- يا أهلًا وسهلًا بالعراق والعراقيين.
- شكرًا لك.

استلمت المبلغ، وشعرت بالسعادة مع نفسها في أنها وجدت لا إراديًّا حلًّا معقولًا لنفسها في أن تتحدث مع الآخرين بالعربية، فلا أحد ينتبه لذلك إلا إذا رأى جواز سفرها الروسي، وحتى في الفندق يمكنها القول بأن أمها عراقية، وكما بدا لها أن المغاربة شعب ودود.

قبل خروجها إلى صالة المطار الكبيرة وعند الباب كان شرطيان يجلسان عند جهاز سونار لفحص الحقائب، وضعت حقيبتها فخرجت من الجهة الأخرى، ابتسم لها الشرطيان، وما أن خرجت من الباب حتى واجهت الناس الذين تجمعوا لاستقبال أحبّتهم وأهليهم من المسافرين القادمين، فجأة أحسّتْ بقلبها يرتجف وارتعاشة تسري في جسدها! كان الرجل الأشقر الوسيم بكامل أناقته وببدلة سوداء يقف حاملًا باقة من الزهور وكأنه كان ينتظرها، ابتسم لها، فوجئت، كان واضحًا أنه يقصدها لأنه ابتسم لها هي مركزًا نظراته على وجهها، لم تصدّق ما تراه، فكرت لثوانٍ أنه ربما جاء منتظرًا غيرها، التفتت إلى الوراء لترى المسافرين الذين خلفها، لم ترَ أحدًا، وحينما التفتت إلى الأمام لم ترَ الرجل الأشقر الوسيم، لقد اختفى.

خُيل إليها أنها توهمت، لكن اختفاء حواء الذهبي في الأحوال كلها لم يكن توهمًا، هكذا فكّرت مع نفسها، ومضت نحو بوابة الخروج.

حين خرجت من المطار توجهت إلى حيث تقف التاكسيات، انتبهت إلى أنهم يكتبون الطاء بدل التاء، استقبلها أحد سواق التاكسي، وضع حقيبتها في صندوق السيارة، تحدث معها بالفرنسية، فأجابته بالعربية:

- كنزي فرح هوتيل ـ شارع الرئيس كندي.
- ابتسم السائق لها وسأل:
- أنت عربية؟
- عراقية.

- يا مرحبًا.

وانطلقت السيارة متوجهة إلى الفندق.

***

حين وصلت الفندق توجهت للاستعلامات، أعطتهم ورقة الحجز، وأثناء ذلك التفتت إلى الصالة فرأت الرجل الأشقر الوسيم جالسًا وينظر إليها من بعيد وأمامه على الطاولة الزجاجية باقة ورد تثير الانتباه بألوان زهورها النادرة. ابتسم لها من بعيد، أحست بشيء ما يقبض على قلبها، استدارت لتنهي إجراءات إقامتها في الفندق. موظفة الاستعلامات سلّمتها البطاقة الإلكترونية الذي تستخدم كمفتاح، وأخبرتها أن هناك رجلًا أشقر سأل عنها لكنها لم تكن قد وصلت ففضل أن ينتظرها في اللوبي، أحست بالخوف من كلام الموظفة، التفتت حواء ذو النورين إلى الصالة فلم تجد الرجل الأشقر الوسيم الذي كان قبل لحظات هناك.

استرجعت حواء ذو النورين ذكرياتها كلها عن هذا الرجل الغامض، فقد كان متواجدًا في فندق "الشام" بدمشق حينما كان يتناقش مع الراهب وكانت هي مع صديقتها إيفا سميث هناك، وكذلك في فندق "ماتا لوكا" في فلورنسا أيضًا إذ رأته جالسًا في المطعم وفي اللوبي لأكثر من مرة، وكذا في الغرفة الفرعونية الغامضة ببيت آدم بوناروتي، ومرة أخرى في باريس، في العمارة التي في شارع سانت دينيس، وها هو في مراكش، وركّزت تفكيرها في شخصيته، وسألت نفسها: "من هو هذا الرجل الأشقر الوسيم؟ ماذا يريد مني؟ ولماذا يتواجد في أي مكان أذهب إليه، أهي المصادفة؟ وجهه الجميل يشي بالطيبة والخير وعدم وجود نوايا شر لديه؟ هل يمكن أن يكون وهمًا من أوهامي؟ لا، لا، فقد كان يتناقش مع الراهب وكنت مع إيفا سميث وتحدثنا، كما أن الموظفة في استعلامات الفندق أخبرتني عنه أيضًا، إذن هو موجود!".

في تلك اللحظات رنّ الهاتف، تكاسلت في الرد لكنها استغربت أن يتمّ الاتصال بها هاتفيًّا. ظنت ربما استعلامات الفندق يتصلون بها لأمر ما، نهضت عن السرير، انتبهت إلى أن الساعة قد تجاوزت الثامنة، فكرت بأن ترد على الاتصال ثم تأخذ حمامًا ساخنًا وتنزل إلى المطعم لتناول الفطور.

توقف رنين الهاتف، فتحت حقيبتها، اختارت ثوبًا أسود قصير الأكمام، وضعته على السرير، وتوجهت لتتحمم.

* * *

صُدم آدم الشبيبي حين فتح الباب ليدخل وهو يحمل في يده أكياسًا مليئة بالكباب الساخن والخضراوات والبصل والطرشي المخلل وأكياسًا أخرى فيها القشطة والمربي موضوعًا في حافظات من الفلين، فما أن فتح الباب حتى وجد باحة البيت مكتظة ومزدحمة بالعقارب، عقارب صفر وسود، عقارب كبيرة، بحجم كف اليد وبحجم أرنب كبير، عقارب تتراكم فوق بعضها، ترفع أذنابها المعقوفة، وهي تدور في حركة دائرية راقصة!

أغلق الباب مرعوبًا وبقي في جهة الشارع، في تلك اللحظة فكّر في آدم أبو التنك وحواء الفارسي، كيف هما الآن؟ هل لدغهما جيش العقارب هذا؟! ثم من أين جاءت هذه العقارب؟ هو ليس في عالم أسطوري وميثولوجي حيث هناك الرجل العقرب كما في ملحمة كلكامش أو الميثولوجيا الرومانية! ظل للحظات يقف عند الباب مرعوبًا، ثم تماسك ليعرف مصير صديقيه، فأخذ يطرق الباب بشدة!

شلّه الرعب، فكّر بأنه من المستحيل أن يكون ما رآه واقعيًّا، ربما هو نوع من الإيهام! راوده خاطر بأن يتحقق من فكرته عمّا رآه، فتح الباب قليلًا وبحذر شديد، رأى عقربًا كبيرًا وكأنه ملك العقارب فارتعب وقفز جانبًا، ومن شدّة رعبه لم يغلق الباب، ظل الباب مفتوحًا، التصق هو بجانب الحائط قرب الباب، كاد يختنق من شدّة صعوبة التنفس حينما رأى العقارب تخرج في زحمة من المنزل، بعضها يعتلي ظهر بعض من كثرتها، وأخذت تملأ الزقاق القصير حيث البيت وبعض البيوت الجانبية، ظل ملتصقًا بالحائط قرب الباب، انتبه إلى أن العقارب ما أن تخرج عبر الباب المفتوح حتى تبدأ بالانتفاخ، تكبر وتكبر حتى تصبح بقامة إنسان كلما اقتربت من الشارع العام، ثم فجأة يجري تحول خاطف، حيث تختفي كل مظاهرها الحيوانية العقربية، وتنسحب لتتشكّل في قامة إنسان، وما أن يصل الشارع العام حتى يختفي في أحد اتجاهاته! لم يكن يصدّق ما يراه، لم يصدّق ذهنه، لكن هذا ما يراه بعينيه، أخذت العقارب تهرب من المنزل إلى أن اختفت كلها، ولم يعد أي عقرب يخرج من المنزل!

لا يعرف كم مرّ من الوقت وهو في وقفته تلك، فجأة عاد إلى نفسه وكأنه أفاق من كابوس مرعب، اقترب من فتحة الباب، نظر إلى داخل المنزل فلم يرَ شيئًا، كانت الباحة فارغة من أي عقرب!

دخل بحذر شديد، وأغلق الباب خلفه بهدوء، كان على يقين بأن ما رآه هو رؤيا كابوسية أكثر مما هو واقع، إذ كيف تتحول العقارب إلى بشر؟! وها هو البيت خالٍ من أي عقرب، لكنه ظل مسكونًا برعبٍ بارد مما رآه، هو أساسًا يخاف العقارب والأفاعي بالتحديد، يخاف الزواحف، وكل ما يدب على الأرض زاحفًا!

بهدوء توجه إلى المطبخ، وضع الأكياس العديدة التي يحملها على كاونتر المطبخ إلى جانب حوض غسيل الصحون بحذر شديد وكأنه يتوقع أن تهجم عليه العقارب من حيث لا يدري!

سمع ضجة عند باب المنزل وصوت صديقه آدم أبو التنك وزوجته حواء الفارسي يرحبان بشخص ثالث، خمن أنها امرأة من خلال الضمير المؤنث في الخطاب، كانا يدعوانها بترحاب إلى اعتبار البيت بيتها، أطلّ هو من المطبخ لينظر إليهم مرتبكًا ومتفاجئًا، إذ كان يظن أن صديقيه لا يزالان في غرفة نومهما، ولم يخطر في باله أنهما خارج البيت!

رأى آدم أبو التنك يحمل حقيبة كبيرة تبدو ثقيلة لما رآه من ارتياح على وجه صديقه وهو يضعها على الأرض بجانب الباب لحظة دخوله المنزل وكأنه تخلص من عبء ثقيل، وكانت المرأة التي بصحبتهما تبدو في بداية الثلاثينات ممتلئة دون سمنة، تميل إلى القصر دون أن تنتمي للنساء القصيرات، بشرتها بيضاء ووجهها مستدير، وشعرها أسود فاحم، على الأقل هذا ما بدا من خصلة الشعر التي خرجت من تحت غطاء الرأس الذي تضعه!

التفت الجميع إليه، ألقى عليهم تحية الصباح بارتباك، فقد كانت تأثير رؤيا العقارب تتراءى له، ردوا التحية عليه، كان التساؤل يشع من نظرات صديقيه وكأنما لم يتوقعا وجوده في البيت، ارتبكت المرأة حين رأته، تقدم آدم أبو التنك، عانقه آدم الشبيبي مباركًا له زواجه، والتفت نحو حواء الفارسي مكتفيًا بقوله لها: مبارك لكما، بالرفاه والبنين. ارتبك آدم أبو التنك، ولكي يتخلص من ارتباكه قدّم المرأة التي معهما قائلا:

- أقدم لك الأخت حواء العذابي، صديقتنا، قد وصلت توًّا من بغداد!

ارتبكت المرأة التي كان الخجل واضحًا في نظراتها، ثم التفت نحو المرأة وقال لها بمبالغة عراقية:

- أقدم لك صديقنا الغالي، الصحفي المعروف، الشاعر، والكاتب، الأستاذ آدم الشبيبي!

نظرت المرأة التي اسمها حواء العذابي بحياء وأومأت برأسها نحو الأسفل تعبيرًا عن الاحترام وقالت: تشرفنا.

سادت لحظة صمت محايد، قطعها آدم الشبيبي قائلًا:

- أردت أن أعدّ لكما فطورًا خاصًّا، ولأني لا أعرف الطبخ، فقد جئت به حاضرًا، هذه صبيحة عرسكما، لنبدأ بالأكل قبل أن يبرد الطعام.

أرادت حواء الفارسي أن تقطع الحديث عن العرس فقالت وهي تتوجه نحو المطبخ:

- لماذا كلّفت نفسك، نحن ذهبنا لاستقبال صديقتي حواء، لكن لم يخطر في ذهننا أن نأتي بالطعام معنا، لنعدّ المائدة.

توجه آدم الشبيبي والمرأة نحو الباحة التي فيها الصوفا والمقاعد والطاولة التي تتوسط المكان بينهما، بينما توجهت حواء الفارسي إلى المطبخ وانشغلت بإخراج الطعام من الأكياس ووضعه في صحون خاصة، أما آدم أبو التنك فتوجه نحو الباب، حمل الحقيبة الكبيرة وذهب بها إلى غرفة النوم!

ظل آدم الشبيبي والمرأة الضيفة وحدهما للحظات، أخذ يتأملها بصمت وحذر وكأنه ينظر إليها بعفوية ومن غير قصد، رسم ملامحها مباشرة في ذهنه، بشرة بيضاء، وجه مستدير وعينان واسعتان، شفتان ممتلئتان، أنف يبدو بارزًا قليلًا، صدر ممتلئ يشي بنهدين مثيرين، ومنطقة حوضها عريضة تشي بأفخاذ ممتلئة إلى حد ما، جمالها طبيعي، نظراتها خائفة ومرتبكة وخجولة. ومع ذلك ففي نظراتها دعوة خفية لشيء ما خاص ومجهول! هكذا اختزنت أعماقه صورة المرأة الضيفة.

حواء العذابي كانت تشعر أنه يتأملها بطريقة لا تدع الشك بأنه يقصد ذلك، شعرت

بالخجل وبشعور من الارتياح الأنثوي، لذا شغلت نفسها بالنظر إلى تفاصيل المنزل كي تتيح له أن يتأملها، ودونما أي قصد التقت نظراتهما في لحظة خاطفة، كانت نظراتها تشي بتساؤلات مكتومة، مزيج من خوف وغنج خجول، ارتبكت، أدركت أنه ربما قرأ في نظراتها ما يكشف عن شخصيتها الحقيقية، كانت نظراتها مليئة برغبة دفينة مكتومة لا تتناسب مع امرأة دخلت المنزل قبل دقائق بينما بدت وكأنها تبحث عن رغبة غير معلنة. ارتبكت لثوانٍ، ولكي تدفع عن نفسها الحرج، نادت من مكانها على صديقتها حواء الفارسي سائلة إن كانت تحتاج إلى مساعدة، لكن تلك أجابتها بأن عليها أن تستريح، فهي متعبة من السفر، وأنها ستأتي بالإفطار حالًا!

في تلك اللحظات خرج آدم أبو التنك من غرفة النوم، وما أن جلس على الصوفا الجلدية، انتبه إلى ارتباك صديقه فسأله:

- هل أنت بخير!

فوجئ آدم الشبيبي من السؤال، أجابه بنبرة مشوبة بخوف:

- نعم، أنا بخير، لماذا هذا السؤال؟
- لأنك شاحب الوجه وكأن أشباحًا تطاردك.
- لا أبدًا.

أراد آدم الشبيبي أن يروي له عمّا رآه، لكنه تردد، ربما لن يصدقه، بل هو نفسه غير متأكد مما رآه، وفي تلك اللحظة جاءت حواء الفارسي وهي تحمل صينية كبيرة مليئة بصحون الكباب والخضرة والقشطة والمربى، وأضافت هي العسل مما يتوفر في المطبخ، وقالت:

- الشاي سيكون جاهزًا بعد لحظات.

***

انتهوا من الإفطار، لكن خلال الفطور تحدثت حواء الفارسي عن صديقتها حواء العذابي لتزيل عنها الارتباك ولرغبة غامضة في نفسها بأن تقربها بشكل خفي من آدم الشبيبي على الرغم من أنها إلى الآن لا تعرف سر مجيء صديقتها إلى دمشق وحدها!

آدم أبو التنك كان يعرف أن هذه الضيفة هي الصديقة المقرّبة لزوجته، وهي متزوجة ولديها طفلان، وزوجها ضابط عسكري برتبة متقدمة، لكنه لا يعرف أكثر، وقد سأل زوجته أثناء ذهابهما لاستقبالها عن سبب مجيئها وحدها إلى دمشق دون أطفالها وزوجها فلم يحصل على جواب، بل إن زوجته ردّت بحزم بأنها هي نفسها لا تعرف، بل لم تسأل صديقتها ولا تنوي سؤالها إلا إذا هي تحدثت عن ذلك، وأن واجبهما هو استضافتها قدر المستطاع إلى أن تدبر أمرها!

في حديثها أثناء الفطور أعادت حواء الفارسي المعلومات التي ذكرتها لزوجها! وأضافت بأن صديقتها ستنام معها في غرفة النوم وسينتقل زوجها للنوم في الصالة إلى حين أن تجد حواء العذابي مكانًا لها وتقرر أين ستكون! ارتبكت الصديقة الضيفة عندما ذُكر أمر البقاء وتغيير السكن، فهي نفسها لا تعرف شيئًا ولا تدري أين ستسكن، ولم تفكر في ذلك الآن، فهي قد هربت من بغداد!

بعد الفطور ذهبت المرأتان إلى غرفة النوم بينما بقي الرجلان في الصالة الصغيرة، كان آدم أبو التنك محرجًا لكنه وجد في أمر انتقاله للنوم في الصالة حلًّا لمشكلته مع زوجته، وعذرًا مقبولًا يجنبه ما سينشأ من توتر بينه وبينها! ومع ذلك كان يحس بالحرج لسبب يجهله، بينما من جهته كان آدم الشبيبي مترددًا في أن يحدثه عن رؤيته الصباحية للعقارب التي تحولت إلى بشر واختفت في المدينة، لكنه لم يكن واثقًا من نفسه، فجأة وجد نفسه يسأل صديقه قائلا:

- هل تعرفان ضيفتكما جيدًا؟

تردد آدم أبو التنك للحظات ثم قال:

- شخصيًّا لا أعرفها، وزوجتي على الرغم من محاولتها أن تبدي عمق علاقتها بها، إلا أنها كما فهمت لا تعرفها جيدًا، أو لنقل تعرفها لكن ليست صديقة مقربة لها، وقد فوجئت هي بمجيئها، فقد رنّ هاتفها صباحًا، وجاء صوت الضيفة الذي أكّد أنها في الكراج الخاص بالسيارات القادمة من بغداد وأنها تحصلت على رقمها من أمها، وهي الآن لا تعرف إلى أين تذهب، فهي لأول مرة هنا في دمشق، وطلبت منها أن تستضيفها بضعة أيام إلى أن تجد لنفسها سكنًا، فهي تخاف الذهاب إلى الفنادق لكونها امرأة وحيدة، ولم يكن أمام

زوجتي سوى أن توقظني كي نذهب ونأتي بها! وكما ترى، هي احتلت مكاني، إلى أن نجد لها حلًّا ونعرف أمرها!

صمت آدم الشبيبي للحظات وقال:

- لا أريد أن أحكم عليها، لكني أحس أنها تخفي قصة غامضة وراء مجيئها وحدها، علمًا بأن لديها طفلان وزوج عسكري، كما بدت لي أنها امرأة ليست سهلة، أقصد بالمعنى الخاص بمكر النساء! عمومًا، سنرى، (ثم أضاف بمرح) وأهلًا وسهلًا بك إلى زاويتك المفضلة.

ابتسم آدم أبو التنك ببراءة وقال:

- سنخرج بعد قليل إلى المدينة، وسنسعى إلى أن نترككما، عسى أن تستطيع أن تستشف منها شيئًا، فقد انتبهت لنظرات الإعجاب الخفي التي كانت توجهها إليك!
- حقًّا؟ أنا لم أنتبه.
- بلى.

لم يمر وقت طويل حتى خرجت المرأتان من الغرفة، وبدا أنهما تحدثتا فيما بينهما، وما أن صارتا عند الآدمين حتى اقترحت حواء الفارسي بأن يخرجوا ليتجولوا في المدينة!

***

حين دخلوا مقهى الروضة أحست حواء العذابي قلقة تشعر بالخجل والارتباك فهي لم تدخل مقهى في حياتها قط، لكن ارتباكها اختفى بسرعة حينما انتبهت لتلقائية صديقتها حواء الفارسي ورؤيتها بعض الطاولات التي يجلس حولها نساء سافرات وبعضها فتيات يضعن شالًا على الرأس بما يشبه الحجاب، بينما هي تضع شالًا مفتوحًا لا يغطي شعرها كثيرًا ويكشف عن وجهها ورقبتها بالكامل! وأحسّت بدفق من المشاعر المضطربة يسري في أعماقها، مشاعر فرح بممارسة حريتها وفي الوقت نفسه خوف من هذا الانفتاح الذي قد يربكها، وخوف من مجهول تركته خلفها في بغداد، شعرت بغصة في نفسها فظلال

الأشباح المظلمة التي تتبعها ستنغص عليها فرحها وحياتها الجديدة، فلا صديقتها تعرف ولا أي شخص آخر يعرف بأنها هاربة.

انتبهت حواء الفارسي لحالة صديقتها النفسية لذا سعت أن تضيف جوًّا من المرح والحيوية على جلستهم، ولم يغب عن ذهنها إيجاد الوسيلة التي تربط بين صديقتها وآدم الشبيبي، وكأنها بذلك تقاوم نفسها من الانجرار إلى علاقة جنسية معه، وكأنها تعاقب نفسها بالحرمان وتضع الموانع اللا شعورية لذلك!

بعد أن شربوا القهوة همست حواء الفارسي في أذن زوجها، انتبه الآخران لكنهما لم يقولا شيئًا وإنما نظرا لبعضهما نظرات متسائلة وكأنما يسألان عمّا همست به حواء الفارسي في أذن زوجها، وعلى إثر ذلك نهضت حواء الفارسي ومعها زوجها وهما يستأذنان لنصف ساعة، حيث يريدان أن ينجزا شيئًا خاصًّا!.

كانت حواء العذابي قد اعتادت وجود آدم الشبيبي، بل حرّضتها صديقتها حينما كانتا في الغرفة بأن تقترب منه فهو إنسان طيب ويمكنها أن تثق به، وهو أعزب، وقد ركّزت على هذه الصفة على الرغم من أنها تعرف بأنها متزوجة وأم!

بقي آدم الشبيبي وحواء العذابي صامتين للحظات، ومع أن كلًّا منهما شعر في أعماقه بارتياح لتواجدهما الآن وحدهما، لكنهما بقيا صامتين. لم تكن ملامح آدم الشبيبي متوترة لكنه في أعماقه كان مثل العنكبوت ينسج شباكه لاصطياد فريسته، بينما كانت هي تود أن تبدأ معه أي حديث يقربهما من بعضهما لكنها لا تعرف من أين تبدأ، وأي المواضيع هي أقصر الدروب للوصول لحالة خاصة من القرب بينهما! فجأة سألته:

- لقد قالت حواء بأنك تكتب، وكذا قدّمك زوجها، قالا إنك شاعر وصحفي.

"وأخيرًا نطقت" قال آدم الشبيبي لنفسه، ارتاح لسؤالها فانطلق وكأنه كوكب خرج عن مداره، كان يريد أن يترك في نفسها انطباعًا قويًّا، فأخذ يتحدث عن أشياء لا يعنيها، ويعبّر عن أحاسيس لم يشعر بها سابقًا، كان يغيّر ملامح وجهه ونظراته وكأنه يتحدث عن أشياء عميقة، بينما هو في أعماقه لا يفكّر إلا في الكيفية التي عليه أن يترك لديها انطباعًا بأهميته، وكيف عليه أن يسحرها في الوقت المتروك لهما وحدهما، وأن يحسم أمر احتلال أعماقها وتفكيرها، كان يتحدث حديثًا مزيفًا عن الكتابة ومشاقّها ومشاعره أثناء الكتابة وعن رؤيته للأشياء، لكنه كان أصيلًا في زيفه!

كانت هي تنظر إلى وجهه صامتة وكأنها تستمع له، لكنها أيضًا كانت تفكر وتسأل نفسها إن كان بإمكانها أن تثق بهذا الإنسان، هي تحتاج أن تفضفض عمّا لديها من أسرار صارت تخنقها، كما أنها تحتاج إلى رجل، هي الآن تنظر له لكنها تشعر بالتهيج! كانت تسعى بأن تشاركه أسرارها قبل وصول صديقتها وزوجها، وأن تحتل تفكيره وتصير مركز اهتمامه، فقالت له:

- أتعرف، أنا أعيش في دوامة، فكثيرًا ما يضج رأسي بالأفكار والقصص التي تشبه تلك الموجودة في الكتب والأفلام، لكني حين أحاول أن أعبر عمّا في نفسي وأجسد تلك الأفكار في كلمات أجدني حائرة، لأني لا أجد الكلمات الصحيحة التي تجسّد ما يجول في ذهني حقًّا، بل أجدني أتحدث بكلمات ناقصة ومشوهة وبائسة، ليست هي ما أردت أن أقوله، لذلك أحسد هؤلاء الذين يستطيعون أن يعبروا عمّا في أنفسهم، بل ويعبروا عمّا يجول في نفوس الآخرين!

لم يكن آدم الشبيبي ينتظر منها هذا الكلام الذي وجده عميقًا، لكنه استشعر قبولًا نفسيًّا من طرفها نحوه، فكلامه عن الكتابة والمشاعر أثّر فيها، إذن، فالطريق أمامه سالكة وعليه أن يمضي قدمًا، فقال لها بشكل أدبي منمّق مستذكرًا جملة قرأها لنيتشه:

- الأجفان المرتعشة الخائفة لا تستطيع أن ترى السماء البعيدة!

ومع أنها لم تجد ربطًا واضحًا بين ما قالته وهذه الجملة العميقة إلا أنها لم تستطع أن تخفي إعجابها فقالت:

- الله، هذا رائع.

نظر إليها بتركيز وقال بلهجة الخبير العارف:

- نعم، عليكِ أن تحدّقي إلى الحياة وإلى الأعماق بعيونٍ مفتوحة، كي تصلي إلى الجوهر!

نظرت إليه للحظات نظرات خوف وتوجس وحيرة، وكأنها ذئبة قد زلّت في مصيدة، فقالت بنبرة قلقة:

- أنا لا أعرف كيف أتحدث، سأعترف لك بأني أريد أن أحدثك بأسراري، لا

أعرف لماذا، مع أني قابلتك اليوم صباحًا فقط، لكني أعترف لك بصراحة شديدة قد تبدو غير مقبولة أو لائقة بأنني أحتاج لرجل أعبّر له عمّا يجول في أعماقي. صحيح أنه ممكن أن أتحدث لصديقتي لكني لا أستطيع أن أحدثها عن كل ما يدور في أعماقي، ربما سأحدثها عن بعض الأشياء التي تعرف النساء فقط كيف يتبادلنها، لكن ليس كل الأشياء تود النساء أن يكشفنها للنساء الأخريات مهما كانت العلاقة بينهن قوية، فثمة أشياء خفية في أعماق المرأة لا تود أن تتحدث بها إلا لرجل، وأنا بصراحة أحتاج إلى صدر رجل كي ألقي عليه بأسراري، ولا أدري إن كنت مستعدًّا لتلَقّي أعبائي وأسراري الثقيلة! ربما تعتبرني امرأة مجنونة، متسرعة، وربما ستسأل بأنه ما دامت أسراري غامضة إلى هذا الحد فكيف أكشفها لك بينما أنا لا أعرفك جيدًا! ومع ذلك، لا إجابة واضحة لديّ، أعرف أن لديّ رغبة في ذلك، لا أكثر!

لم يصدق آدم الشبيبي هذا التحول في شخصيتها، وهذا الانفجار الشعوري لديها، وأدرك أنها مدفوعة بضغط نفسي قوي كي تبوح له، فأراد أن يكسب ثقتها أكثر فقال لها:

- يمكنك أن تعتمدي عليّ، سأكون ملاذك، وقلعة أسرارك!

نظرت إليه وأسعدها أنه استجاب لها فوجدت نفسها منجذبة لمداره على الرغم من أنها لم تفهم كلماته الأخيرة جيدًا، فقالت له:

- هل يمكنني أن أطلب فنجانًا آخر من القهوة.

- تكرمين.

قالها باهتمام وهو يشير إلى النادل الذي كان يدير القهوة في فنجان زبون حول مائدة مجاورة، وطلب منه أن يأتيهما بفنجانَي قهوة. تلفتتْ حواء العذابي قليلًا وكأنها تتأكد من وجود أشخاص يراقبونها واسترخت كأنها لم تجد أيًّا منهم، عدّلت من الشال الذي على رأسها وحررت رأسها منه فصار على كتفيها، بدا شعرها الأسود الكثيف والمسحوب إلى الخلف والمعقوف كتسريحة ذيل الحصان مما أبرز وجهها المثير! ابتسمت له، نظرت في أعماق عينيه وبدأت تهدر في سرد حكايتها:

- أعترف أنه لا مميزات تذكر لديّ سوى جمال جسدي وإعجاب الآخرين به! لكن هذا الجمال الجسدي جرّ عليّ الويلات والمصائب! ربما من غير اللائق

أن أتحدث عن جمالي، فقد لا أبدو جميلة في نظرك،

قاطعها آدم الشبيبي وهو يقرّب رأسه منها وكأنما يود أن يقول شيئًا لا يسمعه أحد وقال وكأنه يهمس:

- أنا أراكِ امرأة مثيرة، لديك حضور أنثوي قوي، لديك شيء مختلف.

ابتسمت له بمودة وقالت وهي تنظر له بغنج:

- أنت تبالغ كثيرًا، أكيد هذا الكلام قلته لغيري أيضًا.

أدرك آدم الشبيبي بأنها بكل ما تبدو عليه من مكر وخبرة لكنها كأية امرأة يعجبها المديح الكاذب حتى ولو كانت غير مقتنعة به، كما أنها أبدت لا شعوريًا اهتمامها به وغيرتها من ظلال نساء حوله، فقال لها:

- أنا غير مرتبط إلى الآن، حرٌّ كما يقال، ولا أجاملك في هذا المديح.

ابتسمت لتوضيحه عن عدم ارتباطه فهي لم تسأله عن ذلك، لكن أعجبتها جرأته ووضوحه في السير نحو هدفه، فواصلت بجرأة أكثر منحها إياه شعور غريزي بأنها تسير في الطريق الصحيح:

- أنا أرى نفسي إنسانة بسيطة وعادية، أمتلك لمسة بسيطة من الجمال. كنت في بغداد أرتدي الجبة الإسلامية والحجاب، ومع ذلك لم أستطع أن أمنع عيون الرجال والموظفين في دائرتي الطامعين لجسدي، فذات مرة قال لي رجل في الدائرة التي كنت أعمل فيها: لو كنت زوجتي لسجنتكِ في البيت ولما تركتك ترين الشارع. أغاظني هذا القول، لكنه كانت يتحدث وفي عينيه رغبة جنسية واضحة. أتصدق أنني حين انتبهت لنظراته التي كانت تعريني، أحسست بشيء من الرضا بأني امرأة شهية ومرغوبة، بصراحة أنا أخاف من الرجال، وأرغب فيهم كأية امرأة في الوقت نفسه، أعيش حربًا نفسية، لا أعرف لماذا، هل أنا مريضة نفسية؟

في تلك اللحظات جاء النادل بفنجاني القهوة، وضعهما على الطاولة مع كأسي الماء وحمل الفناجين والكؤوس الفارغة، صمتت في حضوره، لكنها واصلت ما أن تحرك مغادرًا:

- أنا من عائلة محافظة جدًّا، كنت أخاف والدي جدًّا، بل كنت أخاف أن أحضنه حتى وأنا طفلة، وظل هذا الخوف ملازمًا لي حتى وأنا أتحدث معك الآن، كان يضرب أمي، وأخوتي... أتعرف! أنا أستغرب الآن من نفسي حينما أجد الرغبة أن أتحدث معك عن كل هذه التفاصيل، لا أعرف لماذا، ربما ارتحتُ لك، فأنا عادة على الرغم من طبيعتي الاجتماعية والمرحة أعيش في عزلة، ربما صمتي وانغلاقي على نفسي أضاف على شخصيتي هالة خاصة تبعد الكثيرين أو لا تشجعهم على سؤالي عن حياتي الخاصة، ومع ذلك، في غير شؤون حياتي الخاصة تجدني اجتماعية، أستمع للآخرين، لأحاديث الموظفات اللاتي لديهن حكايات كثيرة، حكايات حقيرة، معظمها تعود لزمن الطفولة، مثل طفولتي، كتسلط الأب والتحرش الجنسي. شخصيًّا عشت طفولة متعبة، طفولتي كلها خوف وقلق وحرمان وفقر، كنّا سبعة أفراد نسكن في غرفة صغيرة، أنا وأختي التي تكبرني، وثلاثة أخوة. أمي كانت تعمل خياطة في أحد محلات الأقمشة في السوق، كنت أستحي القول إن هذه الخياطة أمي، ليس لأنها امرأة سيئة، أبدًا، وإنما لشعور وقهر نفسي في ذلك العمر، كانت أمي امرأة جميلة جدًّا، ووجودها في السوق كخياطة يجعلها مائدة شهية لنظرات الرجال، لكنها كانت امرأة متدينة، أتذكّر ذات مرة في ظهيرة صيف جاء إليها رجل، صاحب دكان قريب، كنت أنا صغيرة في السادسة، عرض عليها مبلغًا جيدًا وطلب منها أن تذهب معه إلى دكانه، لكنها رفضت، وحتى في المحل الذي كانت تعمل فيه تعرضت مرات ومرات للتحرش الجنسي من قبل صاحب المحل أو من قبل الآخرين. يمكنك أن تتخيل امرأة فتية وجميلة جدًّا تعمل في سوق كخياطة في محل لتاجر أقمشة، يشتهيها لكنه أيضًا لن يستطيع الاستغناء عنها. أتذكّر أن مدرستنا كانت بعيدة نسبيًّا عن محل سكننا، وعادة يمكن ركوب سيارة الباص أو السيارات الخاصة لنقل الركاب للوصول إليها، لذلك كنت أطلب من أبي أن يعطيني أجرة النقل، لكنه كان يرفض ويرسلني إلى أمي، وكنت أتجنّب الذهاب إليها حيث تعمل، لأن الذهاب إليها يعني المرور بالسوق، وفي السوق كنت أنا ابنة السادسة أو السابعة أتعرّض للمساتٍ مقصودة ومريبة على مؤخرتي، وبعضهم يدخل إصبعه في مؤخرتي بقوة وكأنه يدفع شيئًا في

داخلي، لذلك صرت أذهب إلى مدرستي مشيًا على الأقدام حاملة حقيبتي التي تخلو من أي فطيرة أو شطيرة تؤكل كما يحمل البقية في حقائبهم، بل كنت أحيانًا يكاد يُغمى عليّ من شدة الوهن والضعف بسبب الجوع، لكني مع هذا كنتُ تلميذة ذكية ونبيهة، وكنت أحب الدراسة، فكنتُ من الطالبات المتقدمات في مدرستي، على العكس من أختي التي تركت الدراسة مبكرًا لعدم رغبتها في الذهاب إلى المدرسة والاعتكاف في البيت، وهكذا أخذت أتقدّم في دراستي، فأكملت الابتدائية والثانوية، وكنت أحلم بالحصول على معدل عالٍ يمكنني من دخول كلية الطب، حلم الفقراء بالثراء، لكن سوء حظي جعل من سنة تخرجي هو العام 2003، عام الزلزال المخيف واحتلال بغداد، وفي ذلك العام صار غش كبير في امتحانات البكالوريا، حيث اتضح أن نسبة النجاح كانت ٪100. وفي تلك الفوضى حصلت على معدل ٪91، لذا لم يتم قبولي في الطب وإنما في الهندسة، قسم علوم الحاسبات، ولم أكن أحب هذا التخصص أبدًا، وأتذكّر أنني كنت حين أرجع من الجامعة التكنولوجية أتحول إلى عاملة بناء، حيث قرر والدي توسيع السكن، وبناء غرفة لأخوتي وأخرى لنا، أنا وأختي، لكن دعني أرجع لأحدثك عن طفولتي ومراهقتي.

أدرك آدم الشبيبي أنه أمام امرأة يمكن أن تصنف كمثقفة، فهي مهندسة في الحاسبات وليست امرأة بسيطة تقليدية كما اعتقد في أول الأمر، لذا عليه أن يكون منتبهًا فهي بالتأكيد تعرف نواياه، فقال لها بتملّق وود:

- أتعرفين، أنك تروين حكايتك بطريقة سلسة جدًّا، وجريئة، فليس من السهل أن يتحدث الإنسان بهذه الصراحة عن طفولته، وعائلته.

استمعت لكلماته بانتباه، وقالت مواصلة كلامها:

- أنت لم تسمع الأشياء الأكثر إثارة، وأتمنى ألّا تقطع علينا صديقتي وزوجها هذه الذكريات، فأنا لم أقل لك أي سر من الأسرار بعد، لكن دعني أكمل، ولأرجع لطفولتي القاسية والمؤلمة، أتعرف أن قلبي يتمزق حينما أتذكّر العذاب الذي تلقته أمي على يد والدي، كانت المسكينة حينما ترجع من عملها إلى البيت تجد الضرب من قبل والدي بانتظارها، يجلدها بحزامه الجلدي بسبب أو

من دون سبب، ومع ذلك كانت تحبه، وتخاف منه، كنا ننام في غرفة واحدة، وأتذكر ذات ليلة حينما كنت في السابعة من عمري، في بداية التسعينات، وكانت بغداد تتلقى الصواريخ الأمريكية، صحوت على صوت الانفجارات، كنت خائفة، حينها سمعت لهاث أمي وأبي وهما تحت البطانية، رفعت رأسي قليلًا لأعرف ما يجري، كانت البطانية تصعد وتنزل، ارتبط لهاث أمي الشبق مع صوت انفجار الصواريخ، كنت أفهم أنهما يمارسان الجنس، لكنني كنت أستغرب تعلق أمي به وتوسلها له، وكنت أستغرب منها أنها تحبه مع أنه يضربها بقسوة. أنا كنت الأصغر في العائلة، وكنت أتمنى أن أقتله لأخلّص العائلة من شرّه، فهو يضرب الجميع، ويجلد الجميع بمن فيهم إخواني الكبار، لكن العجيب أن أخوتي حين صاروا شبابًا ناضجين تحولوا إلى نسخة منه، صاروا يمارسون سلطتهم عليّ وعلى أختي، حتى أنهم سعوا إلى أن أترك المدرسة، وهنا أتذكر حسنة وحيدة لوالدي أنه رفض زعيق أخوتي بضرورة تركي الدراسة، لكن أعتقد أنك تنتظر مني أن أتحدث عن أشياء أخرى، أليس كذلك؟

ابتسم آدم الشبيبي لها بمودة وقال بطريقة مؤدبة:

- وما هذا، وكأنك تقرأين أفكاري! نعم، كنت أنتظر أن تكشفي عن أسرار غامضة كما سميّتها أنتِ، لكن هذه الأشياء التي تحدثت عنها اعتيادية وتحدث مع الجميع! ليست أسرارًا غامضة كما تقولين!

نظرت إلى عينيه مباشرة لثوانٍ وقالت:

- أنا أعرف ماذا تنتظر مني أن أتحدث فيه، سأخبرك، لكنها هي أيضًا ليست تلك الأسرار التي أنوي الحديث عنها، (صمتت لثوانٍ، استجمعت إرادتها وواصلت)، اسمع، حينما كنت في السابعة من عمري، حصل ذات يوم أنني زرت بيت عمي الذي كنا نزوره دومًا، كان ابن عمي طالبًا جامعيًّا، في تلك المرة أخذني إلى حديقة المنزل الخلفية، وقال لي تعالي أحملك لتقطفي شيئًا من التوت، كنت فرحة به، فأنا أحب التوت، حملني، لكنني انتبهت إلى أنه وضع إصبعه في إستي وسعى إلى أن يدخله فيّ، آلمني ذلك، وخفت،

فأخذت أصرخ به أن ينزلني، أنزلني وكأن الأمر طبيعي جدًّا وأنه لم يفعل شيئًا خاصًّا، وفي مرة أخرى، ذات ظهيرة صيف، كنت عندهم، والكل نيام القيلولة، أخذني أيضًا إلى خلف الدار وأخرج قضيبه، كان كبيرًا، وكنت لأول مرة أرى قضيبًا كبيرًا وبشكل مباشر، وطلب مني أن أنزع سروالي، حاول إقناعي بأنه لن يؤذيني، لكني خفت، فهربت إلى دارنا، ولم أخبر أحدًا. انتبهت أمي إلى وجهي الشاحب وعودتي في هذه الظهيرة من بيت عمي، فوجدت عذرًا ما حينها ولم أخبر أحدًا. أتعرف، أنا مستغربة من نفسي، فأنا أحدثك أنت عنها، بل لأول مرة أستعيد هذي الذكريات، وأرويها دون تردد لشخص غريب لم ألتقيه إلا قبل ساعات في دمشق؟!

ابتسم لها آدم الشبيبي بمودة وقال وكأنه يشجعها للبوح أكثر:

- ربما أنت فعلًا محتاجة أن تخرجي ما في داخلك من تفاصيل، ربما تشعرين بأنك الآن حرة من المجتمع وتقاليده الصارمة، لا أعرف، لكني متأكد من شيء واحد هو أنك لولا رغبتك في الحديث عن هذه التفاصيل الصغيرة القابعة في بئرك السوداء العميقة لما تحدثت عنها!

نظرتْ إليه مستفسرة وسألت بدهشة:

- بئري السوداء العميقة؟

- نعم، كل منا لديه بئر سوداء عميقة، بئر الطفولة واللا وعي، قرأت ذلك في مخطوطة "متاهة الأنبياء" للكاتب المغدور آدم البغدادي.

- من؟

- آدم البغدادي، الكاتب الذي تم اغتياله في بغداد، كتب روايات مختلفة، نُشرت له رواية "متاهة آدم" لكن صديقه أنقذ بقية مخطوطاته الروائية بعد اغتياله، ووصلت بطريقة ما إلى دمشق، وقد قرأتها، وكنت أقرأ البارحة في مخطوطته الأخيرة "متاهة الأنبياء"، حيث تتحدث إحدى شخصياته والتي اسمها "حواء كازبلانكا" عن البئر العميقة السوداء!

فقالت وكأنها تتحدث مع نفسها:

- متاهة الأنبياء، اسم غريب؟!

- نعم، المهم، يمكنك أن تواصلي حديثك.

نظرت إليه، كانت لديها رغبة في أن تعرف أكثر عن البئر السوداء العميقة، لكنها واصلت حينما استشعرت لهفة مكتومة لمعرفة عالمها الحميمي الخاص، فواصلت:

- انقطعت عن الذهاب إلى بيت عمي، حتى عندما كان أهلي يذهبون كنت أتحجج بأن لدي واجبات مدرسية فيعفونني من الذهاب معهم، ومع أني كنت صغيرة لكني كنت أعرف ماذا تعني علاقة الذكر بالأنثى، كنت أعرف أن يدخل القضيب في الأنثى لا أكثر، لكن كيف؟ لم أكن أعرف التفاصيل. كانت صورة أمي وأبي تحت البطانية ولهاثهما وتوسل أمي له ماثلًا في ذهني، لكني عرفت التفاصيل وبشكل إباحي صادم حينما كنت في الإعدادية، حينما اشترى أخي جهاز لتشغيل الأقراص المدمجة والأفلام، وكان أخي مهوّسًا بالأفلام الجنسية، لكنه كان يقفل عليها في خزانته بالمفتاح، لم أكن حتى ذاك الحين أعرف شيئًا عن رغباتي الجنسية، لا، لدي الرغبة، لكني كنت انطوائية وأخاف أن ألمس نفسي وجسدي، كنت أتخيل بأني ما أن ألمس ما بين فخذي حتى أفقد غشاء البكارة، وعندها سيذبحني أبي، تصور وأنا في ذلك العمر المراهق كنت أحمل تلك الأفكار الطفولية عن الجنس، شبقي ورغباتي العارمة جعلت مني انطوائية، لا صديقات لديّ في المدرسة، كنت منكسرة، وكأني إذا ما فكرت في الجنس فكأني عملت فعلًا حرامًا، حتى حينما بلغت نضجي وجاءتني الدورة الشهرية، كنت أعرف عنها من أختي التي تكبرني بأن الفتاة حين تبلغ عمرًا محددًا ينزل الدم منها شهريًّا وتسمى بالعادة الشهرية أو الدورة! (صمت للحظات، ثم واصلت)، لكن كما أخبرتك كنا نعيش في غرفة واحدة، وإلى أن بلغت الجامعة تحسنت أحوال والدي، فأخذ يبني لنا غرفًا خاصة بنا، لذا حينما كنت مراهقة كنت أستمع لأمي وأبي وهما يمارسان، وكنت أشتعل رغبة، ولم أكن أعرف كيف أروي جسدي، أو ماذا يفعل أبي بأمي بالتفصيل! كنت حين يمارسان أتهيج وأشعر بأن ثمة هوة وفراغ بين فخذي يريد الامتلاء، والردم، والسحق بقوة! أختي كانت تختلف عني، كانت حشرية وفضولية جدًّا، ذات

مرة كان أخي غائبًا ففتحت خزانته بطريقة ما وأخرجت الأقراص المدمجة، استغلت غياب أمي وأبي وبقية أخوتي، ودعتني لمشاهدة أحد الأفلام، صدقني يا أستاذ آدم، إلى الآن، وبعد مرور كل هذه السنوات لا يزال ذلك الفيلم الأول الذي شاهدته ماثلًا بكل تفاصيله في ذاكرتي، حينها جننت من رؤيته، بل إنني تقيأت أيضًا، كانت المرأة تمص قضيب الرجل الذي معها، بينما أنهى هو شهوته على وجهها. لم أستسغ المشهد، تقيأت، لكنني شاهدت المرأة فيما بعد تداعب فرجها، وتتأوه، ولا إراديًّا أخذت أقلدها، وفعلت مثلها، كف في الأسفل وكف على نهدي، وكانت الكارثة العظيمة، وجدت نفسي أترطب، بل نزل ماء هائل مني، وشعرت نفسي في السماوات العُلى من اللذة. لذتي أوصلتني إلى حد الإغماء تقريبًا. لم أصدق أي باب من أبواب الجنة قد فتح لي، أو بدقة أكبر أي بوابة للجحيم ولجت، فقد صرت مدمنة العادة السرية، أمارسها في اليوم أكثر من عشر مرات، كنت كل ربع ساعة أو نصف ساعة أذهب للحمام لأداعب نفسي، وهكذا يوميًّا منذ السابعة عشر من عمري وحتى الخامسة والعشرين، بل وإلى الآن، إلى أن وصل الإدمان بي بحيث صرت لا أشعر باللذة حتى لو داعبت نفسي ووصلت، صرت مدمنة، كنت أفعلها في الحمام، وأثناء القراءة، ولم أتوقف عنها حتى بعد أن تمت خطوبتي. العادة السرية ساعدتني على ألّا أنجرّ لعلاقات مع الشباب في الكلية، ولا أن أبحث كثيرًا في أحاديث الجنس مع الفتيات، لكنها أيضًا دمرت حياتي الزوجية!

في تلك اللحظات شعر آدم الشبيبي بالانتعاظ، وتخيل جسد المرأة التي تحدثه، وما بين فخذيها، أحس بدفقات الشبق توتره من الداخل، لكنه حاول أن يكتم كل شيء ويبدي لا مبالاته بالحديث وكأنه أمر طبيعي كي يشجعها إلى أن تتوغل أكثر، فقد انتبه إلى أنها أخذت تتهيج وهي تستعيد ذكرياتها، نبرة صوتها تهدّجت، ولكي يستكمل خطته في دفعها للبوح سألها:

- هل خُطبت أثناء دراستك الجامعية أم بعدها!

واصلت هي وكأنها لم تسمع السؤال أو كأنه سؤال عابر:

- خطبت بعد التخرج، كنت لا أستطيع السيطرة على نفسي حين أكون مع

خطيبي، أبتل، أتهيج، وأحيانًا كنت بحضوره أستأذن، أذهب لغرفتي أو إلى الحمام أمارس العادة السرية وأصل لذروتي ثم أعود. مشكلتي كانت أنني أترطب بل وأبتل بكثافة، ويسيل مائي عند التهيج، بل وأتهيج بسرعة جدًّا، وكان خطيبي يأتي مرة واحدة في الأسبوع، لكن أخوتي الحقراء لم يتركونا، كانوا دائمًا يتواجدون معنا، وطالت خطوبتي لسنة ونصف لأنه لم يكن متأهلًا للزواج، كان أخوتي يتناوبون الأدوار في التواجد معنا أسبوعيًّا وحراستنا، لكن على الرغم من ذلك حصلت مرة أن أيًّا من أخوتي لم يكن في البيت، وجاء هو وكنت وحدي. كنت قبلها بيوم قد نظفت جسدي، وتلك المنطقة بالتحديد، فجاءتني فكرة غريبة ومجنونة، قلت لك أنا مريضة نفسيًّا، لأنه في تلك المرة الوحيدة التي أتيحت لي أن أكون مع خطيبي دون رقيب عملت شيئًا غير متوقع، هو أيضًا لم يكن يصدق أن أكون وحدي معه، كنت حينها ألبس دشداشة بيتية قصيرة لونها أخضر، أخضر فاتح، فأخذ يحضنني ويبوسني، عندها قلت له سأريك شيئًا خاصًّا بشرط ألّا تلمسه، وطلبت منه أن يجلس على الصوفا المقابلة، فجلس، وجلست قبالته، فتحت فخذي، ونزعت كلسوني، وحين رأى ما بين فخذي جُن جنونه، فقفز عليّ، داعبه بأصابعه، وألقاني على الصوفا، وأخرج قضيبه وأخذ يداعبني، لم يدم الأمر أقل من دقيقة حين سمعنا حركة وضجيجًا عند الباب الخارجي، ومن حسن الحظ استطعنا أن نتدارك الأمر، إذ دخل أحد أخوتي، لكنه لكي يتدارك الانتصاب الواضح لقضيبه وضع وسادة الصوفا الصغيرة على حجره، الغريب أن خطيبي انتبه أثناء محاولته مداعبتي لكثرة السوائل في فرجي، حتى أنه سألني عن السبب، فلم أعرف بماذا أجيبه، استحيت، إلى أن تزوجت! وبقيت أمارس العادة السرية حتى بعد الزواج، ولم أكن أرتاح من الممارسة الفعلية، وهاي قصة ثانية!

كانا مستغرقين في الحديث وكأنما لم يكونا جالسين في مقهى، وكأنما هما خارج المكان، وفي تلك اللحظة انتبه هو إلى دخول صديقه آدم أبو التنك وزوجته، كان كل منهما ينظر إليه وهما مقبلان بتفحص وكأنما يستقرأن ما جرى خلال غيابهما.

غيّر آدم الشبيبي على الفور ملامحه وانفصل عن المشهد الذي كان يعيشه في خياله

قبل لحظات، ابتسم للقادمين، انتبهت حواء العذابي للتغير المفاجئ في ملامحه ونظراته المرتبكة الشاردة ومحاولته لتغيير الجو، فالتفتت بسرعة لترى صديقتها وزوجها قادمين، فقالت لهما وهما على بعد أمتار منهما بنبرة فيها عتاب:

- أين كنتما؟ لقد تأخرتما.

لم يدرك آدم أبو التنك ولا زوجته حقيقة الوضع بين الاثنين، فكأنما لم يحدث شيئًا مهمًّا، ومع ذلك انتبها لشيء من الدفء والحرارة في تواصلهما، إذ زال الخجل والارتباك الذي كان عند تركهما لوحدهما، لكنهما لم يتخيلا طبيعة ما دار من حوار! أما آدم الشبيبي وحواء العذابي فقد تبادلا النظرات التي أكدت الأسرار التي صارت بينهما، مع وعد مكتوم بمواصلة الحديث الحميم.

***

جلس آدم بوناروتي على الصوفا منهكًا، فقد بدأ رسم لوحة جديدة صباحًا منذ لحظة استيقاظه واسترجاعه لنص الأنشودة السادسة والعشرين من جحيم دانته التي هي موضوع ملحمة الأوديسة لهوميروس، تأمل لوحته التي رسمها بشكل محموم، فانتبه إلى أنها تحيل المتلقي العارف بالفن إلى رسام روسي معروف بلوحاته عن عالم البحار والسفن الغارقة والموج العاتي، "نعم، نعم، آفيزوفسكي، لكن كيف حدث هذا؟ ومن أين جاء هذا التأثير المباشر! علمًا أني رأيت ألبومًا للوحات هذا الفنان الروسي حينما كنت طالبًا في أكاديمية الفنون ببغداد! كيف صعدت من أعماق اللا وعي إلى منطقة الأحاسيس الجمالية عندي، بينما أركّز على محنة أوديسوس وهو في غياهب التيه المائي!"، ظل يتأمل اللوحة وكأنها ليست لوحته، وشعر برضا عن نفسه لهذه الشرارة التي أشعلت طاقة كامنة في أعماقه، فمنذ فترة ليست بالقصيرة وهو منشغل برسم البورتريهات، ربما بتأثير انغماسه بالتخطيطات والبورتريهات التي هي مصدر رزقه اليومي في ساحات فلورنسا!

نهض عن الصوفا، توجه إلى المطبخ، لكنه قبل أن يخطو داخل المطبخ انتبه إلى عقارب تملأ المطبخ، وثمة أفعى كوبرا تلتف على مقبض الثلاجة رافعة رأسها، متأهبة، وهي تنظر للعقارب التي كانت تدور في حركة دائرية وكأنها تحاول أن تتسلق باب الثلاجة وصولًا إلى الأفعى التي بدت خائفة ومتأهبة للهجوم!

مسك مقبض الباب، وخلال تراجعه مرعوبًا، أغلق الباب معه. وقف خائفًا من هول الصدمة، أخذ يتنفس بصعوبة، لم يصدق ما رآه، وسأل نفسه: "لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا، من أين جاء هذا الحشد من العقارب؟ وكيف صعد إلى شقتي؟ ولماذا في المطبخ؟ ومن أين جاءت هذه الكوبرا؟ ولِمَ كوّرت نفسها حول مقبض الثلاجة؟ ولِمَ بدت خائفة من العقارب؟ ما الذي يجري! لا، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا أبدًا"، أراد أن يتأكد، وبحذر شديد مسك مقبض الباب وفتح الباب بهدوء، صُدم حينما لم يجد شيئًا، لا العقارب ولا الأفعى الملتفة حول مقبض باب الثلاجة، ظل يتأمل المطبخ ويجول بنظراته في جدرانه ونافذته المطلة على الشارع، فربما تسلقت الجدران أو خرجت من النافذة، لكن النافذة كانت مغلقة والجدران عارية!

تجرأ قليلًا ودخل المطبخ، أحس أن ما رآه لم يكن إلّا كابوسًا من كوابيس اليقظة! مدّ يده بحذر إلى مقبض الثلاجة، وكأن الأفعى ملتفة على نفسها هناك، فتح الباب بحذر أيضًا، غمرته راحة خفية حينما وجد الثلاجة مثلما تركها قبل ساعات!، أطبق باب الثلاجة، لم يأخذ شيئًا وإنما التفت إلى خزانة جانبية وأخذ منها علبة القهوة، واستدار إلى حيث الدلّة النحاسية لإعداد القهوة، أخذها ووضعها تحت صنبور حنفية الماء، أوقد الطباخ الغازي، أخذ دلّة القهوة ووضعها على عين اللهب، خرج إلى الصالة، وقف أمام اللوحة متأملًا. فجأة انبثقت أمام عينه الداخلية صورة الكوبرا الملتفة حول مقبض باب الثلاجة، واتته رغبة في أن يرسم أفعى ماء كبيرة تبدو من خلال الموج، ولا يظهر منها في اللوحة سوى رأسها، لكنه أبعد هذه الفكرة، وقال لنفسه بأنه من الأفضل في هذه الحالة إدخال ثعبان هائل الحجم على موضوع اللوحة وكأنه يريد التهام أوديسوس ورفاقه!

قطع عليه تأملاته الجمالية صوت غليان الماء في الدلّة النحاسية، فأسرع إلى المطبخ، وضع ثلاث ملاعق كبيرة من مسحوق القهوة في الدلّة، ووقف إلى حين انتهاء إعداده لها. وحين صارت جاهزة أطفأ الطباخ، سكب كمية كبيرة من القهوة في كوب كبير، وضع عدّة القهوة جانبًا، وعاد إلى الصالة وهو يحمل كوب القهوة، جلس على الصوفا متأملًا اللوحة التي أنجزها في ساعات!

***

دخلت حواء ذو النورين إلى القاعة المخصصة للفطور الصباحي، وقفت عن الباب، فتشت بعينيها عن طاولة فارغة، فجأة توقفت نظراتها عند طاولة فارغة في زاوية القاعة فتوجهت إليها. أحد الموظفين الذي كان يرتدي بدلة أوروبية سوداء، والذي بدا وكأنه المسؤول على سير الخدمات في المطعم لأن لباسه يختلف عن لباس بقية العاملين في المطعم، اقترب الرجل منها لحظة جلوسها، رحب بها بالفرنسية ثم بالعربية فأجابته على تحيته بالعربية، امتعض الرجل قليلًا لأنه أدرك أنها عربية وليست أجنبية! قال لها موضحًا بأن البوفيه مفتوح وأنه هنا في حال احتاجت لأي شيء! شكرته على لطفه، تركت حقيبتها اليدوية على الطاولة ومضت إلى حيث يقف البعض فيما يشبه الطابور المتحرك، أخذت صحنًا كبيرًا وبدأت تنتقي ما تحب من طعام، وفي نهاية البوفيه كان ثمة شاب متخصص في عمل الأومليت لرواد المطعم، وكانت ثمة امرأة أوروبية تقف أمامها، طلبت أومليت بالطماطم والخضراوات والبصل، وبعد لحظات كان جاهزًا، أخذت تنظر للطريقة السريعة التي كان الطاهي يقدم بها الأومليت، وحين جاء دورها طلبت الأومليت مع الطماطم والخضراوات دون بصل!

عادت لطاولتها وهي تحمل صحنًا كبيرًا فيه أجبان وزيتون وبعض السلطة وحلوى مغربية تشبه الشكولاتة بالجوز كان الجميع يأخذ منها فأرادت أن تجربها أيضًا، وباليد الأخرى تحمل صحنًا صغيرًا فيه الأومليت.

لم تكن جلست وفرشت المنديل الأصفر على حجرها لتبدأ الأكل حتى انتبهت لوجود رجل عند الطاولة يطلب السماح لها بأن يجلس فلا أماكن شاغرة في المطعم، حين رفعت رأسها سرت قشعريرة في جسدها، فقد كان الرجل الأشقر الوسيم يبتسم لها بلطف آخّاذ منتظرًا ردّها للسماح له بمشاركتها الطاولة! ارتبكت، ولم يكن أمامها سوى أن تومئ برأسها علامة على الموافقة.

في تلك اللحظات فكّرت بشكل سريع مع نفسها، بأن الرجل لم يؤذها أبدًا، ولم يسِئ التصرف معها، ثم مَن قال لها إنه الشخص نفسه الذي رأته في دمشق وفلورنسا وباريس! يستحيل أن يكون هو نفسه!

جلس الرجل الأشقر الوسيم على الكرسي المقابل، كان في صحنه بعض الفواكه، جبن وعنب، وصحن صغير من الشكولاتة بالجوز، فرش المنديل على ركبتيه، وأخذ

قطعة من الخبز المحمص الموجود في السلة وأخذ سكينًا مخصصًا له فمسح الشكولاتة على ظهر قطعة الخبز. كانت هي منشغلة بفطورها لكنها كانت تنظر إليه بطريقة غير مباشرة، وفي تلك اللحظات جاء الرجل المشرف على خدمات المطعم يسألهما عمّا يرغبان بشربه متوجهًا بكلامه إلى الرجل الأشقر الوسيم، القهوة أو النسكافيه أو الشاي المغربي الأخضر (التاي)، ابتسم له وقال إنه شخصيًّا يفضل الشاي الأخضر (التاي)، وأشار إلى حواء ذو النورين وهو يقول لموظف المطعم بأن يسأل المدام عما تحب أن تشرب، رفعت رأسها بارتباك وطلبت كأسًا من عصير البرتقال.

كانت وهي تواصل أكلها تشعر بأنه سيفتح حديثًا معها، وهي تنتظر هذا الحديث دون أن تعرف كنهه وإلى أين سيقود، لكنها دخلت وضعًا نفسيًّا بحيث صارت تحسب الثواني متوقعة أن يبدأ الكلام معها، وفعلًا، لم تمض سوى لحظات حتى سمعته يقول وكأنه يحدّث نفسه بصوت واضح ومسموع، لكنها عرفت أنه يريد أن يُسمعها ما يقول:

- أنا الدربُ والدليلُ، أنا المرشدُ والطريق، أنا طريقٌ بلا دليل، ودليلٌ أنا يبحث عن طريق!

صمت للحظات، ثم رفع رأسه عن صحنه ونظر إليها، حدّق في عينيها بتركيز، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وخدر بارد حل على نفسها، ووجدت نفسها تسأله:

- عفوًا، حضرتك تحدثني؟!

ابتسم لها بمودة وقال:

- آسف لإزعاجك، أنا كثيرًا ما أتحدث مع نفسي بصوت مسموع، أسير وأحدث نفسي، لا أكف عن التفكير والبحث لحظة، من يراني يظنني مجنونًا، وقليلون جدًّا مَن يرونني.. الذي يحب أن يراني سيراني، والذي لا يفكر بي ويهرب من رؤيتي لن يراني، ومع ذلك يراني دون أن يراني!

أطرقت للحظات برأسها صامتة وكأنها تحاول أن تفسّر كلامه، رفعت رأسها وقالت له وكأنها تهمس:

- لكن كلامك غير مفهوم، وكأنه ألغاز.

ابتسم لها وكأنه يقرأ قلقها بل وخوفها منه وشكّها فيه، ثم قال:

- أنا مشغول بذاتي، بلغز وجودي، أنا موجود في جسدي دون إرادتي، فهو ينام دون إرادتي، ويستيقظ دون إرادتي، يجوع ويعطش ويرغب دون إرادتي ورغبتي، هل أنا هذا الجسد! أنا لا أستطيع مقاومة الجوع، ولا العطش، والجنس حسب الإمكان، من أنا..؟ أعرف أنها أسئلة ليست جديدة، لقد توقف عندها الحكماء والنُّساك والزُّهاد، زرادشت وبوذا، الحلّاج، وابن عربي، السهروردي وهرمان هيسه، نيكوس كازانتزاكي ونجيب محفوظ، لكن كل أجوبتهم ورؤاهم لم تزدني إلّا حيرة! هم يقولون إن الله في داخلنا، هل الله داخل الشيطان أيضًا..؟ هم يقولون إن "اتمان" أو "الله" أو " الروح الكوني" أو " كامي" في داخلنا! لكننا نموت، فهل يموت الله في داخلنا حينها ..؟ أم هو الحياة واللا حياة أيضًا؟!

كانت هي تحاور نفسها: "من هذا الرجل الذي يتحدث وكأنه خارج الزمان والمكان! يتحدث وكأنه قديس، بوذا، فهو مثله، مهيمن دون إرادة، أو تظاهر، أو ألقاب، أو صلاة أو ادعاء بمكانة ربانية! من هو؟"، ووجدت نفسها تسأله لتتأكد من شكّها ويقينها، فسألته:

- عفوًا، ألم نلتق نحن في أماكن أخرى؟

ابتسم بطريقة تشي باللا جواب، فلا هي تأكيد ولا نفي، وقال شيئًا غامضًا:

- نحن، في العالم المرئي مثل لعبة فيديو بيد اللا مرئي، نحن رقعة شطرنج كوني بيد الواحد الأحد الذي يلعب مع نفسه، (صمت لثوانٍ، ثم واصل)، أتعرفين، أحيانًا الأوهام تكلّف الإنسان حياةً كاملة، لكن الأوهام مع ذلك تجعل الحياة ممكنة، الحياة هي الجحيم حينما تخلو من الأوهام، الوهم يجعل لوجودنا معنى ويمنحنا الإحساس بالوجود، بالوجود والحياة، لكن ما هي الحياة في جوهرها، الحياة هي الذاكرة، وما نسميه الحياة هو تدفق للزمن في بئر الذاكرة، نحن دائمًا هنا، وفي مكان آخر، الحياة هنا دائمًا، وهي في مكان آخر مجرد احتمال!

استمعت لكلامه بانتباه، لكنها لم تجد أية إجابة لسؤالها، فقالت:

- لكنك لم تجب عن سؤالي إن كنا قد التقينا في مكان ما، فأنا أظن أننا التقينا في دمشق، أظن في فندق "الشام"، أو التقينا في فلورنسا في لوبي أحد الفنادق

هناك أيضًا، وفي باريس في بناية بشارع سانت دينيس، وأمس رأيتك في المطار حين وصلت مراكش! كيف يمكن أن تكون في جميع الأماكن حيث أكون! وكأنك تلاحقني؟! وكذلك...

قاطعها مبتسمًا وقال بهدوء:

- ألم أقل لك قبل قليل، قليلون جدًّا مَن يرونني، الذي يحب أن يراني سيراني، والذي لا يفكر بي ويهرب من رؤيتي لن يراني، ومع ذلك يراني دون أن يراني!

نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف بماذا يفكر هذا الكائن الغامض، فقالت بنبرة فيها حدّة مكتومة:

- ومع ذلك، فهذه ليست إجابة!

نظر إليها وكرّر قوله:

- أنت أحببت أن تريني فرأيتني! أنا موجود حينما يفكر الآخر بي، أنا أعيش لكني لا أنتمي للحياة، أو بدقة أكبر أنا أحيا لكني لا أعيش!

- هل هذه حزورة! لغز الألغاز! لا أريد منك الإفصاح عن شخصيتك، وإنما أريد أن أثق بنفسي وذاكرتي وفراستي، لذا سألتك إن كنت نفسك ذاك الذي قابلته في فندق "الشام" بدمشق، وفندق "رووم ماتا ـ لوكا" في فلورنسا، وفي إحدى البنايات بشارع سانت دينيس بباريس، وكذا البارحة في مطار مراكش ـ المنارة، أنا متأكدة من ذلك، هل أنت هو، وكيف نتواجد كلانا في الأماكن نفسها؟!

نظر الرجل الأشقر الوسيم بهدوء وانتباه وكأنه كان يتوقع ما قالته وينتظر كلامًا آخر يتوقعه، وحينما لم تكمل كلامها قال لها بنبرة فيها لا مبالاة ويأس:

- ليس هنا سوى الحاضر، ما كان قد كان، أنا لست هو، وأنا ربما كنت هو في الوقت نفسه، أعرف لماذا أنت هنا، وممَ أنت هاربة!

صُدمت من كلامه، فردت بنبرة فيها حدة واضحة:

- أنا لست هاربة من أحد.

فقاطعها بهدوء:

- لم أقل إنك هاربة من أحد، وإنما أنت هاربة من نفسك، وذاكرتك، وماضيك،

تبحثين عن الخلاص في مغارة السحرة أو عند الشيخ المبارك صاحب الكرامات!

ارتسمت ملامح الدهشة والاستغراب على وجهها، وفكّرت مع نفسها "كيف له أن يعرف عن عالمي الداخلي وعن نواياي! هذا يؤكد أنه هو الذي التقيته في تلك الأماكن المختلفة!"، ارتبكت، مدّت يدها لكأس العصير، أخذت ترتشف منه كي تخفي صدمتها وارتباكها، بينما كان ينظر إليها بطيبة وكأنه يعرف أنها صُدمت وأنها تحاول أن تخفي ارتباكها!

في تلك اللحظة أقبل الموظف المسؤول واقترب من الطاولة وانحنى بتملق نحو الرجل الأشقر الوسيم قائلًا بنبرة فيها خضوع واحترام أقرب للتملق المذل:

- سيدي، ثمة اتصال هاتفي لك، هناك من يطلب حضرتك!

نظر الرجل الأشقر الوسيم إلى موظف الخدمة في المطعم، حدّق في عينيه وكأنه يقرأ ما لم يُقال، ثم طوى المنديل ووضعه على الطاولة، نظر إلى حواء ذو النورين مستأذنًا، وغادر الطاولة قبل أن تقول هي شيئًا.

كانت ترتشف العصير حينما جاء موظف الخدمة في المطعم، ظلت ماسكة بالكأس دون أن تشرب لكنها تتنصت للحوار بينهما، لذا حينما نظر الرجل الأشقر الوسيم إليها وهو ينهض عن كرسيه واصلت ارتشاف العصير بطريقة سريعة حتى كادت تغص به، وحين وضعت الكأس على الطاولة كان هو قد غادر!

انتبهت حواء ذو النورين حين ألقت نظرة الى صحن الرجل الأشقر الوسيم إلى أنه فارغ تمامًا ولا أثر لأي طعام عليه، استغربت ذلك، فقد رأته يضع شوكولاتة الأوملو على قطعة الخبز المحمص، لكن ها هو السكين نظيف ولا أثر لأي استخدام عليه، موضوع إلى جانب الصحن، والمنديل مرتب وينتصب عند الصحن أيضًا، لكنها وجدت خاتمًا يتوسطه حجر أخضر جميل موضوع على الطاولة إلى جانب الصحن الفارغ، أحسّت بالتشويش في أفكارها قليلًا، أنهت طعامها بسرعة، وحين قامت لتغادر المطعم أخذت الخاتم معها وفتشت بنظراتها عن الموظف المسؤول عن الخدمات في المطعم، فلم تجده، فجأة لمحته وهو يحمل صينية فيها فواكه مختلفة، وضعها على الطاولة، اقتربت منه، أخبرته وهي تريه الخاتم بأن الرجل الأشقر الوسيم ربما نسيه حينما جاء ليخبره بأن

هناك من يطلبه على الهاتف، نظر الرجل إليها وعلامات التعجب والاستغراب وعدم الفهم مرتسمة على وجهه، قال لها إنه لم يفهم شيئًا وطلب منها إعادة سرد الحكاية كي يفهم، أعادت له الكلام بشيء من التفصيل!

صُدمت حواء ذو النورين بجواب الرجل ذي البدلة السوداء، فقد أخبرها بأنه لم يرَ أي رجل أشقر وسيم يشاركها طاولتها، كما أنه لم يقترب من طاولتها قط، ولم يكن أحد معها حول الطاولة، لكنها أكدت له حكايتها وللتأكيد أرته الخاتم، وهي تقول له: لكن هذا الخاتم كان موجودًا على الطاولة! نظر إليها وكأنه ينظر إلى امرأة غير سوية، لم يعرها بالًا ومضى، بقيتْ واقفة للحظات، ثم غادرت المطعم والخاتم في يدها!

كانت مصدومة، بل وغاضبة من تصرف الرجل ووقاحته وطريقة تعامله معها بحيث تركها وذهب، وفي طريقها إلى المصعد وضعت الخاتم في حقيبتها، وقبل أن تدلف إلى الممر القصير حيث المصاعد، نظرت إلى صالة الاستقبال عسى أن ترى الرجل الأشقر الوسيم على الصوفا كما رأته حين وصولها، لكن لم ترَ أحدًا!

حين دخلت غرفتها كانت لا تزال غاضبة، مضت مباشرة لتجلس على حافة السرير، وأخذت تستعيد كل ما جرى منذ لحظة مغادرتها الغرفة والنزول إلى المطعم للفطور. فجأة استذكرتْ الخاتم، أخذت حقيبتها، أخذت تفتش عن الخاتم، لم تعثر عليه، قلبت الحقيبة بكاملها فلم تعثر عليه! أحست بالهلع، ما الذي يجري معها، هي متأكدة من أنها وضعته في الحقيبة فكيف اختفى؟! فجأة مرق في ذهنها فكرة أن تنزل إلى المطعم لتسأل الموظف المسؤول عن الخدمة فربما كانت قد أعطته إياه ولم تنتبه على الرغم من يقينها بأنها وضعته في حقيبتها! نهضت عن السرير وغادرت الغرفة.

دخلت المطعم، وقفت عند البوابة العريضة وهي تفتش في قاعة الطعام، كانت القاعة فارغة، وبعض الموظفين بملابسهم الوطنية المغربية ينزعون الشراشف عن الطاولات، ولم يكن الرجل المعني بينهم، اقترب منها أحد هؤلاء الموظفين سائلًا إن كان يستطيع أن يقدم لها أية خدمة، أخبرته أنها تبحث عن الموظف المسؤول عن الخدمات، فأجابها الرجل بأنه هو الموظف المسؤول، فأكدت له وجود موظف آخر ببدلة سوداء أوروبية، وأعطته وصفًا دقيقًا له، فنفى الموظف المسؤول وجود أي شخص بهذه المواصفات!

جواب الموظف المسؤول زادها حيرة، عادت راجعة إلى غرفتها قلقة، أحسّت أنها ربما تتوهم أشياء غير واقعية!

دخلت غرفتها نزعت ملابسها، بقيت في كلسونها، دخلت ثانية إلى غرفة الحمام، وقفت تحت دش الماء، وفتحته، وظل الماء ينهمر عليها وهي صامتة، ومفتوحة العينين، وتتخيل بأن الرجل الأشقر الوسيم ممكن أن يدخل غرفة الحمام عاريًا ليكون معها! هي شبه متيقنة بأن هذا الأمر سيحصل بطريقة ما غامضة ككل شيء غير متوقع يجري في حياتها منذ سنوات!

***

انقضى النهار في التجوال لساعات بسوق الحميدية وزيارة الجامع الأموي والسير في الأزقة الخلفية المؤدية إلى باب توما، وبتناول الغداء في مطعم بمنطقة الصالحية، والعودة لمقهى الروضة!

أرادت حواء العذابي الحصول على رقم هاتف سوري فمضت حواء الفارسي معها من أجل شراء شريحة للهاتف النقال، كان الوقت قد تجاوز فترة العصر وبدأ الغروب يتسرب بعتمته إلى الطرقات، اشترى آدم أبو التنك وزوجته بعض المواد الغذائية كي يهيئوا لأنفسهم وجبة العشاء في البيت.

ما أن دخلوا البيت حتى رنّ هاتف آدم الشبيبي. ألقى نظرة سريعة على شاشة الهاتف النقال، ارتبك، انزوى عنهم قليلًا، لم يجلس في الصالة وإنما انزوى في الباحة قرب الباب الخارجي، أخذ يتحدث بصوت خافت، ارتسمت ملامح التساؤل على وجه حواء العذابي، بينما كان آدم أبو التنك وزوجته يدركان بأن المتصل هي حواء الزياني! انتبه الجميع إلى نبرته التبريرية، لكن حواء العذابي لم تعرف هوية المتصل!

حين أنهى اتصاله كانت حواء الفارسي في المطبخ وصديقه منهمك بتشغيل التلفزيون والانتقال بين المحطات. وحدها حواء العذابي كانت تنظر إليه لتعرف سبب ارتباكه من هذا الاتصال!

كان النهار الذي قضياه معًا قربهما من بعضهما، لذا ما أن جلس على الصوفا التي يتخذ منها سريرًا للنوم حتى سألته:

- هل حصل شيء ما عكّر مزاجك؟!
- لا أبدًا.

ومع أن حواء الفارسي كانت منشغلة في المطبخ بإعداد العشاء إلّا أنها كانت تتنصت على حديثهما بغيرة مكتومة، سألت نفسها مستغربة "ماذا أريد بالضبط؟ ألم أتركهما اليوم وحدهما كي يقتربا من بعضهما؟! ألم أحاول الابتعاد عنه كي أتجنب السقوط في هاوية اللذة المحرمة! لماذا إذن أغار من حديثهما العادي؟!" فجأة وجدت نفسها تنادي صديقتها:

- هل يمكنك مساعدتي يا حواء..هل يمكنك أن تحملي الصحون وتعدّي الطاولة!

نظرت حواء العذابي إلى آدم الشبيبي نظرة فيها عدم ارتياح من دعوة صديقتها، وأدركت بحسها الأنثوي بأن صديقتها تغار منها، فاتجهت إلى المطبخ وهي تسأل نفسها: "لماذا تغار؟ ألم تتركنا اليوم وحدنا من أجل أن نتعارف أكثر؟! فلو كانت تغار عليه وبينهما شيء ما لما تركتني معه؟! كما أنها حرضتني بطريقة غير مباشرة أن أوثّق علاقتي به لأنه إنسان طيب، فلماذا الآن لم تصبر أن أكمل معه جملتين على بعضهما؟!".

توقف آدم أبو التنك عند قناة عراقية وهي تبث تفاصيل انفجار هائل وقع في منطقة الكرادة ببغداد وراح ضحيته المئات من الأبرياء الذين احترقوا ولم يبق لهم أثر سوى رماد وبقايا عظام هشة. شدّ الخبر انتباههما، وفجر الغضب المكتوم في أعماقهما، قال آدم الشبيبي بنبرة غاضبة مليئة بالاحتجاج:

- أتعرف، حينما يحاول البشر أن يصفوا شيئًا بالشراسة والخروج على القوانين يقولون هذا قانون الغاب! لكنهم ينسون ويتناسون بأنه حتى الغابة يحكمها "قانون" هو قانون الغاب! وهذا "القانون" ليس كما يفهم عادة بأنه البقاء للأقوى، والعنف، والنهب والسلب، والبطش، وإنما هو الحفاظ على الغابة والدفاع عنها، والاكتفاء عند الشبع، وتوفير إمكانية البقاء حتى للضعفاء فيها! لكن العراق بلد لا يسوده أي قانون، بلد خارج على القانون، حكومة خارج القانون، وشعوب خارجة على القانون. بلد قوانينه فاسدة، قضاته فاسدون، سلطته التشريعية فاسدة، حكامه فاسدون، لولا فساد الشعب لما انتخب

هؤلاء الأوغاد والقتلة! هؤلاء القتلة يصفّون حساباتهم مع بعضهم من خلال قتل الناس والأبرياء والتفجيرات في مناطق نفوذ الطرف المُعادي لكل منهم! شعوب مُنحطة تنتج ثقافة منحطة ونخبة سياسية أكثر انحطاطًا، للغابة قانون، لكن هذا بلد لا يرقى حتى إلى أن يكون غابة!

نظر آدم أبو التنك إليه محرجًا، هو يتفق معه في معظم ما قاله عن العراق لكنه بحكم انتمائه الأيديولوجي الشيوعي لم يستطع ألّا يعترض على هذا التعميم الذي مسّ مفردة مقدسة لديه هي "الشعب"، لذا قال له بنبرة فيها اعتراض خفي:

- لا توجد شعوب منحطة، وحتى إن وجد شعب ما هكذا فهو شعبنا.

انتبه آدم الشبيبي لاستياء صديقه الخفي مما قاله فأراد أن يخفف من وقع كلامه فقال له:

- هؤلاء الأوغاد لم يأتوا إلى الحكم عن طريق الانقلابات وإنما عن طريق الانتخابات، ومهما شككنا في الانتخابات وتزويرها إلا أنها تبقى انتخابات "ديموقراطية" بين قوسين، وهذا يعني أن الشعب العظيم هو من انتخبهم، فمن المسؤول؟!

المرأتان اللتان أقبلتا من المطبخ، إحداهما تحمل الطعام والأخرى تحمل الأطباق، قطعتا هذا الحوار الذي كاد أن ينتهي بتوتر بين الصديقين، وكانتا قد انتبهتا للتوتر الخفي بين الرجلين فقالت حواء الفارسي لزوجها:

- ممكن أن تغلق التلفزيون لنتعشى بسلام وهدوء بعيدًا عن كل العنف الذي سمّم حياتنا حتى ونحن في بلدان أخرى!

أغلق آدم أبو التنك التلفزيون بينما دمدم آدم الشبيبي بصوت مسموع مقطعًا من قصيدة للشاعر كفافيس:

**لن تجد بلدانًا ولا بحورًا أخرى،**

**ستلاحقك المدينة وستهيم في الشوارع ذاتها،**

**وستدركك الشيخوخة في هذه الأحياء بعينها،**

**وفي البيوت ذاتها،**

**سيدب الشيب إلى رأسك،**

**ستصل على الدوام إلى هذه المدينة،**

**لا تأمل في بقاع أخرى،**

**ما من سفين هنا من أجلك،**

**وما من سبيل.**

**وما دمت قد خرّبت حياتك هنا،**

**في هذا الركن الصغير،**

**فهي خراب أينما كنت في الوجود.**

خيّم صمت على الجميع وهم يستمعون لآدم الشبيبي وهو يقرأ مقطع القصيدة بخشوع وابتهال وكأنه يعلن ما يتضمنه قدرهم جميعًا، أحست حواء الفارسي بقشعريرة برد مسّت روحها، بينما شعرت حواء العذابي وكأنما هو يوجه الكلام لها فسرت كآبة وحزن شفيف في نفسها.

***

قضى آدم بوناروتي نهاره وهو يجري لمسات فنية على لوحته، صباحًا كان ينوي الخروج للعمل، أخذ عدّة الرسم، ووضع حقيبته على كتفه، طلب المصعد، نزل فيه، وما أن وصل المصعد إلى الطابق الأرضي حتى ضغط عليه مرة أخرى ليصعد ثانية إلى حيث شقته، حينها أحسّ بعدم رضا نفسي عن اللوحة. كان يشعر بأنها غير مكتملة، لذا قرر أن يكملها، وما أن دخل شقته حتى وضع حقيبته ولوح الأوراق جانبًا، توجه بكامل قوته الذهنية ومشاعره الجمالية نحو اللوحة. وكان بين فترة وأخرى يرتشف شيئًا من النبيذ، لكن ما أن يلتفت إلى جهة المطبخ بطريقة لا إرادية حتى يجد نفسه يدقّق النظر في الأرضية ويحدق في مقبض الثلاجة، فلربما ستزحف العقارب مرة أخرى أو تزحف الكوبرا من المطبخ!

بدأت الشمس بالهبوط، وزحف المساء على فلورنسا، أضاء الصالة بالمصابيح

الكهربائية التي تنتشر في الصالة بطريقة فنية. حين أحسَّ بأنه انتهى من اللوحة جلس على الصوفا وملأ كأسه بالنبيذ، رفع كأسه إلى شفتيه، أخذ يتأمل لون النبيذ، تشممه، ثم ارتشف جرعة كبيرة منه.

كان المساء قد هبط، وكان يشعر بالإنهاك، قام عن الصوفا، توجه بهدوء إلى المطبخ، وقف بحذر عند الباب، نظر إن كان هناك ما هو مخيف له، أحس بالراحة حين لم يجد شيئًا، فتح الثلاجة، أخرج كيسًا فيه بضعة حبات طماطم، وقطعة من الخيار ورأسًا من الخس، وعلبة فيها قطع مدورة من جبنة الموتسريلا التي يحبها، وبعد أن غسل كل هذه الأشياء، أعدّ لنفسه صحنًا كبيرًا من السلطة، ووضع قطعًا من الجبنة في صحن صغير آخر، أخرج قطعًا من الخبز وضعها داخل جهاز كهربائي مخصص لتحميص الخبز، ولم تمر دقائق قليلة حتى حمل ما أعدّه إلى الطاولة الصغيرة في الصالة. جلس يتعشى ويلقي نظرة بين الفينة والأخرى على لوحته المنجزة.

أنهى العشاء، حمل الطبقين الفارغين إلى المطبخ، ووجد في نفسه الرغبة أن يغسلهما، وخلال ذلك رنّ جرس الباب، فوجئ، كانت الساعة تشير إلى التاسعة والربع مساء، وهو لا ينتظر أحدًا، جفف كفيه بالمنديل المعلق بمسمار قرب الباب، واتجه ليفتح الباب.

فوجئ آدم بوناروتي حينما فتح الباب، كانت الفتاة التي لم يحدد هويتها إن كانت سيرلانكية أو هندية تقف مبتسمة أمامه، لم يكن على يقين بأنها ستستجيب لدعوته وتأتي بهذه السرعة! وصله عطرها الشرقي الزكي والقوي قبل أي شيء!

كانت تلبس قميصًا بنيًا قاتمًا وبنطالًا أسود، تأمل بذهول وجهها الأنيق التفاصيل. لم تقل شيئًا، كانت نظراتها مرحة ومرتبكة في الوقت نفسه، نظرات تستقرئ الدهشة في وجهه، وكأنها تسأل نفسها إن كانت قد جاءت في وقت مناسب أم لا! وحينما طالت لحظات دهشته قالت له بمرح:

- هذه أنا، لا أدري إن كنت قد جئت في وقت مناسب! أنت قلت أن أمرّ في أي وقت، وها أنا هنا عند الباب! أرجو ألا يكون مجيئي قد أزعجك!

انتبه لكلماتها، فقال وكأنه صحا من ذهوله:

- لا أبدًا، أهلًا وسهلًا، لم أكن أتوقع أن تأتيني، تفضلي، تفضلي!

فتح الباب لها ووقف جانبًا، حين مرّت تشمم عطرها الزكي بشكل أقوى، ابتسم وقال لنفسه "ربما تعطرت وهي في المصعد، عطرها لا يزال قويًّا، إذًا هي جاءت لأتشمم عطرها". أغلق الباب، وتقدمها وهو يدعوها إلى أن تأخذ راحتها وكأنها في بيتها.

وقفت وسط الصالة، دارت بنظرها في أرجاء الشقة، رأت اللوحة المنجزة، تقدمت لا إراديًّا منها وأخذت تتأملها. ارتسمت علامات الإعجاب والدهشة الحقيقية وقالت بنبرة إعجاب شديد: ماماميا، رائع جدًّا!

كانت تقف أمام اللوحة، ظهرها له، بينما كان هو يتأمل جسدها الطفولي الرشيق، يتأمل مؤخرتها المتناسقة والمثيرة، فكّر للحظات مع نفسه بأنها صغيرة في العمر، ربما في التاسعة عشر أو العشرين، ركّز على تسريحة شعرها الكلاسيكية التي تكشف عن كامل وجهها من الأمام وعن أذنيها ورقبتها من الخلف.

التفتت إليه مبتسمة ومنبهرة بجمال اللوحة، انتبه هو لابتسامتها التي تمزج بين البراءة والإثارة، وود لو يلتقم شفتيها بقبلة حارة! قرر مع نفسه ألّا يفوّت الفرصة دون أن يرسمها! لكن وكأن جردلًا من البارد سكب على رأسه حينما سألته بفضول وبراءة:

- هل أنت مسلم؟

فوجئ بالسؤال، فكر مع نفسه بسرعة "ربما هي مسلمة، عليّ ألّا أعكّر الموقف وإلّا سأخسرها!"، ابتسم لها وأجاب بطريقة ملتوية:

- الناس كلهم سواسية. الأديان تفرّق البشر. غير مهم إلى أي دين ينتمي الإنسان، نحن أخوة في الإنسانية، لكن لماذا تسألين، هل أنت مسلمة؟

أعجبها جوابه، ابتسمت له بمودة وقالت:

- نعم أنا مسلمة من ولاية كيرالا بالهند، ولدت لأبوين مسلمين، واسمي إيفا مادهوري، هل سمعت باسم كيرالا سابقًا؟

نظر إليها بمودة وأحس نحوها بمشاعر رقيقة بعيدة عن الرغبة، كان وجهها الأسمر أقرب لوجه بعض نجوم السينما الهندية، لكنها أكثر براءة ورومانسية وسمرة، قال:

- كان لدي احتمال أن تكوني من سيريلانكا، لكن اتضح أنك من الهند، من كيرالا، أعتقد أني سمعت بالاسم، إنه يشبه لفظ خير الله.

ابتسمت برقة وقالت:

- لا. لا. كيرالا اسم من لغتنا لغة مالايالم، وتعني بلاد أشجار الجوز، لكنني من منطقة بالاكاد على الحدود مع ولاية تاميل نادو.

سألها برقة:

- لكن اسمك يشير إلى أنك مسيحية أو هندوسية؟!

ابتسمت له كاشفة عن صف جميل من الأسنان البيض الذي منح سمرة وجهها جمالًا وقالت:

- نعم، صحيح، هذه قصة طويلة، كانت أمي قبل عقدين من الزمان على سفر لتزور أختي الصغيرة التي زُوجتْ وهي في السابعة من عمرها لرجل في الخامسة والخمسين، رجل لديه أربع نساء، طلق إحداهن ليتزوج أختي حسب الشريعة الإسلامية! تروي أمي عن أختي بأنها كانت تلعب في فناء بيته، وحين بلغت التاسعة قرر أن يأخذ بكارتها، تيمنًا بالنبي الذي تزوج طفلة بهذا العمر، المهم أقام لها عرسًا، أختي هذه حين توجهنا لزيارتها كانت قد ترملت، فقد مات زوجها وهو في الثالثة والستين من عمره، وبقيت هي في البيت مع نسائه الأخريات، وكان ممنوع عليها أن تخرج من عتبة الباب. بعد سنوات من ولادتي ماتت بالسل في عتمة ذلك البيت الرهيب! أمي كانت ذات مرة قبل عقدين من الزمان في زيارة لأختي الطفلة الأرملة، لكنها كانت تسعى أيضًا لزيارة عوائل قريبة من عائلة زوج أختي عساها تستطيع أن تزوج أختي الثانية التي تكبرني بثمانية سنوات، كانت أمي قد أخذتها معها لتريها لإحدى العوائل بشكل غير مباشر. ربما لا تعرف أن الزيجات عندنا يتم ترتيبها عبر النساء والزيارات العائلية، والأم التي تريد تزويج ابنتها تأخذها معها أنّى اتجهت، بل وتختلق الزيارات والمناسبات لتعرض ابنتها على النساء اللاتي أيضًا يبحثن عن زوجات لأبنائهن! وحدث أن جاء المخاض أمي وهي في الطريق، توقفت الحافلة عند أقرب مستشفى، وكانت مستشفى تابعة للصليب الأحمر وللمسيحيين في ولايتنا، هناك ولدت، فكتبوا اسمي في ورقة الولادة إيفا مادهوري، إيفا يقابل اسم حواء عندنا و"مادهوري" اسم هندي يعني "الفتاة

الجميلة أو الحلوة"، لكنني مسلمة وتربيت على هذه العادات أيضًا.

فوجئ آدم بوناروتي بهذا الكم من المعلومات التي تخص هذه الفتاة الأنيقة القسمات التي تقف أمامه، أيُ قدر ساقها إليه! انتبه إلى أنهما لا يزالان واقفين، فتحرك بحفاوة وهو يرتب الصوفا قائلا:

- عفوًا، تتحدثين وأنت واقفة، وأنا أيضًا اندمجت مع حكاية اسمك وقصة أختك المؤثرة، تفضلي بالجلوس، هل تعشيت؟ هل تحبين أن تشربي شيئًا؟!

ابتسمت ببراءة، وهي تجلس على طرف الصوفا وقالت:

- شكرًا لك، تعشيت في الفندق، لكن ممكن أن أشرب كأس ماء إذا أمكن ذلك!

كان يتفحصها ويسأل نفسه عن سر مجيئها، ابتسم لها وقال:

- طبعًا ممكن، لكن كأسًا من نبيذ "كانتي" سيكون رائعًا، إذا أحببت أن تتذوقي كأسًا منه!

ترددت قليلًا، نظرت إليه متفحصة، ثم قالت:

- أنا عادة لا أشرب، الشرب لدينا حرام، أنا مسلمة، لكني هنا في فلورنسا منذ عملي في الفندق تعوّدت أن أتذوق النبيذ معهم في المناسبات، لا سيما إذا صادف عيد ميلاد إحدى زميلاتي أو صادف وجودي في مناوبة بالفندق ليلة رأس السنة، وهكذا، لكن الآن كأس من النبيذ لا يضر.

- بالتأكيد.

توجه إلى المطبخ، فتح الثلاجة، أخذ قنينة من الماء وسكب شيئًا منه في كأس كان قد سحبها من السلّة البلاستيكية التي يضع فيها الكؤوس والأطباق قرب حوض الغسيل، ثم أخذ كأسًا مخصصة للنبيذ. غادر المطبخ وهو يسألها:

- هل لي أن أسألك عن عدد السنوات التي لك في إيطاليا؟ أنت تتكلمين الإيطالية بشكل جيد جدًّا.

- أنا هنا منذ ست سنوات.

- وحدك؟

- تقريبًا.

- تقريبًا؟! ما معنى ذلك؟ كم عمرك إذا ما كان سرًّا؟!
- ليس سرًّا، عندي عشرون عامًا.

وقف أمامها وهو يمد كأس الماء إليها، جلس قرب الطاولة الصغيرة، أخذ قنينة النبيذ وسكب في الكأس المخصصة للنبيذ، وأراد أن يمدّ كأس النبيذ إليها لكنه رآها وهي منشغلة بشرب الماء، ما أن انتهت حتى تناول الكأس منها ووضعها على الطاولة قربه. مدّ إليها كأس النبيذ، تناولت الكأس منه وهي تبتسم لكن ملامحها تشير إلى أنها كانت مرتبكة. أضاف بعض النبيذ في كأسه التي لم تكن فارغة، ابتسم لها بمودة وهو يرفع كأسه، فرفعت هي بهدوء وتردد كأسها، قال بمرح محاولًا أن يبعد عنها ارتباكها:

- في صحتك، في صحة إيفا مادهوري.
- في صحتك.

ارتشفت هي رشفة صغيرة بينما عبّ هو كأسه مرتشفًا نصفها، نظر إليها وآثار مرارة النبيذ ترتسم على وجهه وقال:

- احكي لي، كيف وصلت إلى إيطاليا، هل أهلك معك؟
- لا، زوجي فقط.
- زوجك! هل أنت متزوجة؟ وكيف أنت هنا عندي؟

نظرت إلى الكأس في يدها وقالت:

- هذه قصة طويلة!

فجأة رفعت رأسها إليه ونظرت إليه سائلة:

- أنت لم تجبني، هل أنت مسلم؟

نظر إليها محرجًا، فهو لا يجد نفسه مسلمًا بالمفهوم الملتزم، لكنه ولد لأبوين مسلمين، ووجد نفسه يجيبها:

- ولدت مثلك لأبوين مسلمين.
- فجأة سألته بلهفة:
- هل تعرف تاريخ نبي المسلمين والقرآن جيدًا؟

- تقريبًا.

عبّت كمية من النبيذ وكأنها تريد أن تقدم على أمر ما وسألت:

- أصحيح أن النبي زوّج ابنه بالتبني، ثم طلقه من زوجته ليتزوجها هو؟

تردد آدم بوناروتي للحظات في الإجابة، حاول أن يفهم ما وراء السؤال من قصد، نظر إليها فرأى أنها تنتظر جوابه فقال بهدوء:

- نعم، حصل هذا مع ابنه بالتبني، وهناك آية في القرآن تؤكد أمر تطليق زوجة الابن وعقد زواجها من النبي وكان ذلك بأمر الله، الله هو وكيله بالزواج. طلاق الابن بالتبني لزوجته وزواج النبي منها تمّ بترتيب من الله في السماء.. وهناك تفسيرات وتأويلات لهذا الأمر في كتب التفسير والفقه..!.

استمعت إليه بانتباه، ثم قالت وكأنها تكلم نفسها:

- إذن القصة حقيقة..!

صمت آدم بوناروتي للحظات، أدرك أن هذه الفتاة قد مرّت بقصة مشابهة، فقال بنبرة يشوبها غيظ مكتوم:

- نعم، هي حقيقة، وهناك آية قرآنية صريحة حول هذا الحدث وإن اختلفت التفسيرات والتبريرات لهذه القصة، لكنها حقيقة، لكن لماذا تسألين!

نظرت إليه مترددة، عيناها كانتا تشعان بتأثير النبيذ، وقالت:

- لأن هذه هي قصة حياتي.

صُدم آدم بوناروتي فتخمينه كان صحيحًا، ووجد نفسه منجذبًا لسماع قصة هذه الفتاة الفاتنة، وسأل بنبرة تشي باهتمام صادق مشوب بحزن وتعاطف:

- كيف هي قصة حياتك؟!

فجأة عبّت في جوفها كل ما في الكأس من نبيذ، لم تجبه، وإنما مدّت الكأس الفارغة له وحركته بما معناه تريد أن يسكب لها، نظر إليها مستفسرًا، ومستغربًا، فهزت رأسها مؤكدة بأنها تريد أن يصب لها النبيذ، ألقى نظرة على القنينة فانتبه إلى أنها لا تكفي، فقام متجهًا إلى المطبخ، أخذ قنينة النبيذ شبه الفارغة وكأس الماء معه، وهناك، تناول قنينة نبيذ جديدة من الكارتون الذي كان على الأرض إلى جانب الثلاجة، وفتحه

بالمفتاح الخاص بقناني النبيذ ذات السدادات الفلينية، أثناء ذلك امتزجت مشاعره بين تعاطف ومشاعر مودة رقيقة، وحيرة من مجيئها إليه في مثل هذا الوقت، وبين رغبة في ألّا تخرج هذه الفتاة دون أن يراها عارية ويرسمها.

حين وقف أمامها مدّت له كأسها، سكب لها حتى امتلأت الكأس، فارتشفت مباشرة كمية كبيرة مما في كأسها. جلس على الصوفا، صبّ لنفسه حتى امتلأت أيضًا، نظر إليها وقال بهدوء وحنان استغرب أن يجده في نفسه:

- أنا أستمع إليك! لقد هيّجت أحزاني بهذا القليل الذي رويته لي عن أختك، فكيف وأنا سأستمع لك، أحس أنك مترعة بالأحزان والهموم، وأن خلف ابتسامتك الجميلة هذه مأساة مكتومة!

نظرت إليه بعينين التمع فيهما الدمع مع نشوة النبيذ، شعرت أن خديها ساخنان، وغمرتها مشاعر الارتياح للتعاطف الذي صدر منه، وقالت ببراءة:

- أشعر بسخونة في خدي، هل أنا سكرانة!

ابتسم لها وقال:

- أبدًا، أنت جربته سابقًا، لا يسكر المرء من النبيذ، خاصة وأنت لم تشربي سوى كأسًا، لا تخافي، (ثم واصل مبتسمًا وبمزاح مقصود) يمكنك المبيت هنا إذا ما سكرت.

نظرت إليه للحظة وقالت وكأنها فوجئت:

- هل يمكنني المبيت هنا حقًّا.

- نعم.

- أنا أخبرت زوجي بأن لدي خفارة في الفندق الليلة، كنت قد قررت فعلًا أن أزورك، أخبرت صديقتي التونسية المناوبة في الفندق بأني سأزور عائلة هندية تسكن في الطرف الآخر من المدينة وربما أعود لأنام في الفندق إذا ما تأخرت، ووافقت، لكني أفضل أن أبيت هنا فإذا رجعت للفندق ورأتني صديقتي ثملة فربما ستأخذ فكرة سيئة عني، هل هذا ممكن، ألا يضايقك!

لم يصدق آدم بوناروتي ما سمعه منها فقال بحفاوة وترحاب:

بل يسعدني هذا، خذي راحتك في الشرب أيضًا، أريدك أن تشعري بأنك في بيتك.

صمتت للحظات، ثم قالت له باستحياء:

- طيب، أنا أعرف ربما مجيئي بعد يوم من لقائي بك سيدفعك إلى أن تفهمني بطريقة خاطئة ربما، أقول ربما، وربما ذهب تفكيرك إلى مناطق بعيدة لتبحث عن سر مجيئي في مثل هذا الوقت، وقبولي أن أنام في شقتك وأشرب معك، لكني وبصراحة، أنا نفسي فكّرت بما قد تفكر فيه عني، وسأقولها لك بشكل مباشر، أنا فتاة بسيطة، بسيطة جدًّا، وطيبة، والله أنا طيبة، لا أؤذي أحدًا ولا أتمنى السوء لأي مخلوق، ربما أنا مجنونة، لا أعرف، سأقول لك شيئًا، صحيح إنك دعوتني لترسمني، لكني حين رأيتك في الفندق عرفت أنك شرقي وخمنت أنك مسلم، أنا منذ سنوات، منذ أن شاهدت التلفزيون لأول مرة، أحلم بأن ألتقي فنانًا، ممثلًا، رسامًا مثلك. إيطاليا فتّحت عيني على الفن والرسم، لذلك كنت أحلم بلقاء إنسان رسام. كيف أشرح لك ذلك، حين التقيتك أحسست أن حلمي على وشك أن يتحقق، بل أحسست وكأنني كنت أنتظرك. يبدو أنني سكرت!

انتبه آدم بوناروتي إلى أن هذه الفتاة تكتم في أعماقها ينابيع من الحنان والأشواق وتضج روحها برؤى وخيالات وأحلام يقظة كثيرة، وأن النبيذ دفعها للاسترخاء قليلًا، وعليه أن يساعدها كيف تكشف عن أعماقها ومشاعرها التي تخنقها، وأسعده ما تكنّه له من مشاعر فاجأته حقًّا، فقال لها بمودة وهدوء:

- أنت طبيعية جدًّا، لا ترددي، تحدثي بلا تردد أو خوف.

نظرت إليه بعينين تلتمعان وقالت بقلق:

- صحيح أنا جئت أيضًا لأسألك عن قصة النبي وابنه بالتبنّي وأمره له بأن يطلّق زوجته، لأنني لا أثق بما سمعته حين طلقوني من زوجي الشاب وزوجوني لزوجي الحالي، لكن أيضًا، وبصراحة، ما أن رأيت اللوحة (وألقت نظرة على اللوحة المنجزة عن تيه أوديسوس في البحار) حتى راودتني الرغبة بأن ترسمني فعلًا. قبل ذلك حين قلت لي بأنك تريد أن ترسمني ترددت، لكني أحس الآن بأن الأمر يستحق.

تهلل وجهه المنتشي وقال:

- سأرسمك بلا شك، أنت أنيقة الملامح جدًّا على الرغم من صغر حجمك، لكني أود أن أستمع إليك أولًا.

عبّت ما تبقى في كأسها، ومدّت يدها بالكأس الفارغة وهي مرتبكة النظرات، أدرك أنها تريد أن تستجمع شجاعتها وتغادر خجلها وخوفها من خلال الانتشاء بالنبيذ والسكر ما دامت قد قررت المبيت عنده، فملأ كأسها حتى آخره، أخذت جرعة كبيرة منه مباشرة، وقالت:

- أنا أيضًا لدي الرغبة في أن تعرفني، وتعرف قصتي، سأحكي لك كل شيء، من أين عليّ أن أبدأ؟! سأبدأ من عائلتي، نحن عائلة مسلمة فقيرة، بل بائسة، نعيش في قرية بمقاطعة بالاكاد، ثلاث أخوات وأخ واحد، والداي أميّان، لا يعرفان أن يفكّا حرفًا بأي لغة كانت، لكنهما متدينان جدًّا، تدين أعمى دون فهم وعلم، ينطقان آيات القرآن بشكل مشوه كبقية المسلمين في بلدنا، فهم لا يجيدان العربية. هما متعصبان عن جهل لكل ما يسمعانه عن النبي وأتباعه، متشددان. كل شيء يجب أن يوافق السنة النبوية كما يقولان، (صمتت للحظات، ثم واصلت) زوّجا أختي الكبيرة وهي في السابعة من العمر لرجل في الخامسة والخمسين لكنه غني جدًّا ويعيش في بيت كبير بناه في قرية يملكها على مسافة ساعات من قريتنا، كانا يؤكدان بأن النبي قد فعل ذلك بالضبط مع زوجته الأخيرة ابنة صديقه وفي مثل هذه السن تقريبًا. كانت هي في السابعة، وهو في الخامسة والخمسين، وحينما مات زوج أختي بعد ثمان سنوات بقيت أختي حبيسة بيته مع بقية زوجاته إلى أن ماتت بالسل بعد سنوات من ذلك!

صمتت للحظات، ترقرقت الدموع في عينيها، لكنها واصلت:

- أختي الثانية التي تكبرني بثمان سنوات لاقت المصير ذاته حيث زوّجها والدي لرجل ثري في إحدى القرى البعيدة على أطراف مدينة كولام، وحين زرتها مع أمي بعد سنوات عرفت من همسها لأمي بأن زوجها عاجز عن مضاجعتها، وأنه فتحها بإصبعه الكبير، فنزفت، وأثبت هو رجولته بإصبعه، وقد تحولت هي إلى خادمة في بيته الكبير، إلى أن هربت مع أحد الخدم الشباب ممن يخدمون

لديه، فتمّت ملاحقتهما من قبل رجاله وقتلوهما، وحزوا رأسيهما، وأرسلوا إلى أبي وأمي كي يجيئا إليه مع أخي الذي يكبرني بعامين. لم يفهم والدي سر التركيز على مجيء أخي، أخذا أخي معهما، ولأني صغيرة فقد أخذاني معهما! أذكر ذلك المشهد جيدًا، حين وصلنا أخذونا لغرفة في أعماق البيت، كانت ثمة رائحة عطنة تغمر الغرفة، جلس والداي بذلة أمامه وهما يستفسران إن كانت أختي قد فعلت شيئًا أغضبه، فأشار إلى صندوق أمامه وقال لأبي: افتحه!

صمتت، شهقت بحزن، نزلت دمعة من إحدى عينيها وسالت على خدها، مسحتها بكفها وواصلت بحزن واضح:

- كان مشهدًا لا أنساه، ما أن فُتح الصندوق حتى هبّت رائحة جيفة كريهة، كان رأس أختي محزوزًا ومشوهًا من الضرب في الصندوق. أطبق هو الصندوق ووضع منديلًا معطرًا على أنفه، وأخبر والديّ من وراء المنديل باستعلاء واحتقار بأن أختي خانته مع أحد صبيانه المخنثين الذين يرقصون في سهراته، وأنه ألقى بجثتيهما لكلابه، ولأنها مرّغت شرفه فلا بدّ من أن يعوّضاه على هذه الإهانة والعار الذي ألحقته أختي به! (صمتت للحظات وكأنها تسترجع ذلك المشهد حيًّا في ذاكرتها، وواصلت)، وكان هذا الوحش ينظر إلى أخي نظرات متفحصة، أخي الذي كان حينها في الثامنة ارتعب ولاذ إلى حجر أمي مثل قطة خائفة! الرجل الكريه طلب من أمي أن تخرج معنا، أخي وأنا، وطلب من أبي البقاء، وحينما خرج أبي بعد قليل من الوقت كان منكسرًا بل ومحطمًا، وكان بالكاد يمسك نفسه عن البكاء، وقال بأن السيد يطلب إبقاء أخي عنده تعويضًا عما جرى له من فضيحة! أخذت أمي تلطم خدّها، فأخرسها أبي، وقال لها بأننا لن نخرج أحياء من ذلك المنزل لو رفضنا، أمي لم تتماسك وأخذت تبكي بصوت عالٍ، أنا أخذت أشاركها البكاء، لكن أخي مع صغر سنه فقد رقّ قلبه لحال عائلته المنكوبة، فقال لأبي وأمي بأنه سيبقى عند السيد ولا مشكلة عليه! لا أستطيع نسيان ذلك اليوم! بل توالت أيامي السود لتزيد على هذه المصائب التي مرت بها عائلتي.

شعر آدم بوناروتي بأنه أمام جحيم آخر ليس له علاقة بجحيم "دانته" لذا لم يعلّق على ما سمعه، إلا أن الخوف والغضب كانا مرتسمين على وجهه، نظرت هي إليه، فسألها بحنان وخوف:

- وماذا جرى لأخيك الصغير؟

ترقرقت الدموع في عينيها وقالت:

- الوحش حول أخي إلى طفل مخنث يرقص له في سهراته، يلبسه ثياب الراقصات ويصبغ وجهه بالألوان وشفتيه بأحمر الشفاه، ويتركه ليرقص، ولا أدري ماذا يفعل به أيضًا!

صمتت، أراد هو أن يكسر الصمت فقال بتأثر حقيقي:

- أذكر أني شاهدت فيلمًا عن الصبية في أفغانستان يفعلون بهم هكذا! وهل هو هناك لحد الآن؟

- لا، يبدو أنه على صغر سنه كان شجاعًا، إذ إنه بعد سنتين من بقائه على ذلك الحال انتحر.

أحس آدم بوناروتي بغصة في نفسه، فعبّ النبيذ المتبقي في كأسه، نظر إليها بتأثر حقيقي وسأل:

- وأنتِ؟

ارتشفت ما في كأسها من نبيذ، وكان واضحًا أنها تشربه على مضض من أجل أن تسكر بسرعة أو لتكون أكثر جرأة في مواجهة ذكرياتها! عبّت كل ما في الكأس، لكنها لم تمد كأسها مرة أخرى، أبقت الكأس الفارغة في يدها، نظرت إليه وواصلت:

- كان لأبي صديق طفولة اسمه آدم نعتمدار، ولد في قريتنا وكان يكبر أبي بسنتين، وذات يوم جاء هذا الصديق لأبي طالبًا يدي لابنه بالتبني، هذا الآدم نعتمدار هو زوجي الحالي، وكان في فتوته قد هاجر إلى المدينة، لكنه كما يبدو تنقل كثيرًا ما بين مدن كيرالا العديدة واستقر في مدينة كوجي، وفتح الله أمامه باب الرزق، إذ أخذ يعمل في خان رجل مسلم، أرمل، مريض، لديه ابنة عانس على مشارف الأربعين، مصابة بالصرع! وكان صديق أبي حينذاك شابًّا فتيًّا في

العشرين، أخلص في خدمة التاجر العجوز، وساعده في أمور حياته الخاصة، كسب ثقته، بحيث فكّر التاجر العجوز بأن يأتمنه على ابنته المريضة وعلى ماله، فزوّجه من ابنته العانس المريضة! ذات صباح وُجد الأب ميتًا في فراشه، ولم تمر أربعينية الرجل التاجر المتوفى حتى لحقت به ابنته المسكينة، وقد سمعت حينها من حوارات أبي وأمي بأن هناك قيل وقال بأنه قتلها، بينما روّج هو إشاعة طيبة بأنها ماتت حزنًا على والدها، وهكذا ورث صديق أبي المال كله والبيت الكبير! بل وقيل إن البيت الذي كان يعيش فيه، الذي كان بيت التاجر المريض وابنته، كان مسكونًا بشبح ابنة التاجر المصابة بالصرع، فقد قيل إن صوتها كان يتردد ليلًا في أرجاء ذلك البيت. قطع آدم نعمتدار علاقته بالقرية ولم يبق إلّا على علاقته بأبي الذي كان صديق طفولته ومراهقته وبينهما حياة مشتركة، إذ لم يفترقا إلى حين مغادرته القرية، وسمعت من والدتي التي أعلمها والدي بأنه تزوج أكثر من امرأة، لكنه لم ينجب، كان يتزوج المرأة فتبقى عنده عامًا أو عامين، يستمتع بها، ثم يطلقها متهمًا إياها بالعقم، وهكذا تزوج ثلاث عشرة امرأة! ويبدو أن هذا الرجل تأكد من عقمه هو؛ لذا اكتفى بزوجته الأخيرة، العمياء، الثرية ثراء فاحشًا، والأرملة، التي ورثت أموالًا وعقارات هائلة من أبيها وزوجها المرحوم، وقيل إنها كانت باهرة الجمال في شبابها، لكنها عميت بشكل نهائي نتيجة نزول الماء الأسود في عينيها بعد زواجها منه بسنة، وقيل إنه لم يذهب بها إلى الطبيب من شدة غيرته وتزمته الديني بحيث لا يريد أن يرى زوجته أحد، حتى لو كان طبيبًا، فاعتمد على الرقى والتعاويذ والشعوذة مما أفقدها بصرها نهائيًّا، وأقعدها مريضة في البيت، فترهّل جسدها بسبب خمولها وعدم حركتها بمرور السنين.

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

- بالنسبة لي كنت المدللة بين أخواتي من ناحية المصير، فنتيجة لما مرّت به العائلة من نكبات لم يزوجوني في السابعة وإنما حين بلغت التاسعة، لم يزوجوني لرجل مسن بعمر أبي وإنما من صبي في الخامسة عشرة هو ابن متبنى لصديق والدي آدم نعمتدار، وهذا كان بالنسبة لأمي شيئًا مفرحًا، على

الرغم من أنني سمعت أبي ليلًا وهو في الفراش يقول لأمي إنه كان يتمنى لو أن صديقه طلبني لنفسه، فهو رجل غني وكان سيدللني، ناهيك أن هذا ليس ابنه من صلبه، وإنما لقيط، ابن حرام، نغل وجده على باب دكانه الكبير فأخذه متبنيًا إياه. لحظتها عرفت أن الفتى الذي تزوجته ليس ابن التاجر صديق والدي! تم عقد قراني في القرية، وكان صديق والدي قد جاء بشيخ معه من المدينة كي يكتب عقد الزواج، وهكذا انتقلت إلى بيت التاجر الكبير في مدينة كوجي البعيدة عن قريتنا جدًّا، زواج دون حفل عرس أو زفاف! لم يكن في البيت الكبير سواه وزوجته العمياء وخادمة عجوز تقوم بواجبات البيت، وكان زوجي يكبرني بستة أعوام، كان هو في الخامسة عشر، وأنا في التاسعة، وكان يعمل عند والده بالتبني في دكانه الكبير لبيع الحبوب والملابس والحلوى! كانت علاقتي بزوجي باردة، على عكس علاقتي بوالده الذي كان يأتيني بالحلوى دائمًا وكأنني طفلة صغيرة، ويسأل عن حالي، يدللني، يُجلسني في حجره ويقبلني كابنته، كنت أشمّ فيه رائحة أبي، لم أشك لحظة بنواياه على الرغم من أنني قد وصلت لمرحلة الحيض! وكنت أختبئ في الأيام التي أمر خلالها بالدورة الشهرية، وكان هو ينتبه من خلال اختفائي، إذ كان حين يسأل عني فيقال له بأني مريضة، كان يفهم أنني حائض، لكنه ما أن يراني بعد انتهاء الدورة وظهوري أمامه حتى يأخذني في أحضانه الدافئة مرة أخرى! لم تكن بيني وبين زوجي أية علاقة زوجية حقيقية، كان خجولًا، وكنت أكثر جرأة منه، جرأة جاءتني من مشاهداتي للحيوانات في قريتنا، البقرة والثور، الحمارة والحمار، المهرة والفرس، وحتى الطيور والدجاج، والقطط والكلاب، لذا أعرف ماذا يجب أن تكون عليه العلاقة. طبعًا دون معرفة كنه العلاقة أو طعمها! كنت أحاول أن أغريه، لكنه كان يتجنبني، وذات ليلة كنت نائمة، ولا أعرف كيف صحوت وفتحت عيني لأرى نفسي عارية من ثيابي، لا، رأيته هو جالس عند قدميّ، كان قد رفع الثوب عن جزئي الأسفل من جسدي، وحين رآني قد فتحت عيني انقلب على جانب السرير خائفًا وخجلًا..ومع ذلك اقتربت منه، فتململ خجِلًا، فأدرت جسده على ظهره، وأرخيت ساقيه وجلست فوقه، وتجرأت فأتممت كل شيء..! هكذا صرت امرأة.

شعر آدم بوناروتي بالإثارة والتهيج من خلال ما روته عن نفسها، صبّ لها دون أن تطلب وكأنه يدفعها إلى الانتشاء، لم تعترض، صبّ لنفسه، رفع كأسه وقال لها:

- بصحة روحك الجميلة وشجاعتك!

- أنت لم تسمع بقية القصة لأنك ربما لن تصفني بالشجاعة!

ابتسم لها بمودة وقال:

- لنستمع، على الرغم من أن ما رويته إلى الآن يحتاج لشجاعة.

نظرت إليه، انتبه إلى أن وصفها لمشهد علاقتها الأولى مع زوجها الفتى قد أثارها هي أيضًا، فقد نظرت إليه نظرة تشع بالرغبة، لكنها فجأة أخذت رشفة كبيرة من كأسها وبعد لحظات واصلت:

- كان زوجي ضعيفًا وشبه عاجز مع أنه شاب مراهق يفترض أن يكون في أوج قوته وفورانه، كنا نمارس مرة واحدة في الأسبوع، ليلة الجمعة، وأنا التي كنت أبادر، لكني لم أشعر معه بالراحة أبدًا إذ كان سريع القذف، بل أحيانًا كان يقذف قبل أن أفتح نفسي له، إلى جانب أنه لم يكن جذابًا من ناحية الشكل، وكان ضعيف الشخصية، يشعر بالذل نتيجة أصله، فهو يعرف أنه نغل، لقيط، وقد وجده آدم نعمتدار أمام دكانه الكبير ذات فجر، وأنه ربّاه كابنه لأنه أساسًا بلا أولاد، كان هذا الأمر قد حطم شخصيته منذ الصغر وجعله انطوائيًّا. طبعًا أنا لم أتحدث معه عن هذا الأمر أبدًا، لكني أعرفه، سمعته من والدي وهو يرويه لأمي، بيد أن الذي حدث هو أنني منذ فقداني لبكارتي وممارستي الجنسية المبتورة والمتكررة صرت أنتبه لأنوثتي، وأخذت أبتعد عن آدم نعتمدار لا سيما حين أخذت أتذكّر قبلاته لي واحتضانه، وانتعاظ قضيبه أحيانًا حين يجلسني في حضنه، فصار هو يغضب مني لتجنبي اللقاء به.

(صمتت للحظات وكأنها تريد أن تستذكر أحداثًا في ذاكرتها، ثم واصلت)

- كنّا أنا وزوجي نسكن جناحًا في البيت الكبير، وهو ليس ذاك البيت المسكون بشبح الزوجة المصروعة، وإنما بيت جديد آخر! وذات نهار كنت أتحمم وأنظف جسدي من الشعر الخفيف الذي ينمو عليه، وكنت عارية بالكامل، سمعت سقوط شيء ما، وحين رفعت رأسي فوجئت بوالد زوجي واقفًا يحدق

في جسدي بتركيز شديد دون أن يعير نظراتي المذهولة والمرعوبة اهتمامًا، وكنت أسأل نفسي كيف دخل؟ وكيف عرف أنني في الحمام؟ ولماذا دخل عليّ؟ انتبهت لنفسي، لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل، ولا شعوريًّا غطيت جسدي بشال مبتل كان بالقرب مني! لم يقل هو شيئًا، ظل للحظات أخرى واقفًا، ثم ذهب! طبعًا لم أخبر زوجي عمّا جرى، لا سيما وأنا أعرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، بل هو يرتعد مثل أرنب مذعور أمامه! بعد أيام فوجئت بوصول والدي من القرية، حينها لم أفهم أبدًا سر مجيئه وحده دون أمي إلى المدينة، بقي والدي مع العم آدم نعمتدار وحدهما، لم أرَ والدي إلا بعد يومين من وصوله، إذ كان يسهر الليل كله مع صديقه آدم نعمتدار، وفي النهار كانا يخرجان، وانتبهت إلى أن زوجي لم يعد يبيت في غرفة نومنا منذ وصول أبي! بل وكانت الصالة البيت الكبيرة تزدحم منذ وصول أبي كل مساء بالضيوف، وهذا يحدث لأول مرة منذ دخولي إلى هذا البيت! كنت أسأل المرأة المسنّة التي تقوم بالخدمة عمّا يدور، فكانت تقول لي إنهم يتناقشون عن الإسلام، والشريعة والسنة، والنبي وسلوكه الذي علينا أن نتبعه ونستخلص منه العِبر والأحكام! وذات مساء دخل أبي إلى جناحي، كنت وحدي، كان مرتبكًا، وهادئًا، وراضيًا! جلس على السجادة الوثيرة في جناحي وقال لي: "ابنتي إيفا مادهوري، يبدو أن الله يحبك كثيرًا، فعلى الرغم من المصائب التي انهالت على عائلتنا إلا أن مصيرك كان نعمة من الله عز وجل، فقد تزوجت من عائلة كريمة، وثرية، وقد أشاد صديقي، عمك آدم نعمتدار، بأخلاقك وطيبتك، وشكرنا على حسن تربيتك، وليس هذا بغريب علينا لأننا تربينا على الاقتداء بنبينا الحبيب، ونتخذ من سلوكه منهاجًا. ومما يروى عن حبيبنا ونبينا أنه زوج ابنه بالتبني من امرأة باهرة الحسن، وحدث بعد أن قضى الابن بالتبني مع زوجته وطرًا من الزمن والعيش المشترك، طلّقها بناء على رغبة النبي، ليتزوجها النبي الأكرم، ونحن نقتدي بذلك، وها أنت قد مرّ على زواجك ما يقارب السنوات الأربع، دون أن تنجبي، وقد حدث البارحة أن طلّقك زوجك بالثلاثة أمامي وأمام إمام المسجد وأمام شهود آخرين، وأنت الآن مطلّقة، وقد طلب صديقي آدم نعمتدار، والد طليقك، يدك بناء على سنة الله ورسوله، واقتداء بالنبي الذي

فعل ذلك مع ابنه بالتبني، وقد وافقت أنا، وسيتم الزواج بعد انتهاء العدة، فهل تريدين العودة معي إلى القرية أم تريدين البقاء هنا إلى انتهاء العدّة!".

صمتت للحظات، أخذت تنظر لثوانٍ في سقف الغرفة، ثم عادت إليه وواصلت:

- كنت منذهلة، فهمت لحظتها لماذا اختفى زوجي أو طليقي خلال هذه الأيام، تحجّرت مشاعري، لكني وجدت نفسي أسأله: "هل طلب هو بنفسه من زوجي أن يطلقني؟"، فأجابني: "أقول الحق لله، نعم، هو طلب من ابنه بالتبني أن يطلّقك"، فسألته: "وهل وافق زوجي؟" فأجابني بنبرة صارمة: "هو الآن ليس زوجك، ومع ذلك فقد وافق، وبلا تردد، وطلّقك بالثلاثة"، فسألت مستغربة: "بلا تردد؟!" فأكد لي: "نعم، لم يعترض أبدًا، ألقى يمين الطلاق بالثلاثة أمامي وأمام الرجال الأخيار وبحضور إمام المسجد الذي شهد ذلك"، فسألته وأنا أكاد لا أعي ما يجري: "وهل طلب يدي منك أمام الرجال؟" فصدمني جوابه حين قال: "نعم، ووافقت، لكن إمام المسجد قال إنه لا يجوز أن يدخل بك إلا بعد انتهاء العدة، والتأكد من عدم الحمل!"، فقلت متأثرة: "لكنه أكبر مني يا أبي، بل هو حتى أكبر منك بسنتين، هو في الستين من العمر"، فصمت والدي وقال لي معاتبًا: "اسمعي يا ابنتي، هو لم يفعل شيئًا خاطئًا، هو اتبع سنة الرسول، لقد فعلها النبي الحبيب مع ابنه بالتبني"، ثم صمت، وواصل محاولًا إقناعي: "سأخبرك شيئًا، آدم نعمتدار رجل غني جدًّا، وقد ساعدنا منذ زواجك بابنه اللقيط، وهذا في الحقيقة ليس ابنه من صلبه، وآدم نعمتدار لم ينجب على الرغم من أنه تزوج أكثر من ثلاث عشرة مرة، وقد قال لي بأنه رجل كبير في السن ويريد أن ترثي أنت كل ما يملك من مال وعقار، هو يحبك جدًّا مثل ابنة له، وسيسعدك أكثر من هذا النغل!".

كان آدم بوناروتي يتابع قصتها، فجأة انتبه إلى أن الوقت يمضي وهما على مشارف الساعة الحادية عشرة، ولا يمكنهما أن يستمرا بشرب النبيذ، الليل طويل أمامهما، لذا سألها مقاطعًا:

- اسمعي، هل تشتهين أن تأكلي شيئًا؟

- لا، أنا تناولت عشائي في الفندق كما أخبرتك، ولا آكل كثيرًا في المساء، ربما

يمكن أن نأكل الجبن مع النبيذ، أو أية مقبلات، هل أنت جائع؟

- لا، لكن لا يمكننا الاستمرار بشرب النبيذ دون أية مقبلات معه، انتظري، لدي جبن موتسريلا وكيسًا من رقائق البطاطا وعلبة فستق.

نهض دون أن ينتظر جوابها، اتجه نحو المطبخ، أخذت هي كأسها وارتشفت منه رشفة صغيرة واستمرت تتأمل اللوحة، عاد وهو يحمل طبقًا فيه جبنة الموتسريلا وآخر فيه فستقًا بينما قبض بين أصابعه الباقية على كيس رقائق البطاطا.

قامت هي لتأخذ الطاولة الصغيرة من الجانب وتضعها في الوسط أمام الصوفا، وضعت قنينة النبيذ على الأرض، ووضع هو الطبقين على الطاولة وقال:

- أمامنا الليل طويل، بالمناسبة، هل درست في بلدكم، أو ربما هنا!

لم تجبه، تلفتت وأخذت تجول بنظراتها في الشقة، استقرت نظراتها على باب الغرفة المقفل، وقالت:

- شقتك واسعة بالنسبة لشخص واحد، هل أنت وحدك؟

- أنا أرمل!

التفتت إليه وكأنها فوجئت، وقالت وعلى وجهها ابتسامة ملغزة:

- إلى رحمة الله، لكن من المؤكد أن لديك امرأة ما، حبيبة أو عشيقة!

انتبه آدم بوناروتي أنهما دخلا حقل الألغام الأنثوي وعليه الانتباه، فقال بنبرة تأكيد:

- لا، لا أحد لديّ!

- والمرأة التي جئت تسأل عنها؟!

ارتبك لثوانٍ وقال:

- هي صديقة عراقية كانت في زيارة لفلورنسا، وغادرت دون أن أودعها! لكن السؤال موجه لك، أليس لك حبيب أو عشيق؟!

لم تقل شيئًا، مدّت يدها لحبوب الفستق، تناولت بعضها وهي تقول:

- أنا متزوجة!

ابتسم وقال:

- أعتقد أنك تعيشين في إيطاليا وتعرفين أن تكون المرأة متزوجة لا يعني أي شيء، فقد تكون لديها علاقات وقد لا يكون!

قالت باستسلام:

- صحيح، لكني متزوجة من رجل حطّمني، أنا أريد حبيبًا، أحلم بالحب، لكن كيف وأنا متزوجة..!

شعر هو بتعاطف نفسي معها، ووجد في نفسه رغبة عارمة في أن يعرف عنها كل شيء، فسألها بلطف:

- لكنك لم تخبريني كيف انتهت حكايتك، وكيف وصلت إلى إيطاليا؟

ابتسمت بحزن وهي تقضم حبات الفستق، ثم ترتشف شيئًا من النبيذ، وقالت:

- حكايتي لم تنته بعد، أما كيف مضت فسأخبرك، أنا الآن في العشرين من عمري، حين تزوجت آدم نعمتدار كنت في الثالثة عشر من العمر، وكان هو في الستين، هو الآن قد تجاوز السادسة والستين بشهرين، أي أنه دخل السنة السابعة والستين من العمر، صحيح أن أبي حينها خيّرني بين الذهاب معه إلى القرية حتى انتهاء العدة أو البقاء في البيت لكنه لم يترك في الواقع لي خيارًا، فقد طلب آدم نعمتدار من أبي أن أبقى في البيت، ولأن الشريعة تقضي بألّا يراني طليقي خلال هذه المدة، بل ولا أي رجل، فإنه طرد ابنه بالتبني بطريقة مهذبة، قال له إنه يريد توسيع تجارته، وفتح له دكانًا في مدينة كانور البعيدة في الشمال وأرسله إلى هناك، وقد أفتى له إمام المسجد بأن بقائي جائز عنده في البيت فهو بحكم علاقته بأبي ولكونه بمثابة والد لي وعمي فلا ضير أن يراني لحين انتهاء العدة! ومنح والدي الكثير من الهدايا والمال كمهرٍ لي! رحل أبي دون أن يودعني! لقد باعني له، وصرت ملك صديقه.

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

- سأكون صريحة معك، ربما تظنني مجنونة أو أن مجيئي إليك يدفعك للظن بأني امرأة سيئة الأخلاق وسهلة ..لكني لست كذلك..صدقني..وربما ستستغرب صراحتي، أولًا أنا لم أفكر قط حين أردت المجيء إلى هنا بأنني سأتحدث عن حياتي، لكني كنت أحلم بهذا اللقاء منذ سنوات، وقد قلت لك إنك أعجبتني

كرجل منذ أول نظرتي لك في الفندق لكني كنت أيضًا منجذبة لمعرفة قصة النبي مع ابنه بالتبني أولًا، وثانيًا: إن اسمك أثارني، فأنت أيضًا اسمك آدم، لكن لقبك إيطالي، بوناروتي، وفهمت ذلك وكأنها إشارة من القدر. وقبل قليل، حين دخلت شقّتك وجدت نفسي مأخوذة بعالمك، وطريقتك الحاذقة في دفعي للحديث عن نفسي بحيث صرت الآن أود بنفسي أن أحكي كل شيء، وكأنك فجرت ذاكرتي وفتحت بوابة حياتي على مصراعيها! أتعرف منذ أن وصلت إلى إيطاليا أقفلت على حياتي وحجّرت ذاكرتي، ونسيت أو تناسيت تلك الفتاة التي اسمها إيفا مادهوري، ولا أذكرها إلا حين تطأ قدمي عتبة الشقة التي أعيش فيها، فأنا أعيش حياة مزدوجة!

نظر آدم بوناروتي إليها بمودة، شعر أنه أمام امرأة عجوز حكيمة في العشرين، وفكّر مع نفسه لثوانٍ: "أيمكنها القبول بأن تكون حبيبتي وصديقتي وعشيقتي، لا، لا، هي تبحث عن الحب، هذا صعب"، وفزّ على رنين هاتفه النقال، التفتتْ إيفا مادهوري إليه وعلى وجهها تساؤل وارتباك، وكأن هناك من سيقتحم الشقة عليهما.

نظر هو إلى شاشة الهاتف فلم يجد سوى كلمة "مجهول"، لم يشأ أن يجيب على الاتصال لكنه فكر بأنه ملزم بذلك وإلا ستشك هي بأن هناك امرأة ما وهو يخفي ذلك، فضغط على زر التواصل وقال: "ألو"، لم يجب أحد من الطرف الآخر، ضغط على زر تقوية الصوت، فسمعت هي صوت القطع والطنين المتواصل، لم يقل شيئًا، وإنما أشار لها بحركة من ملامحه وهزة من رأسه وكأنه لا يعرف من اتصل ولا يهمه ذلك، وقال لها:

- آسف لهذه المقاطعة المزعجة، أنا أستمع لك.

لم تعلّق على الاتصال، وكأنها كانت مجذوبة لمدار بعيد، فواصلت حديثها وكأنها لم تنقطع عنه:

- سأعود إلى تلك الأيام قبل سبع سنوات، سأعود إلى تلك التي كنتها قبل سبع سنوات، فالتي تجلس أمامك وتكرع من النبيذ وتزور رجلًا وحيدًا أكبر منها سنًّا في شقته دون أن تعرفه جيدًا، وتتحدث معه عن تفاصيل حياتها وكأنها جاءت للكنيسة كي تعترف، هي ليست إيفا مادهوري التي أمامك! لقد وعدتك بأن أكون صريحة معك، فبعد رحيل والدي بقيت في جناحي. كانت الهدايا

الثمينة من ثياب وحلوى وفواكه في الأسابيع الأولى تأتيني إلى جناحي، وكان زوجي المقبل، آدم نعمتدار ملتزمًا بألّا يراني، لكني، بعد أسابيع صرت لا أنام الليل، رغبتي كانت تعذبني، وبدأت أتذكر تلك الأيام الأولى التي كان يضعني في حجره ويقبّلني ويحركني بطريقة أتحسس فيها عضوه المنتعظ، فراودتني أفكار شيطانية! طلبت من المرأة المسنة التي تخدم زوجته العمياء وتقوم بكل واجبات البيت بأنني أحتاج العم آدم نعمتدار في قضية خاصة، لم ترد عليّ، ولم تقل لي إن كانت ستخبره أو لا، ظلت صامتة كصنم، فقط كانت تنظر إليّ وكأنها تبحث عن سرّ حاجتي القصوى للقاء العم آدم نعمتدار! ومرّت الأيام ولم يأت، وجاءتني دورتي الشهرية، وخلال تلك الأيام اعتكفت المرأة المسنة على خدمتي بشكل استثنائي، إذ لأول مرة منذ دخولي البيت الكبير أخذت هي المناديل التي استخدمتها كحفاظات عن نزول دم العادة لتغسلها! وكأنها تعلن وتبلغ رسالة بعدم حملي، ومرّ أسبوع لم يأتِ فيه الحاج آدم نعمتدار، وكنت حين أسأل المرأة المسنة إن كانت قد أخبرته بحاجتي لمشورته كانت تدير وجهها الجامد وكأنها لم تسمع ما أقوله لها، لكن ذات ليلة، وفي وقت متأخر جدًّا، وكانت ليلة الجمعة، كان الجو باردًا، والمطر يهطل بقوة، كنت أسمع المزاريب تنشج وهي تسكب الماء في الزقاق الصامت كصمت المقبرة، وأسمع صوت جرف ماء المطر بالطاسة يأتي من وسط الدار الكبيرة، فعرفت أن المرأة المسنة قد تم إيقاظها كي تسحب الماء الذي تجمع في باحة الدار المفتوحة على السماء والتي تفيض عندما يهطل مطر شديد! تعاطفت مع هذه المرأة المسكينة التي كنت أسمع صوت الطاس الذي تجرف به ماء المطر لتسكبه في جردل تلقيه بعد الامتلاء في بالوعة حوض الغسيل!

(صمتت وخفضت عينيها ناظرة لنقطة ما على الأرض وواصلت)

- وكنت في تلك الليلة كعادتي أتقلب في فراشي، كانت الغرفة تعبق برائحة البخور الذي أحرقه كل مساء خميس وليلة الجمعة لطرد الأرواح الشريرة، وبعد ساعة توقف المطر، وتوقف جرف الماء بالطاسة من باحة الدار، وعمّ السكون، لكن فجأة، سمعت نقرًا خفيفًا على باب غرفتي. من يا تُرى دخل

الجناح ووصل غرفتي؟! ظننتها المرأة المسنة، لكنها لا تحتاج لأخذ موافقتي بالدخول، تكرر النقر الخفيف، فقررت أن أغادر فراشي، ومشيت عارية القدمين، وفتحت الباب، ويا للمفاجأة، رأيت عمي آدم نعمتدار واقفًا، عيناه تلمعان بوهج غريب لم أعتده سابقًا، تجمّدت أنا أيضًا في مكاني، تقدّم هو خطوة وتراجعت أنا خطوتين، وظل يتقدم صامتًا خطوة، وأنا أتراجع خطوتين، حتى التفتُّ وصححت اتجاهي نحو جهة السرير، وأخيرًا وصلت إلى حافة السرير ولم يعد بمقدوري أن أتراجع أكثر فجلست على حافة السرير، وبصراحة شعرت وكأني أكتشف آدم نعمتدار لأول مرة، اكتشفت الرجل الهائج والثور المتوحش فيه، ولأول مرة أخاف منه، كنت مثل عصفورة مبتلة أمام نسر جائع فاردًا جناحيه، ولأول مرة أحس بأنوثتي جريحة ومتوهجة في الوقت نفسه! كان ينظر إليّ دونما كلمات، وكما الساحر العظيم، رفع ذراعه وأشار بأن أستلقي على ظهري، وكالمسحورة استلقيت على ظهري ونصفي خارج السرير، مرت لحظات سكون امتدت كالدهر بالنسبة لي، كان هو قد فكك خيط "شرواله" العريض، وبحركة خاطفة رفع ثوبي إلى رقبتي، سحب سروالي، وفجأة، أحسست بشيء طري وحار وصلب يداعب أسفلي، وبحركة محكمة أحسست أنني أنشق، أُخترق، وأغرق في مس كهربائي مخدر، مسكني ورفعني مثل دمية صغيرة وشدني على وسطه، كان قد اخترقني وثبّتني مثل دمية على وسطه، وهزني كالمجنون، ثم ألقاني على السرير ودخل بكل ثقله فيّ، كنت متشبثة به بذراعي وبساقي حول ظهره، وشعرت لحظتها بأني أحبه، أحبه كرجل! وفجأة ملأني بدفقه المائي، وأحسست بأني سيغمى عليّ من شدة اللذة! وفي تلك اللحظات أقسمت له وأنا أصرخ به بأني سأكون عبدته، جاريته، خادمته، وكنت صادقة لحظتها! فلو كان قد طلب مني أن أقتل نفسي لوافقت دون نقاش، لا أدري كيف استعبدتني اللذة والرعشة الكبرى التي شعرت بها في تلكم اللحظات الخارقة، لكن كان هذا في الأيام الأولى، فقط.

كانت هي تتحدث لكن صوتها أخذ يبح قليلًا، بحة فيها تهيج وإثارة واضحة، صارت نبرة صوتها بطيئة في انسيابها، وأكثر تقطعًا، ومصحوبة بتقطع التنفس القصير جدًّا أثناء كلامها، وكان آدم بوناروتي متهيجًا، متخيلًا المشهد بوضوح، وكان على يقين من

أنه لو قام الآن ونزع عنها بنطالها واخترقها دون كلام كما فعل آدم نعمتدار لما اعترضت، وربما لتجاوبت معه، لكنه عاجز عن اتخاذ مثل هذه الخطوة! لذا شعر بشيء من الاختناق، فكر مع نفسه "أنا لا أستطيع اختراقها بيد أني أستطيع كل ما عدا ذلك من مص وتقبيل ولحس، لا أريد الاقتراب العاري منها، لأنها ستكتشف حينها بأني أبتر، مقطوع القضيب حتى منتصفه، وما بقي منه شيء مشوه، عضلة تبدو مثل أفعى مفقوءة العينين، عليّ أن أدعها تشرب النبيذ إلى حد فقدان الوعي، عندها سأستطيع أن أكون معها، لكنها لم تصل بعد إلى حالة الفقدان على السيطرة". فجأة، توقفتْ عن الكلام، كانت هي منشغلة مع مشاعرها، رفعت رأسها ملتفتة إليه وملامحها تشي بتهيجها وبفقدانها السيطرة على نفسها قليلًا، وسألت:

- هل تراني حلوة، هل أنا مادهوري حقيقة، قصدي بنت حلوة، هل أعجبك؟ بصراحة، قل لي.

فوجئ آدم بوناروتي بسؤالها الذي فيه شيء من النزق الطفولي، فكّر مع نفسه بأنها غير واثقة من نفسها، ربما بسبب سمرة لونها في مجتمع أوروبي عنصري قائم على لون البشرة، وربما بسبب الإهانات التي تتعرض لها من قبل زوجها لتحطيم ثقتها بأنوثتها باعتبارها امرأة جميلة! ووجد هذه لحظة نادرة لدخول عالمها، فاقترب منها، جلست هي بشكل جانبي، أخذ كأس النبيذ منها ووضعها على الطاولة، ثم مسك بكفيها، نظر إليها بحب ورغبة، وقال بانفعال:

- أنت باهرة الحسن إيفا مادهوري، أي رجل يمكنه أن يعشقك، ويحبك، ويرغب فيك، من قال لك إنك لست جميلة.

كانت تنظر إلى وجهه وكأنها تستمع لقرار مصيري، ترقرقت الدموع في عينيها، وقالت:

- هل أنا جميلة حقًّا في عينيك أنت؟ هل تجدني أستحق الحب والعشق؟ هل أنا مرغوبة لديك؟

لم يصدق آدم بوناروتي ما يجري معها، فقد انهارت وكشفت عن هشاشة مخيفة وحاجة هائلة للحنان والحب والاهتمام، وشعر بالحب والحنان نحوها، وقرر أن يقترب منها بالكامل فقال لها:

- أنا أراك فاتنة، تستحقين كل الحب، لا أحد يستطيع أن يتجاهل جمالك وأنوثتك!

فقالت وكأنها غير مصدقة وتريد أن تتحقق من كلامه:

- وأنت، هل تحبني؟ هل أحببتني؟ هل ستحبني؟ أريد أن أجرّب الحب؟ أريد أن يحبّني شخص بمقامك، أنت تقدّر الجمال، وكأني كنت أنتظرك كل هذه السنوات، منذ أن رأيت لوحتك وأنا أشعر بأنك تستطيع أن ترى جمالي على حقيقته، أريدك أن ترسمني ومن خلال ذلك تكتشف بطريقتك الساحرة جمالي، وجمال جسدي. أنت وحدك تقدّر الجمال.

ودون أن يقول شيئًا سحبها إليه فمنحته جسدها طواعية، أخذ وجهها بين كفيه وأطبق على شفتيها بقبلة حارة وشبقة، وتمتم لها "أعطيني لسانك" ففتحت فمها فالتقم لسانها، أحسها تنهار بين يديه وتذوب، وبدأت أنفاسها تتقطع شبقًا، وهمست في أذنه: "أنا لك، افعل بي ما تشاء"، أخذت أصابعه تضغط على نهدها الطري الصغير فأنّت بشبق، فجأة، مدّت هي يدها لتمسك وسطه، فمسك بيدها وقال لها ليس الآن! ثم واصلا احتضان وتقبيل بعضهما البعض بحرارة، لكنه أحس بالخطر سيداهمه وسينكشف سرّه إذا ما استمر في هذه الملامسات الحميمة، فاعتدل في جلسته، وأخذ رأسها ووضعه على صدره وقال لها:

- من قال لك إنك لست فاتنة ومثيرة؟

- زوجي آدم نعمتدار، يوميًّا يُسمعني كلامًا ينصبُّ كالرصاص في الأذن، حطّمني، هو يُشكك بي ويطعن بشرفي، يعتقد بأن لدي عشيق يروي عطشي للجنس. والله أنا بريئة، أنت أول رجل بعده وبعد زوجي الأول أقبله ويقبلني في حياتي، ومنذ ست سنوات من وجودي في فلورنسا لم أسمح لأحد أن يمسني مع أن هناك مناسبات عديدة من التحرش والتغزل حصلت لي في الباص والقطار، والفندق، وفي الأسواق، لكن لم أمنح نفسي الفرصة بأن أخونه، على الرغم من شكّه فيّ، أنت أول رجل أقترب منه طواعية بعد أن شعرت منذ نظرتي الأولى إليك بأنني أعرفك، وشعرت بدفء روحك، بالحنان في نظراتك وكلماتك، وثمة شيء آخر ربما سيزعجك إذا ما قلته لك.

نظر إليها منتشيًا من سيل هذه المشاعر الدافئة والاعتراف الرومانسي الجميل الذي لم يحلم بأن يكون بينهما، فقال بحنان وانفعال:

- لن أزعل منك، تحدثي.

نظرت إليه بحنان وقالت:

- أحسست وكأنك إنسان تائه، قلق، طفل كبير. صحيح أنت أكبر مني بسنوات عديدة لكن راودني إحساس أمومي نحوك، أنا محكوم عليّ بألّا أنجب لأن زوجي قد دخل السابعة والستين من العمر، وحين رأيتك أحسستك تحتاج لحناني، لرعايتي، أريد أن أكون كل شيء بالنسبة لك، لن أضغط عليك ولا أشوّش حياتك، سوف تجدني موجودة دون أن أزعجك، أريد أن أمنحك من حناني، أريدك أن تكون ابني، لا أدري، هل أنا سكرانة، هل أنا مجنونة!

- أدهشه ما كان يسمعه منها، أحسها تفيض طيبة وحنانًا، كانت أمواج الحنان تصطخب في أعماقه، أحس بشعاع طيبتها وبراءتها يخترقان روحه، فقام من مكانه وصار أمامها، وأخذ يديها فقامت، واحتضنها بحنان ومحبة كبيرة، والتصق جسداهما، كانت هي ناعمة قياسًا لطول قامته، أرخت رأسها على صدره، أخذ رأسها بين يديه وقبّلها قبلة حارة، بينما مدّ يده لا إراديًّا داخل بنطالها وداخل كلسونها، ومسك فرجها الناعم والرطب والأملس، فلم تستطع أن تبقى واقفة باستقامة، انهارت من دفقات تيار اللذة، لحظتها انتبه لنفسه، فسحب يده، وأخذ يقبل خدها ووجها كله، وأجلسها على الصوفا مرة أخرى، كلاهما كان متهيجًا، وكانا يلهثان، نظرا لبعضهما، كانت هي مهيئة، لكنه كان يتجنب هذه اللحظة، بقيا ينظران لبعضهما البعض، وقرر أن يوجه الوضع نحو اتجاه آخر، أخذ رأسها ووضعه على صدره، وقال بنبرة هادئة ممزوجة ببعض الإثارة:

- لكنك لم تخبريني، كيف وصلتما إلى هنا.

سحبت رأسها عن صدره وجلست باعتدال وأخذت تروي بقية حكايتها، لكنه من أجل أن يبقيها في حالة النشوة سكب نبيذًا في كأسها وقدمه لها قائلا:

- واصلي حكايتك، أحب أن أعرفك جيدًا.

نظرت إليه وفي عينيها تساؤلات وشوق وقالت:

- أنت قلت إنه لا أحد لديك، أتقبل أن أكون معك، سأكون حبيبتك وعشيقتك، وخادمتك وعبدتك، وأمك، لا أريد منك سوى أن تحبني، لا أطلب الكثير سوى حنانك واهتمامك بي، وسأكون لك كل شيء، تفعل بي ما تشاء، هل تقبلني أم ترفضني، أريد حبيبًا يفهمني، وها أنت عرفت عني كل شيء، وأنا متأكدة من أنك تفهمني، أنت إنسان طيب!..أرجو أن لا تفهمني بشكل سيء.. أنا امرأة في تفاصيل حياتي محافظة..بل مرعوبة من الرجال..فلا تفهم كلامي وجرأتي بالحديث معك بأني امرأة رخيصة وسهلة وألقي بنفسي على الرجال.. لكني لم أعد أحتمل..وأشعر أنك قدري..!

مدّ كفه إلى وجهها مداعبًا برقة، وقرب وجهها منه وقبلها من شفتيها قبلة رقيقة، وحينما انفصل وجهيهما سألته:

- ماذا قلت؟ لم تجبني.
- لقد أجبتك، قبلتي هي جوابي.

ابتسمت ببراءة وأخذت كفه بين يديها ودون أن ينتبه رفعت كفّه وقبلتها، أراد أن يسحب يده فهو غير معتاد على تقبيل اليد، لكنها أبقت على كفه وغمرتها بالقبلات الحارة، ثم رفعت رأسها مبتسمة كطفلة صغيرة عملت شيئًا نزقًا، وواصلت حكايتها:

- بعد أيام جاء أبي وفوجئت أنه جاء مع أمي، وفي مساء وصولهما، حضر إمام المسجد وبعض الوجهاء الذين يعرفهم آدم نعمتدار، وشهدوا بأني اجتزت الشهر وأنني تطهرت من دورتي الشهرية، وكما أخبروني بأن زوجي الأول طلقني بالثلاثة، وأنه ثبت لا أثار لأي حمل عليّ، ولا أعرف ماذا أيضًا، لذا تم زواجي من آدم نعمتدار. حينها لم تسع الأرض أمي من الفرح، وبعد أيام رجعا إلى القرية محملين بالهدايا والمال، وبصراحة شديدة، لقد كنت سعيدة أيضًا، وكان هو يمتعني بكل كفاءة، ويدللني كملكة، ولا يرفض لي طلبًا أبدًا، لكن الحال لم يستمر، المهم هو جلب لي المدرسات ليساعدنني على الدراسة، فقد كنت قد أنهيت الابتدائية فقط، لكن شهور السعادة والهناء قصيرة، فبعد شهرين من زواجي أخذت المرأة المسنة بتحريض من ضرتي العمياء تسيء التصرف

معي وتهمل خدمتي بقصد واضح لا سيما وأن زوجي صار يذهب يوميًّا إلى دكانه الكبير ليمارس تجارته لأنه أرسل ابنه المتنبى إلى المدينة البعيدة في الشمال، ولكي يخفف عني وحشتي اشترى لي جهاز تلفزيون وضعته في غرفة نومي.

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

- أتعرف أن التلفزيون وراء مجيئي إلى إيطاليا!

نظر إليها متعجبًا وسأل:

- لم أفهم!

- التلفزيون فتح لي نافذة لأرى العالم، لأرى رجالًا آخرين، ممثلين ومذيعين ووزراء وفنانين ومغنيين، وهو الذي جعلني أحلم بك، لقد أخبرتك أنني كنت مدللة زوجي، ومع أني كنت بمقام حفيدته إلا أنه كان يسمع كلامي، أخبرته بما تقوم به المرأة المسنة التي تخدم البيت وأنها تقوم بذلك بتأثير من زوجته العمياء، في البداية لم يصدقني، وأخذ يهوّن عليّ ويعتبر ذلك مجرد أوهام مني وغيرة لا أكثر، لكن فعلًا لم تعد المرأة المسنة تسعى لتنظيف الحجرة، ولا تغسل ثيابي!

(صمتت للحظات طويلة ظن أنها لا تريد أن تتحدث فقد بدا أنها شاردة في وادي ذكرياتها، لكنها واصلت)

- ذات مساء جاء ورآني غاضبة ومستاءة، سألني عن سبب زعلي فبينت له ذلك، ودعوته للتأكد، شاهد ثيابي غير المغسولة والإهمال في جناحي، فاستشاط غضبًا، ونادى على المرأة المسنة، فجاءت تهرول مرتبكة وسألها غاضبًا لماذا تهمل تنظيف الجناح وغسل ثيابي، وهددها بالضرب إذا لم تقل الحقيقة، ارتبكت المرأة، لم تجد جوابًا، أخذت تتعذر بكثرة مشاغلها، فجأة، نزع حزامه الجلدي العريض، رفعه عاليًا وهوى به على جسدها النحيل، انهارت المرأة المسكينة منكبّة كحطام على الأرض حتى أني ندمت لشكواي منها، إذ إنها صرخت مثل جرو صار بين الأقدام، وقالت إن السيدة الكبيرة العمياء هي التي أمرتها بذلك، فهوى عليها بضربة ثانية وهو يزمجر: "وبماذا أمرَتكِ أيضًا"،

فاعترفت المرأة المسنة بأشياء لم تخطر على بالي أصلًا، أشياء كلها لأذيتي، قالت بما معناه إن سيدتها أرسلتها إلى الرجل الذي يعمل السحر قرب المسجد من أجل أن يعمل سحرًا يدع الجن يسكنوا جسدي، وقالت إنها اتفقت معه على صنع سمّ تضيفه يوميًّا إلى طعامي وبمرور الوقت سأنهار صحيًّا وأموت خلال شهرين أو ثلاثة، وإن زوجته العمياء دفعتها إلى أن تبحث على بعض الرجال من اللصوص وذوي السوابق كي يقوموا باختطافي وهي التي تهيئ لهم ذلك، لكنها خافت أن يفتضح الأمر لأن هؤلاء اللصوص غير مأمونين، لذلك طلبت منها أن ترسل رسالة إلى ربيبها، طليقي، تدعوه للمجيء، فذهبت هي إلى السوق وطلبت من أحد الذين يكتبون العرائض والشكاوى بباب المحكمة، فكتب لها أحدهم رسالة طلبت فيها منه أن يأتي فورًا إلى جناح مربيته التي بمثابة أمه، وألّا يخبر أحدًا، وكانت النية أن تجعله يدخل جناحي، ويتحينون فرصة مجيئي ليثبتوا لآدم نعمتدار أني أخونه، لكن الابن خاف وارتعب من الفكرة، صحيح أنه كان هنا في جناح مربيته العمياء لكنه غادر مرعوبًا ولم يحقق ما خططوا له!

(صمتت مرة أخرى، وبعد لحظات واصلت)

- مع كل جلدة كانت المرأة المسنّة تكشف سرًّا خطيرًا، كنتُ مرعوبة مما أسمع، وبرغم أن ما كشفته ملأني بالغضب والخوف لكنني أشفقت على هذه المرأة التي كانت بمقام جدتي، فرجوته أن يكف عن ضربها، فصرخ بالمرأة، "هل سمعتي، لقد طلبت إيفا مادهوري بنفسها أن أكفّ عن ضربك بينما أنت وتلك العمياء تخططان لقتلها!"، وطردها، كانت لا تستطيع الحركة، وإنما أخذت تزحف على الأرض وتسحب جسدها النحيل الذي تحطم تحت ضرباته الحقود الغاضبة إلى أن غادرت الجناح، ولم يكتف بذلك، وإنما غادر غرفتي متجهًا لجناح زوجته العمياء! ما أن غادر حتى أخذت أعدّ نفسي لمتعة ليلة ساخنة على الرغم من خوفي وانزعاجي وغضبي مما سمعت، وبعد نصف ساعة عاد غاضبًا، لكنه ما أن رآني حتى انكسر غضبه، واقترب مني وأخرج من جيبه قنينة عطر شرقي مركبة عند العطار، حين شممتها شعرت بالرائحة

النفاذة، لكني لم أستطع أن أبدي امتعاضي لذوقه في العطور! تلك الليلة كانت نقطة تحول مصيرية في حياتي وحياته، لا أعرف إلى هذه اللحظة السرّ فيما جرى، فقد حاول معي زوجي تلك الليلة لكنه لم يستطع! كان مرتخيًا بشكل مخيف! غضب، واستاء، ثم فجأة قال لي: "ربما عملت لي العمياء الحيزبون سحرًا لتطفئ رجولتي كي لا أنام معك!"، صدّقته.

(صمتت، ارتبكت قليلًا، نظرت إليه بتردد، لكنها واصلت)

- تلك الليلة حاول مرات عديدة أن يولجه فيّ لكنه لم يستطع، وأخيرًا أثارني وأشبعني بإصبعه الكبير الثخين، وتكرر الأمر في الليالي المتتالية، طلبت منه أن يراجع الطبيب فغضب وقال سيفضحني في المدينة، الكل سيعرف علّتي، قلت له: اطلب من الطبيب ألّا يخبر أحدًا، ابتسم وقال: "ومن سيسد فم الصيدلاني ومساعديه"، وهكذا تفاقم الأمر! كنا نقضي الليالي بمشاهدة التلفزيون، كنّا نسهر إلى وقت متأخر، وأحيانًا كان ينام هو بينما أواصل أنا السهر إلى الصباح، لكني انتبهت إلى أنه صار يذبل، وصار منكسر النفس، ولم أكن أعرف أن للعجز الجنسي عند الرجل كل هذا التأثير على شخصيته! وذات ليلة شاهدت برنامجًا وثائقيًّا عن إيطاليا وطبيعتها ومدنها، وعن مدينة فلورنسا، فسحرتني، هي الجنة على الأرض، وكطفلة صغيرة فوجئت بشيء جديد أيقظته من النوم كي يشاهد معي البرنامج الوثائقي. كان ينظر لتصرفي كنزق طفولي، لكن لا أعرف كيف نطقت بجملة عفوية: "كم أتمنى لو نعيش هناك، في إيطاليا، في هذه المدينة التي اسمها فلورنسا"، كانت جملة عفوية لكنها كانت مثل كلمات القدر، إذ قال لي: "يمكنني أن آخذك إلى هناك، أريد أن أحقق كل أحلامك"! ماذا أقول لك، جملة عابرة وجوابها حدّدا مسار حياتنا، لحظتها برقت في ذهني فكرة فقلت له: "لماذا لا نسافر كي تعرض نفسك على الأطباء في إيطاليا"، وكان لاقتراحي تأثير السحر عليه، وأخذت الفكرة تنمو وتكبر في ذهنه، لكنه صار أكثر صمتًا، لم يخبرني بما يدور في رأسه، وبعد شهرين من ذلك! وذات صباح تعالى صراخ المرأة المسنة، فقد وجدت سيدتها العمياء ميتة في فراشها! راودني شكّ بأنه خنقها كما خنق زوجته الأولى المريضة بالصرع، فمن خلال

معرفتي به ومما شاهدته من جلد للمرأة المسكينة صرت لا أشك بأنه يمكن أن يقدم على القتل بسهولة.

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

- منذ أن دخل التلفزيون غرفتي، ومنذ موافقته على السفر إلى إيطاليا صرت أحلم بك، بمعنى أحلم برجل أحبه ويحبني، المهم، بعد انتهاء مراسيم عزاء زوجته العمياء بأيام جاء نهارًا، طلب مني أن أذهب معه، وذهبنا إلى مكتب محام، ثم إلى أستوديو للتصوير، وبصمت على بعض الأوراق، وحين سألته قال إنه يعد لنا جوازات سفر، وإنه اتفق مع أحد مكاتب السياحة على السفر إلى إيطاليا، إلى فلورنسا بالتحديد، وحتى الفندق تم حجزه لنا!

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

لا أعرف كيف باع أملاكه وسحب الكثير من أمواله المخزونة، وحوّلها إلى العملة الأوروبية وسندات، المهم، ذات نهار طلب مني لملمة حاجاتي النسوية وثيابي، وذهبت معه إلى العاصمة، إلى مطارها الدولي، وهكذا طرنا إلى إيطاليا! وبالمناسبة، أول فندق نزلنا فيه بعد وصولنا إلى فلورنسا كان فندق "ماتا لوكا" الذي أعمل فيه الآن، والذي قابلتني فيه.

- معقول! قال آدم بوناروتي مندهشًا.
- نعم، لكننا لم نبق طويلًا سوى شهر واحد، راجع خلالها أطباء مختلفين، بالمناسبة، لقد طلبنا من إدارة الفندق الاتصال بمكاتب المترجمين، ليجدوا لنا مترجمًا هنديًّا يجيد لغة مالايالم، فوجدوا لنا مترجمًا، اتضح أنه مسلم ومتدين جدًّا ومن كيرالا أيضًا، كان المترجم يدور معه بين الأطباء، بل صار صديقه، ومع أن الأطباء لم يجدوا سببًا عضويًّا واضحًا لعجزه الجنسي، وأعطوه حبوب الفياغرا، إلا أنه ظل عاجزًا، كان يلتهم الحبوب يوميًّا، يقترب متفائلًا، لكنه ما أن يبدأ الخطوات الحاسمة حتى يهمد كل شيء! كان على يقين بأن السحر الأسود الذي عملته له المرحومة زوجته العمياء هو السبب، وأن لعنتها تلاحقه، وطبعًا لم أكن أعرف ما كان يدور بينه وبين المترجم المسلم الذي كان في منتصف الخمسين من العمر، ولحد الآن لا أعرف سر علاقتهما الوثيقة هذه،

فقد صارا صديقين مقربين جدًّا، وصار يتركني في غرفتي بالفندق والتي كانت في الطابق الثامن ولا يأتي إلا بعد منتصف الليل، صار باردًا معي في التعامل، وصار لا يحاول أو يجرّب أن ينام معي، يئس من حالته! بل حينما طلبت منه أن أعمل وافق، وأحسست أنه استشار المترجم فنصحه بذلك! وخلال فترة إقامتنا في الفندق، وذات ليلة قال إنه قرر البقاء في إيطاليا، وإن صديقه وجد لهما شقة رخيصة معقولة سيشتريها وسيحصلان على الإقامة، لا سيما إذا استثمر شيئًا من الأموال التي معه في فتح محل أو دكان لبيع المواد الغذائية والتحفيات الشرقية والهندية! لم تسعني الأرض من شدة الفرح، لأن هذا يعني البقاء في إيطاليا، وفعلًا حدث ما كان يخطط له، اشترى شقة بسيطة في بناية قديمة بأطراف المدينة في "رفريدي" بالمنطقة الخامسة!

(صمتت للحظات، ثم واصلت)

- لا أعرف كيف أصف لك ما جرى من تحول على زوجي آدم نعمتدار، صار أكثر إهمالًا لي وبرودة في التعامل معي وكأنه يتجنبني، لكنه لم يسئ معاملتي! وحين طلبت منه أن أواصل دراستي رفض، لكنه سمح لي بأخذ كورسات اللغة الإيطالية! أنهيت مرحلتين في تعلم الإيطالية، وذات يوم جاء ليقلّني، وكان وقت خروجنا من المعهد، رأى بعض الشباب الأجانب قد خرجوا من المبنى حيث أدرس، وسألني من هؤلاء فقلت له أجانب يدرسون اللغة الإيطالية، فجن جنونه، وقال إنه كان يتصور بأن الصف مخصص للنساء فقط، ومنعني من مواصلة الدراسة، وبرغم عقليته المحافظة إلا أن إيطاليا وفلورنسا أعجبته جدًّا لا سيما وهو يجيد الإنكليزية بعض الشيء، لذا اتصل بمحاميه الذي وكّله عنه بأن يصفي أملاكه كلها، بما في ذلك الدكان الكبير الذي افتتحه لابنه بالتبني في مدينة كانور البعيدة في الشمال.

كان يستمع لها وكأنه يرى شريطًا سينمائيًّا لدراما شرقية مؤلمة، فسألها:

- وماذا جرى مع ابنه بالتبني؟

- لا أعرف، المسكين فجأة وجد نفسه بلا مورد ولا إرث، لكني سألته ذات مرة بطريقة غير مباشرة: "ألم تترك شيئًا وراءك؟" فقال لي بأن لديه أرض في القرية

التي هي قريتي أيضًا، ووكل والدي عليها لإدارتها أو تأجيرها للفلاحين، وكان هذا جزءًا من مكافأته لوالدي على زواجي منه، أما ابنه بالتبني فقد ورث من زوجته العمياء التي ربته واعتبرته ابنها إذ تركت له أشياء كثيرة أرض ومال".

صمتتْ للحظات طويلة حتى ظن أنها لن تواصل حكايتها، لكنها التفتت إليه وواصلت:

- هل تصدق أنني فعليًا بعمر حفيدة آدم نعمتدار لو كانت لديه ابنة متزوجة وأنجبت، لكني كنت أعشقه، وكنت أسعى وأتمنى أن أرضيه بأي شكل، حتى أني أخذت أقوم بأشياء لم تخطر لي على بال من أجل متعته! أحب الرجال الأكبر سنًّا بكثير، كنت أحس معه بالأمان، لكن غيرته دمّرتني، كان يشك بي، دون أيما سبب للشك سوى أنني بمرور الوقت والسنين صرت أنضج جسديًّا، كان يشتمني ويقول لي بأني شبقة مثل كلبة وإنني لا أصبر على حالي إلا إذا اخترقني القضيب، وإن زوجته العمياء وخادمتها المسنّة تمكنا من إسكان الجن في جسدي المشتعل، بينما سحروه وقتلوا رجولته، وإنه على ثقة بأني لم أصبر كل هذه المدة دون رجل، لذا فمن المؤكد أنني فعلتها وأفعلها سرًّا، ثم أخذ يحطّ من قدري ويوجه لي الإهانات والشتائم القذرة بلا سبب وجيه، إلى أن بتّ لا أحتمل فرددت عليه ذات مرة فضربني، بل صار الضرب عادة، كأنه وجد حجة لضربي، كان يقول لي بأن جسدي مسكون بالجن، وإنه يضربني ليطرد الجن من جسدي، ثم أخذ ينام خارج البيت، وحينما أسأله لا يجيبني!

هل تصدّق أنني صرت أغار عليه! وحينما كنت أسأله كان يجيبني مؤكدا "بأن ديننا لا يسمح للمرأة أن تحاسب زوجها وتسأله من أين جاء وإلى أين يمضي، وأن النبي قال بأن على الزوجة أن تعبد الزوج بعد الله، وأن تطيعه في كل شيء إلا في الشرك بالله"، أنا تربيت على هذه المفاهيم، لكن هل هذا موجود حقًّا في ديننا؟ كان هو يؤكد بأن النبي قال ذلك! أصحيح هذا! أمعقول أن تكون الزوجة عبدة لزوجها وتعبده بعد الله، أليست هي إنسان! قل لي أصحيح هذا!

كان آدم بوناروتي يعرف أن هناك حديثًا نبويًّا بهذا المعنى موجود فعلًا لكنه لا يؤمن بكل هذا الجزء المخيف من تراث العبودية، فهذا لا يعنيه، لذا قال لها بهدوء:

- إيفا مادهوري، لماذا أنت مهوسة بأن تعرفي أن ذلك صح أو خطأ، سأقول لك، لست فقيهًا ولا رجل دين، لكني قرأت ذلك، قرأت القرآن وتفسيره وقرأت الأحاديث النبوية، وهناك كتب مخصصة لعلاقة النبي بزوجاته وورد مثل هذا الحديث عن ضرورة طاعة المرأة لزوجها، لكن لماذا تضعين حياتك كلها ضمن نطاق ما قيل في أزمنة مرت؟!

نظرت إليه بارتباك وحزن وقالت:

- لأن حياتي وحياة أخواتي وحياة المئات بل الملايين من النساء في بلادي يتم التصرف بها وتوجيهها وفق هذه الأحاديث والسنن!
- ربما كان هذا مقبولًا في ذلك الزمان.
- نعم، لكنه غير مقبول في زماننا، والزواج بالقاصرات هنا في أوروبا كما تعرف يُعد جريمة يحاسب عليها القانون، ومرضا نفسيًّا.
- أعرف.

وضمّها إليه، انجذبت له بشدة، وطوقته أيضًا بذراعيها وهي تسأله بهمس وانفعال:

- هل تحبّني، هل تريد أن أكون حبيبتك، أريد أن أسعدك، لدي غيوم كثيرة من الحنان أريد أن أمطرها على رجل أحبه ويحبني ويغمرني بالحب، وقد اخترتك، هل تراني مجنونة لأني أعرض حبي عليك بما يشبه الفرض!

صبّ في كأسها ما بقي من نبيذ في القنينة ووضع القنينة الفارغة أسفل الطاولة، رفعا كأسيهما، قال لها بطريقة رومانسية:

- نخب الحب.

وعبّا ما في الكأسين إلى آخره. بهدوء نهض وهو يحضنها بذراعيه وأراد الاتجاه بها إلى غرفة النوم، لكن قالت له وهي في حالة انتشاء:

- ألا يمكننا أن نبقى هنا، أنا أخاف النوم!

نظر إليها باستغراب، لم يفهم كلامها، وفكر مع نفسه: "هل تقصد تخاف الجنس أم تخاف أن تنام؟!"، فسألها مستغربًا:

- لماذا تخافين النوم؟!

نظرت إليه نظرات خائفة وقالت ببراءة وكأنها طفلة صغيرة:

- لأني أرى كوابيس مخيفة، وأرى كابوسًا مخيفًا يتكرر في منامي منذ سنوات، حتى حين تكون لدي خفارة في الفندق فأنا لا أنام قط، على الرغم من أن الباب الخارجي يغلق في حدود الثانية بعد منتصف الليل، ويمكنني الرقاد لساعات حتى الصباح، وإذا ما عاد أحدهم متأخرًا جدًّا مصادفة فيمكنه قرع الباب أو الجرس الجانبي قرب الباب!

- ما هي هذه الكوابيس، وما هو الكابوس الذي يتكرر باستمرار؟

أخذته من ذراعيه وأجلسته على الصوفا وجلست إلى جانبه، وبحنان مالت عليه ووضعت رأسها على صدره وكتفه، وقالت بنبرتها الثملة:

- العقارب، والأفاعي، أراها بكثرة، أرى في المنام ثمة صحراء عند الظهيرة، وعلى التلال الصحراوية تزحف عقارب كبيرة الحجم، وأحيانًا أرى نفسي أسير في براري لا نهاية تحت ضوء القمر البارد، وحدي، وحدي في تلك السهوب الفضية المائلة إلى الزرقة، وأرى ثمة أشياء سوداء تقترب بسرعة، كتل سود تقترب وكأنها سيارات أو دبابات، لكن حين تصير على بعد عشرات الأمتار تتضح بأنها عقارب هائلة الحجم، فأفزّ من نومي لأرى نفسي مبتلة بعرقي، وأحيانًا أراها تطارد شيئًا لا أراه، وحين ألتفتُ إلى الوراء لأعرف الاتجاه الذي تريده العقارب أرى ثعبانًا ضخمًا هائلًا وكأنه ثعبان أسطوري يلتف على نفسه لكنه يقف عاليًا ورأسه يقارب السماء، العقارب تتجه نحو الثعبان الهائل الذي يبدو متهيئًا للمواجهة لكنه حذر أيضًا! العقارب الكبيرة الحجم بحجم الدبابات تتجه نحو الثعبان الذي كلما اقتربت العقارب منه يحل نفسه ويفك عقدته ليبتعد عن العقارب، العقارب يتغير شكلها وتتحول، فجأة، تستقيم العقارب وتتحول إلى بشر عمالقة يقفون على قدمين مع ذنب العقرب الكبير الذي يظل معقوفا ومهيئًا بإبرته اللامعة، وكذا الثعبان يصير عملاقًا بشريًّا برؤوس عديدة.

وأحيانًا أرى حلمًا يتكرر أيضًا كثيرًا ومنذ سنوات، وهو أني أدخل شقتي وأتجه إلى المطبخ أرى أرضية المطبخ مغطاة بالعقارب المختلفة الأحجام والتي يركب بعضها فوق بعض لكثرتها، وأرى أفعى الكوبرا تلتف على مقبض الثلاجة وكأنها تهرب من العقارب!

أحس آدم بوناروتي بالصدمة فاستقام بجسده، نظرت إليه وسألته:

- ما بك؟

- أنا أرى هذا الشيء بالضبط، ليس في المنام وإنما يبدو لي في الواقع، اليوم توجهت للمطبخ ورأيت العقارب تغطي أرضية المطبخ ورأيت أفعى الكوبرا تلتف على مقبض الثلاجة، لكنني حين نظرت ثانية لم أجد شيئًا، أليس غريبًا أن تتطابق رؤانا؟! وماذا أيضًا ترين في المنام؟

استغربت إيفا مادهوري ما سمعته منه، وقالت بدهشة حقيقية:

- عجيب أمر تطابق كابوسي وما رأيته أنت كرؤية! لكنني لا أرى هذا الكابوس فقط وإنما أرى حلمًا آخر يفزعني كثيرًا، أرى نفسي وكأنه وقت الغروب أو أحيانًا ما بعد منتصف الليل، وأنا في مكان بعيدٍ، ناءٍ، وحدي، لا أثر لأي مخلوق بشري أو حتى حيواني، وأنا هناك على ساحل بحيرة نائية أو ساحل نهر عريض متدفق أو كأنني أنزل من غابة بدائية مطلة على تلك البحيرة أو النهر، وهناك، في ذلك المكان النائي المخيف أنزل عارية إلى الماء المظلم، أنزل فيه شيئًا فشيئًا إلى أن يغمرني الظلام، فأفز من منامي مرعوبة! أخاف هذه الكوابيس، لذا لا أحب النوم! أبقى ساهرة إلى أن يهبط النوم عليّ في غفلة مني.

أحس آدم بوناروتي بارتعاشة سرت في جسده، احتضنها بقوة وقال لها بحنان:

- لا تخافي إيفا مادهوري، أنا معك، والليلة سأحضنك بحنان مثل طفلتي.

- ومثل حبيبتك.

- ومثل حبيبتي، تعالي.

وأخذها محتضنًا نحو غرفة النوم المعتمة إلا من مصباح شحيح الضوء جدًّا، كانت هي ثملة ونعسانة، فكّر هو بأنها محرومة من الحنان، وأحس بمشاعر حب نحوها، ومع ذلك أخذ يفكّر بتطابق كابوسها مع ما رأى اليوم، وأحس بالخوف من كابوس النزول إلى المياه المظلمة على ضفة بحيرة نائية خارج الجغرافيا.

***

لم تخرج حواء ذو النورين بعدما حصل في المطعم من غرفتها. فبعدما أنهت حمامها خرجت وهي ترتدي البرنس، استلقت على السرير العريض وأخذت تسترجع ما جرى لها، سألت نفسها كيف أمكن لها أن تختلق وهمًا بكل هذه التفاصيل الغامضة والحوارات العميقة، وما سرّ الخاتم الذي مسكته بيدها ثم اختفى في حقيبتها! فجأة، انبثق سؤال لم تنتبه له وهي تستحضر كل ما جرى لها في المطعم، فكّرت مع نفسها كيف أمكن للرجل الأشقر الوسيم أن يعرف أنها جاءت بحثًا عن الرجل المبارك الذي يسكن في الشقة التي فوق شقة صديقتها إيفا سميث! ولم تجد الوقت للإجابة عن هذا السؤال لأنه جرّها للتفكير بصديقتها إيفا سميث فقررت أن تتصل بها لتطمئنها على وصولها.

مدّت يدها، أخذت الهاتف النقال من حقيبتها واسترجعت قائمة الأسماء وضغطت على اسم صديقتها، استغربت حينما وجدت الموبايل مغلقًا. ظنت ربما هي في مكان خارج التغطية، أعادت الاتصال مرة أخرى، وكانت النتيجة نفسها. فكّرت أن تتصل لاحقًا. نهضت عن السرير والهاتف النقال بيدها، لم تكن تعرف ماذا عليها فعله، واتجهت إلى الكرسي أمام الطاولة التي تتوسطها مرآة كبيرة، جلست على الكرسي ووضعت الهاتف على الطاولة، نظرت إلى وجهها في المرآة، فكّرت في وهْم الأشياء، فالمرآة مستوية السطح لكنها في الوقت نفسه عميقة وتنبض بالحياة والحركة المعاكسة خارجها. حانت منها نظرة إلى الهاتف النقال، تناولته، اتصلت بإيفا سميث مجددًا، ومجددًا كانت الإشارة أن الجهاز مقفل على الأكثر.

محاولتها الاتصال بصديقتها شغلتها عن التفكير بما جرى معها صباحًا، صارت تفكر بنفسها. أعادت النظر إلى وجهها في المرآة، لم تكن تنظر لتتأكد من أناقة تفاصيل وجهها وإنما كانت تنظر في أعماق عينيّ هذه المرأة التي هي نفسها حواء ذو النورين، وكأنها ليست هي وإنما ظلها، وسألت نفسها، والمرأة الساكنة في أعماق المرآة وكأنها تخاطب امرأة أخرى: "ما الذي جاء بك إلى مراكش؟ ما الذي تبحثين عنه هنا بالضبط؟ أي رجل صالح مبارك وأي مغارة للسحرة جئت تبحثين عنها؟ ما الذي يمكن لامرأة مثلك في الأربعين أن تفعله ببقية سنوات عمرها المقبلة؟ إلى متى ستبقين هاربة من اسمك ونفسك وبلادك وتتخفين تحت اسم امرأة روسية لا تعرفينها؟ من تُرى هذه الإيفا بتروفنا تومانوفا التي تحملين اسمها وجواز سفرها؟ ثم، لماذا هربت من العراق؟

لماذا هربت من بيتك ومن وضعك الجيد والمستقر؟ صحيح عندك الآن من المال ما يمكّنك أن تعيشي لسنوات دون حاجة لأحد، لكن ألم تستعجلي مسألة الهروب؟ من قال إن ابنك انتحر؟! نعم، نعم، لكنك سمعت الرجل التابع لقابيل العباسي الذي صار زوجك بالقوة اتصل به، وأخبره بأن ابنك انتحر بعدما قتل المخطوفين في أقبية الشركة التابعة لزوجك، انتحر حينما شاهد الفيديو الذي صوروا عملية اغتصابك فيه؟ لكنك لم تشاهدي جثة ابنك؟ أليس ممكنًا أن يكون الأمر حيلة من زوجك القسري حتى تهربين ويبقى هو متمتعًا ببيتك؟ لا. لا. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فما حاجته لبيتك وهو أمير في الجماعات المسلحة؟ لكن يا حرقة قلبك على ابنك، ويا لتعاستكِ من أم!، كيف هربت لتنقذي نفسك دون أن تقومي بالواجب في دفنهِ بكرامة؟"، ...وفجأة ولا إراديًّا بدأت تبكي وتنوح وتلطم وجهها وكأنها الآن فقط، الآن وفي هذه اللحظة وهي وحدها هنا في غرفة بالطابق الثامن في فندق بمراكش، الآن فقط استيقظت على هول مأساتها وفجيعتها بانتحار ابنها!

حين أفاقت وجدت نفسها راقدة في سريرها، عارية، إلا من سروالها الداخلي، مغطاة بالشرشف الموجود على السرير، انتبهت إلى الظلام وراء النافذة! استغربت وضعها! كيف جاءت إلى السرير؟ ومتى؟ ومن نزع عنها البرنس وأبقاها في الكلسون فقط؟!

كانت الغرفة معتمة تقريبًا لكنها في الوقت نفسه يغمرها ضوء فسفوري أزرق مخضر، رفعت رأسها برفق عن الوسادة، رأت أن الضوء الأزرق المخضر ينبعث من شيء ما على الطاولة، دققت النظر في ذلك الشيء فانتبهت إلى أنه الخاتم الذي وجدته على طاولة الإفطار وظنته يعود للرجل الأشقر الوسيم، لكنه اختفى من حقيبتها، فكيف صار الآن على الطاولة، علمًا أن الحقيبة لا تزال ملقاة على الطرف الآخر من السرير؟! وكيف لخاتم صغير يتوهج بهذا الكم من الضوء الأزرق المخضر؟!

ظلت عاجزة عن التفكير للحظات، وحينما انتبهت لنفسها مدّت يدها إلى المصباح المنضدي على الطاولة المجاورة وضغطت على الزر فغمر الغرفة ضوء برتقالي شحيح. استقامت بجسدها جالسة على حافة السرير، التفتت إلى الطاولة فلم تجد الخاتم المشع.

ظلت لدقائق تضغط على ذهنها محاولة أن تستذكر كيف وصلت إلى السرير،

وكم مضى عليها من الوقت وهي نائمة؟! أمن المعقول أنها نامت النهار كله، نظرت إلى الساعة الجدارية فكانت تشير إلى الثامنة، "هذا يعني أنني نمت ما يقارب عشر ساعات! أيعقل ذلك؟"، سألت نفسها.

كانت هي تدرك بأن شيئًا ما غير طبيعي يجري معها، فجأة انبثق في ذهنها خاطر بأن كل ما يجري معها ربما وهْم في وهْم، وأنها تعيش الآن أحداث حلم ما، وهي ربما نائمة في مكان ما، ربما لا تزال في فرنسا، ولكي تتأكد مما يجري معها تناولت الريموت كونترول وضغط عليه فأضاءت شاشة التلفزيون عن نشرة للأخبار، وكانت مقدمة الأخبار تقرأ خبرًا عن انفجار كبير وبشع وقع في منطقة الكرادة ببغداد راح ضحيته المئات!

انتبهت للخبر ونسيت ما خطر على بالها من وهْم الأشياء، ظلت تتابع صور التقرير التلفزيوني أكثر مما تتابع ما يقال، فجأة انتبهت للمكان، وأصابتها دهشة صادمة، فالمكان قرب الشقة التي قدمت فيها الفدية لإنقاذ ابنها المختطف آدم، حينها أصرّ المختطفون لضمان عدم التبليغ عنهم أن يصوروها وهي في وضع مكشوف، رفضت في البداية لكنهم هددوا بقتل ابنها، وبعد رفض ومماطلة ومن أجل إنقاذ حياة ابنها وافقت، لكن أحد المختطفين لم يسيطر على نفسه فنزع كلسونها وأولج قضيبه فيها، بينما صوّر الثاني المشهد! وهو الفيديو نفسه الذي شاهده ابنها فيما بعد وانتحر على أثره! نعم مكان الانفجار بالقرب من البناية التي فيها الشقة!

فزّت فجأة في تلك اللحظة بالذات على رنين جرس الباب، نظرت إلى الباب وكأنها لم تسمع الرنين، حسبت الأمر وهمًا من أوهامها، لكن صوت رنين الجرس كان واضحًا، قامت ببطء لتلبس البرنس، وقفت عند الباب من الداخل وسألت بحذر:

- من هناك؟

- أنا من خدمات الفندق مدام جئتك بالعشاء.

فتحت الباب قليلًا، رأت شابًّا منحنيًا قليلًا على عربة تحمل صينية الطعام. فتحت الباب بشكل أوسع، لكن فوجئت بل وذهلت حينما نظرت إلى الشاب. كان يشبه ابنها آدم، وكأنه توأمه أو نسخة منه، ارتعبت، لا يمكن أن يكون هو، فهذا شاب مغربي يعمل في فندق بمراكش، بينما هي غادرت العراق منذ ثلاثة أشهر تقريبًا! ثم إنها هربت من العراق لأنها سمعت أنه انتحر فكيف جاء إلى المغرب!

وضع الشاب عربة الطعام قرب الطاولة، وضّح لها باللغة العربية لكن بلكنة مغربية:

- حضرتك لم تأت لتناول وجبة الغداء في المطعم، ظنناك قد خرجت إلى أن اتصلت بخدمة الغرف لتحجزي العشاء!

فهمت ما قاله لكنها سألت بدهشة:

- أنا اتصلت لأحجز وجبة العشاء؟!

نظر الشاب إليها مستغربًا وكأنه لم يفهم ما قالته:

- طبعًا مدام، وطلبتِ المشويات، والمقبلات اللبنانية!

لم ترد حواء ذو النورين. كانت مندهشة، ودّت لو تطيل الحديث مع هذا الفتى الذي وجهه يشبه وجهًا عزيزًا عليها، لكنها لم تعرف كيف تطيل الحديث فهي لا تريد أن تقول له إنها لم تتصل بخدمة الغرف أبدًا!

ظل واقفًا، كان ينظر إليها بإعجاب ورغبة مكتومة، لم تفهم في اللحظات الأولى سبب وقوفه، ثم انتبهت، أخذت حقيبتها من على السرير ومن محفظتها أخذت ورقة نقدية من فئة العشرة دولارات وأعطتها له، فأخذها بسرعة وهو يقول لها بحفاوة دون أن يكف عن نظرة الإعجاب إلى أنوثتها الطاغية:

- أي شيء تحتاجينه أخبريني به وسيكون عندك في لحظات، اسمي آدم!

ظل واقفًا من دون أن يغادر الغرفة، امتد الصمت بينهما للحظات، نظرت إليها نظرة تفيض بالتساؤل المشوب بالخوف وباستلطاف خفي بينما هو كان ينظر إليها وكأنه يريد أن يتقدم لاحتضانها بتهور، لكنه فجأة تراجع وغادر الغرفة.

كانت في حيرة شديدة من نفسها؛ كيف اتصلت بخدمة الغرف وحجزت طعامًا محددًا دون أن تتذكر شيئًا من كل هذا!

* * *

كانت الساعة قد شارفت الحادية عشرة ليلًا، وكان الجميع قد انتهوا من تناول العشاء، ثم الحلوى والشاي وتناول المكسرات السورية، كما قضوا سهرتهم بمشاهدة فيلم رعب أجنبي على قناة عربية مخصصة لبث الأفلام الأجنبية!

بعد انتهاء فيلم السهرة التلفزيوني نهضت المرأتان، تمنّتا للآدمين ليلة هانئة، واتجهتا إلى غرفة نومهما، بينما بقي الآدمان. آدم أبو التنك غيّر القناة إلى قناة عربية تعرض حوارًا سياسيًّا، بينما أخذ آدم الشبيبي مخطوطة "متاهة الأنبياء" ليواصل قراءة اعترافات حواء كازابلانكا ومغامرة آدم التائه مع حواء الورد.

# الفصل السابع

## الزفاف

دخلت حواء الورد إلى جناح أختها فانتبهت مباشرة إلى ارتباكها وتوترها، إذ بدت وكأنها تخبئ سرًّا وهي محرجة إذ لا تعرف كيف تعلنه، لم يكن يبدو عليها أنها مريضة وتعاني من آلام دورتها الشهرية كما أخبرتها عصر ذاك اليوم!

كانت الأخت تنتظرهما واقفة في وسط صالة الجلوس المواجهة للباب حيث يتوزع طاقم من الأرائك إلى جانب مائدة حولها أربعة كراسٍ تحتل جانبًا من الغرفة، أما غرفة النوم فقد كانت تقع جانبية حيث يقع المطبخ والحمام.

ما أن دخلت حواء الورد حتى طلبت أختها منها أن تجلس على الصوفا المقابلة لها، بينما شغل زوجها نفسه بفتح باب الثلاجة كي يتيح للأختين أن تتحدثا على الرغم من أنه يعرف الأمر جيدًا، وسمع زوجته تحاول أن تكتم توترها وهي تقول لأختها:

- لقد اتصل خطيبك آدم الشكّاك بنا مرات عديدة أمس! وكل مرة كان يسأل عنك، يقول إنه يتصل بك لكنك لا تجيبين فورًا وإنما تتصلين بعد ذلك بفترة، وقد تكرر ذلك لأكثر من مرة، وهو غير مرتاح من وجودك هنا في مراكش، وباختصار يريدك أن ترجعي إلى بيروت، وقد حدد موعد الزفاف في الأسبوع المقبل، بل إنه رتب كل شيء مع أهلي، حتى أنهم حجزوا المطعم، وأنهوا تجهيز البيت بحيث صار جاهزًا بالكامل للعيش فيه! ويريدك أن تعودي فورًا!

أدركت حواء الورد ماذا كان يقصده خطيبها حينما أخبرها بأنه تفاهم مع أختها وإن عليها أن تذهب إليها، لكن الذي فاجأها أن أختها أخبرتها بأنهم اتصلوا بمكتب الاستقبال في الفندق، وطلبوا إنهاء إقامتهم منذ الغد وتغيير موعد الرجوع، فاتصل

المكتب بالخطوط الجوية التي جاءوا عبرها وحددوا موعدًا جديدًا، يعني المغادرة غدًا نهارًا، لذا عليها أن تحزم حقيبتها!

كانت صدمة حواء الورد أكبر من أن تتحملها بهدوء وبرودة أعصاب، أحسّت وكأن شيئًا ما يجري في الخفاء من وراء ظهرها، بل للحظة راودها شك بأن أختها وزوجها ربما هما من أخبراه بغيابها طوال الوقت وخروجها المريب بالنسبة لهما! شعرت لحظتها بقشعريرة تسري في جسدها، ارتجفت، راودها شعور بأنها تنهار جسديًّا وتشعر بالاختناق.

انتبهت أختها للصدمة التي صعقتها فذهبت إلى المطبخ وفتحت الثلاجة، أخذت قنينة ماء ثم فتحت خزانة في المطبخ، أخذت قدحًا صبت فيه ماءً وحملت الكأس إلى أختها، انتبهت إلى أن زوجها قد غاب، ألقت نظرة على غرفة النوم القريبة فرأته قد استلقى على السرير ويشاهد التلفاز، فعرفت أنه يريد أن يمنحهما فرصة الكلام وتوضيح الأمور.

حين مدّت أختها إليها كأس الماء رفعت حواء الورد يدًا كان ارتجافها واضحًا. أخذت الكأس وقربتها من فمها، لكن ارتجاف يدها الذي كشف عن توترها الشديد لم يساعدها على أن تشرب منها، فقد اصطكت أسنانها بحافة الكأس بحيث أصدرت صوتًا، وحين أرادت أن تسيطر على عملية شرب الماء ارتبكت أكثر وسقطت الكأس منها على أرضية الصالة المرمرية فتهشمت.

جاء زوج الأخت من غرفة النوم على ضجيج تهشم الكأس، لم يقل شيئًا، لكنه رأى الزجاج المتناثر على الأرض، نظرت زوجته إليه وكأنها تطلب منه عدم التفوه بأي شيء والمغادرة، ارتبك قليلًا، ثم قال لها: أنا نازل إلى الإدارة كي أتابع أمر الحجز وتذاكر الرجوع! ولم ينتظر منها أي تعليق، وغادر الغرفة.

انتبهت الأخت الكبيرة إلى صدمة حواء الورد وأشفقت عليها لكنها كانت ملزمة بأداء دورها كأخت كبيرة في غياب الأهل، على الرغم من أن حواء الورد امرأة ناضجة ومطلقة ومقبلة على زواج ثانٍ لكنها تنظر إليها وكأنها بلا خبرة وتحتاج للتوجيه والنصيحة! ووجدت نفسها تتقمص دورها فقالت لها:

- اسمعيني حواء، أنا أعرف أنك غاضبة مما جرى، لكن خطيبك اتصل غاضبًا، وأنت تعرفين جيدًا أنه الشخص الوحيد الذي ينطبق اسمه على شخصيته،

آدم الشكّاك، وهو شكّاك فعلًا، وأعتقد أن أهلنا بل وحتى أنت لا تريدين أن تفرطي بهذا الزواج لأسباب تافهة. فلنرجع، وليتم الزواج على بركة الله وبعد ذلك تستطيعين المجيء إلى هنا أو إلى أي بلد آخر لقضاء شهر العسل. اهدأي الآن، ولا تجعلي أعصابك تتأذى من هذا الأمر.

كانت حواء الورد متوترة وغاضبة حين بدأت أختها بالحديث، لكن نبرة صوتها الحنونة والطيبة والتعاطف الصادق معها كان له التأثير المهدئ قليلًا عليها، ومع ذلك قالت باستياء وغضب حاولت أن تكتمه:

- لكن لماذا لم يحدثني أنا بشكل مباشر عن قراره هذا، لا سيما الزفاف، أليس لي رأي في هذا؟! حينما كنّا في بيروت وكنت أحاول إقناعه بتحديد موعد للزواج كان يتحجج بعدم تهيؤ الظروف بالنسبة له، وفجأة الآن يتصل ويحدد مع أهلي ومعك موعد الزواج دون أن يعلمني، في آخر اتصال له لم يخبرني شيئًا، بل كل ما قاله لي هو أن أتواصل معك لتفهميني كل شيء! أنا صرت أخاف من هذا الرجل، أنا لست زوجته بعد ولا أعيش معه تحت سقف واحد وهو يعاملني وكأنني غير موجودة ولا رأي لي، فكيف إذا صرت زوجته!

صمتت الأخت الكبيرة وكأنها تزن الموقف، هل تبوح لأختها الصغيرة بشيء ما من أسرارها أم تسكت؟! بيد أنها لم تستطع أن تحتفظ بدور الناصح أكثر فقالت لها:

- الرجال كلهم هكذا، الأذكى بينهم يكون رجلًا لعوبًا وإمّعةً، يتنقل بين قناع وقناع بسهولة وخفة، والأغبى بينهم يكون أهبل، خرتيتًا، حيوانًا بلا مشاعر، لكن في الحقيقة يا أختي اعرفي الرجال جيدًا، حتى الأذكى بينهم يصير أمام النساء أهبل ذا قرنين، وأهبلهم يتحول إلى بغل على عينيه الحنديري، يدور حول ناعور الماء أو الساقية، تستطيع المرأة أن تفعل بالرجل ما تشاء لو أرادت!

رفعت حواء الورد رأسها إلى أختها وحدّقت في وجهها محاولة أن تفهم ما وراء هذه الكلمات التي قالتها فلم تعثر سوى على ملامح جادة ممتزجة بسخرية خفية، لذا سألتها:

- ماذا تقصدين بذلك؟ إلى ماذا تشيرين عليّ؟

ارتبكت الأخت الكبيرة وقالت مبررة:

- لا أشير إلى شيء ما بالتحديد، وما ستفعلينه فيما بعد ستفعلينه أنت نفسك حتى دون أن تُعلمي أحدًا، لذا أقول لك، تجاوزي مسألة أنه لم يخبرك بموعد الزفاف ولم يسألك عن رأيك، لأنه ربما كان يتوقع ردة فعلك هذه، لذلك فضّل أن يخبرني أنا، وطلب منك أن تتصلي بي كي أخبرك وأقنعك، ربما هو لم يشأ أن يواجهك ويصطدم بك لأنه لا يستطيع أن يبرر موقفه وقراره أمامك، لا سيما وأنت كما تقولين كنت تريدين إقامة الزفاف وهو الذي كان يماطل، لكني أقولها لك، ربما غيرته وشكه هما دافعاه لهذا القرار!

كانت حواء الورد منشغلة مع أفكارها الداخلية، فجأة انبثقت صورة آدم التائه أمام عينها الداخلية، وبينما أختها كانت تواصل الكلام كانت هي تسأل نفسها وتحاورها:

- هل هذا يعني أنني لن أراه مجددًا؟! كيف أغادر غدًا دون أن أراه؟ كيف يمكنني أن أتواصل معه؟

انتبهت الأخت الكبيرة إلى أن حواء منشغلة مع نفسها فسكتت وظلت تنظر إليها محاولة أن تفهم ما يجول في نفسها، ورأتها تفتح حقيبتها وتأخذ الهاتف النقال منها وتطلب رقمًا دون أن تعير وجود أختها انتباهًا كبيرًا.

كانت حواء الورد قد طلبت آدم التائه، كانت تعرف أنها مغامرة جنونية، ومع ذلك كانت تتمنى وتأمل ألّا يرد عليها، بينما كانت أختها تعتقد بأنها اتصلت بخطيبها، فقالت لها منبهة بتوتر:

- ما هذا الجنون يا حواء! لماذا تتصلين به؟ إنه كلفني بإخبارك، وقد أخبرتك، لا تخلقي مشكلة!

فزت حواء الورد على تنبيه أختها فأغلقت الاتصال مباشرة، وشعرت بالارتياح لأن أختها ظنت أنها تتصل بخطيبها، لذلك أغلقت الهاتف وعطلته عن العمل خوفًا من أن يرد عليها آدم التائه، وفي تلك اللحظات دخل زوج الأخت وهو ينظر إلى وجهيّ الأختين متفحصًا وقال:

- كل شيء تمام، غدًا في منتصف الساعة الثانية عشرة تقريبًا نغادر إلى بيروت، وهذا يعني أن علينا الآن أن نلمّلم أغراضنا، إذ علينا أن نكون في منتصف العاشرة في المطار.

لم تقل حواء الورد شيئًا وتوجهت لتغادر الجناح، وعند الباب التفتت إليهما وقالت:

- تصبحون على خير، نلتقي عند الفطور!

***

كانت حواء الورد تمشي في الممر عائدة إلى غرفتها وهي تشعر بعجز وشلل في إرادتها، أحسّت كأنها تسير نحو هاويتها مفتوحة العينين، وانهالت الأسئلة عليها مرة أخرى: "ما الذي دفع خطيبي أن يعجّل ويقرر إقامة حفل الزفاف خلال الأيام المقبلة دون أن يبلغني؟! هل شك في شيء ما؟! أعليّ أن أنصاع له؟ أنا خائفة منه ومن هذا الزواج بنفس قوة رغبتي فيه؛ كي أتخلص من وضع المطلقة؟!".

فجأة، قررت أن تتصل بخطيبها، مدّت يدها إلى جهاز الهاتف النقال وأخذت تقلب الأرقام والأسماء إلى أن ظهر لها اسمه، أرادت أن تضغط على زر الاتصال لكنها تجمّدت، شعرت بالخوف يجتاحها، هي خائفة من مواجهته بأفكارها الرافضة لهذه العجلة في الزواج، وفي تلك اللحظات انبثقت صورة آدم التائه في ذهنها مرة أخرى فراودتها رغبة عارمة في أن تتصل به وتخبره بالتطورات الجديدة لوضعها، لكنها لم تتصل لأنها كانت قد وصلت إلى باب غرفتها.

وفي تلك اللحظة بالذات وهي تمد البطاقة البلاستيكية الإلكترونية لفتح الباب سمعت ضجيجًا خافتًا يشي بحركة مصحوبًا بموسيقى غريبة يأتي من داخل الغرفة، توجسّت، "ما هذا؟ من هناك يا تُرى؟" قالت لنفسها، ودفعت الباب بتهور الخائف المفاجئ! حينها شلّت بشكل كامل من هول ما رأت!

كانت الغرفة مضاءة، ضوء أحمر يغمرها، ورأت امرأة ما جالسة على حافة السرير وهي في ثوب نوم أبيض، لم يكن وجهها مكشوفًا، كان شعرها الطويل المنسدل على كتفيها يغطي وجهها، بدت كشبح مخيف، كانت تجلس على حافة السرير وقدماها قريبتان من الأرض.

بعد لحظات انتبهت المرأة الجالسة لفتح باب الغرفة، فاستدارت بوجهها بحركة بطيئة مستطلعة، نظرت إلى حواء الورد من خلال شعرها، بقت لثوانٍ وهي تحدق فيها، فجأة نهضت واقفة واستدارت نحو الباب، حينها شعرت حواء الورد بالرعب، فقد كانت المرأة هي نفسها حواء الورد!

توجهت المرأة نحوها، كانت حواء الورد تريد أن تغلق الباب وتهرب، لكنها لم تكن تستطع أن تحرك أقدامها، شعرت بشلل في ساقيها ويديها، كان قلبها يخفق وأنفاسها تكاد تخنقها، بينما كانت المرأة الأخرى تنظر إليها بعينين جامدتين، فجأة، وقفت المرأة أمامها على بعد متر، وبحركة آلية استدارت نحو باب الحمام الذي انفتح من تلقاء نفسه لها، فدخلته، وبحركة قوية أُغلق الباب، وتوقفت الموسيقى والضجيج الخافت، وغمر الغرفة ضوء أبيض اعتيادي.

ما أن دخلت المرأة الشبح إلى غرفة الحمام حتى أحست حواء الورد بالحياة تدب في جسدها، فغادرت الغرفة وأطبقت الباب ومشت بما يشبه الهرولة إلى جناح أختها، طرقت الباب، فتح زوج أختها الباب. اندهش حينما وجدها شاحبة ومرعوبة الملامح، دخلت من دون أن يأذن لها ويقول كلمة الترحيب! توجهت إلى الصوفا حيث كانت قبل قليل جالسة وألقت بنفسها عليها. ساد صمت بين الثلاثة، كانت أختها وزوجها ينتظران أن تفسّر لهما سبب الخوف المرتسم على وجهها وعودتها بهذه الطريقة الغريبة، انتبهت هي إلى أنهما ينتظران منها توضيحًا، فقالت بصوت مرتجف:

- هل لي أن أنام عندكما الليلة؟
- أهلًا وسهلًا بك، طبعًا، ولكن لماذا لا تنامين في غرفتك؟ سألتها أختها.
- فيها أشباح، أخاف أن أنام فيها.
- أشباح! قال زوج أختها كاتمًا ابتسامة ساخرة لكنها انتبهت لنبرة السخرية في صوته.
- نعم أشباح! هل أنا مجنونة كي لا تصدقني؟! لقد رأيت شبحًا في الغرفة قبل قليل.

لم ترض أختها من نبرة السخرية في سؤال زوجها وانتبهت لنبرة الغضب في جواب حواء الورد ولم تشأ أن يتوتر الوضع بينهما فقالت بهدوء مستفسرة:

- كيف كان الشبح!
- كان شبح امرأة.
- امرأة؟ هل رأيت ملامحها؟ هل عرفتها؟!

- نعم، رأيتها، لأنها نهضت عن السرير وتوجهت نحوي ثم استدارت ودخلت الحمام.
- وكيف كان شكلها؟ هل عرفتها؟ سألت أختها بفضول حقيقي.
- نعم، عرفتها جيدًا، كانت المرأة، هي أنا!
- ماذا؟

## الباب الثالث

## الضيفة من بغداد

طوى آدم الشبيبي المخطوطة ووضعها تحت وسادته وكأنه كان يريد أن يأخذ استراحة من القراءة، نظر إلى جهة آدم أبو التنك فرآه قد غفا بينما التلفزيون لا يزال يبث أخبارًا معادة. أحس برغبة في التبوّل، بهدوء قام عن مكانه، اقترب من صديقه، أخذ الريموت كنترول من جانبه وأطفأ التلفزيون. أعاد الريموت كنترول إلى الطاولة وتوجه إلى الحمام.

حين خرج من الحمام متجهًا إلى حيث ينام فوجئ بوجود حواء العذابي في المطبخ، كانت تبدو في ثوب نوم خفيف يبرز مفاتنها، بيدها كأس ما ترتشف منها بهدوء واصطناع وتنظر إليه نظرات تشي برغبة صريحة. ارتبك حين رآها؛ لأنه انتبه لسروالها الداخلي وهو يبرز من تحت الثوب الشفاف، كان يصارع نفسه في أن يحدثها أو يتجاهلها! لحظات سريعة لكنها كانت ثقيلة وطويلة عليه!

في تلك اللحظات بالذات خرجت حواء الفارسي من غرفة النوم وهي في حالة غضب مكتوم، يبدو أنها انتبهت لخروج صديقتها من غرفة النوم فلحقت بها لترى ماذا يمكنها أن تفعل! لكنها صُدمت حين رأت آدم الشبيبي واقفًا في منتصف الباحة الصغيرة، وقبل أن يدور بينهما أي كلام توجه إلى زاويته مستلقيًا على الصوفا، بينما اتجهت حواء الفارسي إلى المطبخ حيث ضيفتها حواء العذابي.

***

الوقت قارب منتصف الليل، حواء ذو النورين مستلقية على سريرها، تنظر إلى

شاشة التلفزيون بعينين فارغتين، تبدو أنها تحدّق في الشاشة بتركيز لكنها كانت شاردة الذهن، كانت تحلّق في سماوات أخرى!

لا تعرف كيف ولماذا، لكنها وجدت نفسها في بيت أهلها الضيق! استعادت لقطات ومشاهد تلك الطفولة التعيسة المشحونة بكراهية الأب القاسي الذي كان يرى في ولادتها لعنة وعقابًا إلهيًّا، إذ كان يحلم بولادة صبي وليس بنتين على التوالي، تتذكر الآن أنه حين ولد أخوها الذي تكبره بأربع سنوات صار الجميع يتملقه بل إن أمها كانت تخاف من أخيها الطفل الصغير ومن عدم إرضائه لأن ذلك يعني نقمة الأب عليها بحيث يصل إلى شتمها ونهرها وأحيانًا ضربها وهجرها في الفراش، ووجدت نفسها مشحونة بالحقد على أبيها وعلى تلك الفترة من حياتها! تتذكر الآن أنها كانت تكره والدها لكنها كانت مع ذلك تسعى لنيل رضاه!

كانت على ثقة بأن والدها يمقتها، وقد اكتشفت هذا الكره بعد ولادة أخيها، بل هي لا تذكر حتى قبل ولادة أخيها بأن والدها أخذها بأحضانه أو قبلها حتى ولو بالمناسبات كالأعياد أو حين تأتي بشهادة نجاحها وتفوقها على بقية الطلبة في صفها وما شابه، بل كان يطلب من أمها بأن تعاملها كصبي وليس كبنت، حتى أنه أخذها مرة إلى دكان الحلاق وطلب منه أن يجز ضفائرها ويقص شعرها قصة غلامية!

تتذكر أنها كانت تخاف والدها وتشعر بانقباض في صدرها وارتباك وتشنج في عضلات ساقيها بحضوره بل أحيانًا تنزل منها قطرات بول تبل سروالها الداخلي. كانت تكره وجوده وترتاح لغيابه، بل كانت تتمنى أن يسافر سفرًا بعيدًا ولا يعود منه، لا تريد موته لكنها لا تريد حضوره!

تداخلت ذكرياتها مع مشاهد الصور التي أخذت تنهمر كالشلال أمام عينها الداخلية، كانت تعيش لحظات طفولتها في غيابه عن البيت، لكن ما أن تسمع وقع خطواته وهو يجتاز العتبة حتى ينقبض قلبها، فتلملم ألعابها وتخفيها، وتتوجه لواجباتها المدرسية، وهكذا كانت تتلبس دور الذكر طوال أيامها حتى تلبسها بشكل ما! وفسرت ذلك الآن بشجاعتها في السفر لوحدها بين البلدان وعدم الخوف من الرجال! لكنها انتبهت الآن، الآن فقط، كيف أن لونها تكشّف من السمرة إلى اللون الحنطي مع مرور السنين، وكيف تفجرت شهوة الأنثى الوحشية الملعونة في داخلها حيث لا يرويها عشرات الرجال!

وكأنها تنتقم من دور الذكر الذي فُرض عليها قسرًا، لكنها في الوقت نفسه لديها من الكبرياء بحيث لا تبتذل نفسها وجسدها مع كل من هب ودب بل تكبت رغباتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، كان يمكنها السيطرة على نفسها إلا في اللحظات الحميمة نفسها، حيث تتصرف كعاهرة مبتذلة أحيانًا!

وفي خضم هذا السيل من التداعيات المفاجئة، تمنّت لو أنها الآن ترجع إلى تلك الصبية المراهقة التي كانت، تلك الصبية التي حلّقت طائرة في الفضاء فوق مدينتها بغداد، بغداد التي تحسّها الآن مدينة بعيدة مرعبة تذكّرها بأسوأ ذكرياتها!

مرّت حياتها أمام عينيها بلمح البصر كشريط سينمائي ممنتج بشكل فوضوي وعبثي، ومن بين لقطات هذا الشريط توقفت عند لقطة حيث وجه أختها الأصغر منها، أختها الرقيقة التي ماتت بالسرطان وهي في مرحلة توهج فترة المراهقة، فأحسّت بشوق مباغت لأختها التي كانت أقرب شخص في عائلتها إليها، لكن الغريب انها انتبهت إلى اللقطة التي تمر الآن أمام عينها، بأن أختها تمدّ يدها متوسلة أن تنقذها لأن شيئًا مجهولًا غامضًا وغير مرئي خلفها يسحبها إلى قاع مجهول، أرادت أن تمد يدها، لكنها سحبت من ذلك الشيء الغامض خلفها، واختفت أختها في القاع المظلم. ولم يبق من هذه اللقطة سوى فراغ مظلم، سواد مظلم!

انقبض قلبها وأحسّت برعشة تجتاحها لعجزها عن مساعدة أختها، وسارعت لاجتياز هذه اللقطة من الشريط، لكنها فوجئت بظهور لقطات لم تطرأ على بالها ولم تكن قد انتبهت لها سابقًا، فها هي ترى نفسها قادمة من الجامعة، دخلت الزقاق الذي بيتهم فيه، كانت في حالة رومانسية وهي تحتضن كتبها بيد وحقيبتها التي علّقتها بساعد يدها الأخرى، إذ توًّا أوصلها حبيبها آدم ذو النورين بسيارته، لكنها ارتعبت فجأة حينما فُتح أحد الأبواب الجانبية لمنزل قريب منها، خرجت منه فتاة شابة وهي تشتعل والنيران تلتهم جسدها، كانت النار قد التهمت الطبقات الخارجية من جسدها وتشكل شعلًا على ثوبها الملتصق بجسدها وبشعرها حتى أنها شمّت رائحة احتراق الشعر العطنة، كان الرعب والألم يتفجر من عيني الفتاة المشتعلة بالنيران التي لمحت وجهها لثوانٍ، كانت الفتاة تركض لا على هدى من هول النيران التي تلتهمها!

ركضت الفتاة المشتعلة مسافة عشرة أمتار ثم سقطت على وجهها، ومن البيت

نفسه انطلقت امرأة أخرى وهي تصرخ باستغاثة حاملة بطانية، ركضت المرأة نحو الجسد المشتعل والملقى على الأرض، وحين وصلته ألقت البطانية عليه!

جرى كل هذا خلال دقيقة كانت هي فيها قد شُلت عن الحركة من هول الصدمة وبشاعة المنظر، وخلال هذا الوقت خرجت النساء وتجمعن حول الجسد المحترق.

فكّرت مع نفسها بهذا المشهد الذي غاب عن ذاكرتها طول أكثر من ربع قرن، لماذا تتذكره الآن وكأنه يحدث الآن أمامها؟ تتذكر الآن أنها في ذلك الوقت ظلت مصدومة لأسابيع من هول المشهد، لكنها ظنت بأنها قد نسيته وألغته من ذاكرتها!

فجأة، وكأن ستارة في غرفة معتمة قد انسحبت عن النافذة لتكشف عن مشاهد لم تكن تتذكرها أبدًا، تذكّرت علاقتها بحبيبها الذي تزوجته، القاضي آدم ذو النورين الذي اغتيل ذات صباح بباب البيت، وانتبهت إلى أنها تتذكره الآن لكن دونما اشتياق خاص!

كانت تحبه لوسامته وأناقته ويُسر حاله وسيارته الحديثة أكثر من حبها له لذاته، كانت تشعر بأنها تكره عائلتها والطبقة التي تنتمي إليها ووجدت في حبيبها المنقذ والمخلص، كان يكبرها بعشر سنوات تقريبًا، وكان محاميًا شابًّا، لكنه كان يملك مكتبًا أنيقًا وكبيرًا للمحاماة، فهو ابن وحيد لأرملة ثرية تسكن في منطقة المنصور التي هي من أحياء الأغنياء وذوي النفوذ في بغداد، وتزوجته عن حب لكنها تعرف في أعمق أعماقها أنه ليس حبًّا حقيقيًا وعميقًا!

كانت قد تركت عائلتها التي تمقتها لا سيما بعد وفاة أختها بالسرطان، وكانت أخبار أهلها تصل إليها عن طريق زوجها الرقيق الذي كان يحس بضرورة أن تعرف كل ما يطرأ على عائلتها، فهي على الرغم من كرهها لهم لكنها ابنتهم وأن كبرياءها لا يشجعها على تذكرهم وإبداء الرغبة في معرفة ما يجري لهم بغيابها، على الأقل أخبار أمها!

تتذكر الآن أن أجمل ذكرياتها من زواجها هو عالم الرفاهية الذي صارت تعيش فيه، إذ كانت تسافر بمعية زوجها كل صيف إلى بلد ما، وأحيانًا شتاءً كانا يسافران أيضًا، وكانت تلبس أفخر وأغلى الثياب، لكنها اكتشفت أن الشياطين تسكن في جسدها، فقد تفجرت جنسيًّا، ولم يعد زوجها يستطيع إرواء نهمها الجنسي، كانت ترغب بأوضاع وممارسات تعرف أن زوجها ينظر إليها وكأنها ممارسات منحرفة وأوضاع مبتذلة، لكن بالنسبة لها رغبات جامحة لممارسات متقطعة مرت بها في طفولتها ومراهقتها على

سطح دارهم مع ابن جارهم، ولم ينقذها في إغلاق هذه البوابة من الرغبات المحرمة إلا ولادة ابنها آدم الذي أسماه والده على اسمه: آدم، فصار آدم آدم ذو النورين! ولكي تقمع شهوتها المتأججة ركّزت اهتمامها على تربية ابنها، تتذكر الآن أن المسكين زوجها انتبه لعدم قدرته في إرواء رغبتها المتأججة فأخذ يراجع الأطباء ويأخذ الإبر والفيتامينات المقوية، وكانت النتيجة بالنسبة له جيدة لكنها لم تكن كافية لها! إذ كان يمكن لنظرة شبقة أن تثيرها جنسيًّا أو مصافحة ما مع رجل يمكن أن يوقظ فيها أحلام يقظة شبقة! كانت تعتقد انها امرأة ملعونة!

هي الآن تتذكر كل شيء، تنظر لشريط ذكرياتها وكأنها ترى فيلمًا سينمائيًّا يخص امرأة أخرى وليس هي نفسها التي تستلقي الآن على سريرها في فندق بمراكش، فجأة، قفزت أمام عينها وفي ذاكرتها أشياء لم تنتبه لها في حياتها العاطفية شبه الجافة، فقد وجدت نفسها الآن في كافيتريا الجامعة، وانبثق في ذاكرتها وجه لطالب جامعي وسيم، تتذكر الآن بوضوح غريب أنه كان لا يسعى للتعرف إليها والتقرب منها كما يفعل الآخرون!

شاب وسيم لكنه فقير، حذاؤه المتهرئ كان يشي بذلك، ناهيك عن ملابسه المتواضعة، لكن وسامته الطاغية كانت تشفع له لمجالسة فتيات جميلات من طبقات أعلى كما هو واضح من ملابسهن وسيارتهن الخاصة التي تقلهن إلى الكلية! كانت الشائعات تدور حوله بأنه شيوعي!

الغريب أنها برغم عدم ميلها للفقراء مع أنها تنتمي لهم في ذلك الوقت، إلا أنها فوجئت برغبتها للتعرف على ذلك الفتى الفقير والوسيم، مع أنها كانت في ذلك الوقت على علاقة بحبيبها المحامي آدم ذو النورين! لكن الفتى الوسيم اختفى، وسمعت أنه اعتقل واختفت أخباره، لكن كيف انبثق الآن في ذاكرتها من عالم النسيان وبمشاهد متحركة وحية!

فجأة، اتسعت حدقاتها بنظرة دهشة أقرب إلى الرعب، انتبهت إلى أن ذاك الطالب الجامعي يشبه ابنها المغدور آدم آدم ذو النورين! كان حينها بعمره أيضًا! انقبض صدرها وأحست بالألم يعصر روحها، بل وشعرت بارتجافات قلبها، وغمرها شوق عنيف لرؤية ابنها، وشعور هائل بالذنب لأنها تركت جثته وهربت، بل هي لم تتحقق من انتحاره!

ولا إراديًّا وجدت نفسها مأخوذة بهذه الخاطرة العابرة، وتسلسلت الأسئلة تجر بعضها بعضًا في ذهنها حيث كانت تسأل وتحاور نفسها: أنا لست متأكدة من أنه قد انتحر فعلًا، أنا اعتمدت على الاتصال هاتفي أليس كذلك؟ وكانت تجيب على أسئلتها الذاتية: نعم كذلك! ألا يمكن أن يكون ذلك الاتصال الصباحي ليس إلا حيلة مدبرة من قبل قابيل العباسي كي يدعني أهرب وأترك له البيت وكل ما فيه من أموال؟ وتأتي الإجابة: ممكن، كل شيء يمكن توقعه من قابيل العباسي! لماذا لم أنتظر كي أتحقق من الأمر؟ ويأتي الجواب: صحيح، لماذا لم تتأكدي من صحة الخبر! ثم ألم يكن لازمًا عليّ لو كان الخبر صحيحًا أن أقوم بواجبي كأم تجاه ولدي الوحيد بأن أجهز له مراسيم دفن تليق به، ثم بعد ذلك أخطط للهرب بهدوء؟ وكان الجواب القاسي: أنت أنانية وتصرفت برخص، فكرت بنفسك فقط، وكان عليك أن تدفني ابنك في قبر يليق به! لكنها صرخت بصمت مع نفسها: ما الذي دفعني لأن أتصرف بهذا الغباء والأنانية والجبن فأترك جثة ابني خلفي لأنجو بنفسي، تُرى كيف دفنوه؟ وأين؟ آخ، يا ابني الحبيب، ويا حيدي! ولم تسمع أية إجابة!

ونزلت الدموع من مآقيها دون إرادة منها، وانبثقت في ذهنها من حيث لا تعرف صورة لمقبرة مخيفة تشبه المقابر العراقية، وتمنّت لو أنه قد دفن في مقابر تشبه المقابر الأوروبية التي تراها في الأفلام، مقابر مثل جنائن أو حدائق أنيقة، لكن سرعان ما سمعت صوتًا داخليًّا يهمس لها: الذكرى تهم الأحياء، ومنظر الزهور على القبور مشهد رومانسي كئيب لكنه لطيف، بينما الموتى موتى، أجساد متعفنة تحت التراب، البشر أنانيون حتى في الموت، البشر يفكرون بالموت من ضفة الحياة، أنت تفكرين بقبر تحيطه الزهور بينما ابنك قد انتحر، ألقى رصاصة على رأسه، رصاصة هشمت جمجمته ونثرت قطعًا من دماغه على الأرض!

انزعجت من هذا الصوت القاسي، وتراءى لها وجه ابنها الوسيم، وهو عائد من الجامعة حيث تكون قد أعدّت المائدة بما يشتهيه من الطعام، أو تستذكر نفسها وهي جالسة في الشرفة الخلفية المطلة على الحديقة وهي تستمع لصوت الأغاني الغربية التي تصلها من غرفته في الطابق الأول والمطلة على الحديقة، وكأن صوت الأغاني يصلها في غرفتها الآن، غرفتها حيث هي الآن في فندق بمراكش.

وبينما هي تائهة في فوضى المشاعر الحزينة والأسئلة الصاخبة سمعت طرقًا خفيفًا على الباب.

ظلت للحظات مندهشة، متوجسة، مستغربة أن يُطرق عليها الباب في مثل هذا الوقت، وبحذر شديد محاولة ألّا تخلق ضجيجًا يوحي بأنها مستيقظة، تسللت من السرير على أطراف أصابعها متجهة إلى الباب، ومن العين السحرية نظرت إلى الخارج فاندهشت لوجود الشاب موظف الغرف الذي يشبه ابنها يقف عند الباب وبيده صينية فيها فواكه وقنينة نبيذ. استغربت الأمر وظنت أن ثمة خطأ ما فهي لم تطلب شيئًا، لكن وجه الشاب أثار فيها رغبة غامضة وحنينًا وأمومة، وبحدس أنثوي أدركت أن هذا الفتى يسعى إليها بطريقة مقصودة وباهتمام خاص ومكشوف، والغريب أن هذا الأمر لم يضايقها أبدًا، لذا فتحت الباب بطريقة مباغتة، وسريعة، لكنها لم تجد أحدًا، صُدمت، مدت رأسها ونظرت في جانبي الممر فلم تجد أثرًا لأي مخلوق، كان الممر مضاءً وخاليًا ويغمره سكون بارد، فجأة انطفأت الأضواء في الممر وغرق كل شيء في الظلام، خافت، دخلت غرفتها وأغلقت الرتاج من الداخل.

***

لم يستطع آدم الشبيبي أن يغفو بسهولة، سمع المرأتين تتهامسان، لكنه لم يتبين بشكل واضح عما كانتا تتحدثان، انتبهتا إلى أنه لم ينم وإنما استل المخطوطة من تحت الوسادة وأخذ يقرأ فيها.

آدم الشبيبي كان متشوقًا لمواصلة القراءة. فكر كثيرًا بآدم التائه، بل فكر أكثر بقابيل الموسى طليق حواء صحراوي، هذا الثري المجنون الذي يتصرف وكأنه في فيلم من أفلام المافيا الأمريكية أو الصينية في أمريكا أو أقاصي آسيا كما شاهد ذلك في الأفلام، شخصيات دموية ذات نزوات غريبة، وأخلاق يصعب تصنيفها! ووجد نفسه يتابع حكاية هذه الجوقة من الشخصيات الغريبة، آدم التائه، حواء كازابلانكا الغريبة، حواء الورد، آدم الشكاك، قابيل الموسى!

## الفصل الثامن

# آدم التائه، البحر الميت

نظر آدم التائه بصورة تلقائية إلى شاشة الموبايل على الطاولة التي يجلس حولها مواصلًا قراءة اعترافات حواء كازبلانكا، انتبه إلى إشارة مكالمة فائتة من حواء الورد، لام نفسه لأنه وضع الجهاز على وظيفة الصامت فلم يسمع رنين الهاتف، وبسرعة وبلا انتباه للوقت ضغط على زر الاتصال لكن من دون جدوى، فجهاز حواء الورد كان مغلقًا.

أحس أن ثمة شيء غير طبيعي قد جرى معها، فقد التقاها هذا المساء، وأوصلها إلى الفندق، ولم يمض الكثير من الوقت على ذلك، بينما هي تتصل به هاتفيًّا وليس عبر رسالة إلكترونية مكتوبة وهذا يعني أنها أرادت أن تتحدث معه، وها هو هاتفها مغلق، غمره هاجس غير مريح لا يعرف كنهه.

ظل آدم التائه يفكر بهذا الأمر، لكنه لا إراديًّا وجد نفسه ينزلق للتفكير بنفسه ووجوده وما جرى معه!، وانتبه إلى أنه لا يتذكر الكثير عمّا جرى له في لندن، فكل شيء مشوش في ذهنه، ضبابي، لكنه يدرك أن ثمة الكثير من التفاصيل الفاجعة، والمواقف الخائبة، والنهايات المفتوحة!

ما يخص قصة وصوله إلى مراكش قد سمعها من المدعو آدم غضب الله مساعد القاتل الرحيم قابيل الموسى، وقد أدرك أن ثمة جريمة قد حدثت، أو تمثيلية لجريمة، وثمة تعاطف من قبل القاتل قابيل الموسى معه، تعاطف الخائبين المحبطين، تعاطف الأزواج المخدوعين قد أنقذه من الموت! حتى هذه المرأة حواء كازابلانكا تدّعي أنها تعرفه وأنه التقاها وكانت قريبة منه جدًّا، لكنه لا يتذكر ذلك بوضوح!

هو مشوش الذاكرة، ثمة حوارات ووجوه لنساء ورجال في ذاكرته، أحيانًا يتذكر

حوارات كاملة مع أشخاص، يذكر نصوص الحوارات بالضبط، لكنه لا يتذكر وجوه المتحدثين معه، فهي تبدو تحت الأقنعة بحيث لا يعرف ملامحها الأساسية بالضبط، انتبه إلى ملف كتب عليه "حوارات ونصوص"، ضغط عليه فانفتح، بدأ الملف مليئًا بنصوص وحوارات مبتورة، من هؤلاء الذين حاورهم، ومتى؟ وكيف تسنّى له أن يحاورهم!

ضغط على أحد الحوارات والمعنون "**حواء جزيرة الأطلانتس**"، قرأ بداية الحوار فأعجبته لغته الشعرية:

- مساء النوار الأبيض، وجدت الذخيرة فوق طاولة الليل في بيت أختي.
- مرحبًا.
- مرحبًا، كيف حالك أيها الرجل، لا أعرف البدايات، إنها مربكة، وغامضة دائمًا.
- نعم، هي البدايات هكذا..!
- في نصوصك وضوح مليء بالغموض!
- من أنت؟
- أنا..؟! أنا الوجع، أنا الرعشة الأخيرة، أنا القشعريرة، أنا الرمل الأزرق.
- وماذا أيضًا!
- أنا مجنونة، أحمل في أحشائي ألف امرأة أخرى، أحبهن جميعًا، أحب تلك التي لا تصحو من نومها، والأخرى العاشقة التي لا تخرج رجلها من البحر المالح وقلبها مغموس في بحيرة نائية، أنا امرأة المعنى، وامرأة الذاكرة، أعشق اللون، أصنعه من روحي وأبيعه للشمس والضفاف، أنا امتداد لخط مكسور، منكسر، أنا العتمة، أنا عود الكحل المار من عيونهن، أنا الذنب، الإثم.
- وأنا الباحث عن العرافة الغامضة.
- أنت أمام الباب المفتوح، أنا الصبر، لكنك تريد أن تصل إلى اللؤلؤة؟ سَل سأجيب، حتى لا نكسر قوانين المتاهة، توقّع أنت السؤال وسأتوقع أنا الإجابة، أكرس حياتي للغياب، أعاني غيرة زوج رهيبة، لا يقبل بصداقة الرجال، يراقب حسابي باستمرار.

- غريب، لِمَ يفعل كل هذا؟
- غيرة.
- هل أنت سعيدة؟
- لا.
- هل أنت راضية بما أنت عليه؟
- لا، إطلاقًا.
- طيب، هل تحبين زوجك؟
- أحببته جدًّا، وبعد أن ضربني انهارت البناية.
- متى كان ذلك؟
- منذ سبع سنوات.
- ومنذ سبع سنوات كيف هي علاقتكما؟
- هو يغلط، وأنا أسامح، هو يعتذر بشدة، ويحاول إسعادي بكل الطرق، يحبني كثيرًا، من خوفه عليّ فقد السيطرة على مشاعره.
- بدأت تبررين، يعني أنت يعجبك هذا النوع من العلاقة، هو يغلط، ثم يتذلل معتذرًا، يعجبك حبه لك، فتسامحين غلطه فيك!
- من أجل أطفالي أبيع العمر سيدي، دمعة واحدة في عين ابنتي قادرة على الفتك بقلبي، كان يمكن أن أرحل منذ زمن، ولكن أطفالي هم كل ما يربطني بهذا العالم، قلب الأم واحة أخرى لن يدركها الأدب، أنا أحب أن أرى الذل في الرجل، أحب أن أهينه، أن أكسر شوكته، وضلوعه، أريد أن أصرخ في العالم كله، أن الرجل شيء، والمرأة أشياء، أكره ما خلّفه القرآن في الرجل، وأكره غروره الكاذب، أحب أن أذلّه.
- يبدو في أعماقك قوة عظيمة لم تتفجر بعد.
- ستتفجر وسيصلك الرذاذ يومًا فلا تتعجب!
- أنتظر رذاذك.

- أشعر بأنني أميرة أنتظر خلف الباب لتفتحه، أما القدر لا تأتمن له، كاذب مخادع سارق، جرّاح، نحّات فاشل، فذات مرة حدث أن تحدثت مع أحدهم بهذه الطريقة فتحت له قلبي وأخبرته عن زوجي ومعاناتي وحين طلب مني أن أجاريه هدّدني بإرسال المحادثة إلى زوجي كدت أنتحر يومها، أنا مرتّقة بالكامل، لن تجد مكانًا لتضع فيه قبلة، وتمضي، هل تقبل بأن تقبّل الجروح؟

- يبدو أنك متعطشة للحب!

- نعم، لكنني شجرة مكابرة نسيتها القبيلة، كم مرة اشتهيت رجلًا رأيته مارًّا في الطريق، اشتهيت ممثلًا قبّل البطلة في الفيلم، كم مرة اشتهيت أن أكون امرأة لرجل آخر، كنت أريد لكل امرأة داخلي حياتها الكاتبة والرسامة والأم والصحفية والمعذّبة، اليوم رأيت نفسي معك بين يديك، نعم، أعطيك روحي، أحكي معك، وأنام على صدرك، أن تلعب بشعري، وأغمض عيني وأنام، رأيت هذا يمر أمامي، ولكن هذا حرام، إنه موت آخر.

- كيف ترين نفسك كامرأة؟

- آلة لتنفيذ رغبات الحياة ورغبات رجل.

- ورغباتك؟

- يعرفها الله وحده، ذلك همي، وغمي، لا تيأس، في داخلي رعب كافر من أي شيء، مررت بحرائق كثيرة.

- أتعرفين، نحن نولد بلا ذاكرة، لكن ماذا عن الأشجار التي لم تتشرف أو لم تبتلى برؤية إنسان! تلك الأشجار الوحيدة في فيافي الغياب! أشجار العزلة والليل.

- إنك تعذبني، تذوبني، وتعيد صياغة روحي بهذا الكلام، لا أطيق حوارًا عذبًا مع رجل مثل هذا.

انتبه إلى أن الحوار قد انقطع، حاول أن يستذكر وجه تلك المرأة التي حاورها بهكذا عمق ورمزية وتألق أدبي، لكنه لم يتذكر. قرأ نصوصًا أخرى وحوارات وبعض المقالات له، وتذكر أن حواء كازابلانكا أيضًا قد أخبرته بأنه كاتب روائي، مثلما أشار

قابيل الموسى إلى ذلك، وأخبرته بأنه أراد أن يكتب عنها أو يدخلها في روايته المقبلة، هو لا يتذكر شيئًا واضحًا من هذا القبيل! لكنها الآن تعيش اعترافاتها وقصتها في رواية، فهل هي فعلًا كتبت هذا النص أم أن هذه الأسفار المعنونة بـ "**متاهة الأنبياء**" هي روايته عنها، وهو كاتبها؟! وفعلًا بدأ يسأل نفسه، كيف وصل هذا النص إلى جهازه؟

أخذ يضغط على ذهنه كي يتذكر، أحسّ بصداع قوي، والتماعات كالبرق الساطع تجتاح ذهنه، ومشاهد صورية متحركة لشلالات ربما شاهدها في بعض الأفلام أو قناة ديسكفري، وصوت انهمار شلال المياه الصاخب، أحس نفسه وكأنه يطير فوق غابات لا نهائية، غابات الأمازون أو غابات التايغا في سيبريا، لا يعرف شكل نفسه، لا يدري هل هو طير أو جسد إنسان، لا، هو يدرك فقط أن هناك عينان تنظران للأسفل، وكل شيء مفتوح تحته، هل هما عيناه، هل هي كاميرا مركبة فضائية، هل هما عينا نسر! هو لا يعرف شيئًا عن ذلك، الذي هو متأكد منه أنه يرى الأشياء تحته!

أخذته هذه الرؤيا والمشاهد، شعر بخدر لذيذ وتوهان، قام عن كرسيه، توجه إلى السرير، جلس على حافته من الوسط وألقى بنصف ظهره عليه، سرح خارج الزمان والمكان، وشعر أنه يهبط، يهبط، يهبط، وبسرعة خارقة، ويغرق في ضباب أبيض، ويتلاشى!

حين أفاق من تلك الرحلة الغامضة، كان يشعر براحة كاملة، لحظتها لم يعرف كم مر عليه من الوقت وهو مستلقٍ، شعر بنشاط وحيوية، نهض عن السرير، توجه إلى اللابتوب، جلس على الكرسي حول الطاولة، حرك فأرة الجهاز قليلًا فأضاء الشاشة لون أزرق، أخذ ينظر إلى شاشة جهاز اللابتوب الذي أمامه، فتح نافذة اعترافات حواء كازابلانا التي تحمل اسم "متاهة الأنبياء"، أراد أن يواصل القراءة، لكنه وجد رغبة في نفسه أن يقرأ بعض ما جاء في ملف "حوارات ونصوص"، توقف عند نص بعنوان "وهم الزمن"، وقرأ:

وهم الزمن

**ما معنى الزمن؟ وأين هو؟ ماذا لو كنا في غرفة فارغة لكنها مضاءة بشكل دائم، لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد، كل شيء فيها ساكن بشكل مطلق، ولا نعرف شيئًا عما يجري خارجها، كيف يمكننا أن نرصد الزمن؟!**

**هل الزمان له علاقة بالوجود؟..هل الوجود، مكان؟..هل للعـدم زمان؟..هل للعدم، مكان؟**

شعر بالراحة وهو يقرأ هذه الأسطر، أحس بها قريبة من الأسئلة التي تشغله عادة، وسأل نفسه: بأية مناسبة كُتبت هذه الأسطر؟! ولم يتذكر، وواصل قراءة نص آخر بعنوان "البحر الميت":

**أنا البحر الميت،**

**لا يغرق فيَّ شيء،**

**أحتضن الآخرين بحنان**

**أضم كل شيء بمحبة**

**أنا البحر الميت**

**روحي مالحة**

**وقلبي أبيض كالملح**

**وقاعي حزين.**

أعاد قراءة النص، شعر أن النص يعبّر عن وضعه الحالي، هو بحر ميت، روحه مالحة وقاعه حزين، وفكّر بأن اعترافات حواء كازابلانكا التي كتبتها على شكل أسفار ربما ستساعده على تذكر نفسه! أغلق ملفه الشخصي وفتح ملف "متاهة الأنبياء" وواصل القراءة.

7

# السِّفر السابع

# حواء البارحي

مر ستة أشهر على زواجي، وسنة على تواجدي في النمسا، صحيح أن الأشهر الستة الأولى كانت تفتقد للأمان، لكن أشهر زواجي الستة مرّت وكأنها حلم عشته، شعور بالأمان، نظافة، اكتفاء مالي بل ثراء قياسًا لحالتي وحالة عائلتي، عالم لا مجال فيه للتحرّش الجنسي الفج كما في شوارع بلدي وكان هذا أكثر ما يضايقني هناك، وربما الشعور بالأمان الجسدي والنفسي هو الأبرز بينهما بالنسبة لي، ومع ذلك كنت أشعر أحيانًا بأنني لست أنا، وإنما أنا امرأة أخرى، أنا أحلم بأنني أعيش هذه الحياة التي أشبه بحياة رومانسية كنت أتمناها.

ومع ذلك، يحدث أحيانًا أن أصحو صباحًا وأجدني كئيبة، بل وعصبية دونما سبب محدد، فأعتكف في غرفتي كي لا أصطدم بأي شخص ممن يعيشون معي في البيت، كابنتي وفق القانون وعشيقتي إيفا جوردانو، أما زوجي آدم جوردانو فهو يمضي إلى عمله دون أن أراه صباحًا في معظم الأيام، باستثناء نهاية الأسبوع حينما يكون في البيت فنجتمع على المائدة!

بعد مرور سنة من تواجدي في النمسا، وبعد هذه الأشهر الستة من الزواج والتواجد اليومي والحميمي مع زوجي وإيفا عشيقتي، فقدت العلاقة وهجها وجاذبيتها الأولى، بالنسبة لي على الأقل! زوجي آدم جوردانو، مهذب جدًّا، شخصية تبدو مهيبة، يكون رقيقًا وطيبًا وحنونًا حينما يتعلق الأمر برغبته ونزواته الجنسية الغريبة بي! أو حينما يتوسل رضا ابنته لا سيما حينما نكون معًا لذا يكون رقيقًا وطيعًا ومتسامحًا مع كلينا!

لكن ما أن تُمس خصوصيته أو سلطته الزوجية أو معارضته في نزوة من نزواته حتى يتحول إلى وحش عنيف، غاضب، إلى شخصية مرعبة وكريهة، حتى أنني أستغرب وجود كل هذا الغضب الهائل في شخص واحد، غضب لو وزعته على عشرات الرجال لناءوا تحت ثقله! فحين يغضب تراه يلعن الجميع ويسبهم بأبشع الشتائم والنعوت، لكنه على الرغم من ذلك كان يهاب ابنته المراهقة ويتجنبها لحظة غضبه، فيذهب إلى غرفة نومنا أو إلى الحديقة، أو يأمرني أن أذهب معه إلى الكوخ في الغابة، وهناك يمارس معي بحيوانية وسادية وبشكل داعر، حتى يصل الأمر به حين يعجز عن الانتصاب يسعى إلى استخدام القضبان المطاطية أو حتى الحديدية ويولجها فيّ من كل الجهات! وبعد ساعة أو ساعتين ينهار، ويبدأ بالتوسل لي ويذل نفسه، بل يطلب مني أن أجلده على قفاه، وحينما أقول له إنني أسامحه لا يقبل ذلك مني ويصرّ على معاقبته، ولا يكون أمامي إلا أن أجلده بالسوط الموجع، ويحدث أحيانًا أن أقسو في الضرب معبرة عن غضب مكتوم في داخلي لطريقته المهينة في تعامله معي فأجلده بقوة حتى يبدأ بالصراخ.

علاقتي بعشيقتي إيفا جوردانو صارت معقدة، كنا نتبادل الأدوار في الجنس حينما نكون معًا، مرة أنا أقودها ومرة هي، لكن بمرور الوقت أحسست بالإشباع منها، بينما هي صارت تغار عليّ حتى من والدها، بل صارت تحرجني أيام عطلة نهاية الأسبوع حينما نجلس جميعًا حول المائدة معًا، فكانت أحيانًا تتجرأ لتمد يدها تحت ثيابي، بل وتتجرأ إلى أن تصل إلى ما تحت كلسوني وتداعبني دونما مراعاة لوجود والدها معنا، وربما ما ساعدنا في عدم إيقاظ شكوك أبيها آدم جوردانو هو معرفته بتعلقها بي وارتياحه لهذا التعلق، حيث كانت تحضنني بلطف أمامه، فكان يبتسم بارتياح ولم يجد هو في ذلك ما يثير الريبة!

صارت إيفا جوردانو مهوسة بي جنسيًّا وعاطفيًّا، كانت أحيانًا تتمارض ولا تذهب إلى المدرسة الثانوية، لتبقى معي في البيت، على الرغم من أن لدي صالون تجميل، لكن فيه من العاملات ما يكفي لإدارته دوني إلى حين ذهابي إليهن، وحين تبقى إيفا في البيت يتفجر هوسها الجنسي، فكانت تتحرش بي بطريقة أقرب إلى الاغتصاب، كانت تأخذني من يدي دونما كلام إلى غرفة نومها، تدفعني على السرير وترفع ثوبي أو تنورتي

أو تفك بنطالي، وتنزع عني سروالي الداخلي وتفتحني بقوة كمن يغتصب امرأة، وكنت أستسلم، وأتهيج، وأندمج، وكثيرًا ما كنت أنقلب عليها وأمارس عنفي معها أيضًا، لكنني وبعد مرور ستة أشهر أحسست ببرود رغبتي فيها، وطبعًا هذا الملاك الشرير انتبه لذلك، لا سيما حينما كنت أتركها تفعل بجسدي ما تشاء دون أن أقابلها باستجابة ساخنة، فأخذت الغيرة والشكوك تنهشها دون أن تواجهني بكلام مباشر، وأحيانًا ردود أفعالي وبرودي نحوها يجعلها مكتئبة لأيام، بل وتتصرف بعدوانية مع الجميع، وكانت تهددني بشكل مبطن بأنها ستكشف سر علاقتنا لوالدها، فأضطر بشكل غير مباشر إلى مطاوعتها والتمثيل العاطفي والجنسي معها!

طبعًا كما أوضحت سابقًا ساعدني زوجي وإيفا في الحصول على قرض كبير من البنك الذي يعمل فيه، وساعدني كثيرًا في إيجاد مكان مناسب وموقع ممتاز لافتتاح صالون التجميل والمساج الخاص بي، كما عيّن لي محاميًا ومحاسبًا يتابع كل أمور حساباتي الضريبية وأوراق ملكيتي الرسمية وما شابه.

عن طريق إيفا أعلنت عن حاجتي لموظفات مهنيات في مجال التجميل والمساج، تقدّم عدد لا بأس به من النساء اللاتي لديهن خبرة وإجازة مهنية في هذا المجال، بينهن نساء أجنبيات أسيويات، ولم أكن حرة في الاختيار بما يرضيني، فقد تدخلت حبيبتي الغيور إيفا لاختيار الأقل جمالًا وإثارة، لا سيما الأسيويات، التايلانديات، بحجة أنهن يُجدن المساج ولديهن طريقة معرفة عالمية، ولكي أكون أكثر سيطرة على صالوني، دخلت دورة مكثفة في المساج والتجميل، إلى جانب ثلاث دورات مكثفة لتعلم اللغة الألمانية!

بمرور الوقت، ولتواجدي في بيت لغته الأم ألمانية، لذا بعد ثلاث دورات مكثفة باللغة الألمانية دفع أجورها آدم جوردانو، وبعد هذه الأشهر الستة في بيتٍ أصرّ كل من فيه الحديث معي بالألمانية صار يمكنني التحدث بالألمانية بشكل لا بأس به، إذا لم أقل بشكل جيد، بحيث يمكنني التفاهم اليومي مع العاملات في صالوني وكذلك التحدث مع رواد الصالون!

الأجمل بالنسبة لي هو محاولتي المكثفة لقراءة كتب المفكر الذي أعشقه، وأقصد فريدريك نيتشه بلغته الألمانية الأم، مع إدراكي لصعوبة نصوصه، ومع ذلك كنت أشعر

بنشوة روحية حين أمسك كتابًا له بالألمانية، وأقول لنفسي بمباهاة: إذن أنا الآن صرت أقرأ بالألمانية، لغة نيتشه!

❋❋❋

أحيانًا نقترف أخطاءً بسيطة، نزوات صغيرة عابرة، لكنها تقود إلى كوارث هائلة وكبيرة في حياتنا، بل وتزلزل حياتنا بطريقة كارثية! وربما تحطمنا لو لم نمتلك القوة والإرادة لمواجهة تلك الأخطاء والاعتراف بها، وهذا ما جرى معي، حتى أنني تذكرت مثلًا عربيًّا سائرًا: ما طارَ طيرٌ وارتفع، إلا كما طارَ وقعْ! فبقدر سرعة ارتفاعي وتألقي ونجاحي غالي الثمن كانت سرعة سقطتي موجعة وفضائحية.

بصراحة لم أغامر بأية علاقة جنسية خلال هذه الأشهر الستة من زواجي، مع رغبتي المحمومة في ذلك على الأقل بإقامة علاقة مع آدم فون موتر الذي انجذبت إليه منذ ليلة وصولي الأولى إلى فيينا حيث كان أحد المدعوين الثلاثة من أصدقاء زوجي الأول وأخي آدم الخليل، لكني ومنذ ستة أشهر انهمكت بالقرض وبافتتاح الصالون والدعاية له، وانهمكت بشكل محموم وجارف وبشبق جهنمي في علاقتي مع ملاكي وشيطاني، مشمشية اللون وهائلة الفتنة، إيفا جوردانو، ابنتي قانونيًّا وعشيقتي، وبصراحة، مع أني مزدوجة الرغبة إلا أن آدم جوردانو بكل نزواته الغريبة وشبقه الحيواني إلا أنه كان يرضي نفسه فقط ولم أشعر معه بلذتي كما أشعرها مع ابنته إيفا، معها كنت أجد نفسي، لربما يمكنني هنا أن أتذكر بعض اللحظات التي تغمرني فيها نشوة تشبه النشوة الجنسية وهي حينما كنت أجلده بالسوط وهو يئن إثر أية جلدة قوية!

بعد ستة أشهر أحسست بأن زوجي السادي صار أقل هوسًا بي، وأقل اختلاء بي في الكوخ وسط الغابة، بل صار أحيانًا يسألني بطريقة تبدو أنها غير مقصودة وعفوية وعابرة عن الزبونات اللاتي يرتدَن الصالون، وأعمارهن، حتى أنه ذات مرة جاء الصالون على غير العادة، بحجة أنه يدعوني إلى مطعم إيراني تم افتتاحه، صحيح أنه يومها اتصل بي من مكتبه، لكنه بعد أقل من ساعة كان عندي في الصالون، حينها اعتبرت الأمر عاديًّا، فلديه الوقت المتاح قبل موعدنا المقرر بنصف ساعة.

في ذلك اليوم وقبل وصول زوجي بقليل دخلت الصالون فتاة محجبة، أنيقة، شرقية

الملامح، شهوانية الفم والأنف، ممشوقة القامة، كانت تتحدث الإنكليزية بخجل وحين رأت أن موظفة الاستقبال لم تفهمها جيدًا سعت للحديث ببعض الجمل الألمانية غير المترابطة، كانت مرتبكة وخجلة بسبب الحاجز اللغوي!

موظفة الاستقبال لم تفهمها لأنها لا تجيد الإنكليزية، وتعاملت معها ببعض البرود ربما لأنها محجبة، في تلك اللحظات كنت أشرف على سير العمل في الصالون، جئت إليها، سألتها بالعربية إن كانت تحتاج إلى أية خدمة، فرحتْ جدًّا حينما سمعت من يحدثها بالعربية، قالت إنها لبنانية، وهي هنا في دورة أكاديمية، وجاءت لتعمل مساج، فرحبت بها وعرفتها بنفسي، وقلت لها بأني شخصيًّا سأقوم بعمل المساج لها، فغمرتها الفرحة وأحست بشيء من الأمان، وطلبت منها أن ترافقني.

حين وصل زوجي كنت منشغلة مع الفتاة اللبنانية المحجبة في كابينة المساج، وكانت الفتاة اللبنانية مستلقية على السرير عارية إلا من كلسونها الشفاف، كانت مستلقية على بطنها، مادّة رأسها الذي لا يرى منه سوى شعرها المجعد الكثيف في الفتحة الخاصة بالوجه في مقدمة السرير، وكنت قد أخذت معها وقتًا أكثر مما هو مخصص لجلسة المساج في العادة!

كانت فرصة طيبة للتعارف بيننا، تحدثتْ عن رحلتها وإقامتها في فيينا وعن المشاركين معها في الدورة، وعن يومياتها، وكيف أنها منذ شهرين هنا، زارت خلالها كل الأماكن السياحية والمتاحف وشبعت دورانًا في المدينة! وكيف أنها صارت تقضي وقتها في غرفتها لأنها شبعت من كل شيء، ولم تجد أحدًا تتحدث معه بالعربية أو حتى بالفرنسية أو الإنكليزية التي تجيدهما بما هو قريب لنفسها واهتماماتها من موضوعات!

نشأ بيننا انجذاب شخصي واطمئنان وثيق، لكني وبصراحة ما أن تعرت حتى أحسست بجاذبية جنسية لجسدها المتناسق الذي يميل للنحول، لا سيما بعد أن نزعت الحجاب وتناثر شعرها الأسود المجعد المثير على كتفيها، نعم، أنا يثيرني الشعر وكثافته وطريقة تسريحته وانسداله يثيرني جنسيًّا، هل أنا غريبة الأطوار، ربما!، بل تثيرني الأحذية أيضًا، فحذاء الرجل وجودته وموديله ونظافته تثيرني، هو أول ما أنتبه له في الرجل!

حين أبلغتني موظفة الاستقبال بأن زوجي السيد آدم جوردانو هنا كنت قد انتهيت من مساجي لها بل وأضفت عليه فترة أطول كي نتجاذب أطراف الحديث وأتأمل جسدها

الذي أثارني حقًّا، لكن لا أعرف ما الذي اجتاحني، إذ راودتني رغبة بالمشاكسة في أن أتأخر عليه، فطلبت من الفتاة اللبنانية أن تستلقي على ظهرها، وجلست أنا على كرسي واطئ عند جهة رأسها، وبدأت تمارين المساج لوجهها!

كانت هي مغمضة العينين، لذا أخذُت أتأمل أناقة وجهها وملامحه الجنسية الواضحة، الشفتان الممتلئتان نوعًا ما، الفم العريض، العينان الواسعتان، وشعرها، شعرها الأسود والمجعد الكثيف الذي أخذت بأصابع كفيّ أتخلله مبديةً إعجابًا شفويًّا عن جماله، ثم وجدت نفسي أسوح بنظري في معالم جسدها، أتأمل النهدين الصغيرين، الحلمتين البارزتين والمحاطتين بهالة بنية قاتمة، البطن المشدودة، والساقين الأنيقتين وما بينهما من فرج بدا لي صغيرًا وبريئًا، وتخيلته أمامي عاريًا، ونظيفًا، وكأنني ما رأيت جسدًا أنثويًّا قبل هذا الجسد. وتداخل جسدها في مخيلتي مع جسد إيفا جوردانو! وانتبهت لنفسي، فهذا لا يجوز مهنيًّا، لكني لم آبه لذلك، فأنا لا أعترف بأية أخلاق، حياتي كذبة كبيرة وتراكم للأكاذيب والأقنعة. وجدت نفسي أفكر في شخص آخر، كاتب التقيته في بلدي، شخص عابر جاء في زيارة ليبحث عن موضوعات لروايته، وفي تلك اللحظة فكرت لو أني التقيته مرة أخرى لحدثته عن هذه اللحظة التي خطر هو خلالها في بالي!

أخذت أدلّكها برقة ونعومة وبحركات مدروسة، مسست جبينها، وحاجبيها، وخديها، وبحركة رقيقة أخذت أتلمس حواف شفتيها، ثم مرة أخرى أخذت أدلك شعرها الأسود المجعد والكثيف الذي تأسفت أنها تخفيه تحت الحجاب، وفي تلك اللحظة أحسست بارتعاشة جسدها، لا أعرف ما الذي جرى لي حين انتبهت لرعشة جسدها، راودتني رغبة في أن ألتهم هاتين الشفتين، لكني أمسكت نفسي، خفت من أية ردة فعل على سلوكي الطائش، فهذا مكان عملي، ولن أسمح لنفسي بأن أستغله في نزوة طارئة! لذلك أنهيت مساجي لها بشكل مفاجئ، هي لم تنتبه لتهربي المفاجئ عن المساج مع علمها أن وقت المساج الفعلي انتهى، لكنها علّقت بأنها ارتاحت هذه المرة بشكل لم يسبق لها أن شعرت به في أي مساج جربته في لبنان قط، وفجأة وجدت نفسي أقول لها، بأنني أجرّب طريقة خاصة وجديدة في مساج الوجه والجسد، وإذا أحبّت فلتأتِ غدًا لأقوم لها بمساج خاص على طريقتي الجديدة، وهذه الدعوة ستكون مجانية كعربون للصداقة التي صارت بيننا! ابتسمت هي، لم ترفض، وقالت لي بأنها ستأتي للصالون

كلما صار لديها وقت لأنها ارتاحت لي أيضًا، وإنها تتمنى أن تأتي كل مرة بعد الانتهاء من التزامات الدورة التي لم تكن يومية! وإذا لم يكن لدي مانع فإنها تحب أن تدعوني إلى مطعم أو مقهى في المدينة! اعتذرت فورًا لالتزامي بالصالون لكني وعدتها بأنني سأجد الوقت بالتأكيد كي نلتقي خارج الصالون، لكني في الحقيقة ترددت من تلك الدعوة لأن إيفا جوردانو الغيورة حضرت في ذهني، لكننا اتفقنا على موعد في الغد.

لا أعرف ماذا أقول، الآن وأنا أكتب هذه الأسطر أنظر لنفسي وأنا في تلك اللحظة وذاك المشهد، فلا أعرف نفسي! كنت سعيدة جدًّا لأني سأقوم لها بمساج لكامل جسدها ووجهها، وسيتاح لي باسم الطريقة الجديدة أن أمسّها بحرية، وأسعدني قولها بأنها ارتاحت لي وستأتي غدًا، انتظرتها إلى أن ترتدي ملابسها، انتبهت لنظراتي الفضولية المليئة بالرغبة لها وهي تلبس ثيابها، وبعد أن خرجت نزعت معطف العمل ولبست ثيابي وخرجت. كان شعور بالفرح يغمرني.

حين خرجت لأقابل زوجي وجدته ينظر إلى العاملات والزبونات على السواء بنظرات متأملة، تبدو محايدة، لا تكشف عما يفكر فيه نحوهن، لكني أعرف أنه يفكر بأن آتيه ببعض النسوة بطريقتي، أي أن أصير قوادة له، لأنه فاتحني بالأمر ذات مرة بشكل عابر وكأنه يمزح لكنه كان يقصد ذلك، لذا فإن زيارته للصالون اليوم غير بريئة!

ابتسم لي حين رآني، وطبع قبلة سريعة على شفتي أمام الجميع، ولم يبد على وجهه ما يشي إلى انزعاجه من تأخري عليه، خرجنا، وفي السيارة فاجأني حين سأل عن الفتاة اللبنانية المحجبة وعما تريده في صالون للتجميل وهي محجبة. استغربت سذاجة سؤاله وقلت له بأنها جاءت لتأخذ قسطًا من المساج، ثم إن المحجبات نساء أيضًا، ولهن أجساد، لكنها مخفية، وهذه الأجساد تحتاج للعناية أيضًا، سواء فيما يخص إزالة الشعر من مناطقه الخاصة أو التدليك أو قص الشعر وغسله والعناية به أو تقليم الأظافر وعمل البوتكس وكل ما تقوم به المرأة السافرة! فلم يعلّق سوى أنها مثيرة على الرغم من حجابها!

***

المطعم أنيق، ومائدة الطعام المفتوحة زاخرة ووافرة، والخدمة ممتازة ومليئة

باللطف والمجاملات التي تبدو صادقة، لكن ما أثارني أن وجه الفتاة اللبنانية بحجابها يظهر أمام عيني الداخلية، فمها الشهواني، عيناها الكبيرتان، نظرتها العميقة والزجاجية!

أعجبني حضورها، عادة أنا أعرف نفسي ورغباتي، لكن هذه فتاة محجبة، لبنانية، تعرف الفرنسية بشكل ممتاز وهي هنا في دورة وتبادل أكاديمي جامعي كما أخبرتني، ولم تتحدث عن حياتها وحيرتها! فأنا لا أعرف كيف تفكر وما هي حياتها السرية والشخصية!

كان زوجي منهمكًا بارتشاف النبيذ وتجريب كل الأكلات الشرقية الغريبة بالنسبة له وسط موسيقى إيرانية جميلة، بينما أنا كنت أغادر الطاولة بحجة أن أختار لنفسي بعض الأصناف، وفي الحقيقة كنت أريد الاختلاء مع نفسي ومع صورة الفتاة اللبنانية المحجبة، كنت مرتاحة لحضور صورتها في أعماقي، وهذا ما أضفى عليّ شعورًا من الارتياح والمرح، مما شجع زوجي بأن يقترح عليّ الذهاب إلى الكوخ وسط الغابة لأنه يشعر برغبة وهيجان!

لحظتها أدركت أن حضوره إلى الصالون ربما أثار مخيلته، وكان في حالة انفعالات مرحة تكشف عن هيجانه الذي أعرفه وأتوقعه، وندمت لحظتها على إبداء مرحي وارتياحي الزائد، لكن فات الأوان، فمن شدة هيجانه قام فجأة معلنًا انتهاء جلستنا في المطعم كي نتوجه إلى الكوخ.

في الطريق اتصل بشخص ما، وطلب منه الحضور إلى المكان المحدد، لم أكن أتوقع ما يجري مع أني خمنت ذلك، ولأول مرة أشعر بخوف من زوجي، أحسست أنه غريب نوعًا ما وأني لا أعرفه تمامًا!

وصلنا الساحة التي أمام الكوخ في وسط الغابة، لكنه لم ينزل، بقينا في السيارة، كان منفعلًا، يحاول أن يسيطر على الموقف في تلك اللحظات ويبقيني تحت هيمنته، التفت نحوي وقال لي بأنه يريد أن يرى شخصًا آخر معي في السرير وأنه يريد أن يكتشف مدى حبي له، فإن تجاوبت مع الشخص الآخر بشبق فهذا يكشف بأن علاقتي معه لا تتعدى المصالح المادية لأنه لا يهمني أي رجل يخترقني، وفكرت مع نفسي بأنني إذا لم أستجب للرجل الغريب الذي سيكون معي فهذا يعني أنني أحبه هو، ولا أشتهي غيره!

لحظتها أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، فأنا أعرف نفسي، سأكون الخاسرة، فأنا في معظم الأحيان، سواء كنت معه أو مع غيره فإني في حمى شبقي، يحضر رجل

معين في ذهني، آدم التائه، الذي أحسه رجلي الروحي، وأحيانًا أتجاوب مع الشخص الذي معي حين أتخيله حاضرًا في ذهني، ذلك الإنسان الذي تغلغل في أعمق أعماق لا وعيي ومعه فقط أحس أنني إنسانة سوية! علمًا أنني أتحول في حمى الشبق إلى عاهرة حقيقية، أمارس بكل إباحية وبكل ما يخطر على البال من فنتازيا الجسد!

ووجدت نفسي في ورطة، ولكني أعرف أنني ماكرة جدًّا، بل عبقرية في المكر، لذا مسكت يده ورجوته بألّا يغامر هكذا، فأنا أحبه هو فعلًا، ولا أقبل بعد أن تزوجته وأقسمت يمين الإخلاص له أن أخوض مثل تلك التجربة، لأنها ستؤذيني، وسأشعر بالنجاسة والخيانة طول عمري، وانحنيت متوسلة لأقبل يده، بل نزلت دمعة من مقلتي على كفه، كنت بارعة، بل مذهلة في التمثيل، حتى وجدت أن كفه ارتجفت، وظل صامتًا دون أن ينبس بأية كلمة، وفجأة، أدار محرك السيارة، وانطلق راجعًا بسرعة وكأنه يخاف أن يتراجع عن قراره بإلغاء التجربة، وفي إحدى المنعطفات رأينا سيارة تواجهنا، أبطأت السيارة المقابلة في السير، وأبطأ هو أيضًا، لمحت شابًّا ذا ملامح شرقية وسيمة، وخمنت حينها أنها سيارة الشخص المقصود وهو من عليه أن يكون معي!

وهكذا، انتبهت لنفسي، بأن عليّ أن أكون حذرة في الكشف عن مشاعري، وأصطنع عدم الارتياح والكآبة أو السكونية معه دائمًا!

حين عدنا إلى البيت رأيت عشيقتي إيفا في الصالة وهي في حالة توتر وغضب مكتوم، وما أن رأتنا حتى قالت بنبرة فيها سخرية مبطنة: أهلًا بالعاشقين الرومانسيين!

امتصصت سخريتها المبطنة، وأخبرتها بأننا كنا في مطعم إيراني أنيق تم افتتاحه حديثًا، فسألت بعتاب عن عدم دعوتنا لها، تداركت الأمر وقلت لها بأن الأمر جرى سريعًا وبشكل مفاجئ، وعدتها بأن أذهب بصحبتها إلى المطعم نفسه في يوم آخر!

كنا متوترين جميعًا، زوجي لم يبق في البيت، فبعد لحظات قال إن لديه موعدًا، وعلينا ألّا ننتظره لأن لديه عشاء عمل، وأحسست أنه يهرب من نفسه ومني ومن ابنته! بعد مغادرته هدأ الجو قليلًا، إيفا استرخت منذ لحظة خروج والدها وإعلانه عدم انتظاره على العشاء.

جلستُ على الصوفا المقابلة لها، فجأة قالت لي بهدوء مشوب بحزن خفيف:

- لقد مررت عليك اليوم في الصالون، قالوا لي إنك خرجت مع أبي، استغربت

ذلك، ما هذا الحب الذي هبط فجأة على قلبك وقلب أبي، هو لا يعرف غير قضيبه، أما بالنسبة لك فأعرف أنك اضطررت للزواج من أبي لمصلحتك وليس حبًّا له، وهذا من حقك نسبيًّا، وطبعًا إلى جانب أنك عشقتني، أليس كذلك؟

- نعم، صحيح، عشقتك، وأعشقك إلى الآن، وعشقك هو السبب الأول، لأنني كان بإمكاني أن أحصل على كل شيء من أبيك دون أن أتزوجه، لكن من أجل أن أكون معك وقريبة منك تزوجته، وفكرة الزواج كانت فكرتك أصلًا!

صمتت للحظات، وقالت بهدوء وبنبرة محايدة، وكأنها اقتنعت بجملي الأخيرة:

- صحيح ما قلته في أنني أوحيت بفكرة الزواج ووافقت عليها، لكني أحس أن مشاعرك تغيّرت نحوي، لم أعد أثيرك، هل هناك أحد، أو واحدة!

اصطنعت الغضب، فقلت بنبرة فيها انزعاج:

- ماذا تقولين؟ ما هذا الهراء! أنت تعرفين كل أسراري، وتعرفين طبيعتي، أنا أحب الجنسين، لكني أحبك أكثر من كل الرجال والنساء!

نظرت إليّ بتركيز وقالت بعد لحظات صمت:

- لا أدري، أتمنى ما تقولينه صحيحًا، أتدرين، أحيانًا أحسدك لأنك تستمتعين بعلاقتك الجنسية مع الرجال، ومعي أيضًا، أنا أشعر بعدائية نحو الرجال، بسبب أبي، أحيانًا أريد أن أعيش حياة سليمة ككل الفتيات في عمري وككل النساء، في المدرسة هناك من كان يحوم حولي ويسعى لإقامة علاقة حب معي، أو لغوايتي من أجل أن يكونوا معي، لكني كنت أصدهم بعنف حتى صاروا يتجنبونني، أتمنى لو أجد في نفسي ولو لمرة واحدة الرغبة في رجل!

كانت تتحدث بالفرنسية وأحيانًا بالألمانية التي صرت أفهمها وأتحدث بها لحد ما، وكنت أشعر بالشفقة عليها، وقررت مع نفسي أن أساعدها، فربما لو تجاوزت عقدتها من أبيها ستجد نفسها في أحضان شاب بعمرها! لكن ألن أغار حينها؟! ووجدت نفسي أقول لها:

- سأساعدك في ذلك، سنقوم بمغامرات مع رجال، ولنجرب هذا الشيء!

نظرت إليّ وقالت:

- أعتقد أن الأمر ميؤوس منه معي، أنا أشتهيك أنت، أنت من أريدها، أنا ملكك، عشيقتك، زوجتك، وأنت لي أيضًا، أنت ملكي أنا ولا أتحمل أن أراك بأحضان رجل، أي رجل!

كانت نبرات صوتها مبحوحة وتشي بشبق واضح، فجأة وبحركة مثيرة، نزلت عن الصوفا وزحفت نحوي على ركبتيها ويديها، صارت أمامي، وبلا مقدمات رفعت ثوبي الطويل، وفتحت ساقيّ، وأدخلت رأسها بين فخذي وغطت نفسها بالثوب، وبدأت تلعقني بهدوء ورقة، فاشتعلت، انزلقنا إلى الأرضية، لكننا انتبهنا لأنفسنا بعد قليل، فابتسمنا لبعضنا، صعدنا بسرعة إلى غرفتها!

حين عاد زوجي في وقت متأخر من المساء وجدنا جالستين أمام التلفزيون في الصالة ونحن في استرخاء تام!

***

بعد ليلة مجهدة، وسهر، وإنهاك جسدي، صحوت متأخرة قليلًا على غير عادتي. تحمّمت، وتزينت، ارتديت ثوبًا أنيقًا خفيفًا يكشف عن تناسق جسدي، شربت في المطبخ كأسًا من عصير البرتقال، وخرجت. كانت إيفا في المدرسة، وكنت على عجلة من أمري لأني كنت أنتظر لقائي باللبنانية المحجبة، لكني فوجئت عند وصولي حين وجدتها تنتظر في الصالون.

استقبلتني بابتسامتها العريضة المليئة بالفرح والطيبة. وذهبت معها إلى الأستوديو الخاص بي لعمل المساج والتجميل، وأخبرت العاملات بأن يحملن لنا فنجانين من القهوة التركية، ويوصين على فطائر الزعتر والجبنة من المطعم التركي القريب من الصالون.

كانت على الرغم من الفرح البادي عليها والحيوية والألق في نظراتها تبدو مرتبكة وخجلة! اعتذرت لها عن التأخير موضحة بأني لم أكن أتوقع أن تأتي مبكرة، فأخبرتني بجرأة مشوبة بخفر بأنها لم تنم الليل بشكل عميق لأنها كانت تصحو بين ساعة وأخرى لترى الوقت، وقالت إنها كانت ستشعر بالغربة لو لم تتعرف عليّ، وأخبرتني بأنها تشعر

كأنها تعرفني منذ زمان، فأخبرتها بأني أيضًا ارتحت لها وأنني أشعر بفرح غامر عند رؤيتها، وأنني سأكرّس لها وقتي اليوم، لذا أريدها أن تسترخي بين يدي، وأننا سنكون مقربتين طوال تواجدها هنا، وربما سنتواصل حتى بعد مغادرتها النمسا!

جاءت القهوة، والفطائر، طلبت من العاملات بألّا يدخلن عليّ إلى أن أناديهن، شربنا القهوة وتناولنا الفطائر في زاويتي التي هي غرفة صغيرة مجاورة في أعماق الأستوديو، حيث وضعت فيها طاولة مكتبية، وصوفا كبيرة، وطاولات صغيرة.

ذهبنا إلى غرفة المساج، طلبت منها أن تتعرى بالكامل، ارتبكت، ابتسمتُ لها، وأخبرتها بأننا نساء فلا خجل بيننا، ونزعت ثوبي أمامها، وبقيت في الكلسون، ولبست معطفي الذي أرتديه عند العمل، انتبهت لارتباكها، رأيتها تنزع ثيابها كلها وبقيت في الكلسون، تمددتْ على الطاولة وغطّت نفسها بشرشف قطني ناعم يُستخدم عادة لتغطية جسد الزبون الأسفل عند تدليك الظهر، وبهدوء نزعت كلسونها وهي تحت الشرشف، احتارت أين تضعه، فأخذته، الكلسون الأسود الشفاف والمطرز بالدانتيلا، منها ووضعته مع ملابسها التي كانت قد صفّتها بانتظام على طاولة قريبة.

حين اقتربت منها انتبهت إلى أنني صرت قريبة من جسدها المتمدد أمامي، وكنت قد هيأت نفسي لمغامرة إيروتيكية، لكن لم أكن أتوقع أنني سأدخل في نقاش فلسفي وديني! فقد انجذبتُ لها جنسيًّا بينما انجذبت هي لي نفسيًّا، ووجدت أن لديها ما يثقل على نفسها وتريد البوح به لي!

سألتها عن اسمها فقالت لي بأن اسمها حواء البارحي.

لم تكن لدي طريقة خاصة في المساج، لقد أخبرتها أمس ذلك كي أجذبها لتأتي اليوم، كي أراها عارية تمامًا وأستطيع لمسها براحتي، لكن يبدو أنها جاءت ليس لغربة جسدية وإنما لأنها كانت مثقلة بأسئلتها وحيرتها.

حديثي معها أعادني لحواء الفيلسوفة الملحدة العاشقة لنيتشه التي هي وجهي الآخر، كنت حائرة بين حواء الشبقة الماكرة التي هي أنا حاليًا وبين حواء الأخرى التي أريد أن أنساها أو أتناساها وأتهرب منها، وجهي الآخر الذي أستحضره أحيانًا وكأنه ليس وجهي، وجهي المقدس الذي أتأمله أحيانًا بمحبة ومهابة، مع أني لا أعترف بأي مقدس، لكني أرى أن القداسة والعهر يمتزجان لدي بطريقة ما، يمتزجان ما بين الرزانة والذكاء

مع الشبق الداعر! لكني أحيانًا أعيش هذين الجانبين وكأني أعيش دورة فصول، فصول هادئة ومفكرة وعميقة وفصول داعرة ومنحلة وماكرة وعاهرة! هذا الانفصام كان يحدث سابقًا حين كنت في بلادي وليس بعد وصولي إلى هنا، هنا طغت المرأة الشبقة الداعرة على شخصيتي وهيمنت على أعماقي!

أخبرتها أن شعرها جميل، وسألتها لِمَ لا تطلقه حرًّا كي يتنفس بدل أن تخنقه بالحجاب، فاستغربت كلامي عن تنفس الشعر، لكنها أجابتني بأنها متحجبة عن قناعة، ثم تحدثت عن نفسها باسترخاء وانسيابية، لحظتها أحببت أن أعرفها أكثر، أثارت فضولي، فاقترحت عليها أن نتحدث بهدوء قبل أن أبدأ بمساج جسدها، وفوجئت بأنها رحبت بمقترحي، فجلست مباشرة على السرير، غطت جسدها بالشرشف القطني، بينما جلست أنا على كرسي العمل على مقربة منها، نظرت إليّ بارتباك من لا يعرف من أين يبدأ، ثم أخذت تتحدث عن نفسها، جاء صوتها دافئًا، هادئًا، وبنبرة أقرب للرجاء:

- أنا بأمس الحاجة إلى نصيحة، أعتذر على إزعاجك بأمور شخصية، لكني لم أجد من أشاركه حيرتي سواك، لا سيما وأنت هنا في فيينا وليس في بيروت، سأحكي لك بسرعة واقتضاب، أنا حائرة بين شخصين، أحبهما كلاهما!

حين بدأت هكذا أحسست بخيبة داخلية لا أعرف سببها، ربما لأن في حياتها ليس فقط رجل واحد وإنما اثنان! لكن مع استمرارها في الحديث وجدت نفسي منساقة مع حكاياتها، سمعتها تواصل:

- الشخص الأول في الواقع هو حبيبي الحالي، الثاني هو أيضًا حبيبي الذي سأتزوجه، وكلاهما يحملان الاسم نفسه، آدم، لكن كي لا أدخلك في متاهة الأسماء سأسمي الأول بآدم الأفريقي والثاني بآدم الجنوبي، فقبل أن أرتبط بحبيبي وزوجي المستقبلي آدم الجنوبي كنت على علاقة بشخص آخر تعرفت عليه عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي، أعجبت به مباشرة وهو كذلك، لكنه لم يكن يعيش في لبنان وإنما في أفريقيا، ولم يكن بيننا سوى ما توفره وسائل الاتصال الاجتماعي، والهاتف، وهكذا استمرت العلاقة لخمسة أشهر دون أن نرى بعضنا وجهًا لوجه! مشكلتي هي أنني تعلقت به بشكل جنوني، كان يثير فيّ أنوثتي، كنت مجنونة به، كنت أرى العالم من خلاله، ولكن من

جانبه ربما كنت فتاة تضاف إلى فتياته، الغريب أنه لم يقل لي إنه يحبني قط، على العكس، كان واضحًا، قال لي أكثر من مرة، إنه لا يحبني، وهو لا يعرف إن كان سيحبني يومًا ما؟! لكنه في كل الأحوال قال إنه لا يفكر في الزواج أبدًا، ولم أستطع تحمل كل هذا العذاب واليأس والوضوح، نعم وضوحه عذّبني، فربما كنت أتحمل لو أنه كذب عليّ بكلمات حب مزيفة، لكنه مع الأسف كان واضحًا، فقررت أن أتركه!

كنت أستمع لها، لكني في الوقت نفسه كنت أتأمل شفتيها الورديتين الشهيتين وأتمنى أن ألقي بنفسي عليها وأقبلها بحرارة، لكني كنت أنتبه لعينيها الواسعتين ونظراتها التي أحس وكأنها تخترق أعماقي لتعرف بمَ أفكر، فأعود إلى نفسي لأواصل استماعي لها:

- حين تركت آدم الأفريقي بدأت علاقتي بآدم الجنوبي، وهذا على عكس ذاك، فالثاني أحبني بجنون، بينما أنا بادلته الحب ليس لحبي له وإنما لحبه لي! غريبات نحن النساء، أحيانًا لا نحب الشخص لكن معرفتنا بأنه يحبنا تجعلنا نتعلق به ولا نريد أن نفقده، إذ أننا نحبه ليس لأننا نحبه وإنما لحبّه لنا! المهم، طوال علاقتي بآدم الجنوبي كنت أتذكر آدم الأفريقي، حتى بداياتي الأدبية وخرابيشي كنت أستلهمها منه وأكتب عن شوقي له، وصرت أعيش تناقضًا قاتلًا، فصرت أبتعد قليلًا عن آدم الجنوبي، لقد كنت واضحة مع نفسي، شوقي لآدم الأفريقي هو الذي دفعني إلى الكتابة! ولا إراديًّا دست على كرامتي وتواصلت معه ثانية، ووجدته يحن لمواصلة علاقته بي، لكني لم أنجرف معه عميقًا، شعرت بالسعادة لوجوده في حياتي ثانية، لكني بقيت على مسافة بين الآدمين، الأفريقي والجنوبي، فالأول لا يحبني وإنما أنا التي تحبه بلا أمل أو مستقبل أو حتى لقاء، والثاني يحبني ويريد أن يتزوجني ويتواجد في محيطي وفي كل درب أو مكان، يحبني بقوة وصدق وإخلاص ويتمنى قضاء العمر معي!، وطبعًا وصلت إلى مرحلة عليّ فيها أن أختار واحدًا بينهما، ومع أني أعرف أن حبي بلا أمل مع آدم الأفريقي إلا أني اخترته هو، وبدأ جسدي يتقد شوقًا إليه، ولأني أعرف أنها مغامرة بلا أمل، لذا وبمكر نسوي غريزي أبقيت

خيطًا رفيعًا مع آدم الجنوبي الذي ازداد شوقًا لي وتعلقًا رومانسيًّا مأساويًّا، وعشت شقاءً أخلاقيًّا، أشفقت على آدم الجنوبي، لذا وفي اندفاعة أخلاقية قطعت علاقتي بآدم الأفريقي ومحوت أرقام هاتفه!

لا أعرف كيف كانت مشاعري لحظتها، وجدت وجهي الآخر يطل وكأنه يلعب الغميضة معي، أحببت طريقتها في البوح، واندمجت مع حكايتها، فسألتها:

- طيب أين المشكلة؟

- المشكلة أنني وبعد أن شدّدت أواصر علاقتي بآدم الجنوبي، وبدأنا نخطط للخطوبة والزواج، وعرفت عائلتينا بذلك، ظهر آدم الأفريقي الذي اتصل بي من لبنان ومن رقم لبناني، وقال لي إنه في بيروت ويريد أن يراني! لم تكن تلك صدمة لي فحسب وإنما الصدمة التي لحقتها مباشرة حينما قال لي إنه يحب فتاة لبنانية، وإنه جاء بيروت من أجلها ليخطبها من أهلها!

الحقيقة، ما أن حكت لي أنها على علاقة باثنين حتى وجدت نفسي أمام فتاة أخرى، لا علاقة لها بالحجاب والالتزام الديني، فتاة ككل الفتيات تحب أن تعيش مشاعرها وتشعر بسريان الحب في أعماقها لكنها مكبلة بتناقضاتها وربما بظروفها. وجدت أن قصتها تسقط الكثير من المفاهيم والنظريات عن الحب الأوحد، باستطاعة المرأة أو الرجل أن يحبّا أكثر من شخص في الوقت نفسه، ووددت أن أتفهم طبيعة هذه المشاعر التي مررت بها أنا نفسي، فسألتها إن كانت تحب أن نتحدث في زاوية المكتب، فوافقت لكنها سألتني عن المساج وطريقتي الخاصة، فأجبتها بأنني سأقوم بذلك بعد أن تروي لي حكايتها، فقامت عن السرير ولفت الشرشف على نفسها، واتجهنا إلى الزاوية التي كنا فيها، وما أن جلسنا حتى واصلت حكايتها التي كشفت عن عمق وغموض المشاعر الإنسانية! وحين قلت لها أكملي حكايتك واصلت بكل تلقائية:

- أحسست أنه قال ذلك ليضايقني، ويهينني، فما معنى أنه يريد رؤيتي في شقة أو فندق، وفي الوقت نفسه يحدثني عن حبه لفتاة جاء خصيصا لرؤيتها وخطبتها؟! لماذا يتصل بي أصلًا؟ لكني كنت أعرف مشاعري نحوه، أعرف أني أحبه بشبق وجنون ولا أمل، وأعرف أنه لا يحبني، بل وإمعانًا في ذلك يحدثني ببساطة وفرح عن حبه لفتاة أخرى جاء خصيصا لرؤيتها! بل هو حتى

لم يعبر عن شوقه لي ولرؤيتي، فكل كلامه كان إعجابًا بجسدي ورغبته فيّ، ومع ذلك كنت أعرف نفسي بأني سأستجيب له، وسأذهب لمقابلته، لكني في الوقت نفسه كنت أشعر بالذنب تجاه آدم الجنوبي، فأنا أحبه بطريقتي، وأحس أني أخونه مع آدم الأفريقي، أحس أني لا أستحق حبه الصافي، فهو يعشقني بجنون، مستعد لعبادتي وردد تلك العبارات مع أنه رجل متعصب لدينه! كنتُ محتارة، هل الشهوة تأخذ بالعقل فعلًا؟! فقد كنت على استعداد للذهاب إلى أي شقة أو فندق رخيص يعينه لي آدم الأفريقي، وكنت أحدس ما ينتظرني دونما تجسيد لأية تفاصيل، ومع ذلك كنت على يقين غامض بأني لن أتزوج سوى آدم الجنوبي، وسأنجب منه أطفالًا، لكني لن أنسى آدم الأفريقي!

وطرأ سؤال على بالي فسألتها:

- هل سيستقر آدم الأفريقي في لبنان؟

- أظن ذلك، على الأرجح، مع أن معظم اللبنانيين في أفريقيا يأتون إلى لبنان ليتزوجوا ويأخذوا زوجاتهم معهم إلى هناك.

صمتُّ للحظة ثم قلت لها بنبرة واثقة:

- ستتزوجين آدم الجنوبي، وتصيرين عشيقة لآدم الأفريقي! فأنت امرأة ممزقة بين قلبها وجسدها.

نظرت إليّ وهي تضع ساقًا على ساق، وقالت وكأنها تتحدث عن شخص آخر:

- نعم، لطالما عرفت هذه المرأة، لكنني أكرهها!

- ليس الأمر بيدك، قلت بهدء وتعاطف.

- لكني دائمًا كنت أبدو فتاة عاقلة، وعقلانية في التفكير، رزينة، الكل يشهد بعفتي، وأخلاقي، ولا أحد قد انتبه إلى أقنعتي، مع أني أرى نفسي بطريقة أخرى، فلستُ إنسانةً مزيفة، ولا الناس منصفين في النظر إليّ، لذا أحيانًا أشفق على حالي لأني لست بهذا السوء الذي أراه في نفسي من خلال علاقتي بهذين الآدمين، وتارة أشفق على الناس لأنهم يرون فيّ ملاكًا، وأنا لست كذلك!

- من أنت إذن؟

فاجأها سؤالي، فسحبت ساقها لتجلس باعتدال، لحظتها وجهت عينيّ لما بين ساقيها عسى أن ألمح شيئًا، انتبهت هي، نظرت إليّ بشيء من الارتباك وقالت:

- أنا فتاة حساسة، قد لا أبدو لك بريئة، لكنني بالتأكيد صادقة، لا أرى سوى الخير في الناس، غريبة الأطوار لأني أحب رجلين في وقت واحد، أحب المطر لكنني أخشى كآبة الشتاء، أحب الصيف لكني أكره الضجر، أحب الربيع لكنه أراه مرحلة انتقالية، أحب الخريف لكن أحبابي يرحلون فيه كما طيور أيلول، أتأثر بالأفلام الرومانسية، أبكي كلما أشاهد فيلم تايتانك، أحب أن أشعر بالأمان، أحلم أن يكون لي بيت دافئ وأسرة جميلة، أحلم أن أسافر إلى كل بلدان العالم، أن أتحدّث الإيطالية والألمانية بطلاقة أهلها، لأني أجيد الفرنسية والإنكليزية، أتمنى أن أكون مشغولة دومًا بما يلهيني عن عواطفي لأنها حارقة وملتهبة ومتدفقة كمطر شتائي وربما ستجرني إلى منزلقات غير محمودة فتسبب لي معاناة أخلاقية! أنا أتأثر بكل شيء مكتوب أكثر من المرئي والمسموع، أحب رائحة التراب، أحب أحمر الشفاه، أحب الشاي والطعام المالح، وأكره الحلو والحلويات، أحب أن يكون أصدقائي أوفياء، وهكذا! أريد أن أخرج من متاهتي هذه قبل انتهاء مرحلة الجامعة، لا أريد أن أكون متعبة النفس دائمًا، أعترف الآن بأنني شهوانية، شبقة، لكني لا أحب إنسانًا من أجل شهوتي به بل أحب أن تتكامل الروح والشهوة، ومع ذلك مجنونة أنا بآدم الأفريقي مع أنه لا يحبني وإنما يشتهي جسدي! متناقضة، نعم، أعترف بذلك!

نظرت هي إلى نقطة بعيدة، أدركت أنها ليست هنا وإنما في عالم الذكريات، تأملت جسدها المكبوت والضاج بالرغبات، وقلت لها:

- الشهوة لحظات وتخمد، لكنها تبقى مثل النار تحت رماد الجمر، وهج لا ينطفئ.
- وصف جميل، لكن أنا أسعى إلى الاحترام، ما نفع إنسان يريدني لليلة لأنه أحب جسدي ثم يحتقرني بعد أن يقذف ماءه فيّ، ثم يمضي ليجدد مغامرته مع امرأة أخرى، هذا احتقار لي، أنا نفسي لن أطلب أن يبقى جسدي مشتعلًا دائمًا.

- لحظة اللذة ربما تخمد، لكن ذكراها لن تنطفئ، وتبقى مثل الوهج تحت الرماد كما قلت لك، وهي التي تدفعنا للمواصلة.

نظرت إليّ وقالت بما يشبه اللا مبالاة:

- لا أدري، لا أحب اللحظات العابرة، ولا الأسرة العابرة، ولا العلاقات العابرة، لذا أنا قليلة الأصدقاء!

تأملت ضجرها ولمحت ظلًّا من الحزن ارتسم على محياها، فابتسمت لها مواسية وقلت:

- أنت تتحدثين بلغة شعرية، لكن الأمر ليس سفسطة لغوية ولا استعارات أدبية وإنما فعل جسدي بيولوجي يا حواء.

نظرت إليّ نظرة متأملة لكن بدا واضحًا أنها تفكر بشيء ما، ثم قالت:

- أريد ثباتًا من نفسي يشبه ثبات الله، لأن الله موجود فيّ.

شعرت بغضب خفي، إذ شعرت أنها استفزت حواء الملحدة التي في داخلي، فقلت بنبرة صارمة:

- هذه سفسطة يا حواء، أنت تحتاجين إلى شيءٍ آخر.

ارتبكت قليلًا وقالت بخجل:

- أعرف، أدرك أن هذه سفسطة لغوية، لكني أريد فعلًا أن أكون ثابتة على الأقل في مبادئي، أنا لا أطلب من الناس أن يكونوا كما أريد، يصطفلوا كما نقول باللبناني، بالمناسبة، ربما أنت تعتقدين بما أنني محجبة فهذا يعني أنني منغلقة، ومتعصبة، ومتزمتة، لستُ كذلك، مرة قرأت في لقاء ما لكاتب روائي مشاكس يقول بأن الدين يقود إلى الإلحاد، وأعتقد أنه محق، فالدين كما أكد ماركس سابقًا أفيون الشعوب وزفرة العقول اليائسة.

فوجئت بها، جاءتني رغبة بأن أقترب منها وأحضنها وأقبل شفتيها، لكني وجدتُ نفسي أقول لها:

- الجملة ناقصة كما أعتقد، ماركس يقول الدين زفرة الكائن الحالم بعالم أفضل.

فقالت بنبرة ممتزجة باحتجاج وعصبية مكتومة:

- لكنني أمقت الدين الذي يعرفه الناس، وأحب ديني أنا، ديني القائم على الله وكل الأديان الوضعية والسماوية، فأنا أحب الهندوسية والبوذية، واليهودية، والمسيحية والإسلام، لكني لا أحب التابعين، أحب بوذا وأنبياء الأديان السماوية، لكني أكره المسلمين واليهود والمسيحيين لأنهم شوهوا أنبياءهم، شخصيًّا أرى الله فيّ، أنا أرفض التسميات والألقاب، يكفيني أن رأسي لا يشبه من حولي في مدينتي الصغيرة أو ضيعتي بشكل أدق جنوب بيروت.

كنت مأخوذة بطريقة تقديمها لنفسها، لا سيما التقاطاتها المتنافرة لكن الجميلة بين حب رائحة التراب وأحمر الشفاه والطعام المالح، وحديثها الغريب عن الله، ولم أشأ أن أقول لها بأنني ملحدة كي لا أنفرها مني، فسألتها:

- وماذا بعد؟

نظرت إليّ مدركة بأن كلامها أعجبني، ابتسمت ابتسامة حزينة وواصلت:

- كانت طفولتي رائعة، ترافقني مشاهدها إلى الآن، أذكر كل شيء، لدي أختان أكبر مني، وبنت وصبي أصغر مني، أنا عسراء، أكتب بيدي اليسرى وأمسك الأشياء بها أيضًا، الآن وأنا أتحدّث معك هنا في فيينا تتراءى صور ومشاهد من الطفولة في مخيلتي، ألعابي مع أختي، بيت تحت شجرة الزيتون، أنا وأختي، توأم روحي، كنّا نمثّل بأننا خلدان، كل واحده هي مثل حيوان الخلد الصغير الذي يشق طرقًا ودروبًا تحت الأرض، كما كنا نتخيل أن لدينا مركبة فضائية للصعود إلى المريخ، وأننا ننتمي إلى عصابات كما كنّا نشاهدها في الأفلام، نحمل أسلحة ونتخفى، نطلع إلى الجبل المجاور، نمثّل الحكايات بدمية الباربي والألعاب، ونقيم عروضًا للأزياء، لكننا كنّا نحب المدرسة كثيرًا، وندرس كثيرًا، هكذا كانت طفولتي، لم يحدث ما يعكّر عليّ طفولتي، كنت سعيدة جدًّا في المدرسة الابتدائية، كانت مدرسة مختلطة، وكنت ألعب مع الصبية دائمًا، والبنات أحيانًا، كنت أمثّل تارة دور مقدمة برامج، أو فنانة معروفة، أو امرأة مصرية في إحدى الحارات الشعبية كما كنا نراها في الأفلام المصرية، وكثيرًا ما كنت أتحدث مع نفسي، (صمتت للحظات، ثم ابتسمت وواصلت مبتسمة)، كان ابن جارنا يحبني، وعندما قال لي مرة إننا سنتزوج

وننجب أولادًا، صرخت به، وقلت له حين نكبر أما الآن فعيب، خاف مني المسكين، ههه، لكن أذكر أنني وبحكم الجغرافيا والأهل أنتمي لمذهب إسلامي يقيم طقوسًا دموية، كنت أخاف مشاهدة تلك الطقوس، ومع ذلك أذهب لمشاهدتها سنويًّا، كنت أرتعب، لكني كنت أتماسك حين أرى الدماء، ولا تزال مشاعر الخوف في أعماقي، عمومًا، لم يحدث شيء خاص في طفولتي لا سيما في المرحلة الابتدائية، لكن، ما أن بدأت المرحلة المتوسطة حتى صرت لا أحب الاختلاط بالغرباء، وفي تلك الفترة ارتديت الحجاب، ارتديته عن قناعة، كان عمري حينها 12 سنة، وأستطيع القول الآن إنني لم أكن سعيدة كما يجب في مرحلة المتوسطة والثانوية لا سيما قياسًا إلى طفولتي الرائعة، كانت لدي مشكلة كبيرة، كنت أحب التماهي بشخصيتَي أختيّ الأكبر مني، سواء من حيث الاجتهاد الدراسي أو اللبس أو أسلوب الحياة، كنت أراهما تلقيان التقدير أينما حلّتا، صرت أقلّدهما، ولم أتخلص من هذه الحالة إلا في السنة الأخيرة من الثانوية أو السنة الجامعية الأولى حين سجّلت لدراسة الحقوق في جامعة بيروت. باعتقادي، أنا الأجمل بين أخواتي، ولست مغرورة، لكن هذا ما أشعر به، بالمناسبة، أنا من مدينة لأو لنقُل ضيعة جنوب بيروت، تبعد عنها بحدود الساعة من الزمان، اخترت دراسة الحقوق كيفما اتفق، وهناك اصطدمت بأفكاري، وكنت أبكي لزميلتي في الغرفة، أقول لها أريد أن أكون أنا، لا أريد أن أكون نسخة من أختيّ الأكبر مني، فكانت تقول لي هذه فرصتك بأن تدرسي الحقوق وتكوني محامية، لكنني هربت من تحقيق هذه الفرصة لأن دراسة القانون كانت صعبة، بل بشعة، وعدت إلى البيت، لأبدأ في السنة التالية دراسة اللغات.

كنت مستمتعة بطريقة حديثها عن نفسها، ولأكن صريحة، لم أكن قد نسيت رغبتي فيها، فقد كنت أتأملها بينما تخطر في خيالي صورتها وهي مفتوحة الساقين أمامي على سرير المساج، وكنت أعرف أنني سأتحين الفرصة لذلك، لكني كنت منجذبة في الوقت نفسه لحكايتها وشخصيتها التي وضعتني في زاوية محادية بين وجهَي شخصيتي، وكنت أحاور نفسي في تلك اللحظات: ربما هي لا ترغب بذلك أبدًا، كيف لي أن أغويها! ووجدت نفسي أسألها منساقةً مع حكايتها:

- ما الذي لديهما وليس لديك لا سيما وأنت تقولين بأنك الأجمل بين أخواتك؟!

نظرت لي بتساؤل، ابتسمت، وقالت:

- يبدو أنك لا تنسين أية جملة أنطق بها، نعم، لديهما ما هو أكثر من جمال الوجه، وهو التفكير بالعقل وليس بالعاطفة.

- لكنك قلت بأنك عقلانية، والناس يرونك هكذا.

ابتسمت ابتسامة طيبة ومثيرة وقالت:

- واو، يبدو أنك لا تتركين جملة تتيه في الهواء، نعم، قلت ذلك، لكن هذا كان قناعًا مزيفًا، كان تقليدًا وتظاهرًا بالتعقل تماهيًا مع أختيّ، لأنني في الواقع رومانسية وعاطفية، أشعر أنني بين أخواتي نبتة مختلفة، أختاي كانتا تفكران بعقلهن أكثر من قلبيهما، كان أبي يثق بقدرة أختي الأكبر على تحمل المسؤولية ولم يبدِ خوفًا عليها قط، ثم يثق بالقدرات العقلية والعملية لأختي الثانية، وهو في ذلك على حق، فهي بصراحة عبقرية، ويثق بكل ذلك لدى أختي الأصغر مني، أما معي فلا أعرف كيف يراني، هو بلا شك يثق بي، لكنه لا يفصح أمامي شيئًا، شخصيًّا يعنيني أن أكون مميزة، وفي الحقيقة لم يكن أبي يميّز بيننا في التعامل، لم أكن قريبة جدًّا له مثل أختي الأكبر مني، ربما لأنني كتومة ولا أتحدث معه كثيرًا عما يحدث معي، مع ذلك الجميع يعرف أنني حساسة جدًّا، أتعرفين أنني عشت تجربة حب أولى قبل هذين الآدمين!

فوجئت بهذا التصريح، فقلت بتلقائية:

- يبدو أنه كان حبًّا عابرًا وغير مؤثر، بحيث لم يشكل لك أزمة كما الآن!

- على العكس، كان حبًّا ملتهبًا، لكنه حب من طرف واحد، فقد أحببت أستاذي في مادة العلوم، كنت أكتب له رسائل يومية أحتفظ بها لنفسي، عشت هذه القصة لثلاث سنوات.

- هل كانت مجرد مشاعر بريئة أم هناك مشاعر جنسية مصاحبة؟

توجّستْ قليلًا، ثم واصلت الحديث:

- كانت مشاعر غامضة، وعندما قرأت للكاتب اللبناني توفيق يوسف عواد قصصًا

من كتابه "الصبي الأعرج" تنبهت لموضوع الجسد، كنت حين أقرأ يقشعر بدني، ربما لأنها أول مجموعة قصصية أقرأها في حياتي، كنت لا أزال أذكر نظرات الصبي إلى وجه المعلمة، وكان همي عندما كنت أكتب لأستاذي رسائلي غير المرسلة أن أعبّر كما يعبر الصبي لمعلمته، هههههه، كنت أشعر أن أستاذي مهتم بي لأنني مجتهدة، لكنه كان معجبًا بخجلي أيضًا، وكنت أنتظر درسه بفارغ الصبر، أعجبت بمودته وبإبدائه الإعجاب بعلاماتي وهدوئي، وكنت أستحي أن أنظر في عينيه مباشرة كي لا تفضحني عيناي، لكنني كنت أتخيّل أنه سيطلب يدي للزواج، هههه، كنت أتخيّل حوارًا بيني وبينه دائمًا، كنت أعيش أحلام اليقظة بشكل مستمر، كنت أتخيله يقول لي: أحبك وأحبكِ. كنت أتخيّله يبوسني من شفتي كما في الأفلام، وكنت أتوقف عند هذا الحد من الملامسة لأني لم أكن أعرف ماذا يحصل بعد ذلك، ولا أتذكر متى عرفت ماذا سيحصل بعد القبلة! ربما تعلمت من رواية "طواحين بيروت" لكاتبي المفضل توفيق يوسف عواد شيئًا ما، أتعرفين، حتى القبلة كنت أستحي منها حين أتخيّلها، وعندما أنهيت المتوسطة أسفتُ لأنه خطب فتاة أخرى، لكن بصراحة حينما عرفت التفاصيل الجنسية من خلال الرواية انصدمت، وتقززت، والغريب أنني لم أحزن على خطبته بل فرحت، أحسست أني وجدت نهاية لقصتي، كان فرحًا لذيذًا، وكذلك في مرحلة الثانوية عشت قصة حب من طرف واحد، لم يكن الشاب يبادلني الحب فاكتفيت بالنسيان، وعن هذه التجربة كتبت قصة أيضًا.

- هل أنت كاتبة، تكتبين قصصًا وروايات؟!

- لا. لست كاتبة محترفة، هي هواية، وهي كتابات بسيطة وغير مهنية، مجرد محاولات أمنح نفسي فيها أهمية ما، لأني أحب القراءة، عمومًا، انتبهت إلى أني أحب الأشخاص الأكبر سنًّا، أشعر معهم بالأمان، الشاب الذي أحببته في الثانوية لم أخبره بحبي له إلا بعد سنتين، لكنه كان على علاقة حب بفتاة أخرى، فرفض حبي، أخبرته بأني أحبه هكذا ببساطة، وعندما رفض، بكيت لساعات قليلة، ثم عدت إلى طبيعتي، لكن الألم بقي طويلًا، يبدو أنني فتاة غريبة الأطوار، أليس كذلك!

لم أعرف كيف أجيبها، فتجربتي مختلفة، وشخصيتي، ومجتمعي، وطفولتي، كلها مختلفة، وهي فتاة عاشت طفولة سعيدة وبريئة، في عائلة تبدو متماسكة، لم تذكر شيئًا عن الفقر، يعني حالتهما جيدة، لذا عجزت فعلًا أن أقول لها بأنها غريبة الأطوار، فهي لو عرفت تفاصيل حياتي لهربت من الصالون وفرّت دونما رجعة، لذا ابتسمت وقلت:

- لست غريبة الأطوار أبدًا، وهذه مشاعر طبيعية، لكنك تقولين إنك تحبين الأكبر سنًّا منك، مع أستاذ العلوم يمكن فهم ذلك، لكن طالب الثانوية هو قريب من عمرك في كل الأحوال، هل كنت تحبينه فعلًا أم كنت تريدين كبقية الفتيات أن تكوني عاشقة، ولديك من يهتم بك؟!

كانت تستمع لي بانتباه، لذا قالت لي:

- أتدرين، أنك وضحّت لي شيئًا عن نفسي، نعم، نعم، كنت أحلم أن أكون بطلة رواية ما، رواية أكتبها، وأتلذذ بحلوها ومرارتها، أما قصة الحب الثالثة فهي التي حدثتك عنها في البداية.

فجأة، لا أدري كيف، فقد أرادت أن تجلس بشكل أفضل فحركت جسدها فسقط الشرشف عن جسدها من الأمام، وتكشفت لي عارية من الأمام تمامًا، فشعرت بالإثارة، بيد أني كتمت ذلك حين انتبهت لارتباكها من كشف عريها الكامل أمامي، فعزمت على أن أدخل عالم جسدها فسألتها:

- لكن متى بدأت تشعرين بأنوثتك؟

- عرفت ذلك بالتحديد في الرابعة عشرة، من خلال القراءة كما قلت لك، لكن حين عشت علاقات حبي كانت هذه المشاعر مبهمة، كنت أحوّل هذه المشاعر إلى مشاعر سامية، كنت أدرك أنني أعيش رغبة غامضة، كان ذلك يتم بشكل لا واعٍ، الآن أدرك أنني كنت أخفي ذلك، في ذلك الوقت لم يكن خيالي يذهب إلى أبعد من قبلة، ولا يزال، حتى أنني لم أداعب نفسي ولم أمارس العادة السرية، والسبب هو أني قرأت عن مضارها في مجلة "طبيبك" الطبية الشهرية والشهيرة، إلى جانب أنها محرمة دينيًّا، أتذكر أنني حينها شعرت بحزن غامض، ورحت أبحث عن أسبابه، ووجدت أني ما زلت أحاول التشبه بأختيّ، فقررت التمرد، صرت أفعل كل ما لم أجرؤ على فعله سابقًا، خففت من

تركيزي على الدراسة، صرت أهتم بوسائل التواصل الاجتماعي، زاد اهتمامي بشكلي ومظهري، صرت أكثر مرحًا ودعابة، وهكذا! في البداية رفضت أختاي هذا التغيير، لكنهما اعتادتا فيما بعد، هل قلت لك إني أحب الأزرق السماوي والزهري الفاتح؟، أتمنى لنفسي أن أكون مترجمة معروفة، أن أبرز وأتميز في هذا المجال، أن يكون لدي مؤلفات أدبية في الشعر والرواية والقصص، أن أحقق رضا على الصعيد النفسي، بحيث أكتفي بنفسي ولا أقارنها أبدًا بأي كان، أعتقد أنني طيبة، حالمة. سابقًا كنت متفائلة جدًّا إلى أن اكتشفت أنَّ للتفاؤل حدود، أنسى أخطاء الآخرين وأسامحهم، لكني أكره طيبتي الزائدة كثيرًا، جسديًّا كما ترين أنني فتاة محجبة، ملتزمة إلى حد ما بالحجاب، لكني أشعر بتناقضات الأديان فيما بينها، في الدين الواحد أيضًا. في السابق لم أكن أشعر بوجود الله حقًّا، لم أكن أؤمن حين يقولون إن الله معنا، ويدعون إلى التوكل على الله وهكذا، لكن عندما مررت بمحنة وتوسلت إليه أشد التوسل استجاب لدعائي، فبتُّ أستشعر وجوده، وأحمده يوميًّا.

- محنة؟ لم تتحدثي عن أية محنة، سوى أزمتك في العلاقة بين الآدمين، الأفريقي والجنوبي! قلت متسائلة.

صمتت للحظات ثم قالت:

- لا أريد الحديث عن ذلك، أتحفظ على ذكرها، كانت أقسى محنة مررت بها في حياتي!
- أهي التي تدفعك للبحث عن الأمان؟!
- لا، البحث عن الأمان موجود منذ الأزل، منذ طفولتي، أتعرفين أي وقت أشعر فيه بالأمان حقًّا؟ هو عندما نجلس جميع أفراد عائلتي لنشرب الشاي عصرًا، هو أجمل وقت على الإطلاق، أخواتي الحبيبات وأخي الصغير وأمي، وأحيانًا أبي، لا سيما في عصاري الصيف.

كنت أتأمل ما ظهر عاريًا من جسدها، وشعرت برغبتي في اقتحام هذه الفتاة العذراء النفس والجسد، فبدأتُ خطتي قائلة:

- أعتقد أنه من الضروري لنا الآن أن نواصل المساج ونتحدث، فالوقت يداهمنا،

وأعتقد أنك تحتاجين لمساج خاص بعد هذا التوتر والدفق الهائل من المشاعر والذكريات!

فوجئت بقولي، لكنها كانت مسترخية فوافقتني قائلة:

- نعم، نحن نتحدث ولم ننتبه للوقت، لكني بصراحة شعرت براحة كبيرة حين تحدثت لك عن أشياء لم يعرفها عني أي مخلوق، كما أحس أن جسدي يحتاج لمساج من يديك، أحس أن يديك ساحرتان.

قمنا من زاويتنا ودخلنا إلى حيث أستوديو المساج، كانت هذه المرة أكثر جرأة، إذ ألقت عن جسدها الشرشف فرأيتها من الخلف عارية، مؤخرتها المتناسقة المشدودة إلى الأعلى ربما بحكم ممارسة الرياضة. تمددت على سرير المساج وسحبت الشرشف لتغطي جسدها، اقتربت منها، نزعت عني معطف العمل، فبقيت عارية إلا من الكلسون، تأملت هي جسدي بعينين مفتوحتين وكأنها تدرسني، ثم قالت:

- جسدك جميل جدًّا.

- شكرًا، ليس أجمل من جسدك، مع أن جسدك يتحدث أكثر منك ومن لسانك، هو يقول أشياء أخرى، ويحتاج لأشياء أخرى.

كنت لحظتها قد سكبت زيتًا ذا عطر زكي على ظهرها، وبهدوء بدأت أمسدها، أحسست بها تسترخي بنعومة تحت يدي الخبيرة، لكنها قالت بطريقة مستفهمة وماكرة وبهدوء:

- ماذا تقصدين؟ وما هو الشيء الذي يقوله لك جسدي، وماذا أحتاج، سبق لك وأن قلت هذه الجملة لكني لم أتوقف عندها! أنا صريحة، وأحب الصراحة، ولقد كشفت لك بجرأة عن أسراري!

صمتُّ للحظات. أحسست بأن مصدّات أمواج الشهوة لديها بدأت تهتز قليلًا، عليّ أن أثير فضولها وأقتحمها فقلت:

- ليست الصراحة بكشف الأسرار فحسب، وإنما في عدم الكذب على النفس والجسد حين يسأل!

- أنا لم أكذب على نفسي، لكني وجدت الكثيرين يهربون حين أكشف أوراقي،

ومع ذلك أنا لا أكذب على نفسي، وإذا ما وصلك مثل هذا الانطباع فلربما بسب أنني لم أفهم نفسي جيدًا. إنني شرنقت نفسي، أعترف بهذا.

كان صوتها يأتي متقطعَ الأنفاس بسبب أنها متمددة على بطنها ووجهها في تلك الفتحة المخصصة للوجه كي تتنفس بحرية. لم أشأ أن أجيبها مباشرة، أحسست أن لديها فضولًا لمعرفة رأيي فيها وفيما تحدثت به بشكل عام، لكن فضولها الأكبر كان في معرفة ما يحتاجه جسدها وما يقوله لي، انشغلت قليلًا بالمساج، كنت أمسدها من رقبتها، أمدّ كفيّ في فروة رأسها، أحسستها ترتعش من أثر هذه الملامسة، هبطت لأداعب فقرات رقبتها، ومررت بكفيّ على جانبيها ملامسة بهدوء ورقة جوانب نهديها، ونزلت حتى وصلت مؤخرتها، فدلّكتها بهدوء شعرت أنه أعجبها، نظرت إلى ما بين فخذيها من الخلف، وأثناء حركتي بتدليك مؤخرتها كنت أمرر يدي برقة على تلك المناطق الحساسة والمثيرة في ذلك الجزء من جسد الأنثى، وفي لحظة تأملي لجسدها، سألتني:

- لم تجيبيني عما قاله لك جسدي، وماذا أحتاج في رأيك؟

في تلك اللحظة بالذات رن هاتفي الذي تركته في الزاوية، فذهبت إلى هناك، وانتبهت إلى أن إيفا جوردانو حبيبتي تتصل، شعرت كأنما تم القبض عليّ متلبسة بجرم ما، أخذت الهاتف، سألتني عمّا أفعل، فقلت لها إنني أعمل، تحدثتُ معها بالألمانية لأن حواء البارحي لا تعرفها جيدًا، قالت لي إنها متضايقة، ولديها فراغ لأن الأستاذ لم يأت، وذكّرتني بالذهاب إلى المطعم الإيراني، فقلت لها سنذهب لكن عليّ الآن أن أنهي عملي، وأنهيت المكالمة.

حين عدت إليها وجدت أنها قد أدارت وجهها ناحيتي وقد قلبت جسدها فصارت مستلقية على ظهرها، كانت تنظر إلى جسدي العاري، ارتبكت، ولم أعرف لماذا أخذت معطف العمل وارتديته، كانت رغبة غامضة، نظرت إليّ باسترخاء، وقالت:

- أحسّك مترددة ولا تريدين الإجابة.

لم أطاوعها بالإجابة مباشرة، وإنما سكبت الزيت المعطر على صدرها، وبطنها، وأخذت أوزعه على نهديها وبطنها وصولًا إلى ما بين فخذيها فرأيت أنها أغمضت عينيها كي لا تكشف لذتها بذلك، قلت لها بهدوء:

- استرخي، امنحيني جسدك بالكامل، دعيني أدلّكك براحتي.

مرة أخرى أخذت كمية من الزيت المعطر بكفي ووضعتها على نهدها، وبدأت أدلّك حلمتيها والهالتين البُنّيتي اللون اللتان تحيطان بهما، فرفعت ركبتيها وانكمشت بطنها، عرفت أنها تتقلب في أمواج اللذة مغمضة العينين، وحين انبسط جسدها على السرير سكبتُ بكفي كمية من الزيت تحت سرتها، ارتجفت بوضوح، أنّت لا إراديًا، ورفعت رأسها وصدرها قليلًا، ثم انهدّت مرة أخرى على السرير، فتحت عينيها ونظرت إليّ وكأنها تدرسني وتدرس قصدية ما قمت به، وما أنوي أن أقوم به معها! ولا أدري ما الذي استنتجته، لكنها كانت الآن متوجسة مني، وسألتني مرة أخرى:

- لماذا لا تجيبيني، ما الذي أحتاجه، وما الذي يقوله جسدي؟

توقفتُ عن تدليكها، نظرتُ إلى عينيها بتركيز وقلت:

- ربما ما أقوله لن يعجبك، فهو يختلف عن كل ما قلته عن نفسك، وربما سيستفزك ما أقول.

فقالت بصوت مرتعش مكبوت:

- لا. لا. لا، قولي. أنا سأتقبل منك أي شيء.
- أي شيء؟
- أي شيء.
- إذن، اسمعيني، أعتقد أنك إنسانة هادئة، مغامرة في الوقت نفسه، لكن مغامراتك كلها فكرية، افتراضية، لأنك جبانة في الواقع، تسعين للمغامرات الافتراضية لأنها تجدد حياتك، تخرجك من سكونية يومياتك، وأكثر ما تخافين هو غدر الزمان والأصدقاء، ربما ستتزوجين لكنك ستندمين، لأنك ستدخلين الزواج بشكل عاطفي وتلقائي!

فقاطعتني مبتسمة بخيبة:

- لكن هذا كلام لا يستفز أحدًا، ولا يستحق ترددك، ثم لماذا حكمت على زواجي هكذا وأنا لم أتزوج بعد!
- انتظري، أنا لم أقل كل شيء بعد، ثم أنا حكمت على زواجك لأنك إنسانة تميل إلى الاستقلالية، وتضعين استقلاليتك فوق كل مقام، ولأن لديك

ميلًا فطريًّا نحو الاستقلالية والعدالة والحرية فإنك لن تقتنعي بسهولة بتبعية الزوجة، ومع أنك كما تقولين تعيشين علاقة عاطفية مع آدم الجنوبي لكنك في أعمق أعماقك غير مكتفية بها لأنك تحتاجين لشيء يهز كيانك؛ لذا أعتقد أنك لن تكوني مخلصة لزوجك، ولا تكتفين به وستتخذين عشاقًا سريين أو على الأقل ستغامرين بعلاقات عابرة!

نظرت إليّ بتوجس وقالت بهدوء:

- صرت أخاف من نفسي، وكأنك ساحرة ترى الغيب.

في تلك اللحظة اقتحمت عالمها، فقلت لها بجرأة:

- إنك بصريح العبارة تحتاجين إلى الجنس، تحتاجين لرجل يخترقك بوقاحة، وآدم الأفريقي هو هكذا، لذلك تميلين إليه بشبق.

لم تحتج، وإنما قالت:

- أف، هل أنا منحطة إلى هذه الدرجة؟!

- ليس للأمر علاقة بالانحطاط يا حواء، فأنت شبقة، سواء كنت تعترفي بذلك أو لا.

- لكننا نولد كبشر مع رغباتنا الجنسية.

- أتعرفين لو أن حبيبك آدم الجنوبي قد لامسك وقبّلك، وداعبك ولم يعبدك كقديسة وإنما كأنثى فلربما لم تفكري بآدم الأفريقي.

- أف، أشعر أن مشكلتي خطيرة، وأنني مختلفة عن الناس، ما الحل؟ أنا لا أحب الذهاب إلى الطبيب النفساني.

- لست طبيبة نفسانية، لكن يمكن أن أساعدك.

كنت أداعب جسدها أكثر مما أقوم بتدليكه، وكانت هي مسترخية، فتجرأت ومددت يدي لأمس منطقتها السفلى، فصدت حركتي وطوت ساقيها كرفض مبطن، لكني لم أعبأ لرفضها، بل واصلت محاولتي لمداعبتها لكنها أطبقت ساقيها بقوة كرفض حاسم لما أريده، انتبهت لها وهي تتأملني بعينين مفتوحتين وكأنها عرفت نواياي، كانت تنتظر بتوجس خطوتي المقبلة، لم أفعل شيئًا، وإنما اقتربت من جهة رأسها، قربت وجهي منها،

مسست حاجبيها برقة، أنفها، وشحمة أذنيها، ثم مررت بإصبعي على شفتيها، أحسست بارتجافة تسري في جسدها، ودون أن أترك فرصة لها انحنيت برأسي لأقبل شفتيها.. إذ بدت لي حينها مستسلمة، مسترخية، لكن فجأة، وعلى غير توقع مني دفعتني دفعة قوية لا يمكن أن يتصور المرء أن تقوم بها امرأة شابة ناحلة مثلها، فترنحت ووقعت على الأرض ورأسي ارتطم بالجدار، قفزت هي بسرعة مذهلة ولبست بنطالها وقميصها، ووضعت سروالها في حقيبتها، وانهمكت بربط حجابها على رأسها وقالت بنبرة مليئة بغضب مكثف مكتوم واحتقار معلن:

- يا شرموطة، يا وسخة، عاملة حالك مثقفة، وسيدة أعمال، ظننتك إنسانة سوية محترمة، ووضعت ثقتي فيك، لكنك استغليتي كل اعترافاتي لتمارسي الرذيلة، تف عليك، أنت إنسانة مريضة، منحرفة، اذهبي لتعالجي نفسك!

حين صارت عند الباب بصقت ناحيتي لفظيًّا دون بصاق حقيقي مرة أخرى وخرجت غاضبة، وسمعت صوتها في الصالة وهي تشتم بالفرنسية والعربية مع بعض الجمل والكلمات الألمانية وكأنها تحدث نفسها لكن صوتها كان مسموعًا، حتى أني استغربت كيف ومتى تعلمت هذه الكلمات، "هوره، شلامبه"؟ بل واستغربت ردة فعلها القوية أكثر، فقد كانت تدعي التحرر وتتحدث عن رغباتها الجنسية بصراحة، وتقبلت مني قولي لها بحاجتها للجنس، ناهيك أنها كانت مسترخية وملتذة بملامساتي لجسدها، فكيف انقلبت فجأة لأخلاقية متزمتة؟!

عرفت أن الأرض تزلزلت تحتي، وأن كارثة حلّت بي، حاولت أن أتدارك الأمر وأن أتجنب الفضيحة التي ستؤثر على سمعتي الشخصية وعلى مستقبل الصالون، فلحقت بها، لكن الصدمة كانت أكبر حين رأيت إيفا جوردانو كانت واقفة عند مكتب الاستقبال، وتستمع لكلام اللبنانية المحجبة وهي تجتاز الصالون، متى وصلت؟ ولِمَ لم يخبرني أحد بذلك؟ ولِمَ لم تتصل هي بي أيضًا معلنة وصولها؟ أكانت تريد أن تفاجئني؟

العاملات لم يفهمن ما قالته حواء البارحي بالفرنسية، لكن ما أن وصلت اللبنانية بمحاذاة إيفا حتى سألتها بالفرنسية عمّا جرى وسبب غضبها، وقفت اللبنانية متفاجئة أن يحدثها أحد بالفرنسية الصافية، وسمعتها تقول لإيفا بأن صاحبة الصالون ليست سوى امرأة شاذة جنسيًّا ومنحرفة، فقد أردت تقبيلها..كما داعبت جسدها بطريقة غير طبيعية،

وإنني امرأة وسخة، مع أني أرش على نفسي أغلى العطور! وخرجتْ وهي تشتم بالعربية عن العاهرات العربيات اللاتي يأتين أوروبا ليتحولن إلى قوادات وعاهرات ومنحرفات باسم البزنس! كل هذا وعاملات الصالون وبعض الزبونات سمعن ذلك، على الأقل ما رددته من كلمات بالألمانية!

كان بإمكاني أن أبرر للموظفات ولرواد الصالون بأن هذه المحجبة متخلفة وأصولية لذلك فهمت تدليكي ومساجي لها بأنه تحرش جنسي، لكن هذا لا يمكنه أن يمر بالنسبة لإيفا لأنها تعرفني، وحلّت الكارثة.

***

ما جرى مع هذه الفتاة اللبنانية المحجبة كان صدمة كارثية، صدمة أعادتني لنفسي، وواجهتني بها، من أنا يا تُرى؟ لِمَ تحولت إلى وحش جنسي لا يشبع؟ أين حواء كازابلانكا الفيلسوفة، النيتشوية التي تجادل في أعلى مستويات الفلسفة بينما لا تفكر الآن إلا بلحس الفروج ومص الشفاه والألسن والقضبان؟ من أنا؟ هل أنا فعلًا عاهرة أو كما سمتها باللبناني شرموطة؟ هل أنا منحرفة، وشاذة جنسيًّا، ووسخة؟ من أنا؟ أين تلك الفتاة الرقيقة العاشقة التي كنتها، العاشقة التي انتحرت بسبب الحب والعشق؟ أين تلك الفتاة ذات المفاهيم النيتشوية المتطرفة؟ كيف تحولت إلى هذه المرأة التي تخاطر بكل شيء من أجل شهوتها؟ هل أنا ماكرة ووسخة إلى هذا الحد فعلًا؟ أريد تلك المرأة التي كنتها، أريد لوجهي الآخر أن يتلبّسني دائمًا! أريد أن أرجع للا مبالاتي نحو الثراء والمال والحياة البرجوازية التافهة، أرجع لطيبتي، هل يمكنني ذلك أم أني هالكة وضائعة ولا نجاة لي؟

أحسست أن عرقًا باردًا أخذ ينزل من أعلى عامودي الفقري هابطًا نحو أعلى مؤخرتي، لم أكن أعرف أين أنا في تلك اللحظات، كنت خارج الزمكان! فجأة، انتبهت لوضعي أمام الموظفات، وأمام إيفا عشيقتي، لم أستطع تحمل الموقف، وتوجست انهيارًا كارثيًّا ينتظرني!

دخلت إلى الأستوديو، وجلست في زاويتي، كنت متوترة وخائفة، خائفة بل ومرعوبة من إيفا جوردانو، رعب حقيقي، أحسست بضعفي أمامها، لا، هي الخيانة التي تجعل الإنسان ضعيفًا عند المواجهة!

لا أريد أن أخسر ملاك الجحيم هذا نتيجة نزوة عابرة، أنا أعشقها فعلًا، أعرف عنفها وشراستها وغيرتها وقوة الإحساس بالتملك لديها، لذا لا أستطيع أن أخمن ردة فعلها، لكني على يقين غريزي بأنها ستكون ردة فعل عنيفة بل وكارثية، وربما سينهار كل شيء! فهي مراهقة، ومعقدة، تغار عليّ حتى من أبيها، فكيف وقد سمعت بـأذنيها ما جرى من فم اللبنانية المحجبة بأني حاولت تقبلها؟!

لم تمض سوى لحظات حتى سمعت باب مكتبي يقفل من الداخل، ورأيتها تقتحم زاويتي غاضبة وشرسة وعدوانية مثل فهد أسود في ليل الغابة، لكنني استغربت حينما قالت لي بحقد وبنبرة باردة تخفي خلفها غضب يتأجج:

- لقد خنتني بشكل رخيص! كذبت عليّ، كنت تدّعين أنك لي وحدي مثلما أنا لك وحدك، لكنك وبأول فرصة لك خنتني، وربما كنت تخونينني دون علمي، فحتى ما جرى الآن لو لم أكن موجودة وسمعته من فم الضحية لما علمت به، ومع ذلك كان لديّ إحساس بتغيير ما قد حصل معك!

صمتتْ للحظات وهي تتفرسني مثل أفعى ترفع رأسها أمام الطريدة وتنتظر كيف تنقض عليها، كنت مشلولة من الرعب والخجل ومنتظرة حكمها النهائي الذي لا بد وستنطق به، ثم واصلت بنبرة تشي بسيطرتها على أعصابها، سيطرة لم أكن أتوقعها منها، فقد كانت مثل أم تعاقب ابنتها التي اقترفت جرمًا معيبًا لا يغتفر:

- أتعرفين، أحس نحوك بغضب هائل، لا أريد أن أراك، لا في البيت ولا في أي مكان يمكن أو يفترض أن أكون فيه، جِدي لنفسك عذرًا بحيث تغادرين البيت دون فضيحة، وإلا سأخبر زوجك الخنزير بكل ما جرى، سافري للبلد الذي جئت منه. أنا صريحة معك، أحبك، بل وأعشقك، ولا أعرف كيف سأعيش دونك، ولا كيف سأنام في سريري الذي ضمنا مئات المرات، ولا كيف أدخل غرفتي التي شهدت تفاصيل عشقنا، لكني الآن غاضبة جدًّا، فمن أجلنا نحن الاثنتين عليك أن تغربي من أمامي حتى أتصالح مع نفسي وأنسى ما سمعته اليوم، لديك الآن المال الكثير، يمكنك أن تسافري إلى أهلك، زوجك رجل خنزير مريض، أهبل، يقبل ويصدّق أي عذر تقدمينه له، غادري اليوم، الآن، اتصلي به وقولي له بأن والدك توفى أو على وشك الموت ويجب أن تحضري

وفاته، وإذا أردت ألّا تخسري كل ما لديك فلا ترجعي إلى هنا إلا إذا سمحت لك أنا بذلك، اتفقنا.

لا أعرف كيف تحملت تلك اللحظات، كنت صغيرة أمامها، ملطخة بوحل العار، منحنية من ثقل الإثم، منطوية تحت الشعور بالذنب، وددت أن أتوسل لها لكن الكلمات ماتت، وهربت، وشل لساني. ولم أجد نفسي إلا وأنا أنهار وأتقرفص أمامها مقبّلة كفيها، وسجدت أقبّل قدميها، فابتعدت، وكررت كلمتها الحاسمة: هل اتفقنا!

لم أقل شيئًا، كنت مشلولة اللسان، ولم أستطع سوى أن أتمتم بكلمة: "اتفقنا".

ظلّت للحظة واقفة في مكانها، ولا أدري لماذا أحسست بأنها ندمت على حكمها، وربما كانت تنتظر مني تبريرًا أو احتجاجًا، لكني بقيت صامتة! نظرت إليّ نظرات حائرة غامضة، فيها غضب واحتقار ورغبة دفينة وأسف، وغادرت بسرعة وكأنها تهرب من ثقل الموقف وهول ما قررت بحق نفسها وبحقي.

***

بقيت لربع ساعة بعد مغادرتها، كنت ذليلة ومنكسرة النفس والشخصية، لكن الغريب أنني بعد مغادرتها وجدت نفسي أهدأ شيئًا فشيئًا، وتتسرب إلى ذهني برودة وسكون، تخشب جسدي وأعصابي، كنت مثل شخص بات ليلته منتظرًا الحكم عليه في الغد، وفي نهار اليوم التالي يصدر الحكم، وتنتهي معاناته وانفعالاته، فمهما كان الحكم قاسيًا عليه الآن فقد تعب من المعاناة، وعليه أن يواجه تبعات الحكم الآن متخلصًا من معاناة ترقُّبه! والأغرب من ذلك وجدت في قرار ملاكي الشرير بعض العزاء والرضا لنفسي ومعاقبة لذاتي، كما انبثقت في نفسي مع ذلك رغبة في زيارة أهلي، وزيارة بلدي، اللذان لم أذكرهما خلال سنة من الآن، وحدّثت نفسي للحظات متفلسفة عن غرابة النفس البشرية وتحولاتها الغامضة!

خرجت من الصالون، كنت باردة الأعصاب، لم أقل شيئًا للموظفات، أخذت سيارتي واتجهت إلى المطار، لم أكن متأكدة من وجود خطوط جوية مباشرة، لكن لعبة القدر غريبة، فقد وجدت رحلة في الساعة 13.50 تتجه مباشرة إلى مراكش، فحجزت مقعدًا، وغادرت، وحين تواجدي في المطار سحبت مبلغ عشرة آلاف يورو من أجهزة

سحب النقود الآلية، كما كانت معي بطاقاتي البنكية التي يمكنني الدفع بها حتى مبلغ 2000 يورو يوميًّا، وأثناء انتظاري الطائرة في المطار اتصلت بزوجي وأخبرته بأني تلقيت اتصالًا عاجلًا من أهلي، وأن والدي في حالة خطرة، وهو في غرفة العمليات، ويجب أن أكون عنده وعند أمي وأخوتي في تلك اللحظات، اقتنع ببراءة، وأبدى تعاطفه معي ومع عائلتي، وقال لي بأنه سيحول لي مبلغًا مناسبًا على الويسترن ينيون في اليوم التالي.

خلال رحلتي التي استمرت ما بين 3 إلى أربع ساعات كنت أراجع ما جرى معي خلال هذا العام الذي قضيته في النمسا، العام الذي مرّ كحلم وانتهى بكابوس! لكن لا أعرف لماذا وجدت في نفسي يقينًا بأنني سأرجع إلى فيينا، إلى أحضان إيفا حبيبتي التي لم أكن غاضبة منها أبدًا لأني منحتها الحق كله في موقفها بل وجدت موقفها رحيمًا بي إلى حد كبير! كذلك فكرت في كل الأحوال بإمكانية الرجوع لأن لدي إقامة رسمية لمدة ثلاث سنوات، بل يمكنني بعد انتهاء الإقامة الحصول على الجنسية بحكم زواجي من نمساوي!

***

أنا منذ شهر هنا، في مراكش الحمراء، أتنقل بين الدار البيضاء ومراكش، زرت أهلي، منحتهم مالًا كثيرًا لم يحلموا به قط، اشتريت لوالدي ساعة يدوية وثيابًا وهدايا لأمي وأختي وبقية العمات والخالات والأخوال، لكني مللت البقاء معهم لبضعة أيام، مللت بيت أهلي البسيط الذي قضيت طفولتي وصباي فيه، تقززت من مرحاضهم القذر، تركتهم وجئت مراكش، استأجرت شقة جيدة في بناية حديثة وراقية بشارع محمد السادس بالقرب من مول المنارة!

مصادفة غير متوقعة وملأتني فرحًا حينما التقيت قبل أيام الرجل الوحيد الذي شعرت معه بإنسانيتي، أقصد الكاتب آدم التائه الذي تقربت منه كثيرًا قبل عام، وعرفت بالمصادفة المجردة الغامضة أيضًا بأنه يمر بوضع خطير، إذ أن هناك من يريد القضاء عليه! شخص معقد غيور غيرة مرضية اسمه قابيل الموسى وتابعه الدنيء آدم غضب الله ينويان له شرًّا، هذان الشخصان تعرّفت عليهما قبل سنتين في الدار البيضاء، وقضيت معهما أيامًا، وصرت ألتقيهما كلما وصلا إلى المغرب، المهم، عليّ أن أنقذ صديقي آدم

التائه، عليّ أن ألغي ذاكرتي التي تتجول فيها إيفا جوردانو بحرية وغضب! عليّ أن أنسى المشهد الذي جرى لي مع المحجبة اللبنانية المنافقة، أنا أنسى نفسي، أو أستعيدها، عليّ أن ألتقي صديقي الأوحد آدم التائه!

رن هاتفي الآن.

***

في تلك اللحظة سمع آدم التائه رنة الهاتف التي تشير إلى وصول رسالة، نظر إلى شاشة هاتفه فانتبه إلى وصول رسالة، لكنه وقبل أن يفتحها فكر في وصف حواء كازابلانكا الأخير للبنانية المحجبة بالمنافقة، وقال لنفسه ربما هو وصف اجتماعي دقيق لكنه توصيف أخلاقي، فربما فعلًا كانت اللبنانية المحجبة مستمتعة بملامسات حواء كازابلانكا، لكنها ارتعبت من دفق شهوتها فخافت أن تنجرف مع شلال اللذة، فارتدت بعنف الانجراف ولبست قناعها الذي يقيها الوقوع في الإثم الشرعي!

أخذ الهاتف وفتح الرسالة، كانت من حواء الورد: "أنا مسافرة صباحًا، قلت لي مرة، لا تثقي بباقة الورد، إنها جثث الأزهار. أنا الوردة الجثة، لكني وردة مخلصة حتى في موتي، سأسافر صباحًا وأتزوج بعد أسبوع، هذا قدري، لا تنسى حواء الورد، لا تتصل بي الآن، أنا عند أختي، لا أستطيع الكلام، سأحاول الاتصال بك عبر الإيميل، اكتب لي إيميلك رجاءً، وداعًا الآن".

ما الذي يجري معه، كانت حكاية حواء كازابلانكا مع حواء اللبنانية المحجبة قد أذهلته، ووجد نفسه يكتب لحواء الورد إيميله ويرسله وكأنه يؤدي فعلًا ميكانيكيًّا، في تلك اللحظة رنّ هاتفه، لم ينظر إلى الشاشة ليعرف المتصل، فقد ظنه حواء الورد وقد استلمت الإيميل، لكن الصوت الذي وصله عرفه مباشرة، كان صوت حواء كازابلانكا:

- ألو، أهلًا أستاذ آدم، أنا أنتظرك تحت، في الشارع، قرب مكان شقتك، أقول لك حاول أن تسافر غدًا صباحًا، اذهب إلى المطار ومن هناك احجز سفرك وغادر، هل تفهمني؟ هؤلاء ينوون لك شرًّا، أنت تعرف من أقصد، وإذا لم تستطع فانزل واذهب معي، ولا تبق هنا، سأنتظرك، أنا قرب الإقامة، ولم أشأ أن أتحدّث من مكتب الاستقبال وأمام الموظف الذي هناك، فربما سيتصلون

بآدم غضب الله أو قابيل الموسى، هؤلاء تم شراؤهم بالمال. سأنتظرك، خذ كل ما لديك من أشياء، وانزل بسرعة.

لم يكن هو قد قال شيئًا، هي التي تكلمت منذ بدء الاتصال إلى أن أنهته! ما الذي يجري معه؟ هذه المرأة لا تكذب، فمن يكتب هذه الاعترافات لا يكذب أبدًا! غمره قلق غير مريح، ووجد نفسه يتصل بها:

- ألو، هذا أنا، ما الذي يجري، (صمت، يستمع لها وهي تتحدث)، طيب، هل آتي بحقيبتي ووثائقي، إذن سأحمل اللابتوب ووثائقي وأنزل.

وخلال دقائق أحس بجسده قد ابتل بعرق بارد، لحظتها قال لنفسه هذه علامات ضعف القلب وعدم كفاءة الدورة الدموية بشكل جيد، أحس برعشة في جسده، وضع اللابتوب في الحقيبة الجلدية وما لديه من حاجيات، والحقيبة التي فيها وثائقه، ونزل مسرعًا.

لم يكن ثمة أحد في مكتب الاستقبال، خرج وكأنه يهرب، كانت هي تنتظره عند رأس الجادة التي تفضي إلى الشارع العام، وما أن رأته حتى ضمته إلى أحضانها بمحبة وود.

# الفصل التاسـع

## الذاكرة، الذاكرة

الوقت قد تجاوز منتصف الليل إلا أن الحياة كانت تتدفق في شارع محمد السادس بمراكش، لا سيما هنا في هذه المنطقة القريبة من مول المنارة! وكان صوت ضجيج خفيف لسيارات عابرة أو دراجات نارية تمرق بين الحين والآخر يصل إلى شقة حواء كازابلانكا، التي كانت في تلك اللحظات بالمطبخ تعد شايًا أخضر لآدم التائه بينما صبّت لنفسها بعض عصير البرتقال في كأس قريبة منها، فجأة كسر ذلك الإيقاع صوت منبه سيارة إسعاف فبعث في نفسها قشعريرة غير مريحة، قالت لآدم التائه الذي يجلس مرتبكًا قليلًا على الصوفا في الصالة وهي تحمل كوب الشاي الأخضر وكأس العصير متجهة إليه:

- مراكش مدينة لا تنام تقريبًا، لا سيما بعض المناطق كساحة الفنا وهذا الشارع الأنيق وأماكن أخرى في منطقة جليز، وطبعًا المطاعم والمراقص في الفنادق!
- نعم، أنا أحب مراكش الحمراء، هنا تتلاطم أمواج التاريخ وتتداخل لتضرب ضفتيه، الضفة الأمازيغية والضفة العربية الإسلامية، بالمناسبة، شقتك أنيقة جدًّا!

وضعت كوب الشاي أمامه على الطاولة وجلست على المقعد الوثير المجاور له، كان ثمة ارتباك واضح يبدو عليه، فهو يحس أنه اقتحم عليها عزلتها، وربما سبّب لها إرباكًا، ناهيك أنه لا يعرف شيئًا عن ذلك الخطر الذي يترصده، نظر إليها بارتباك وحيرة وقال:

- بصراحة لا أعرف كيف أبدأ حديثي معك، أنا على يقين غامض بأني أعرفك،

وفي الوقت نفسه أشعر أنني لا أعرفك، وكذا الأمر مع نفسي، أحس أنني لا أعرف نفسي جيدًا، ثمة فجوات في ذاكرتي، أماكن ووجوه ضبابية غير واضحة، فلقد صحوت من نومي ووجدت نفسي في شقة بمراكش! لم أكن أعرف من أنا ولا أتذكرها لولا أني عرفت اسمي وجنسيتي من جواز السفر، ومع ذلك فأنت تتصرفين معي وكأنك تعرفينني جيدًا، تعرفين من أنا، وتعرفين وضعي، وفوق هذا كله تتحدثين معي عن خطر يحدق بي! ودعوتني بكل ود ومحبة وأمان إلى شقتك، وهذا يعني أنك تعرفينني وأعرفك، ونحن قريبان، وإلا كيف أجد نفسي الآن في شقتك؟ فما الذي يجري؟..هل لك أن تساعديني في ترميم تلك الفجوات الضبابية في ذاكرتي، أحس أنني بحاجة لرتق بعض التمزقات في الأحداث أو في نسيج اللوحة غير المكتملة في ذاكرتي! هل تساعدينني!

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه حواء كازبلانكا في البداية، لكنها أدركت مباشرة بحدسها ما جرى مع آدم التائه، استنتجت ذلك مما عرفته من آدم غضب الله الذي روى لها في لحظة سكر كل ما جرى مع آدم التائه وكيف جاءوا به إلى مراكش وما ينوون له! فنظرت إليه بعينين مليئتين بالحنان والود وقالت له بصوت هادئ وواضح وحنون:

- الآن أدركت سرّ نظراتك اللا مبالية والمتوجسة نحوي حينما رأيتني مع آدم غضب الله قبل أيام في المقهى القريب من مكان إقامتك!

نظر إليها بارتباك وقال بانكسار:

- لقد شُبّه لي. لم أعرفك مباشرة لكن ثمة هاجس في داخلي كان يقول لي بأني أعرفك وأني رأيتك في مكان ما، بيد أني لم أستطع أن أتذكر كيف وأين؟ لم أتمكن من استحضار التفاصيل إلى الآن! فهلا أمكنك أن تخبريني، أن ترممي ذاكرتي! أرجوك، كيف وصلتُ إلى هنا!

ارتشفت حواء كازابلانكا كل ما كان في كأسها من عصير، بينما لم يرتشف هو شيئًا من كوب الشاي، فطلبت منه أن يرتشف شيئًا من الشاي الأخضر لأنه مهدئ للأعصاب، أما هي فبدت منتعشة ومتحمسة لأنها ستقوم بدور المساعدة، فهي من هؤلاء الأشخاص الذين يتألقون ويتحمسون ويمتلئون بالطاقة حينما يتوجه لهم من يحتاج مساعدتهم، فقالت له:

- اسمع يا صديقي الغالي، لقد تعرّفتُ على قابيل الموسى وتابعه الذليل آدم غضب الله قبل سنتين في الرباط، في منطقة أكدال، وكنت مع صديقة لي اسمها حواء تومرت والتي جاءت من مدينة بعيدة لتتابع أمر قبولها في إحدى الجامعات هنا، كنا في المقهى، وكانا هما يجلسان إلى طاولة قربنا. من ملامحهما عرفنا أنهما من العرب، ومن الخليجيين بالتحديد، كانا يتصرفان بثقة كبيرة، وكأن المقهى يعود لهما، وكانا ينظران نحونا يتبادلان كلمات لم نفهمها مع أننا كنا نسمعها، لم نكن قد طلبنا شيئًا بعد، وما أن جاءت النادلة الشابة حتى قال أحدهما لها، الذي عرفت فيما بعد أنه قابيل الموسى، بما يشبه الأمر، بأن تلبي طلباتنا على نفقة المقهى وأن تقوم بالواجب نحونا على أكمل وجه! رفضنا في البداية، لا سيما صديقتي القروية، لكن لطفهما في الحديث والتعامل معنا أوحى لنا بشيء من الثقة نحوهما، وجاءت النادلة بما طلبنا إضافة إلى حلوى وقطعًا من التورتا، فالتفت إليهما شاكرة، فأبدى قابيل الموسى كرمًا جميلًا، ثم دعانا إلى أن ننضم بطاولتنا إليهما ونجلس سوية، والحقيقة ترددنا للحظات لكني لم أجد ولا صديقتي مانعًا، ولحظتها استغربت قبول صديقتي المباشر للدعوة، فهي قروية ويفترض أن تكون أكثر توجسًا وتشددًا، لكن يبدو أنها إنسانة مختلفة، تحب أن تتعرّف وتجرّب كل شيء في عالم المدينة! المهم، كانا لطيفين، مرحين، كريمين، ومع ذلك كان ثمة عدم ارتياح في أعماقي لسببين، أولهما لم أرتح لجلوسنا معهما لأن من يرانا سيفكر بأننا عاهرتين ترافقان خليجيين، وثانيًا، لأني تعرّفت على صديقتي قبل قليل من دخولنا إلى المقهى، فأنا لا أعرفها جيدًا إلا بشكل سطحي، فقد استوقفتني سائلة عن أية مكتبة يمكن أن تجد فيها كتبًا وروايات في منطقة أكدال، واستهواني الأمر، فسألتها عن نفسها فأخبرتني أنها جاءت من ورززات لتتابع أمر تسجيلها في الجامعة، فدعوتها إلى فنجان قهوة، وفي المقهى التقينا قابيل الموسى وتابعه! لذا كنت مترددة من أن أخوض معها مغامرة بالتعرف إلى رجال غرباء وأتصرف بحرية كما أنا في العادة! والغريب أن صديقتي القروية لم تكن منكمشة وخائفة كعادة القادمين من قرى وحتى مدن بعيدة عن العاصمة! بل كانت تتحدث معهم أكثر مني! لا أريد أن أتحدث الآن عن صديقتي هذه،

وما جرى في ذلك اليوم، ربما سأحدثك عنها لاحقًا فهي شخصية تستحق أن تعرف عنها شيئًا، فربما ستفيدك في أعمالك الروائية اللاحقة.

نظر آدم التائه إليها مستغربًا، وكان يحاول أن يستعيد نفسه من خلال التذكّر ونسج تفاصيل غير مترابطة ببعضها!بينما تيقّنت حواء كازابلانكا بأن آدم التائه يمر بأزمة فعلية ويحتاج مساعدتها في استرجاع ذاكرته بشكل كامل لذا أخذت تتحدث معه بتفصيل أكبر وقالت:

- اسمعني جيدًا يا عزيزي، لا وقت لدينا الآن لسرد هذه الحكاية بكاملها، سأكثف سردها لك، لكن المهم الآن أن تعي ذاتك، وتسترجع شخصيتك، سآتيك من الأخير! شخصيًّا، وكما فهمت من قابيل الموسى، الثري الخليجي الأمريكي، الذي سهرت معه وحده مرات عديدة، أنه ذات ليلة روى لي بعد أن تعتعه السكر قصة زواجه وطلاقه وعلاقتك بكل هذه الحكاية الغامضة، وفيما بعد سمعت القصة بتفاصيل أخرى أكثر وضوحًا من آدم غضب الله، حيث بيّن لي أن قابيل الموسى كان قد طلّق امرأته التي اسمها حواء صحراوي، الثرية الخليجية البريطانية، لكنه كان يغار عليها جدًّا، وبشكل مريض، وأنه كان يشك بعلاقتها بك لأنه رآكما أكثر من مرة بمعية ممثلة إنكليزية مشهورة؛ لذا قرر مع عصابته القضاء عليك، واغتيالك، وهذا ما حصل بعد منتصف ليلة ممطرة، حيث جاءوا إلى الشقة التي تعود للممثلة الإنكليزية والتي استضافتك فيها، وهناك أرادوا اغتيالك، اقتحموا عليك الشقة، وشدوا وثاقك إلى كرسي، لكنهم انتبهوا إلى دخول سيارة حواء صحراوي إلى باحة المبنى الذي تقع فيه الشقة. غضب قابيل الموسى أن تأتيك طليقته في تلك الساعات الأولى من الفجر، مع علمه أنك لا علاقة خاصة تربطك بها بعد أن حقق معك قبل مجيئها، بل وإنه تعاطف معك لأنك زوج مخدوع مثله. المهم، لقد ارتبكوا حينما انتبهوا لوصول سيارة طليقة قابيل الموسى، فتفرقوا مختبئين في غرف الشقة بالطابق الأعلى، ولم يؤذوك، وإنما زرقوك بإبرة مخدرة أرقدتك فورًا كي لا تتمكن من قول أي شيء ولا الاستنجاد بها، ولكي يستكملوا المشهد ضربك أحد أفراد العصابة، وكان شيشانيًّا، بأخمص المسدس على جبينك فشج رأسك، وسال

الدم على وجهك وقميصك، وحينما دخلت طليقة قابيل الموسى إلى الشقة خائفة لا سيما وأنها انتبهت إلى أن باب الشقة كان مفتوحًا، لأن العصابة نسوا إغلاقه، فهم لم يفكروا أن الأمر سيأخذ وقتًا، فالأمر بالنسبة لهم كان سريعًا وخاطفًا. المهم أنهم اختفوا جميعًا في غرف الطابق الأعلى، وما أن دخلت المرأة، ورأتك على تلك الحال، رأسك يتدلى للأسفل، والدم لوث قميصك ووجهك حتى كادت تنهار وتُشل من الرعب، ومن شدّة ارتباكها لم تدقق كثيرًا في وضعك إن كنت على قيد الحياة أم أنك مقتول فعلًا، وطبعًا لم تبادر إلى الاتصال بالشرطة خوفًا من الفضيحة، فماذا تفعل هي في شقة رجل مقتول بعد منتصف الليل؟! لكنها مع ذلك حين رأت مغلفًا أبيض فيه رزمة أوراق خمنت أنها روايتك! كما رأت مغلفًا لرسالتين، أخذتهما، وقد تأسف قابيل الموسى الذي كان يراقب ذلك من فتحة باب غرفة نومك التي في الأعلى إلى أنه لم ينتبه لوجود ملف المخطوطة ولا الرسالتين!

كان آدم التائه يستمع لها وهو منقبض الملامح، وكأنه كان يستجمع في داخله تفاصيل تائهة ومتفرقة، لكنها حدثت معه لأن صورًا لتلك التفاصيل أخذت تبرق في ذهنه، وفجأة سألها:

- لماذا لم يقتلوني؟

فوجئت بالسؤال، لكنها واصلت:

- لا أعرف بالضبط، كما فهمت من آدم غضب الله أنهم عرفوا كل شيء عنك، وعرف قابيل الموسى أنْ لا علاقة خاصة تربطك بطليقته، بل إنك مثله زوج مخدوع، وهذا ما عرفته منه، فهل هذا صحيح؟

صدمه السؤال، صمت للحظات، بل غرق في أعماق نفسه بحثًا عن إجابة، وتراءى له وجه أنثوي يعرفه، ومشهد لامرأة محجبة تنحني عارية المؤخرة، وثمة رجل يولج فيها قضيبه بقوة، وهي تصرخ فيه بأن يريحها ويولجه كله ولا يترك منه شيئًا، ويرى نفسه يبصق عليها ويصرخ فيها: أنت طالق! وأحس بما يشبه شرارة برق في أعماق ذهنه، وتعرّق وجهه قليلًا، وتمتم:

- ربما، لا أعرف بالضبط، لكن يبدو لي بأن شيئًا مثل هذا قد حدث!

نظرت إليه بحنان وشفقة، وأدركت أنه بدأ يستعيد ذاكرته لكن بوجع وببطء، فقالت له:

- سأقول لك ما سمعته عنك، بأنك كنت متزوجًا من امرأة خانتك مع جارك اللبناني، لكن زواجكما لم يكن رسميًّا أمام الجهات الألمانية وإنما كان عقدًا دينيًّا غير مصدّق من وزارة الخارجية العراقية أو السفارة العراقية في ألمانيا، كما أن سكنكما معًا في شقة واحدة لا يعني أنكما متزوجان رسميًّا أمام المحاكم الألمانية، وأن زوجتك خانتك مع جارك اللبناني، وأنك رأيت المشهد بعينيك، رأيتها متلبسة بالإثم، فطلقتها، وغادرت المدينة، ولا أحد يعرف كيف تعرفت بالممثلة الإنكليزية، لكن من الواضح جرى ذلك في ألمانيا، وهي التي عرفتك على طليقة قابيل الموسى، الذي يعتقد هو بأنها امرأة فاجرة، وأنها خانته مع أشخاص آخرين، ولأنها تحب الثقافة والمثقفين فقد تقربت منك، وأرادتك عشيقًا لها، لكن ذلك لم يحصل، فقد انتبه هو بعد أن رآكم، أنتم الثلاثة، الإنكليزية وطليقته وأنت، في أحد المطاعم بلندن، فاستعان بعدد من المخبرين السريين الذي نبشوا تاريخك وكل ما له علاقة بك، واشترى رواياتك عن طريق مكتبة عربية بلندن، وكما قال لي وهو سكران إنه أشفق عليك، وما فعله معك قال إنه أراد من خلاله إرهابك كي لا تفكر بالاقتراب من طليقته، لا لأنك تريد ذلك، ولكنه قال إنه يعرفها، هي تشتهي الرجال المثقفين، وأنك لو تورطت في ذلك فإنه لن يتردد في قتلك! غير أن الأمور اتخذت مسارًا آخر، فحين هربت طليقة قابيل الموسى من الشقة لهول الموقف الذي رأته، وتأكدوا من أنها غادرت بسيارتها البوابة الرئيسة للمبنى، حملوك هم في تلك الساعات من الفجر المخيف، حيث كما قال لي آدم غضب الله في لقاء معه بأن الزومبي في تلك الليلة كانوا يتجولون في تلك الساعة فوق جسور لندن وشوارعها وأزقتها، نعم الزومبي، الزومبي الذين نراهم في الأفلام السينمائية، وتخلصوا من مواجهتها بصعوبة وبطرق ملتوية من خلال أزقة يعرفها السائق الشيشاني. المهم، نقلوك إلى إحدى شقق قابيل الموسى، عالجوا جرحك، لكنهم استمروا بزرقك بإبر المادة المخدرة، وحين كنتَ تفيق لفترة قصيرة، يطعمونك، ثم يزرقوك بالإبر مرة أخرى. طبعًا لم ينووا أن تتحول إلى مدمن

مخدرات، لكنهم كانوا يخططون لشيء آخر، أنت لم تكن تعرف ما يجرى معك، ولا تتذكر شيئًا، ذاكرتك مشوشة. المهم، ولكي تتم لعبة قابيل الموسى مع طليقته فقد حملك هو وآدم غضب الله إلى مراكش، الحمد لله أنك لم تتحول إلى مدمن مخدرات، علمًا أنهم قالوا إنهم كانوا يزرقوك بإبر منومة ومخدرة وليس إبر هيروين أو مواد خطرة، ومع ذلك لم يتحمل جسدك ذلك، كنت مشوشًا ومريضًا من أثر زرقك بالمادة المخدرة بشكل متواصل. وحين سألت آدم غضب الله عن كيفية مرورك بالمطار وعبورك من بلد إلى آخر، أخبرني بأنهم رافقوك وكأنك مريض لا تقوى على الحركة، لقد كنت في المطار في حالة يرثى لها حقًّا، هم رتبوا كل شيء بحيث ظنت شرطة المطار وموظفو الخطوط الجوية المغربية أنك مريض فعلًا ووضعك سيئ وتحتاج عناية ومرافقة! وهكذا جاءوا بك إلى مراكش.

قاطعها سائلًا بنبرة قلقة ومليئة بالاستغراب والدهشة:

- لكن لماذا، لماذا مراكش وليس بلدًا آخر؟ ولماذا لم يتركوني وشأني في لندن بعد أن تأكدوا من عدم وجود أية علاقة لي بطليقة قابيل الموسى؟

انتبهت حواء كازابلانكا لأسئلته، وفكرت بصواب ما سأل عنه، وواصلت حديثها:

- كما فهمت من آدم غضب الله، لا سيما في ذلك اليوم الذي رأيناك فيه أول مرة، حين كنا في المقهى، ومررت أنت واتصل هو بك هاتفيًّا، ثم ناولني الهاتف وحدثتك، حينها سألته عنك، فحكى لي قصتك، وقصة طليقة قابيل الموسى، وكيف أنهم تتبعوا حركتها لأيام ورأوها تلتقي مع الممثلة الإنكليزية، وكان أحد أتباعهم يجلس قرب المرأتين، فسمع أنهما تتحدثان عن جثتك المفقودة، وقرأتا الرسالتين اللتين تركتهما، فخافوا أن تشتكيا، لا سيما تلك الممثلة الإنكليزية الشهيرة المعروفة للرأي العام الإنكليزي والأوروبي وذات العلاقات الواسعة بوسائل الاعلام، وإذا ما حدث فستبدأ التحقيقات التي لن تخفى على المخابرات الإنكليزية، لذا سارعوا بإخراجك من لندن، وأول ما ورد في ذهن قابيل الموسى هو المغرب لأن لديه هنا مصالح اقتصادية؛ بيوت، ورياض ومطاعم داخل الفنادق وفي البيضاء والرياض وطنجة ومراكش،

وحتى هذا المبنى الصغير الذي أنت في إحدى شققه هو ملكه، لكن كما فهمت أن الأمر لم يتوقف هنا، إذ أن قابيل الموسى أراد أن يحطم طليقته وإذا تمكن فسيقضي نهائيًّا عليها، وحين عرف بأنها ستغادر إلى إيطاليا وحدها دون أي مرافق من أهلها لأنها عادة ما تكون مع أمها، وجد في ذلك فرصة سانحة بالقضاء عليها نهائيًّا في بلد بعيد لا يثير شكوكًا حوله؛ لذا أرسل قاتلًا مأجورًا لاغتيالها في إحدى الجزر السياحية في إيطاليا، خلال تلك الأيام من الأسبوع الفائت كانوا قلقين ويترصدون الأخبار من نابولي، وذات يوم احتفلوا وكنت معهم، سهرنا لساعات الفجر الأولى لأن أخبارًا سارة وصلتهم من إيطاليا، فقد تم إنجاز المهمة! وفهمت أن قابيل الموسى قد قضى على طليقته هناك! لكن وبعد يومين احتفلوا مرة أخرى بمناسبة القضاء على القاتل المأجور الذي أنجز المهمة الأولى أيضًا! وسمعت أنهم لا يريدون أي شاهد على جريمتهم، وكما هو معروف فإن الجريمة تجر إلى جريمة ومن ثم إلى جرائم، هم قتلة خطرون، وقد جاء دورك، فهم لا يريدون أي شاهد على تفاصيل الحكاية! بل ورد اسم الممثلة الإنكليزية أيضًا، لكنهم لا يريدون التورط بقتلها وإنما يخططون للقضاء عليها من خلال افتعال حادث سير أو ما شابه! وحين سألتهم عن جدوى قتلك، قالوا إنك ظهرت في الصحف الإنكليزية بصحبة تلك الممثلة وهي تستقبلك في المطار، حيث كتبت الصحف بأنك عشيقها الجديد، وإذا ما قُتلت فأكيد سيتم التحقيق معك أينما كنت باعتبارك مقربًا منها! لذا القضاء عليك ضروري بالنسبة لهم! هذا ما عرفته عصر هذا اليوم، لكني كنت معهم ولم يتركوا لي لحظة للاتصال بك! وما أن غادرتهم حتى بادرت للاتصال بك، إنك تستطيع مغادرة مراكش فورًا، ارجع لألمانيا يا آدم، هي بلد آمن، وبالتأكيد هم لا يعرفوا عنوانك هناك، وإذا أحببت، أغادر معك، لدي إقامة نمساوية وهذا يعني أستطيع دخول ألمانيا ودول الاتحاد الأوروبي دون تأشيرة، أو، وهذا الأفضل، أن تأتي معي إلى فيينا، فكما كتبت لك عبر الإيميل قبل شهرين بأنني لا أستطيع الرجوع إلى حياتي القديمة إلا بعد أن أسوّي الأمر مع إيفا جوردانو، وضعي المادي جيد جدًّا، يمكنني أن أستأجر شقة نعيش فيها بأمان ونصرف على معيشتنا بيسر، ما رأيك!

كانت عينا آدم التائه تتألقان وهو يرى إشعاعات الحنان والمودة تنطلق من عيني حواء كازابلانكا، وعلى الرغم من كمية المعلومات التي تدفقت من فمها إلا أنه شعر بوضوح لم يكن يمتلكه سابقًا، وبدأ يستوعب وضعه بشكل أفضل، لذا سألها:

- لحظة، سأفصل معك كل هذه المعلومات التي سمعتها منك الآن، لكن قبل ذلك أتوقف عند جملة نطقت بها في ختام كلامك، إذ قلت بأنك كتبت لي عبر الإيميل كل ما جرى معك! لكن عرفت كل ما جرى معك من خلال اعترافاتك في هذا النص الروائي تقريبًا والمعنون "متاهة الأنبياء"؟!

ابتسمت له وقالت بدهشة:

- هذا نصك أنت يا آدم، هل أنجزته؟! رائع! ألا تتذكر ما قلته لي في أول لقاء وحوار بيننا بعد تعارفنا في محطة القطار المركزية بالدار البيضاء، ثم لقاءاتنا اللاحقة فيما بعد بالرباط، وتأجيرك لشقة مفروشة في زنقة بيروت، حيث عشت معك فيها، حينها قلت لي بأنك تريد أن تدخلني في إحدى رواياتك؛ لذا بعد أحاديثنا الطويلة، ومعالجتك لوضعي النفسي، ومغادرتي إلى النمسا أخذت أكتب لك تفاصيل ما جرى معي هناك، وكما أخبرتني بأنك بدأت التخطيط بل والبدء بكتابة رواية تحمل عنوان "متاهة الأنبياء"، أنا لم أكتب شيئًا، لم أقرأ بعد ما كتبت لكنك أنت من كتب ذلك النص!

أخذ آدم التائه رأسه بين كفيه وبدأ يعصره برفق ويدلك فروة رأسه، ثم قال:

- الآن بدأت أتذكر الأشياء، وكأنما أزيحت ستارة من أمام النافذة ليتكشف لي المشهد خلفها، لقد بدأت من خلال حديثك أرمّم ذاكرتي.

كانت تنظر إليه بحنان ورقة وعيناها تشعان سعادة، وقالت:

- أنا سعيدة لك جدًّا.

نظر إليها وقال بقلق:

- أتعرفين، علينا أن نغادر فورًا، إلى المطار، أو إلى كازابلانكا، فالفرص لإيجاد حجز في الخطوط الجوية العالمية المختلفة والمتجهة للنمسا أو ألمانيا هناك أكبر وأوفر مما نجده هنا في مطار مراكش، وأعتقد النمسا خيار أفضل، حيث

قابيل الموسى وعصابته لا يتوقعون ذلك أبدًا، أليس كذلك؟!

- صحيح، إذا انطلقنا الآن فسنصل صباحًا إلى البيضاء، ربما لن نجد الآن قطارًا، يفضل أن نستأجر سيارة تاكسي، تأخذنا لمطار الدار البيضاء مباشرة.

قالت ذلك بفرح، غير متوقعة تسارع كل هذه الأحداث، ثم واصلت:

- عليّ أن أجهّز حقيبتي وننطلق فورًا.
- وهو كذلك.

# الـبـاب الـرابـع

# كابوس حواء العذابي

كانوا يجلسون حول مائدة الفطور الصباحي، الصينية الكبيرة على الطاولة في وسط الزاوية التي هي بمثابة صالة الجلوس حيث الصوفا والمقاعد والتلفزيون، وحيث ينام الآدمان، أبو التنك والشبيبي. الحواءتان، الفارسي والعذابي، قد أعدتا كل شيء، على طاولة صغيرة مجاورة صينية صغيرة عليها دورق الشاي الساخن والأكواب، وكان الأربعة قد قرّبوا مقاعدهم من الصينية الكبيرة كي يتناولوا فطور الصباح بشكل مشترك.

آدم الشبيبي كان معهم جسديًّا لكنه كان بعيدًا، يفكر في رسالة حواء الزيّاني الهاتفية المختصرة: "قبل أن أسافر أحببت أن أراك"! وحين كتب لها: "متى؟ هل حصل شيء؟ هل هناك أخبار من حواء الساري؟" لم يحصل على أي جواب! كانت الرسالة الهاتفية مكتوبة في السادسة صباحًا، ثم فجأة أخذ يفكر بأحداث مخطوطة "متاهة الأنبياء" التي قرأ فيها طوال الليل وحتى ساعات الفجر الأولى، كان يسأل نفسه: من هي حواء الورد التي هاتفتني وقرأت رسائلها الهاتفية ثم تعرّفت بها كشخصية روائية في المخطوطة؟ ويا تُرى ما الذي يريده هذا الكاتب آدم البغدادي من بطله آدم التائه! ولماذا يميته ثم يحييه! ولماذا توقفت الأحداث في هذه المخطوطة عند هذا الحد! هل سيسافر آدم التائه وحواء كازابلانكا إلى النمسا! هل سيبحث آدم التائه عن صديقته الحميمة الممثلة الإنكليزية إيفا ليسنج؟! وهل سيبحث في موت صديقته الخليجية الإنكليزية المولد والجنسية حواء صحراوي؟! بل هل سيبحث عن كل الشخصيات التي التقاها وارتبط بها بهذا الشكل أو ذاك: زوجته حواء المؤمن، إيفا جايكوفسكايا وإيفا الكسندروفنا، وحواء المظلوم، اللاتي تركهن في ميونخ بألمانيا! ولماذا ترك آدم البغدادي شخصيته الرئيسية آدم التائه يعي نفسه بأنه شخصية روائية! وفجأة واجهه سؤال أرعبه: ألا يمكن أن أكون أنا، وآدم أبو

التنك، الدكتور آدم كارثة، حواء الفارسي، وهذه الضيفة حواء العذابي، وحواء الكرخي، وصديقتها حواء ذو النورين، وصديقي المغدور قابيل الفهد، وحواء الزاهد وحبيبها آدم المحروم، بل وحتى الكاتب آدم البغدادي نفسه، وكل الشخصيات وكل الأحداث ليست سوى شخصياتٍ وأحداثٍ روائيةٍ لكاتب مجهول لا نعرفه ولم يظهر بعد؟ وربما هذا الكاتب المجهول هو أيضًا شخصية روائية مختلقة لكاتب أعلى، والكاتب الأعلى شخصية روائية لكاتب آخر أعلى، وهكذا إلى ما لا نهاية، إلى أن نصل إلى الكاتب الأول، الله! أوف، يا للكارثة!، لا، لا، عليّ أن أتوقف عن التفكير بهذه الطريقة وإلّا سأجن إضافة لما أنا عليه من قلق وهواجس وأفكار شبه مجنونة!

- هل أنت معنا! ما بك؟ قل شيئًا لها! قل ولو كلمة! هيه، أين أنت؟!

انتبه آدم إلى صديقه وهو يحدثه، شعر بالخجل أمامهم لانشغاله عنهم، وتمتم:

- عفوًا، اعذروني، سهوت قليلًا.
- لا ضير، المهم شاركنا رأيك، السيدتان (وأشار لحواء الفارسي والضيفة حواء العذابي) قررتا أن نقوم بنزهة في منطقة الزبداني، هناك نقضي وقتًا طيبًا، ونتناول الغداء ونرجع عصرًا، ماذا تقول أنت!

وعلى غير توقع منهم قال بهدوء لكن بثبات:

- اذهبوا أنتم، أنا آسف، لا أستطيع المجيء معكم.
- ماذا قلت؟! لماذا لا تستطيع المجيء معنا؟!

سأله آدم أبو التنك، بينما ارتسمت الخيبة على وجه المرأتين، أحس آدم الشبيبي بالحرج قليلًا لكنه لم يتردد في موقفه فأوضح موجهًا كلامه لصديقه:

فكّرت أن أمرّ اليوم على حارة اليهود حيث تسكن حواء الزيّاني لأفهم منها بعض الأمور التي تخصني كما تعرف، لقد كتبت لي فجرًا رسالة تقول فيها بأنها تود أن تراني قبل أن تسافر، ولم تذكر إلى أين! كما أود أنا أيضًا أن أسأل عن حواء الساري الدنماركية التي اختفت!

استغرب آدم أبو التنك ما سمعه من صديقه، ووجد نفسه في دائرة الأحداث المتشابكة والمربكة مرة أخرى والتي حاول تناسيها فقال:

- لكن حواء الساري كما فهمت منك كانت بصحبة المدعو آدم الحمصي الذي كما عرفنا من الكاتبة حواء البوسني هو ضابط مخابرات سوري، وكان صديقًا للمرحومة حواء الكرخي، بل كما لمـّحت بشكل صادم إلى علاقة خاصة جدًّا، وكما أخبرتني بأن هذه الدنماركية وضابط المخابرات غادرا مقهى الروضة معًا، وحينما قررتما أنت وحواء الزيّاني متابعتهما لم تعثرا على أثر لهما بعد مغادرتهما المقهى مباشرة! أليس كذلك!

كانت حواء العذابي تنظر بإحباط إلى الرجلين، أما حواء الفارسي التي تعرف عمّا يدور الحديث لأنها تعرف معظم الأسماء التي ورد ذكرها في الحديث فقد أبدت دهشتها، باستثناء ضابط المخابرات والكاتبة حواء البوسني التي سمعت بأسمائهما الآن، فسألت:

- هل كانت المرحومة حواء الكرخي على علاقة بضابط مخابرات سوري؟! مستحيل!

التفت إليها زوجها متفاجئًا وقال بنبرة فيها غضب مكتوم:

- من قال ذلك؟ هي أطهر من أن تقوم بذلك.
- أنت قبل لحظات قلت بأن تلك الكاتبة البوسنية قالت ذلك!
- أنا؟ أأنا قلت ذلك؟
- نعم أنت.

والتفتت إلى آدم الشبيبي وكأنها تشهّده على ذلك، فابتسم على الرغم من ملامح التفكير المرتسمة على وجهه وقال لحواء الفارسي:

- نعم، لكن تلك الكاتبة ليست بوسنية وإنما هي سورية لكن لقبها البوسني، (والتفت إلى صديقه وواصل)، أنت في ردك عليّ ذكرت ما عرفناه من الكاتبة حواء البوسني، لكنها كما قالت في حينها بأنها ليست متأكدة، المهم، أنا مضطر إلى مقابلة حواء الزيّاني وسألتحق بكم فيما بعد!

ارتسمت ملامح الحزن والانشغال في التفكير على وجه آدم أبو التنك، فقد ارتسم وجه حواء الكرخي أمامه، ولم يعرف لماذا تلاحقت صورتها في مشاهد مختلفة أمام

عين ذاكرته، صورتها في شقتها وهي تحدثه عن الطفل هابيل، وصورتها في مقهى الروضة وفي أكثر من زاوية فيها، لكن صورتها وهي منكبّة على وجهها والدماء شكّلت دائرة حول رأسها لحظة اغتيالها لم تفارقه وظلت باقية!

خيّم الوجوم على الجميع، ربما رفض ذهاب آدم الشبيبي معهم إلى منطقة الزبداني وذكر هذا الكم من الحواءات: حواء الزياني، حواء الساري، حواء البوسني، وحواء الكرخي، سدّ شهية الجميع فكفوا عن الأكل! في تلك اللحظات سألت حواء الفارسي الجميع:

- هل تواصلون الأكل أم أرفع الصينية!
- ارفعيها! قال زوجها.
- وأنت! سألت متوجهة لآدم الشبيبي.
- لا شكرًا، لقد شبعت!
- لكنك لم تأكل شيئًا، عقّبت بحنان حاولت كتمانه أمام زوجها.
- شكرًا لك، لا أشتهي أكثر.

قامت حواء الفارسي رافعة صينية الفطور من أمامهم واتجهت إلى المطبخ تتبعها ضيفتها، بينما انزوى آدم الشبيبي وهو يحاول الاتصال بحواء الزيّاني، لكن يبدو هاتفها كان مغلقًا، أما آدم أبو التنك فقد اجتاحه حزن وشوق إلى حواء الكرخي المغدورة، فانطوى مع ذكرياته عنها.

كان همس المرأتين يصل إلى أسماعهما على الرغم من محاولتهما أن يكون صوتهما خفيضًا، وكانت حواء العذابي الضيفة تسأل مستفسرة عن هاتيك النساء اللاتي ورد ذكرهن في الحديث، وركّزت على حواء الزيّاني وحواء الساري اللاتي يريد آدم الشبيبي مقابلة إحداهن والبحث عن الأخرى! فذكرت لها حواء الفارسي باقتضاب عن حواء الكرخي بأنها كانت تعمل لديها قبل أن تتزوج من آدم أبو التنك، وقد تم اغتيالها قبل شهرين ونصف تقريبًا، أما بقية الحواءات فواحدة يسعى آدم الشبيبي أن يرتبط بها كي يستطيع الخروج من سورية والسفر معها إلى المغرب أو الجزائر، لأنها جزائرية تعيش في المغرب كونها كانت متزوجة من مغربي منذ أكثر من عشر سنين ولكنه توفى! فقالت

حواء العذابي إنها تريد أن تعيش في لبنان، وسألت صديقتها: هل بإمكاني ذلك؟!

تبادل الآدمان، الشبيبي وأبو التنك، مع بعضهما البعض نظرات متسائلة، وكأنهما أفاقا حينما وصلهما ما سألته الضيفة عن رغبتها بالسفر إلى بيروت، وإمكانية تحقق ذلك! وكأنهما كانا يفكران سوية في غموض هذه المرأة وسرّها!

أقبلت المرأتان إلى حيث الآدمين، جلستا وكأنما تريدان أن تقولا شيئًا، بدا على الآدمين أنهما ينتظران أن تبادر أية منهما بالحديث فصمتا، فجأة، بادرت حواء الفارسي متوجهة لزوجها بالسؤال:

- هل يمكن أن تسافر ضيفتنا حواء إلى بيروت!
- طبعًا يمكنها ذلك!
- هي تريد ذلك بأسرع وقت، هل هذا ممكن؟
- طبعًا ممكن، يمكننا أن نسأل، إن كان تلزمها التأشيرة أو لا!
- هي تريد ذلك اليوم قبل الغد.
- أف، لِمَ هذه العجلة، يمكننا أن نسأل أولًا.

كان الحوار يجري بين حواء الفارسي وزوجها بينما ظل آدم الشبيبي وحواء العذابي صامتين، فجأة وعلى غير توقع من الجميع انهارت الضيفة بنشيج أثار استغراب الجميع، وبعد لحظات بدأت بسرد حكاية فاجأت الجميع:

- أنا مطاردة، وأخاف أن يقتلوني.
- يقتلوك؟ من يقتلك؟ سألتها حواء الفارسي وهي متفاجئة مما قالت ضيفتها، واستشعرت خوفًا.
- أخوتي وأبي!
- لماذا؟ سألت حواء الفارسي بتوجس.
- سأروي لكم كل شيء، أنا في حمايتكم، وأرجوكم مساعدتي.
- لنستمع إلى حكايتك أولًا، وسنسعى بالتأكيد لمساعدتك، قال آدم أبو التنك.

نظرت هي إلى وجوه الجميع بتذلل، لكنها كانت في أعماقها تفكر بأي جزء

من قصتها ستبدأ، وهل سيصدقونها أو سيتعاطفون معها، فجأة امتلأت عيناها بشكل سريع حتى ظن الآخرون بأنها ربما تمثل دور الضحية المطاردة، نشجت للحظات، لم يستطع أي منهم أن يرفع عينيه عنها، لكنها استمرت بالنشيج الصامت فشعروا بالحرج فنكسوا رؤوسهم للحظات كي يمنحوا أنفسهم فرصة للتهيؤ لما ستقوله. فجأة توقفت عن النشيج، رفعت رأسها ونظرت إلى وجوههم المرتبكة بلا مبالاة. استغربوا كيف استطاعت أن تتحول من حال إلى حال، بعد لحظات بدأت تروي حكايتها بصوت محايد وكأنها تتحدث عن شخص آخر:

بعدما أنهيت دراستي الجامعية أردت أن أعمل لكن والدي لم يوافق على عملي، ربما لأنه يعرف أجواء العمل في العراق كيف تتعرض المرأة بشكل عام إلى مضايقات وتحرش من قبل الرجال الذين يعملون معها، لكن بعد زواجي لم يبد زوجي ممانعة من عملي، كنّا حينها نعيش في بيت أهله، هو لديه اثنان من الأخوة غير المتزوجين، يعيشون معنا في البيت، أحدهما مهندس، والآخر عسكري بالشرطة الاتحادية، والحقيقة أنا لم أكن مرتاحة مع زوجي، كان يهملني ولا يهتم بي أبدًا، يقضي حاجته بأي شكل وينام، لذلك حين صرت في بيت أهله، وقبل أن أعمل في إحدى دوائر الدولة، كنت أقوم بكل شيء في البيت من ترتيب الغرف وتنظيف البيت إلى الطبخ وغسل الملابس وكيها، كنت أهتم بكل شيء، ولم يكن هذا يرضيهم، إلا أن الأخ المهندس أخذ يمتدح عملي ونشاطي وتنظيفي علنًا وأمام الجميع، كان هذا يسرّني جدًّا، ووجدت نفسي أميل للأخ المهندس، بل أحسست أنه يحبني لكنه لا يكشف عن ذلك إلا من خلال مديحي. بل حين كنا ننفرد أحيانًا وللحظات كان يستخدم مديحًا أكثر خصوصية، بأن وجودي منح البيت روحًا جميلة وأنه سعيد بوجودي فيه، وما شابه ذلك من كلام، كما كانت نظراته مليئة بالرغبة والحب، وأنا امرأة متزوجة وأعرف معنى ذلك بغريزتي، لا سيما صار يتحين الخروج من عمله والرجوع إلى البيت قبل وصول زوجي وأخوه الآخر، تأكد لي حبه حينما كانت الأم والأخوة يسعون لتزويجه فكان يرفض رفضًا قاطعًا، وأحيانًا تفلت منه عبارة يقول فيها لو تختارون لي واحدة مثل حواء زوجة أخي فسأقبل بها، جدوا لي واحدة مثلها!

ما أن بدأت تتحدث عن الأخ حتى خطرت في بال آدم الشبيبي بأنهم مقبلون

لسماع قصة قابيل وهابيل، بينما فكّرت حواء الفارسي بزوجها وصديقه اللذين يجلسان الآن ليستمعا لقصتهما القريبة مما ترويه هذه المرأة التي صارت غامضة بالنسبة لها، أما الضيفة حواء العذابي فكانت تسأل نفسها هل تتجرأ أكثر في رواية ما جرى كما جرى أم تختار ما لا يشوه صورتها أمامهم، لكنها كانت مدفوعة برغبة كبيرة في إذلال نفسها والكشف عن سلوكها وكأنما تستغفر عن الإثم الذي اقترفته، فواصلت:

- كان حماي، المهندس، ذا شخصية، ومفعمًا بالرجولة، وأخذتُ بسبب إهمال زوجي لي وعدم مراعاته لنفسيتي ولرغبتي أتوجه بكل مشاعري ورغباتي نحو الأخ المهندس، فصرت أهتم بلبسي وزينتي، وأحاول أن أغريه، لا سيما وكما قلت صار يغادر عمله قبل انتهاء الدوام الرسمي، فكان حين يجلس في غرفة الاستقبال أذهب إلى هناك، أصير أمامه، أنحني بقصد التنظيف، كاشفة عن صدري ونهدي المثقلين بحكم فتحة الثوب الواسعة، أو حينما كنت أبدأ بغسل الأرضية أرفع جانبًا من أذيال ثوبي بحجة تجنب البلل وأنحني ساحبة ثوبي بشدة كي يبرز تقاسيم مؤخرتي، وبصراحة كنت خبيثة، أسعى لإثارته جنسيًّا، وربما هو أيضًا سعى إلى ذلك، لأني انتبهت إلى أنه يترك أقراصًا لأفلام جنسية على فراشه حينما أدخل لتنظيف وترتيب غرفته، وطبعًا هو يعرف أنني سأدخل لتنظيف غرفته، وكنت أحيانًا أرى تلك الأفلام بالجهاز الذي في غرفته، وأخفض الصوت، كي لا تنتبه أمه العجوز، التي طوال الوقت في غرفتها تصلي. كان بيننا حوار صامت ودعوات جنس واضحة، لا سيما وهو يرى أقراص الأفلام الجنسية مرتبة وموضوعة على الرف قرب الجهاز، وهذا يعني له بأني رأيتها وشاهدت على الأقل أغلفتها الفاضحة، وربما أستغفر الله من قولي حينما أعترف الآن بأنني كنت أتخيله هو حينما كان زوجي يقترب مني، لكن للأسف أيضًا لم أكن أشعر بالراحة. المهم إنني لم أتجاوز الإثم معه، لم أمنحه نفسي، كنت ألتذ بتعذيبه جنسيًّا، إثارته، وحينما يئس مني قبل بخطوبة فتاة من أقاربهم. أعترف لكم الآن بكل آثامي كي لا تتصوروا أن أبين لكم بأني ضحية، لا، لست ضحية، كنت أفعل ذلك بوعي ورغبة واستمتاع. أحتاج تفهمكم وليس عطفكم، لأني مذنبة أيضًا.

- من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر، هكذا قال المسيح. كلنا آثمون ومذنبون بهذا الشكل أو ذاك، كلنا خطاة تائهون على ظهر هذا الكوكب البائس.

هكذا قال آدم الشبيبي وهو يستذكر ما روته له شخصيًّا، فنظرت إليه نظرة عرفان مليئة بالود والرغبة الدفينة، انتبهت لها حواء الفارسي، لكنها فهمت ما قاله آدم الشبيبي بأنه موجه لها، ودعوة خفية لها أيضًا، نظرت إليه وكأنها تسبر أعماقه، وسمعت صديقتها تواصل حكايتها وجرأتها في الاعتراف:

- أحسست إنه وافق على الخطوبة ليعاقبني، وربما هو قد عاقبني فعلًا، لأنني صرت كالمجنونة، صرت أسعى إليه بكل السبل كي أكون أمامه، أو أدخل معه في نقاش أو حديث، بل صرت أبالغ في إثارته، أحاول حينما يأتي ونكون وحدنا أن أكشف ما أستطيع من جسدي، أكشف بأية حجة عن ساقي وصدري، كنت أتمنى أن يتجرأ كأخيه السكير ليحضنني، لكنه لم يفعل، إلى أن جاء ذات يوم، دخل عليّ المطبخ، ووقف على مقربة مني، وقال: لقد فسخت الخطبة، لم أعد أستطيع أن أتخيل نفسي مع امرأة أخرى! لا أعرف ما الذي جرى لي في تلك اللحظات، فقلت له وأنا ما زلت في وقفتي، ظهري له، قلت له: اذهب لغرفتك، وسآتيك بعد قليل، وهذا ما جرى، تأكدت من غرفة الأم التي كانت نائمة، وذهبت إليه. أغلقت باب غرفته، وعند الباب تعريت بالكامل، وجرى الذي جرى، لكن صدقوني، لم أشعر معه بأية لذة أيضًا، منحته نفسي تعويضًا عن فسخ خطوبته، وليس لرغبة جسدية حامية عندي، كنت أحب حبه ولهفته أكثر من حاجتي، نعم، نعم، أنا امرأة حارة، لكني لم أشعر باللذة حتى مع حبيبي هذا، ربما بسبب شعور بالذنب أيضًا، لا أعرف، وصرت زوجته، أذهب إليه كل يوم، لكني حينما أراد زوجي أن ننجب طفلًا، حرصت ألّا يمسني، أردت طفلي ألّا يكون ابن حرام، وهكذا ولدت ابنتي الأولى. طبعًا الأب الكبير لم يرحب بها لأنها بنت، كان يكره البنات، وأخذ ينتقد زوجي بأنه لا ينجب فحولًا. المهم، إلى أن جاء يوم غريب، اكتشفت أن هناك من يعرف بعلاقتنا!

في تلك اللحظة جاء صوت رسالة هاتفية من موبايل آدم الشبيبي، توقفت الضيفة

عن سرد حكايتها للحظات، نظر الثلاثة إلى آدم الشبيبي وهو يقرأ الرسالة، ارتسمت ملامح القلق على وجهه، رفع رأسه نحو صديقه وقال:

- حواء الزيّاني انتظرتني كثيرًا، وحين لم أذهب إليها باكرًا توجهت إلى حلب لزيارة ضريح شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي، وتدعوني إلى الالتحاق بها إلى هناك!

- إلى أين تذهب يا آدم؟ ألم تسمع بأن الوضع متوتر جدًّا وهو قابل للانفجار في أية لحظة، لا سيما في تلك المناطق حيث تنظيمات الإخوان السابقة، وتنظيمات الأصوليين الجدد، انتظر حتى تعود! قال آدم أبو التنك موضحًا.

- لماذا تغامر بمثل هذه الظروف والأوضاع، ابق هنا، لا تذهب، هي ستزور الضريح وتعود، قالت حواء الفارسي مؤيدة زوجها.

سرّته نبرة القلق التي تلمسها في صوت حواء الفارسي، وتذكر أنه ربما من المشتبه بهم في محاولة التسلل الفاشلة إلى خارج البلاد، وقال بهدوء:

- ربما أنتما محقان، عليّ البقاء.

- هذا يعني أنه يمكنك أن تذهب معنا إلى الزبداني.

قالت الضيفة ذلك وهي تتبادل النظرات مع صديقتها، فقال لها:

- ممكن، لكن ليس قبل أن تكملي حكايتك، ناهيك أنك أردت أن تذهبي إلى بيروت اليوم.

ارتبكت الضيفة حين ذكّرها بما ألحت عليه قبل قليل، وقالت:

- ألم تقولوا، الأمر ليس سهلًا، ويجب الاستفسار عن ضرورة التأشيرة من عدمها، أما عن حكايتي فها أنا أضع نفسي وما جرى لي بين أيديكم.

- طيب أكملي، قال أبو التنك.

- إذا كنت تشعرين بالحرج فيمكنك ألّا تقصّي علينا أي شيء! قالت حواء الفارسي بتعاطف.

- لا، لا، يجب أن أعترف بذنوبي وإثمي أمامكم، أشعر أنه من الواجب عليّ أن تعرفوا لماذا التجأت إليكم، ولماذا أطلب مساعدتكم!

- لك ما تشائين، المهم تحدثي براحتك، مع أنك لست ملزمة بذلك أمامنا.
- أنا ملزمة أمام نفسي، هذا يشعرني بالراحة، المهم، لقد رويت لكم كم تذوقت ثمار الخطيئة، بيد أني لم أستمتع بها كلذة، وإنما ربما منحتني شعورًا بوجود رجل يحبني ويهتم بي ويحتضنني بحب، على العكس من زوجي، لكن كلانا في حمى علاقتنا لم ننتبه إلى أن هذه العلاقة كانت مفضوحة بالنسبة للأخ الآخر، العسكري في جهاز الشرطة، الأخ الذي لم ينه دراسته، وعن طريق الواسطة صار شرطيًّا، الفاشل المدلل من قبل العائلة، هذا السكير، وقذر اللسان، هذا الذي كان لا يحترم أحدًا، لا أمه ولا أخويه ولا حتى والده.

صمتت للحظات، ظل الآخرون ينتظرون أن تواصل، بينما بدت هي وكأنها تريد أن تقفز على مشاهد في حكايتها التي كان واضحًا أنها حاضرة في ذاكرتها، بعد لحظات انتبهت إلى أن الآخرين ينتظرونها، فواصلت:

- كان هذا الأخ السكير لا يأتي إلى البيت دائمًا، مثل زوجي، بحكم طبيعة عمله وقضاء لياليه في الملاهي والسكر مع أصدقائه. شخصيًّا لم أضمر لهذا الأخ أية مشاعر، كنت أهتم به كأخ لزوجي لا أكثر. بالمناسبة أنا لم أتحدّث عن والد زوجي، فهو عسكري أيضًا، مثل أبي وزوجي، كان نائب ضابط بجيش النظام السابق، متقاعد الآن، لكنه كان شخصًا لا يطاق، كل محاولاتي لإرضائه باءت بالفشل، وكان بطبيعته يفرّق في تعامله بين أولاده، وكان لا يحب زوجي، إذا لم أقل إنه كان يكرهه، فهو يعتبره ضعيف الشخصية. كراهيته لزوجي انعكست عليّ، فكان يكرهني، كان ينظر لي بغضب لا أعرف سببه، وكانت حياتي لولا وجود حماي المهندس لا تطاق، كان الأخ السكير جريئًا، فاسقًا، فاجرًا، انتبه لأخيه ونظراته نحوي، وربما انتبه بأني أدخل غرفته سرًّا، لا أعرف، لكنه لم يتوان عن التحرش بي، فمثلًا كان حين يمر من جانبي يحاول أن يلمس بكتفه أو ذراعه نهدي وكأنما الطريق من الضيق بحيث يضطره إلى الاحتكاك بي، ومرة حاول أن يلمس ما تحت سرتي بكفه وكأن الأمر عفوي ولا إرادي، ويبدو أن الأب أيضًا انتبه لي، ولجسدي وطريقة لبسي التي كنت أقوم بها من أجل حماي المهندس، وذات مرة غضب الأب بطريقة مفاجئة، وأخذ يشتمني

ويشتم عائلتي التي لم تحسن تربيتي، ولم أستطع أن أتحمل، زعلت وغادرت المنزل إلى بيت أهلي، بقيت شهرًا، حتى زوجي لم يأت لاسترضائي. لكن الغريب ذات يوم جاء حماي المهندس ليرجعني إلى البيت، لحظتها تأثرت لأن زوجي، مع أني لا أحبه، لم يأت بنفسه لإرجاعي، وفي الوقت نفسه كانت خلال الشهر الذي ابتعدت فيه عن البيت مشتاقة لحماي المهندس، المهم، عدت معه وأنا أشعر بعمق أنني عدت من أجله هو، لكن بمرور الوقت ازداد تحرّش الأخ السكير بي، ومرة كان البيت فارغًا، لأن الأم وزوجها ذهبا لزيارة أحد المراقد المقدسة، وكان الأخ السكير في إجازة، وهو في البيت، صحا من النوم، كنت في المطبخ، مشغولة بغسل الصحون، وكنت غارقة في تفكيري بحبيبي المهندس، الذي بعد عودتي من بيت أهلي صرت أشعر نفسي بأنه هو زوجي على الرغم من عدم وجود أي تلامس بيننا. أنا أتحدّث لكم بصراحة ودونما تجميل لصورتي، المهم، فجأة شعرت بجسم ضخم يضغط عليّ من الخلف بقوة، جسد قوي، احتضنني من الخلف ضاغطًا عليّ بقوة، برقت في ذهني للحظة أنه حبيبي حماي المهندس، لأني كنت ساهية عن وجود الأخ السكير في البيت، لكن قسوة وعنف الاحتضان صحّاني، أفقت، عدت إلى نفسي فدفعت الشخص الذي يحتضنني، التفت فرأيت الأخ السكير متهيجًا، وقال لي: لماذا فززت، لو كان المهندس لرضيتي، أنت تظنين أنني لا أعرف ما يجري بينكما، غبية أنت، فحتى أبي يعرف بذلك. أنا صُدمت حين سمعت ذلك منه، ونسيت ما قام به من تحرّش مباشر، لم أناقشه، أسرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي، فجاء يطرق الباب عليّ بهستيريا، وقال لي بأنه يريد أن ينام معي، وإنه يشتهيني، وإذا لم أعطه نفسي سوف يحول حياتي إلى جحيم، وسيخبر زوجي، لم أجبه، فجأة أخذ يتوسل، ويقول لي بأنه يحبني، وإنه لا يستطيع النوم لأنه يحلم بأنه يمارس معي و... و... و... وقال كلامًا فاسقًا وداعرًا عني وعن تفاصيل جسدي، وعن أخيه المهندس وزوجي الغبي، ظل لأكثر من نصف ساعة يهدد ويتوسل، إلى أن تعب، وأحس أن هذه الجولة خاسرة، فعاد إلى غرفته، فاستفدت من هذا الوضع وخرجت مسرعة، غادرت البيت مرة أخرى، بقيت لشهرين في بيت أهلي. جاء زوجي هذه المرة،

فاشترطت عليه بأن أعيش في بيت وحدي، ووافق، لا سيما وأنا كنت في أشهر حملي الأخيرة، ولأنه تعب أيضًا من سوء معاملة الأب له والتقليل من شأنه، علمًا أن زوجي أعلى مرتبة عسكرية من أبيه بأشواط، وهكذا، استأجر زوجي مشتملًا صغيرًا بالقرب من أهلي. ارتحت لأن أمي أخذت تساعدني في العناية بطفلتي التي كانت في أشهرها الأولى، لا سيما وأنا بدأت أعمل في إحدى دوائر الدولة، وكما قلت فإن زوجي لم يعترض على ذلك، فصرت آخذ ابنتي إلى بيت أهلي، حيث تعتني أمي بها، وأذهب إلى العمل، وقصة عملي قصة أخرى لا تقل معاناة مما عشته في بيت أهل زوجي.

- كيف؟ سألت حواء الفارسي التي بدا أنها اندمجت مع حكاية صديقتها.

- ربما لم أذكر لكم أنني خلال فترة الشهرين التي زعلت فيهما قدمت طلبًا للعمل في وزارة العدل لأني سمعت من زوجة خالي بأن الوزارة تحتاج في إحدى مديرياتها إلى موظفين، وحين حددوا موعد المقابلة جاءت أمي معي. كانت المقابلة بمقر الوزارة، علمًا أن الوظيفة بمديرية ليست في مبنى الوزارة، قابلني شخص بمكتب الوزير اسمه آدم الأحمدي، لم يسألني كثيرًا وإنما قال لي بجرأة أخافتني بأنه أعجب بي ولن يرسلني إلى أية مديرية خارج الوزارة وإنما سيبقيني داخل الوزارة كي أبقى قريبة منه، والحقيقة ربما معاملة أبي القاسية وإهمال زوجي لي يدفعني دائمًا لتقبل أي مديح أو لفتة اهتمام من أي رجل، وربما لو أن الأخ السكير عاملني برقة وهدوء فربما كنت قبلت به وسايرته، لا أعرف، المهم، بدأت الدوام في الوزارة، نسبني ذاك المسؤول بمكتب الوزير إلى لجنة مختصة بإحصاء أملاك اليهود العراقيين المهجرين عنوة في نهاية الأربعينات، وكنت محاطة بمدراء عامين، يعني لجنة حساسة والموجودين كلهم كبار في السن، ورأيت ذلك المسؤول الذي قابلني في اللجنة أيضًا، أعطوني غرفة مشاركة مع موظف متدين، فالوزارة كانت من حصة حزب إسلامي حيث أغلب الموظفين من المنتمين لذلك الحزب الإسلامي، المهم، هذا الشخص الذي اسمه الشيخ آدم الهادي كان من الوقاحة بحيث أخذ يتغزل بجسدي مباشرة، ومرة طلب مني أن أتزوجه متعة!

- ماذا؟ انطلقت من فم آدم الشبيبي بما يشبه صرخة استنكار!

- نعم، هذا عراق اليوم..المهم، عانيت من هذا الشيخ وعلى الرغم من إلحاحه وتهديده المبطن فأنا لم أرضخ له، لأنني كنت أحيانًا آخذ إجازة من الدوام دون أن تعرف أمي، فآخذ ابنتي لديهم كالعادة لكني أرجع إلى البيت لألتقي بحماي المهندس، يزورني في بيتي، وهكذا، وذات يوم تجرأ هذا الموظف الشيخ فمسكني من يدي، دفعته، ولولا وجودنا في وزارة فلربما اغتصبني، وهكذا استمر وضعي إلى أن تعب ويئس مني. وخلال تلك الفترة كانت لدي صديقة في قسم آخر تأتي لزيارتي في المكتب أثناء الدوام الرسمي، كانت غير متزوجة، وحينما رآها الشيخ آدم الهادي أعجب بها، كانت ترتدي ثيابها بطريقة مغرية، وذات يوم جاءت هذه الصديقة وتوجهت إلى الشيخ آدم الهادي طالبة منه خدمة ما، ولم يصدّق هذا الشيخ هذه الفرصة المواتية، فطلب رقم هاتفها، بعد فترة أخبرتني صديقتي، بأن الشيخ الهادي ساومها بأن تتزوجه متعة مقابل الخدمة التي سيسديها لها، فرفضت متحججة بأنها باكر، فأجابها بأنه لا يريد أن يدخل بها، ويمكن أن يتعاشرا بطرق أخرى، وقد أخبرتني صديقتي بأنها رفضت، لكن كما فهمت فإنه أنجز لها ما أرادت، فهل هي تكذب أم الشيخ استفاق ضميره فجأة؟!

- أوغاد، سفلة! تمتم آدم أبو التنك غاضبًا، وكأنه يتحدث مع نفسه!

- سأقول لكم شيئًا، خلال فترة وجودي في تلك الوزارة كنت أشعر بشكل مباشر أو غير مباشر بأن جميع الرجال، وبعضهم ملتحٍ، شيوخ وسادة، كُلهم كانوا مثل الوحوش يسعون للنوم معي ومع بقية الموظفات، وبعضهن يوافقن للحفاظ على وظائفهن! خلال سنة وعشرة أشهر من وجودي موظفة في الوزارة أنجبت طفلي الثاني، وأقسم لكم أنه من صلب زوجي وليس من حماي، لأني كنت أحرص على ألّا يكون أطفالي أبناء زنا، المهم، خلال هذه الفترة في عملي في الوزارة أغرقوني بالمكافآت ليس لجدارتي وإنما كل من أعضاء اللجنة كان يسعى بطريقته إلى الاقتراب مني والحصول على جسدي، وبعضهم والله أقول كان يكتفي باستلطافي له أو تقبل نظراته، أو أن أمدحه بكلام معسول،

وأعترف لكم بأنني لست بريئة ولست ملاكًا بل أنا أعرف نفسي بأنني ماكرة، أكذب عندما أريد ذلك، وأعرف كيف أتلاعب بعقول هؤلاء المؤمنين وحجّاج بيت الله دون أن أمنح نفسي لأحد منهم، بل وصل مكري كي أنقذ نفسي من تحرشاتهم انتميت لهذا الحزب الإسلامي الذي وزارة العدل من حصته وذلك عن طريق زوجة خالي التي كانت عضوة قيادية فيه، وخلال كل هذه الأشهر توترت العلاقة بيني وبين الشيخ آدم الهادي حتى صرنا لا نسلم على بعضنا بينما نحن في غرفة مكتب واحدة، وذات يوم، وقبل نهاية الدوام بساعة تقريبًا، قام هذا الشيخ، وأغلق الباب، ثم جلس على مكتبه، وقال لي بأنه لا يستطيع أن يكون معي في مكتب واحد، فهو يشتهيني، ولا يستطيع أن يسيطر على شهوته لذلك ولأنه رجل مؤمن ولا يريد الحرام يطلب ويكرر طلبه بأن يتزوجني زواج متعة ولو ليوم واحد، ولو لساعة واحدة، يتزوجني ويطلقني في ساعة واحدة، وهنا في المكتب، صُدمت لوقاحته، فقلت له يا شيخنا أنا متزوجة وعلى ذمة رجل وهذا لا يجوز، فأخذ يضحك بهستيريا وقال بابتذال لا يتناسب مع ادعائه الإيمان: عادي، هو يسمى زواج متعة، يعني مجرد متعة وبوس وحضن وإيلاج، وألحّ بل وكرر طلبه أكثر من مرة وبوقاحة، رفضت رفضًا قاطعًا، بل خفت أن يقوم باغتصابي في المكتب، فأخذت حقيبتي وذهبت إلى مكتب آخر عند صديقتي، وبعد يومين من ذلك أرسل المدير العام للجنتنا بطلب للمثول أمامه، وحين دخلت مكتبه بادرني بالقول بأني متهمة، فما قولك؟ الشيخ آدم الهادي يتهمك بتسريب أخبار عن أملاك اليهود المتروكة في العراق، والتجسس وجمع المعلومات عن اللجنة وعملها؟! صدمني كلامه، فطلبت منه أن يشكل مجلس تحقيقي لأني أعرف نفسي بريئة من كل هذا، وكان في نفسي أن أفضح هذا الشيخ الفاسق، لكنهم لم يشكلوا أي مجلس تحقيقي وإنما بدلًا عن ذلك تم فصلي عن العمل، وهكذا عشت ستة أشهر تقريبًا في صراع نفسي وخوف من هول التهمة، ولم أكن أستطيع البوح لأهلي ولا لزوجي، سوى لحبيبي، حماي المهندس، وبصراحة، حتى علاقتي مع حماي فقدت طعمها، لا سيما بعد ولادة ابني، طفلي الثاني، لأنني أحسست أنه فقد حبه لي وصار يأتيني لينام معي فقط، ويذهب، حتى شعرت أنني صرت عاهرته وليس أكثر، لكني

لم أستطع أن أرفض، أحسست أنني تورطت، وفكرت مع نفسي أنني اندفعت نحوه بسبب جو الكراهية في بيت أهله، ووفرت وقتي لأني لم أعمل، ولو أني عملت وعشت في بيت منفصل لما اهتممت له ولا لفت انتباهي اهتمامه بي، المهم، خلال فترة فصلي عن العمل شجعتني زوجة خالي أن أشتكي عند الحزب، وقمت بذلك فعلًا، والتقيت بطرق ملتوية بمندوب الحزب في البرلمان الذي كان يسكن في المنطقة الخضراء، ورويت له القصة من أولها إلى آخرها، وهددته بشكل غير مباشر ومبطن بأنه إذا لم تحل قضيتي ويعاد لي اعتباري سأتوجه للصحافة وأفضح كل شيء، بل وسأجعلها قضية عشائرية، ويبدو أن هذه الفكرة التي جاءتني في لحظة غضب قد أرعبته، فهؤلاء يخافون الرأي العام والإعلام، والأمور العشائرية صارت هي الحكم النافذ أكثر من قرارات الدولة نفسها، طبعًا أهلي وزوجي لم يعرفوا سر شكواي، أفهمتهم بأنهم فصلوني ويجب أن أشرح للحزب وضعي وعدم أحقية قرار فصلي، ومن حسن حظي أن هذا المسؤول لحظتها لم يكن وحده وإنما كان هناك ثلاثة أشخاص بارزون من الحزب نفسه معه في المكتب كانوا هناك مصادفة، فوعدني هذا المسؤول وأمام هؤلاء بأنه سيرجع لي حقي، وفعلًا، بعد أقل من شهر رجعت للدوام لكن في دائرة فرعية بالتسجيل العقاري، قريبة من سكني بدقائق، وهكذا بدأت من جديد رحلة جديدة في أروقة دوائر الدولة الفاسدة. وذات مرة كنت قد نشرت صورة ابني على الفايبر، فإذا بمديري الجديد يدخل عليّ ويرسل لي جملة غزلية يقول فيها بأن ابني حلو مثل أمه، لحظتها شكرته على ذوقه، وفي اليوم التالي أرسل بطلبي وقال لي بأنه يرتاح لي ولا يريد من أحد أن ينجز بعض أعماله غيري، ثم صار يتواصل معي على الفايبر يوميًّا، يرسل لي نكات، ورسائل مليئة بالدعاء والحكمة، والنصائح، ولا أخفيكم، لقد أحببت شخصيته، كان مسؤولًا قياديًّا في حزبنا، شخصية ذات هيبة، وكان هو المسؤول عن لجنة الحج والعمرة، كان داهية، فقد جرّني للحديث معه عن تفاصيل حياتي، ووجدت نفسي متعلقة به، وأخذ يهاتفني، ومع مرور الوقت أحببته، وبدأت علاقتنا الجنسية بالهاتف، وكان يعرف مني أوقات تواجد زوجي في الخفارات الليلية لذا كنت أقضي الليل سهرانة معه، ربما ستحكمون

عليّ حكمًا أخلاقيًّا قاسيًا إذا ما قلت لكم إنني كنت أرتاح للممارسة الجنسية معه من خلال الهاتف، فلأول مرة كنت أستمتع بالجنس الافتراضي، وليس بالممارسة الواقعية مع زوجي أو مع حماي المهندس، لكن وأقسم لكم، فعلى الرغم من استمتاعي معه، فقد رفضت محاولاته المستميتة بأن يلتقيني في مكان ما، في شقته أو أي مكان أختاره، لم أوافقه أبدًا، لا أريد هنا أن أبرر شيئًا، لأني حينها لم أشعر بأي تأنيب ضمير وأنا ألهث معه على الهاتف بكل إباحية، وكنت أحس أنني أنحدر إلى مستنقع نتن، وفكرت بأنني ربما سأقبل معه زواج المتعة لو طلب ذلك، لكنه لم يطلبه لأنه يعتبر الجنس الافتراضي ليس حرامًا وليس زنا لأنه يفتقد شرعًا لشرط الإيلاج الفعلي، وجاء الإنقاذ مصادفة، حيث جاء أمر نقلي إلى دائرة أخرى لا تبعد عن الأولى كثيرًا، المهم انتهت قصتي معه عبر الهاتف لكن ليس مباشرة، إلى أن حلّت الكارثة!

- كارثة؟!

سألت حواء الفارسي ذلك بينما كان الآخران مبهوتين من جرأة هذه المرأة وحديثها الفاضح عن نفسها، وانحطاط هذه البلاد التي ينتميان إليها!

- نعم، كارثة، صحيح من قال مَن يقتل مرة فإنه يعتاد القتل، ومن يهن يسهل الهوان عليه كما قال الشاعر، ومن تخون فإنها تعتاد الخيانة!

انزعجت حواء الفارسي من جملتها الأخيرة، لذا قاطعتها سائلة:

- ماذا جرى؟ أية كارثة حصلت؟!

نظرت الضيفة إلى وجوه الآخرين لتستقرئ كيفية تقبلهم لما روت، فلم تجد أيّما انزعاج أو استنكار وإنما فضول هادئ لما سترويه فواصلت بثقة أكبر:

- منذ لحظة استقراري في بيت منفصل ابتعدت عن أهل زوجي ولم أتواصل معهم، أزورهم في العيد فقط، حتى حينما ولدت ابني لم يأت أحد منهم ليباركني، لكن أخبارهم كانت تصلني عن طريق حماي المهندس الذي في البداية كان يأتيني في الأسبوع مرتين، ثم صار يأتيني بشكل شبه يومي خلال الأشهر الستة وهي فترة فصلي عن العمل، المهم، في تلك الفترة كان زوجي غائبًا عن البيت بشكل شبه كامل لاشتراكه في دورة تدريبية لشهرين ولا

يأتينا، أنا وطفلي، إلا في إجازة قصيرة لنهار أو ليلة، المهم، ذات يوم، كنت قد اتصلت بالدوام وطلبت إجازة، وكنت أنتظر حماي المهندس، وجاء فعلًا، وبينما كنا في حمى القبل في غرفة نومي، سمعتُ طرقًا على الباب، لم نأبه له، لكن الطرق تواصل، فقلت لحماي انتظر لأرى من يطرق الباب، ربما جارتي التي هي صديقتي تحتاج شيئًا! كان من المستحيل أن يخطر في ذهني ما فاجأني، لا أعرف أي يقين تلبّسني حينها بأن الطارق هي جارتي، لذلك لم أسأل من وراء الباب عن هوية الطارق، حين فتحت الباب واجهني وجه شل مفاصلي، أرعبني، جمّد الدم في عروقي، كان وجه حماي العسكري السكير واقفًا عند الباب بكامل قيافته العسكرية متحزّمًا مسدسه، لا أعرف كيف أصف الموقف، كنت في ثوب بيتي أشبه بقميص النوم، كان الانبهار الممزوج بالشبق قد شكّلا ملامحه. كان يتأمل جسدي بوقاحة غير عادية، لا أعرف إلى الآن أن أصف موقفي لحظتها، فمهما أستخدم من كلمات وتعابير فأنا لا أستطيع أن أصف مشاعري في ذلك الموقف، أحسست بالشلل الكامل، لم أنطق بكلمة واحدة، بينما هو قال لي بنرفزة ووقاحة:

- ألا تدعيني للدخول؟

- ولم ينتظر جوابي إذ مرق من أمامي داخلًا وكأن الأمر تحصيل حاصل، وهكذا دخل الصالة، كان باب غرفة النوم وغرفة طفليّ تطلّان على الصالة، لحظتها تراكمت لحظات الرعب، إذ ارتعبت أن يخرج حماي الآخر من غرفة النوم، وكنت أريد أن أسيطر على نفسي كي أعرف كيف أتصرف معه، فزيارته غريبة، وكنت في الوقت نفسه آمل أن ينتبه الآخر في غرفة النوم لحضور أخيه السكير فلا يصدر صوتًا، لكن سوء الفهم مصير بشري، وسر نكباته ومآسيه، فبعد دقائق من جلوس حماي العسكري أخذ يحقق معي بطريقة غير لائقة، وقال لي بطريقة فيها استفزاز لكن بهدوء:

- اليوم كنت في دائرتك للاستفسار عن قطعة أرض أنوي شراءها، فدخلت إحدى الغرف حيث يوجد مكتبان لموظفتين، وقرأت لائحة مكتوب عليها اسمك، لكنك لم تكوني موجودة، سألت عنك مصادفة، فقالت لي زميلتك

بأنك اتصلت وطلبت إجازة لأنك مريضة، ولم أعير الأمر اهتمامًا، مع أني شعرت بالشوق لرؤيتك، وكما تعرفين الدائرة قريبة من شارعكم، وعند منعطف الشارع التقيت أمك وهي تدفع بعربة فيها ابنك، حييتها وحيّتني، وأخبرتني بأنك مشغولة بالدوام، تأتين صباحًا إليها بطفلتك، وتذهبين للدوام، وأنها صارت مربية لطفلك حين غيابك لا سيما وأنها أيضًا تأخذ ابنتك إلى الروضة القريبة، ففهمت بأنها لا تعرف أنك لست في الدائرة وإنما أخذت إجازة عن الدوام بحجة أنك مريضة! والحقيقة لم أكن أتوقع أن تكوني في البيت، قلت مع نفسي ربما أنت في مكان ما، مع أحد ما، لكن لكوني قريب من البيت قلت لنفسي لأتأكد من سر غيابك عن الدوام، فربما أنت في البيت مع أحدهم، لا سيما وأن زوجك غائب منذ شهرين تقريبًا!

- كنت أستمع له بانتباه، بينما أحسست بأنني أخذت أتحرر شيئًا فشيئًا من حالة الشلل التي انتابتني لحظة رؤيته، وأخذ الدم يتدفق إلى أعصابي ومفاصلي، وبدأ الغيظ يتصاعد في نفسي، فقلت بصوت أشبه بالحشرجة:
- ماذا تريد أن تقول من وراء ذلك؟

نظر إليّ نظرة وقحة مليئة بالشبق، وقال بنبرة مستفزة:

- أريد أن أقول بأني لن أرضى أن تستغفلي أخي.
- احترم نفسك، صرخت به بصوت حازم.

نظر إليّ نظرة احتقار وقال بوقاحة:

- أنت عليك أن تحترمي شرف العائلة، تكذبين على أمك وتأخذين ابنتك إليها وكأنك ذاهبة إلى العمل بينما أنت تتصلين بدائرتك طالبة الإجازة المرضية، لماذا؟ هل لديك مشوار عليك الذهاب إليه؟ وإذا كان كذلك فلماذا أنت في البيت متزينة ومتعطرة؟! هل تنتظرين أحدًا؟!
- اخرس. وما أن صرختُ به حتى قفز نحوي وصفعني صفعة شلّت فكي ولساني، وكدت أقع على الأرض، إذ تدحرجت للوراء فوقعت على الصوفا المقابلة له، وانزاح ثوبي للأعلى فظهر قسم كبير من فخذيّ، فلم يستطع السيطرة على نفسه فقفز حيث وقعت، وصار أمامي من جهة أطرافي، وبحركة

سريعة مد يده لثوبي ورفعه ليرى جسدي من الأسفل، وبجنون همّ باغتصابي، فأخذت أصرخ به وأشتمه وأنا أكاد أموت من الخوف، ولو استمر لدقيقة أخرى لتمكن مني، وفي تلك اللحظة بالذات رأيته يُرفع عني، ورأيت حماي الآخر المهندس يسحب أخاه العسكري عني ويبصق عليه، كان كما يبدو قد سمع حديث أخيه وصراخي، فلبس بنطاله وقميصه! صدمة حماي العسكري كانت كبيرة جدًّا، إذ وقف مذهولًا وهو يرى الغضب في وجه أخيه المهندس!، كان كلاهما مصدومًا، خجلًا، لكن أيضًا كل منهما كان شرسًا حقودًا على الآخر، وكنت أنا قد حاولت أن أعتدل في جلستي لأغطي جسدي بثوبي، ولم أنتبه لما جرى بينهما في تلك اللحظات، لكني سمعت الأخ العسكري يقول لأخيه المهندس:

- أنت سافل وحقير، تدّعي الأخلاق والخلق، بينما أنت ثعلب غدّار، وتغدر بمن؟ بأخيك الأكبر! الآن عرفت من كان يضاجع هذه العاهرة، بل ربما أنت من حبّلها بطفليها، لا أستبعد أن تكون والدهما، لقد زرعت قرنين على رأس أخيك، ولوثت شرف العائلة.

- وسمعت صوت صفعة قوية هوت على وجه العسكري الذي تراجع من قوتها خطوتين للوراء، وفي لحظة تهور وجنون، لحظة خارج العقل والتوقع، لحظة مرت بكل معناها الزمني، لحظة دون مبالغة زمنية أو لغوية، نعم خلال لحظة واحدة سحب مسدسه وأطلق رصاصة باتجاه أخيه، وخلال لحظة انهار حبيبي على الأرض ميتًا، وخلال لحظة أفاق القاتل من هول صدمة ما قام به، فلم يفعل شيئًا، لم يتأكد من حالة أخيه، لم يطلب سيارة الإسعاف، لم يندم، بل خلال لحظة أيضًا فرّ هاربًا من هول ما فعل!

- ماذا؟ قتل أخاه؟

صرخ آدم أبو التنك محتجًّا بينما لا إراديًّا ضربت حواء الفارسي على خديها كعادة النساء العراقيات لحظة سماع خبر فاجع، مع إطلاق كلمة "يبوووووو..."، أما آدم الشبيبي فأحس برجفة باردة تجتاح جسده لكنه لم يعلّق بأية كلمة، أحسّت حواء العذابي بتعاطفهما الإنساني معها، فواصلت:

- يمكنكم أن تتخيلوا حجم مصيبتي في تلك الساعة، فضيحة بجلاجل مع جريمة قتل، لحظتها أخذت ألطم وجهي دون صراخ، وفجأة أخذت أطلق صراخي، ولأني ذات شخصية قوية فقد اتصلت بوالدتي وطلبت منها المجيء فورًا وعاجلًا، خافت أمي حين سمعت نبرة صوتي وأدركت أن مصيبة قد حصلت لا سيما حينما عرفت أنني في البيت ولست في الدائرة، وخلال دقائق معدودة دخلت عليّ وهي تدفع العربة التي فيها ابني، كان الباب الخارجي مفتوحًا بعد هروب الأخ القاتل، تجمّدت أمي في مكانها حين رأت حماي مسجى على الأرض، لكن الغريب أنه لم ينزف دمًا كثيرًا، كان ثمة ثقب في صدره، ولم يتلوث قميصه بالدم كثيرًا. كيف أصف لكم الموقف، أمي أخذت تلطم وجهها أيضًا، وهي تصرخ بي:
- ماذا فعلت يا بومة النحس والشّؤم، ماذا فعلت؟
- وبدهاء المرأة المجربة، سيطرتْ على نفسها فجأة، أسرعت فأغلقت الباب الخارجي، وطلبت مني أن أروي لها القصة من الألف إلى الياء، دونما أية أكاذيب! لا أدري كم هي الحياة عزيزة على الإنسان، ولا أدري إلى أي حد يكون الإنسان كاذبًا ومقنّعًا ومتشبثًا بوجوده الاجتماعي، في تلك اللحظات عرفت ذلك، وعرفت كم أنا حقيرة وكاذبة ودنيئة، فعلى الرغم من أني كنت في مصيبة كارثية، وأن التي تسألني هي أمي وسندي الوحيد حقًّا، لكنني مع ذلك كذبت عليها، واختلقت قصة تشكلت في ذهني خلال لحظات! لم أكن في حالة مسترخية كي أروي لها كل شيء بالتفاصيل الحقيقية، ولأن أمي امرأة متدينة فلم أرغب أن أصدمها، فأخذت أروي الخطوط العامة لقصة بعيدة عن الحقيقة، اختلقت قصة من عندي، نسجت حكاية وهمية لأروي حكاية هذه الجريمة التي كنت طرفًا فيها، فأخبرتها بأن الأخ المهندس كان يحبني ويعاملني باحترام، بينما الأخ السكير كان يهينني علنًا، وقد جاء الأخ المهندس ليستشيرني في أمر خطبته الجديدة من موظفة أعرفها، موظفة زميلة في العمل، لكن يبدو أن أخاه العسكري كان يريد الفتاة نفسها، وتتبع أخاه الذي جاء عندي طالبًا رأيي ومساندتي لمفاتحة زميلتي، وفي تلك اللحظات دخل علينا

الأخ العسكري ونحن نتحدث، وتشاجرا حول الفتاة، فصفع المهندس أخاه العسكري لأنه أساء بالكلام له ولي، وكرد فعل متهور أخرج الأخ العسكري مسدسه وأطلق على أخيه فأرداه قتيلًا، وهرب... أمي كانت تنظر إليّ بريبة، وقالتها لي بصراحة:

- أنا لا أصدّق حرفًا مما رويتي يا بنت بطني، ما معنى أن تأتيني إلى البيت صباحًا لآخذ ابنتك إلى روضة الأطفال وأعتني بابنك، بينما أنت هنا؟ وتحدث جريمة يقتل الأخ أخاه في بيتك؟ هل تستهبليني يا بنت.
- أخذت أبكي بدموع كاذبة وتلبست دور البريئة مرة أخرى وقلت لها:
- أنا كنت في الدوام حينما جاء حماي المهندس إلى الدائرة، وطلب أن يحدثني على انفراد، دعاني إلى مطعم أو مقهى لكني فضّلت أن نأتي إلى البيت لنتحدث، لا سيما ونحن قريبين من الدائرة!، أخذت إجازة زمنية، وجئنا إلى البيت وحدث ما حدث!
- ومع ذلك لا أصدقك، المهم هذا ليس وقت الكلام وكشف الأكاذيب، علينا أن نتصرف!

اتصلت هي بوالدي وبزوجي وأخبرتهما بشكل موجز عما حدث بروايتي، كان يفترض بزوجي أن يأتي في الغد من ذلك اليوم، جاء والدي قبله بساعات، وحين رأى الجثة، أخذ يشتمني بأقذع الألفاظ السوقية، فكأنه عرف كل شيء دون أن أعترف له بكلمة واحدة، واتصل هو بوالد زوجي الذي أشبع والدي وأشبعني بأقذع الشتائم، ويبدو أنه عرف من ابنه العسكري ما اقترف، وطبعًا بالرواية الحقيقية التي رآها الابن العسكري بعينيه، ولكن العائلة مثل عائلتي تمامًا، أرادت أن تقلّل ما تستطيع من الخسائر، فاعترافهم بقتل الأخ لأخيه يعني ضياع الابن القاتل ناهيك عن الفضيحة، لذا جاء والد زوجي إلى بيتي، وحين رآني بصق في وجهي أمام والدي ووالدتي، لم يقولا له شيئًا، احترامًا لهول مصابه، وقام أبي بمساعدته في نقل الجثة إلى بيت أهل زوجي، ولكن قبل أن يرحل والد زوجي التفت إليّ مهددًا:

- هنا أبوك وأمك، لكني أقولها لك، عليك أن تخرسي، ولا تخبري أحدًا بما جرى، لا أريد أن أفقد ابني الآخر بجريمة قتل أخيه، وإلا سأقتلك أنا.

لم يكن الأب يعرف أنه بكلماته تلك أنقذني من الفضيحة ومن السجن، إلا أن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فالكارثة لم تنته وإنما صارت أشد وأكثر فتكًا!

وصل زوجي بعد منتصف نهار ذلك اليوم نفسه، لكنه لم يأت إلى البيت وإنما ذهب عند أهلي والتقى أمي وأبي، وكانت أمي كما قلت قد اتصلت به قبل أن يأتي أبوه لينقل جثة أخيه القتيل، لذا لم يكن أمام أمي إلا أن تروي له ما رويته أنا لها بتفصيل أكبر مما قالته له خلال الاتصال التليفوني، فاستشاط غضبًا، لم يأت عندي ليستفسر مني وإنما ذهب إلى بيت أهله مع والدي، حيث حلت الكارثة الكبرى!

روت لي أمي عن أبي ما جرى هناك، فقد أراد زوجي أن يرى أخاه القاتل ويعرف منه سبب قتله لأخيه المهندس، وقيل إن والده حينما رآه أخذ يشتمه ويشتمني، لكن زوجي أصرّ على مقابلة أخيه، قيل له إنه في غرفته، ودخل الغرفة، لكن الجميع كان يقف قرب باب الغرفة لأنهم تنبّأوا بأن شرًّا سيقع، وتعالت أصوات الأخوين الغاضبة، فقد كان زوجي يحب أخاه المهندس حقًّا، ويستاء من أخيه العسكري السكير ذي السمعة السيئة، وتعالى صراخهما، وأخذ الأخ العسكري يتحدى زوجي ويقول له بأنه حمى شرفه الذي تلوث، وواجهه بأن الأخ المهندس قد لوث شرفه، وأن على زوجي أن يشك بأطفاله، وعليه أن يأخذهم للفحص ليتأكد من أنهم من صلبه، وأنه كان أولى بزوجي أن يقتله غسلًا لعاره وليس هو، فجأة سُمعت طلقات مسدس!

اقتحم والدي ووالد زوجي الغرفة، فوجدا زوجي ماسكًا بمسدسه بينما كان الأخ الأصغر العسكري غارقًا في دمه، كان قد فارق الحياة، وبينما كان أبي يقف منذهلًا من هول ما قام به زوجي في لحظة غضب، أسرع والده لغرفته، وعاد وبيده مسدسًا، انتبه والدي للأب الغاضب الذي يحمل مسدسًا، وبينما والدي يحاول أن يمسكه أطلق هو النار على زوجي، طلقات عدة، بينما جرح والدي!

بل إن الأب حينما رأى المشهد، جثث ابنيه غارقة بالدماء بينما ترقد جثة الابن الثالث في غرفة أخرى لم يستطع تحمل هذه الخسارة الهائلة فأطلق النار على رأسه منتحرًا!

ما أن سمعت بذلك، ثلاثة أخوة مع أبيهم يقتلون بسببي في يوم واحد، ويجرح والدي، حتى قرّرت الفرار، وكما قلت لكم، دماغ المجرم بعد الجريمة مباشرة يعمل

أضعاف مضاعفة قياسًا لدماغ الإنسان العادي. كانت أمي قد أخبرتني بالكارثة هاتفيًّا، لذا جمعت كل ما لدينا في البيت من مال، وما لديّ من ذهب، وأخذت جواز سفري، وانطلقت إلى كراج سورية، وهربت، هربت من نفسي، من حياتي، من أطفالي، ومن أشباح قتلاي!

كنت قد عرفت كل شيء من أمي عبر الهاتف، أمي التي أخذت تشتمني لأني كذبت عليها، لأن والدي أخبرها بما سمعه من الأخ العسكري حول سمعتي وعلاقتي بالأخ المهندس، لم يعد لي مكان بين أهلي، فقد تبرأت عائلتي مني، وقانونيًّا سأظل مطلوبة للتحقيق، صحيح ربما سأبرأ من التهمة إذا وجدت محاميًا شاطرًا، لكن الفضيحة ستلاحقني، بل أخبرتني أمي بألّا أظهر بوجهي وجسدي أمام أخويّ وأبي، لأنهم سيقتصون مني غسلًا لشرفهم وسمعتهم التي تلوثت بسببي!

وها أنا بينكم، ووجودي بينكم حصيلة مصادفة نادرة، إذ التقيت أم حواء مصادفة، قبل يومين من هذه الكارثة، وأخبرتني بوجود ابنتها في سورية، وأعطتني الرقم، ولا أدري أي قدر دفعني لتسجيل الرقم على قطعة صغيرة من ورق الملاحظات، ووضعتها في محفظتي. أنا خائفة، وأريد الذهاب لبيروت! أحس أن أحدًا من أخوتي سيتعقبني إلى هنا.

خيم صمت ثقيل على الجميع، كانت حواء العذابي تنتظر أن يقولوا أي شيء عمّا روت، لكنهم صمتوا، لم ينطق أي منهم بشيء يدينها، أو يواسيها، ظلوا صامتين! استمر الصمت للحظات ثقيلة، فقالت لهم بتوسل:

- قولوا أي شيء! لماذا أنتم صامتون؟

نظر الآخرون لبعضهم البعض نظرات مرتبكة، فجأة توجهت هي إلى آدم الشبيبي وقالت برجاء:

- قل شيئًا أستاذ آدم، فأنت كاتب أديب، وصحافي، وقرأت كثيرًا من الكتب!

تطلع الآخران إليه وكأنما بتوجهها إليه خلصتهما من تعقيبات قد تحرجهما. وشعر آدم الشبيبي بالعيون الست متوجهة إليه، ارتبك، ثم قال:

- بعض الناس، رجالًا ونساء، سواء من المثقفين أو من الناس العاديين، يقفون أحيانًا أمام المرايا، ينظرون إلى وجوههم، يرتعبون من قبحهم، ووساختهم الداخلية، ويشمئزون من الروائح الكريهة المنبعثة من قيح أعماقهم، يبصقون

على المرآة التي أمامهم، وكأنهم يريدون التخلص من عبء هذا القبح والدناءة والحقد الذي يحملون، لحظتها يشعرون بالراحة عند بصاقهم على أنفسهم، مثل مسيحي خاطئ عند الاعتراف، لكنهم بعد ذلك يستديرون للمرايا، متوجهين إلى الحياة، حاملين القبح وتلك النتانة في أعماقهم! وهم في غاية الراحة، متخففين من الشعور بدناءتهم ودونيتهم، ربما إلى حين مواجهة مرايا أنفسهم مرة أخرى! لا أريد أن أكون قاسيًا عليك، فما أقوله ليس موجهًا لك وحدك، وإنما لنا نحن أيضًا، أنا أتحدّث عن البشر بشكل عام. أما ما رويته فهو يكاد لا يُصدّق، وكأنه فيلم أكشن هندي، لا يعني هذا أنني لا أصدّقك على العكس، فأنا أعرف أن في الحياة والطبيعة كوارث أشدّ هولًا مما رويت. مسلسل الأحداث الذي رويته مؤلم حقًّا، أنا أجد أنك شجاعة في الحديث عن كل هذا الوحل الذي غمر حياتك، وأعتقد أنك تشعرين بالراحة لأنك بُحت لنا بأسرار هذه المجزرة التي لستِ سببًا مباشرًا فيها، فحتى علاقتك بحميكِ المهندس ليست هي السبب المباشر في هذا المسلسل الجرائمي الذي جرى خلال ساعات وفي عائلة واحدة، ولا أبرر لك ذلك، لكنك لست مسؤولة عن قتل الأخوة بعضهم لبعض، هي حماقات البشر، وسوء الفهم، والغضب الأعمى.

صمت آدم الشبيبي، كان الآخرون صامتين وكأنهم ينتظرون منه أن يواصل حديثه لكنه ظل صامتًا، وبعد لحظات علّقت حواء العذابي على ما قاله بنبرة استسلام:

- أنت محقّ تمامًا، أنا الآن أشعر بشيء من الراحة، صدقت، أنا كمن كانت تنظر لنفسها في مرآة وبصقت على وجهها اشمئزازًا، ربما ارتحت قليلًا حين اعترفت لكم بما جرى، وتخففت عن شعوري بإثمي، لكنك محق أيضًا، فتأنيب الضمير واحتقار الذات الذي قد لا أبديه أمام أحد وتفاصيل الأحداث ستلاحقني طوال حياتي، بل إن حرماني من رؤية طفليّ هو العقاب الأكبر لي في حياتي، وربما سيكون هذا هو عقابي الإلهي، لكني الآن أحتاج لمساعدتكم، أنا أعرف أن أخويّ وأبي لن يتركوني في حالي، ومن السهل عليهم أن يجدوني هنا في دمشق، لذا أريد أن أختفي في لبنان، في بيروت أو أية مدينة أو ضيعة هناك.

صمت الجميع بارتباك، أحست أنهم متعاطفون معها، التفتت إلى صديقتها حواء الفارسي قائلة لها:

- قولي شيئًا يا حواء، فأنت امرأة وتفهمينني جيدًا، أنت تعرفين مشاعر الأمومة، مع أنك لست أمًّا، فالبارحة حدثِتني عن هابيل الصغير وشوقك له وعذابك من تأكدك بأنك لن تريه مرة أخرى، لذا أستحلفك بهابيل الصغير أن تساعديني على الخروج من هنا.

فجأة ترقرقت عينا حواء الفارسي بالدموع وكادت تنشج، لكنها توجهت بنظراتها إلى زوجها آدم أبو التنك قائلة:

- افعل شيئًا يا آدم.

***

بعد ساعتين كان الجميع في منطقة المزّة، في الأوتوستراد الذي تنطلق منه سيارات الأجرة المتوجهة إلى بيروت، وكان آدم أبو التنك قد استفسر من أحد أصدقائه السوريين ممن يعمل سائقًا على الطرق الخارجية فبيّن له إجراءات سفر العراقيين من دمشق إلى بيروت، وأخبره بأن إحدى قريباته تريد السفر إلى بيروت لإجراء بعض الفحوصات اللازمة في مستشفى كليمنصو، فبيّن له الصديق كل التفاصيل وأرشده إلى سائق صديق له يعمل سائقًا على خط دمشق بيروت يمكنه أن يساعده في ذلك. وفعلًا حين وصل إلى الكراج في المزة سأل عنه، واتفق معه.

كانت سيارة التاكسي تنتظر راكبًا آخر كي تنطلق، وكانت حواء العذابي جيّاشة بمشاعر متناقضة، مشاعر الفرح بالسفر لبيروت التي كانت تحلم أن تزورها كسائحة وليس كهاربة، وأيضًا خوفها من هذه المغامرة التي تخوضها لوحدها، لكن ما طمأنها أنها تحمل كمية لا بأس بها من المال معها، وتمنّت لو أنها وطّدت علاقتها أكثر بآدم الشبيبي، لذا فجأة قالت لصديقتها:

- سأتصل بك حين أصل إلى بيروت، لكن بودي أيضًا أن أحصل على رقم الأستاذ آدم الشبيبي فربما أحتاج رأيه ومشورته هناك!

ارتبك آدم الشبيبي من جرأتها ومباشرتها في طلبها فأخرج ورقة صغيرة ودون عليها رقمه وناولها الورقة وهو يقول:

- المهم أن تصلي بالسلامة، وهذا هو رقمي، أنا في خدمتك أنّى احتجتني، اتصلي في أي وقت، أتمنى لك التوفيق وراحة البال.
- شكرًا لكم، (ثم توجهت لصديقتها وزوجها)، لولاكما لضعت، خاصة الأستاذ آدم أبو التنك، فلولا جهوده وعلاقاته لما وقفت الآن عند السيارة المتجهة إلى بيروت، لن أنسى استقبالكما لي واحتضاني في دمشق ومساعدتي لمغادرتها.

فتمتمت حواء الفارسي وزوجها معًا بجمل متشابهة ومتداخلة:

- لا تشكرينا، هذا واجبنا، ولا تنسي بأن لديك بيتًا في الشام، لم نقم إلا بالواجب، المهم أن تصلي بالسلامة.

في تلك اللحظات دخلت الساحة سيارتان سوداوان من نوع الجيب وأخرى مرسيدس سوداء اللون أيضًا، أثارت انتباه سائقي السيارات الذين ينتظرون في الساحة، وكذا انتباه آدم أبو التنك الذي كان يراقب السيارات المقبلة من بعيد، توقفت السيارات بعيدًا، بعد مدخل الساحة بقليل، انتبه آدم أبو التنك بفضوله المعتاد إلى لافتات السيارات وأرقامها وأدرك أنها تحمل إشارات عراقية، شعر بما يشبه الصدمة الكهربائية، وفجأة نزل منها رجل وسيم، قوي الملامح، يلبس بنطالًا من الجينز وبلوزة أنيقة، وتتدلى من كتفه حقيبة جلدية أشبه بحقيبة اللابتوب.

توجه الرجل الوسيم نحو السيارة المنتظرة راكبها الأخير، كان سائق السيارة بعيدًا. وهناك امرأة ورجل مسنَّين يجلسان داخل السيارة في المقعد الخلفي حيث يفترض أن تجلس حواء العذابي إلى جانبهما. تقدم الرجل الوسيم منهم وسأل بلهجة عراقية عن التاكسي الذي سينطلق إلى بيروت إن كان هذا الذي يقفون عنده! فأشار آدم أبو التنك إلى التاكسي الذي يقفون قربه وقال:

- هذا هو التاكسي، وبك سيكتمل العدد، هل حضرتك عراقي؟!

نظر الرجل إليهم للحظة بتساؤل وبعد ثوانٍ استرخى وقال وهو يمد يده:

- نعم، أنا عراقي، أنا قابيل العباسي، وحضرتك عراقي أيضًا، أليس كذلك؟ هذا واضح من لهجتك.

شحب لون آدم أبو التنك وكذلك آدم الشبيبي عند سماعهما الاسم، ومع ذلك مدّ آدم أبو التنك له كفه مصافحًا:

- آدم أبو التنك.

- تشرفنا.

في تلك الحظة جاء السائق السوري، فتوجه إليه قابيل العباسي بلا مبالاة داخلًا إلى مقدمة السيارة دون أن يسأل إن كان المقعد الأمامي محجوزًا لأحد، لكنه لم يغفل وجود حواء العذابي فألقى عليها نظرة متفحصة ومليئة بالرغبة! انتبهت هي له، وغمرتها فرحة غامضة لهذه الرفقة مع هذا العراقي الوسيم، وخلال ثوانٍ فكرت بأنها ستكون لها مغامرة ممتعة!

بعد لحظات احتضنت حواء العذابي صديقتها ومدّت يدها للآدمين مصافحة كوداع. جلس السائق خلف المقود، وخلال لحظات انطلقت السيارة متجهة إلى بيروت، وما أن خرجت السيارة من الساحة حتى انتبه الآدمان إلى أن السيارات السود انطلقت خلفها، بينما تقدمت سيارة أخرى لتقف في الموقف نفسه حيث يقف الجميع.

انتبهت حواء الفارسي لارتباكهما، فسألت:

- ما بكما، وكأنما رأيتما عزرائيل حينما ذكر الرجل العراقي اسمه.

نظر إليها زوجها وقال لها:

- أتعرفين من هذا!

- من؟ عزرائيل!

- لا، إنه قابيل العباسي، الذي احتمال هو زوج حواء ذو النورين صديقة المرحومة حواء الكرخي، وربما جاء يتعقبها ليقتلها!

- ماذا! ومن هي حواء ذو النورين هذه؟

- صديقة المرحومة حواء الكرخي التي جاءت هاربة من زوجها القاتل، الأمير في التنظيمات الإرهابية وضابط المخابرات في النظام السابق!

- وكيف عرفت أنه هو وليس غيره!

- ألم تنتبهي للسيارات التي رافقته حين جاء والتي تحمل أرقامًا وتأشيرات

عراقية، ثم لو لم يكن هو فلماذا لم يسافر بتلك السيارات الجيب والمرسيدس، ألا يثير هذا الشكوك، أليس واردًا أنه لا يريد أن ينتبه أحد لشخصيته عند نقطة الحدود!

أحس آدم الشبيبي برجفة تسري في جسده، نظرت حواء الفارسي إليه فانتبهت لارتباكه، شعرت بحنان يغمرها نحوه، سألته وهم يمشون متوجهين لمركز المدينة:

- وأنت، ماذا تقول؟ هل ما يقوله آدم صحيح؟! هل هو فعلًا هذا الشخص الذي يعنيه؟! هل انتبهت إلى أن هذه السيارات تحمل أرقامًا عراقية؟!

نظر إليها لثوانٍ، أحس بأشعة الحنان في نظراتها، تمتم بهدوء:

- تفسير آدم منطقي، أنا لم أنتبه للأرقام العراقية، لكن السؤال منطقي، لماذا أوصلته كل هذه السيارات الفارهة من أجل أن يحشر في سيارة أجرة؟! (ثم تمتم مع نفسه)، وحده يمكنه أن يهب أرواحنا سكينة الحقيقة والطمأنينة!

كان آدم أبو التنك ينصت للحوار الذي دار بين زوجته وصديقه، لكنه ما أن سمع الجملة الأخيرة حتى قال بتعجب:

- من يمنح أرواحنا سكينة الحقيقة والطمأنينة؟! من؟ هذا القاتل؟!

التفت آدم الشبيبي مندهشًا إذ ظن أنه يكلم نفسه فلم يسمعه أحد، وقال:

- لا، لا أقصده، وإنما أقصد الشك! الشك وحده يقودنا للحقيقة!

نظرت حواء الفارسي وهي تكتم حبها المندفع له وقالت:

- أنت غريب الأطوار حقًّا يا آدم، تجعل السامع لك يتيه فيما تقول.

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة، وقال بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه:

- كلنا تائهون على ظهر هذا الكوكب البائس، بل حتى هذا الكوكب تائه في مجرته الغامضة، ومجرته تائهة في اللا نهاية!

- هذا كلام أكبر مما يستوعبه عقلي!

ابتسم آدم أبو التنك ناظرًا لآدم الشبيبي بمودة، ثم التفت إلى زوجته وقال:

- يعجبني هذا الرجل بأفكاره الغريبة والغامضة، حتى يكاد يدفعني للشك بكل ما آمنت به في حياتي، وكأن كل شيء كان عبثًا، كل شيء كان من فراغ حياتنا.

ابتسمت وقالت:

- يبدو أننا سنصير فلاسفة، لكن قولا لي بصراحة، هل صدّقتما حكاية ضيفتنا! أنا أشك فيها، لا سيما وهي تعترف بأنها كذّابة وماكرة!
- ثم ماذا! كلنا نكذب بهذه الطريقة أو تلك، وحتى لو كان هناك كذب ففيه مع ذلك نسبة من الحقيقة، مثلما في كل حقيقة نسبة من الكذب. قال آدم الشبيبي.

ابتسم آدم أبو التنك وقال لزوجته مازحًا:

- لا تناقشيه، لأنك لن تأخذي منه حقًّا ولا باطلًا، هؤلاء المثقفون الذين يقول عنهم لينين: إنهم يدوّرون الزوايا الحادة.

ولأول مرة يبتسم آدم الشبيبي خلال ذلك اليوم حينما سمع جملة صديقه مستشهدًا بلينين وقال:

- حتى صاحبك لينين كان يكذب، كان يقول شيئًا في الصباح ليناقضه في المساء، وكان لا يخاف من التناقض بل كان يسمي ذلك بالديالكتيك.

فابتسم أبو التنك وقال:

- مع أني لا أتفق معك، لكني أحب تمردك الفكري وشكك.

كانت حواء الفارسي تحس بسعادة أنها تعيش بين هذين الرجلين الطيبين، لا سيما وأنها تأكدت من مشاعرها نحو آدم الشبيبي، لكنها شعرت بأنهما مثل طفلين ساذجين فهي تعرف عن ضيفتها أكثر مما يظنان، إلّا أن مزاجهت تعكّر حينما سمعته يقول لزوجها:

- عليّ أن أتصل بحواء الزيّاني، لأعرف إن كانت قد وصلت!

# الـبـاب الخـامـس

## الحزن، قلب القلب

حين أفاق آدم بوناروتي صباحًا لم يجد إيفا مادهوري إلى جانبه، قام مباشرة عن السرير وذهب إلى الصالة فلم يجدها ومن هناك ألقى نظرة على المطبخ فلم يرَ أحدًا، خطرت في ذهنه فكرة بأن كل ما رآه ربما كان وهمًا، ربما لأنه أعجب بهذه الفتاة ورغب فيها وتمنى لو رسمها في لوحة ما، لذا لا وعيه استحضرها كواقع مجسد! لكن لا، كيف عرف أن اسمها هو إيفا مادهوري! بل ويتذكر كل تفاصيل حكايتها المؤلمة، بل يتذكر اسم زوجها آدم نعمتدار! ثم ألقى نظرة على الطاولة فوجد قدحين للنبيذ فارغين، وقنينة على الأرض أسفل الطاولة! إذن لم يكن الأمر وهمًا، بل هو يتشمم عطرًا شرقيًّا زكيًّا غير اعتيادي، باقيًا متطايرًا في هواء الغرفة!

أراد الاتصال بها لكنه تذكّر أنها لم تعطه رقمها، وإنما هو قد كتب لها عنوانه ورقم هاتفه في لقائهما الأول، وهي لم تتصل به كي يحتفظ به وإنما جاءته مباشرة، إذن عليه أن يذهب إليها في الفندق حيث تعمل.

بعد أن استحم ثم ارتدى بنطاله وقميصه المتعدد الألوان كلوحة تجريدية، وعمل لنفسه كوبًا من قهوة النسكافية، وأخذ أقداح النبيذ والقنينة الفارغة إلى المطبخ، حمل على كتفه الأيسر حقيبته التي فيها أقلامه التي يخطط بها ورزمة من أوراق الرسم، وتأبط لوحًا خشبيًّا يستخدمه في تثبيت ورق الرسم، غادر البيت، لكنه وقبل أن يطبق الباب جال بنظره في الشقة ليتأكد من أنها فعلًا كانت موجودة هنا.

في الطريق إلى الفندق كان يستعيد كل تفاصيل الليلة الفائتة، وأحس وكأنه يتشمم عطر جسدها الأسمر الصغير الذي أغرقه بالقبل الناعمة والساخنة، لا. لا. هو الآن على

يقين بأنها كانت عنده ونامت معه على سريره، وكانت ثملة!

حين دخل فندق "ماتا لوكا" وألقى نظرة على مكتب الاستعلامات لم يرها وإنما كان ثمة شاب إيطالي استقبله بابتسامة طيبة، ألقى عليه التحية وسأله بالإيطالية عن الفتاة الهندية التي تعمل معه في الاستعلامات، فأجابه موظف الاستعلامات بلطف:

- تقصد إيفا مادهوري نامتدار؟! (ولم يكن يستطيع كبقية الأوروبيين من لفظ حرف العين).

- نعم، هي، إيفا مادهوري، السيدة نعمتدار.

- لم تأتِ اليوم، ربما تأتي بعد الظهر، لحظة لأرى جدول الدوام لموظفي الاستعلامات!

وذهب داخلًا إلى غرفة المكتب التي هي ضمن الاستعلامات وخلف كاونتر الاستقبال، وعاد بعد دقيقة وهو يقول:

- يفترض أن تكون في الفترة المسائية، ستكون هنا بعد الثالثة عصرًا.

- شكرًا.

وغادر الفندق وهو مكتظ بفرح غامر وبهجة، فهو سأل عن الفتاة الهندية بينما الموظف الشاب عرفها باسمها ولقبها الذي يعرفه هو أيضًا، هذا يؤكد إنها كانت موجودة، لكن متى استيقظت وغادرت الشقة! ولماذا لم تكتب أية كلمة عندما غادرت! ولماذا لم توقظني! سأمر عليها بعد الثالثة.

كان عليه أن يصل إلى ساحة بيازا سان ماركو ليقطع بعدها شارع فيا كاميلو كافيور الذي يتواصل مع شارع فيا دي مارتيلي ليصل الكاتدرائية ومن ثم يواصل مشيه في شارع فيا دي كالايولي ليصل في النهاية إلى ساحة الشعب بيازا ديلا سنيوريا حيث يتواجد السائحون قرب تمثال دافيد، وهناك قرب النافورة، فونتانا ديل بيتونو يتخذ موضعه ليعرض على زوار الساحة رسم تخطيطات لوجوههم، لكنه اليوم لم يشعر بطول الطريق قط، كان يمر بالمتاجر والمقاهي وبالثعبان البشري الذي يشكله حشود الناس لكنه كان لا يحس به إلا كديكور هامشي، فقد كان يعيش مشاعره نحو إيفا مادهوري بحرارة العاشق.

حين وصل الساحة التي هي واحدة من ملتقيات السوّاح المهمة اتجه نحو المقهى القريب وطلب كوبًا من القهوة، النِدل يعرفه، فهو صديق قديم للعاملين في المقهى فهم يعرفونه منذ سنين، وهذا من طقوسه التي يبدأ بها يومه في الساحة، لذا أعدّ له القهوة في كوب كارتوني، وحين أخذ آدم بوناروتي الكوب ارتشف منه مباشرة، وأطلق صوتًا يعبّر عن لذته بتذوق القهوة.

على دكة قريبة جلس، كانت الشمس قد بدأت تعلو، شمس دافئة، انتبه إلى أصوات قريبة، كان فريق من السائحين الألمان قد وصل الساحة. تأمل هذا الخليط العجيب من الأعمار المختلفة، انتبه إلى زوجين عجوزين يسند أحدهما الآخر، كانت المرأة العجوز تمسك بذراع مرافقها بقوة وكأنها تتكئ عليه، وبدا له أنها متعبة، كانا يتحدثان لبعضهما بصوت خافت جدًّا وكأنهما يهمسان بلا صوت، راودته رغبة غامضة في معرفة مضمون حديثهما، لكن كيف له ذلك!

وضع كوب القهوة جانبه على الأرض وأخرج رزمة الأوراق من حقيبته، ثبّتها على اللوح الخشبي، تناول أقلامًا من الحقيبة، وضعها إلى جانب كوب القهوة، أمسك بقلم وراح يرسم بشكل مندفع لا يتناسب مع الهدوء والاسترخاء الذي كان عليه قبل لحظات، كان يلاحق وجه إيفا مادهوري وكأنه وجه هارب يريد الإمساك به.

بدا وجه إيفا مادهوري يتضح على الورقة شيئًا فشيئًا، عيناها، نظرتها الغامضة، وابتسامتها الساحرة، وأحس بفرح لأنه نجح بشكل كبير في استحضار ملامحها، وفكر في نفسه بأنه سيعطيها هذا التخطيط حين يراها بعد الثالثة، لكنه أفاق مما هو فيه على ضجيج ملأ الساحة وحضور سيارة إسعاف وقفت على مدخل فرع جانبي، أرجع أقلامه بسرعة إلى حقيبته، حمل كوب القهوة وتأبط لوحه الخشبي واتجه إلى جمع الناس الذين شكلوا دائرة قرب تمثال دافيد، اقترب، اخترق الصفوف ليرى ماذا حدث، صُدم حين رأى المرأة العجوز مغمي عليها، بل ملامحها تدل على الموت، وهي تتكئ برأسها على كفي مرافقها العجوز الذي كان جالسًا على الأرض، صامتًا وحزينًا ولا يأبه لكل هذا الحشد والضجيج حوله!

خلال لحظات فتح المتجمهرون الحلقة التي طوقوا بها العجوزين لرجال الإسعاف الذين جاءوا حاملين السرير النقّال، وضعوا المرأة العجوز التي أعلن طبيب الطوارئ

المرافق بأنها قد فارقت الحياة، وحملوا الرجل العجوز الذي كان حزينًا، وصامتًا، من ذراعيه وأخذوه معهم!

غمر حزن مفاجئ نفس آدم بوناروتي، وتدفقت أسئلة وجودية على ذهنه، وسأل نفسه: "ماذا كانت تقول هذه المرأة قبل موتها لمرافقها حينما رآهما أول مرة؟! هل كانت تدرك موتها القريب؟! أم كانت مليئة بالحياة وتتحدث عن ذكرياتها وعن هذه الساحة أو عن تمثال دافيد الذي يكاد يكون مثالًا للجمال؟! وكم هو رقيق وغامض وغير مرئي ذلك الخط الفاصل بين الحياة والموت؟!"، وفي خضم هذه الأسئلة انتبه إلى أن الناس قد تفرقوا، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنما لم يمت إنسان هنا قبل لحظات، وأمام أعينهم!

***

دخلت حواء ذو النورين صالة مطعم الفندق المفتوح وهي ترتدي ثوبًا أنيقًا أسود اللون. يصل إلى ركبتيها، ومع أنه مكشوف الذراعين إلا أنها وضعت شالًا خفيفًا أسود أيضًا ليغطي كتفيها.

كانت الصالة مكتظة بالنزلاء على غير العادة، وقفت عند المدخل، جالت بنظراتها في أرجاء الصالة فلم تجد طاولة شاغرة، أرادت أن ترجع إلى اللوبي وتنتظر بعض الخارجين من المطعم لتدخل فيما بعد، لكن وقبل أن تغادر مكانها ظهر أمامها الشاب الذي يكاد يكون نسخة من ابنها، لا تعرف من أين ظهر لها! فلم تقع عليه نظراتها حينما فتشت في الصالة عن طاولة، ابتسم لها ابتسامة لم تقاومها، ابتسامة ابنها الحبيب! وقال لها وهو يلقي التحية بلطف:

- صباح الخير مدام، تفضلي معي!

وسار أمامها، كانت تتأمله من الخلف، أحسّت بقربها منه، هي تعرف أنه ليس ابنها، لكن تداخلت في أعماقها المشاعر نحوه، مشاعر الأمومة المغدورة، ومشاعر الأنثى المغامرة، المرأة الباحثة عن نفسها وسط أساطير غامضة!

كان يمشي وهي تمشي خلفه دون أن توجه اهتمامًا أو تلقي نظرة على أيٍّ من النزلاء المنهمكين بملء بطونهم! لكنها انتبهت إلى أنه اجتاز الصالة، بينما انفتح أمامه أفق الصالة وصار يمتد مع مشيه، حين التفتت لتدرك الأمر فوجئت بأن جميع النزلاء

صاروا بعيدين بحيث صاروا مثل الدمى الصغيرة الجالسة حول الطاولات، وفجأة رأت امرأة سمراء سمرة تميل إلى الزرقة تجلس حول طاولة وحيدة في عمق الصالة الغامضة، ووقف الفتى موظف الخدمة جانبًا عند طاولة قريبة من طاولة المرأة السمراء، دعاها للجلوس بعد أن سحب الكرسي لها فجلست شاكرة لطفه، وبعد ثوانٍ من جلوسها انتبهت له، كان يقف وفي يده دورقان، ابتسم لها وهو يسأل:

- شاي أم قهوة؟

- قهوة من فضلك.

وصبّ لها القهوة في كوب أمامها، وحين التفتت لتشكره لم تجده، ألقت نظرة في عمق الصالة الغامضة فوجدته قد وصل إلى مدخل الصالة واختفى خارجًا، استغربت الأمر، كيف تمكن من قطع كل هذه المسافة خلال ثوانٍ؟!

حين جلست لم يكن ثمة أحد في عمق الصالة سوى امرأة شابة تميل إلى السمرة القريبة من الزرقة، ففي هذه الزاوية ليس هناك سوى طاولتها وطاولة المرأة السمراء!

ابتسمت لها المرأة الأخرى بلطف، وكأنها تقول لها نحن الوحيدتان هنا فقط! ثم وبإيماءة من رأسها أشارت إلى البوفيه المفتوح والذي لم تنتبه له حينما جلست، بل هي متأكدة أنه لم يكن هناك بوفيه مفتوح حينما وصلت إلى هذه الزاوية من الصالة، فالبوفيه المفتوح هناك وسط الصالة بالقرب من المدخل.

نهضت متجهة إلى البوفيه، أخذت صحنًا وضعت فيه قطعة من الجبنة البيضاء غير المالحة، وأربع شرائح خيار مقطع وأربع قطع طماطم مقطعة، وثماني حبات زيتون أسود، وقطعة من الخبز، وعنقود عنب صغير فيه ثماني حبات!

حين عادت إلى طاولتها وجدت دورق شاي وضع أمامها فوق المائدة إلى جانب كوب القهوة، تلفّتت فيما حولها وهي واقفة، لم تجد أحدًا! نظرت إلى المرأة الأخرى التي رأت الاستغراب في نظراتها فابتسمت لها وأومأت برأسها نحو جهة ما، تلفتتْ نحو الجهة التي أومأت لها المرأة فرأت الشاب نفسه وهو يدفع عربة فيها دوارق للشاي يوزعها على طاولات رواد المطعم، ومن بعيد نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة بثّت الخدر في جسدها وملأتها بالبهجة، ابتسمت له وجلست على كرسيها لتتناول فطورها.

انتهت من تناول الطعام، أخذت تصب لنفسها شايًا مغربيًّا أخضر، كانت المرأة

الأخرى تنظر نحوها باهتمام ومودة وعلى شفتيها ابتسامة طيبة، خمّنت أنها مغربية، أو على الأقل من شمال أفريقيا، ردت هي على ابتسامة المرأة بابتسامة قصيرة كتحية لها.

لم تكن متعودة على شرب الشاي الأخضر، وجدت في نفسها رغبة أن تشرب كوبًا آخر من القهوة، قامت عن كرسيها، اتجهت إلى البوفيه حيث على جهة منه يوجد دورقان كبيران واحد للشاي وآخر للقهوة.

أثناء عودتها وهي حاملة كوب القهوة ألقت نظرة نحو مدخل الصالة، فوجئت، جمدت في مكانها، لم تكن تتوقع ذلك قط، كانت حينها تقف عند طاولة المرأة السمراء، ارتجفت يداها وكاد الكوب أن يسقط منها فتلافت الأمر سريعًا ووضعت كوب القهوة على طاولة المرأة، وحين رفعت رأسها ثانية لم تجد ما فاجأها رؤيته، فأحست بهزة سريعة سرت في جسدها وغمرتها الحيرة!

انتبهت المرأة للاضطراب الذي تعيشه حواء ذو النورين، فقالت لها بتساؤل:

- هل أنت بخير..؟

ردّت حواء ذو النورين معتذرة بارتباك:

- أنا بخير..شكراً.

وأخذت كوبها واتجهت إلى طاولتها القريبة، لكنها ظلت تتلفت نحو مدخل صالة المطعم، وأخذت تسأل نفسها إن كانت من رأته هو نفسه الذي جاءت للقائه هنا في المغرب؟ هل هو الشيخ المبروك المغربي الذي يسكن في باريس بالطابق الذي يعلو الطابق الذي تسكنه صديقتها إيفا سميث وفي الشقة التي تعلو شقتها مباشرة، والذي التقته بشكل غامض في المصعد ذات مرة؟! كيف ظهر فجأة هنا في الفندق وكيف اختفى بلمح البصر؟ وما هي علاقته بالنادل الذي يشبه ابنها والذي يظهر أمامها ويختفي بشكل غامض؟!

فكّرت مع نفسها بأن تلحق به فربما كان موجودًا فعلًا وليس وهمًا من أوهامها! ارتشفت سريعًا رشفات متواصلة من القهوة، وحين همّت بمغادرة الطاولة سمعت المرأة السمراء تسألها بلطف:

- هل حدث شيء ما؟! هل يمكنني أن أساعدك؟

فوجئت حواء ذو النورين بسؤال جارتها لكنها انتبهت للرقة والتعاطف في نبرتها فقالت:

- لا شكرًا، مجرد أنني فوجئت برؤية شخص يستحيل أن أراه هنا، علمًا أني جئت إلى المغرب كي ألتقيه!

- تقصدين الشيخ المبروك صاحب الكرامات!

فتحت حواء ذو النورين عينها مندهشة مما قالته جارتها:

- ماذا؟ كيف عرفت ذلك؟ وهل تعرفينه؟ هل رأيته مثلي؟ من أنت؟

ابتسمت المرأة الأخرى لها بطيبة، وقالت:

- هل لي أن أدعو نفسي لأجلس حول طاولتك، وأشرح لك؟!

ارتبكت حواء ذو النورين ووجدت رغبة في ذلك فقالت لها:

- تفضلي، علمًا أني أردت اللحاق به!..

قامت المرأة من مكانها وهي تحمل كوب قهوتها معها وجلست على كرسي بالقرب من حواء ذو النورين وقالت بنبرة فيها ألفة وكأنهما صديقتان قديمتان:

- لا عليك، سوف يأتيك، هو جاء من أجلك، كي يذكّرك بنفسه!

- ماذا تقولين؟ من أين تعرفين كل ذلك؟ قالت حواء ذو النورين.

ابتسمت لها المرأة الأخرى وقالت:

- سأخبرك، لكن عليّ أن أقدم نفسي لك، أنا حواء تومرت، هذا لقب أمازيغي، يعني الفرح أو السعادة، وحضرتك أيضًا حواء، لا ضير، كلنا بنات حواء.

استغربت حواء ذو النورين وتوجست في أعماقها من هذه المرأة اللطيفة التي تعاملها بمودة واضحة لكنها تبدو كساحرة:

- نعم، أنا حواء ذو النورين!

- تشرفنا.

- لكن من أين تعرفين الشيخ المبروك صاحب الكرامات، وكيف انتبهت لدهشتي عند رؤيته؟!

نظرت التي سمّت نفسها حواء تومرت إليها بمودة صادقة وقالت:

- لأنه هكذا، يظهر لمريديه والباحثين عنه بصدق، أنا أيضًا من مريديه، وكلانا أنا وأنت نجلس في زاوية المريدين، ألم تنتبهي بأننا خارج القاعة وفيها أيضًا. أنا كنت عنده في مدرسته الغامضة أمس، لذا ظهر هو اليوم من أجلك أنت!

- من أجلي، وكيف عرفت أنت بأنه ظهر اليوم من أجلي؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا اختفى ولم يقابلني؟ سألت حواء ذو النورين بدهشة.

- أمس قال لي، إنه ينتظر زائرة ستأتيه من بعيد، من بلاد بعيدة، ليأخذها إلى مغارة دانيال بعد أن تقيم ليلة في المدرسة الغامضة فوق قمة الجبل!

- ربما لم يكن يقصدني وإنما يقصد امرأة أخرى!

- ربما، لكن لا يوجد في زاويتنا امرأة أخرى غيرك؟!

- لا أدري يا صديقتي، أنا امرأة تائهة، ضائعة، لا أدري لِمَ جئت إلى هنا أصلًا؟ ولا عمّاذا أبحث؟ أنا هاربة من نفسي ومن بلدي، ومن اسمي، كنت أظنني حرة، ومستقلة في اختيار الجهة التي أتجه إليها، لكني لم أجد حرية في الاختيار سوى في لبس هذا الثوب أو ذاك، أو شراء هذا اللون أو ذاك، أو اختيار أحمر الشفاه بهذه الدرجة اللونية أو تلك! حريتي التي كنت أثق بها لم تكن سوى وهمٍ رومانسي جميل!

كانت حواء تومرت تنظر إليها بانتباه وفي عينها حزن وشفقة، وقالت لها بنبرة فيها تعاطف أنثوي ودود:

- البشر هكذا، يراهنون على الأوهام.. نحن لا نستطيع أن نحدّق في النور الساطع بعيون مفتوحة، لكننا نفتح أعيننا بكل وسعها في الظلام!..الظلام أكثر وضوحًا من النور..في الظلام لا نرى سوى أنفسنا..بل لا نرى سوى جوهر ذاتنا وحركة تفكيرنا..في النور الساطع ننسى وجودنا، وفي الظلام أيضًا... قد يمنحنا النور وضوحًا وفرحًا، لكن قد يكون وضوحًا خادعًا وفرحًا قصيرًا، بينما الظلام يمنحنا وضوحًا أكثر صراحة..على الرغم مما يسرّبه في أرواحنا من رعشة مخيفة!.!

- ربما أنت محقة...!

علّقت حواء ذو النورين بنبرة حزينة، صمتت لثوانٍ، ثم واصلت:

- أتعرفين، يحدث أحيانًا أن أصحو صباحًا ويكون مزاجي رائقًا، ربما بتأثير ضوء النهار ودفء الشمس، واليقظة التي تعني التخلص من الليل وكوابيسه! لكن يحدث أحيانًا أن أسأل نفسي عن سر بهجتي وتألقي فأستذكر ما جرى لي من انتحار ابني واغتيال زوجي، والزواج مني عنوة، فأندم على بهجتي وأعتذر لروح ابني المسكين عن بهجتي وفرحتي بضوء النهار! ما لهذه من حياة! لماذا أشعر بأنني متهمة لأنني أفرح قليلًا؟!

ارتسم الألم الحقيقي على وجه حواء تومرت، سألتْ بنبرة مترددة وكأنها تخشى من أن تزيد ألم صديقتها المفجوعة:

- هل انتحر ابنك؟ واغتيل زوجك؟ وزُوجت عنوة؟! أيها القدير لطفك.

- نعم، حياتي رحلة عنيفة، أحس أنني دخلت ممرات مظلمة أرضيتها مفروشة ببقايا مدببة من قناني زجاج مكسورة وألواح تنبت منها مسامير حادة وطويلة، ومررت عبر دهاليز تتربص في زواياها الأشباح، أدخل حجرات متداخلة الأبواب، حجرة تقود لحجرة، كل الأبواب مفتوحة على مداها، ولا نهاية للممرات والدهاليز والحجرات!

ابتسمت حواء تومرت وقالت:

- تقولين لي أنني أتحدث شعرًا بينما أنت جعلتني أسير معك في الممرات والدهاليز والحجرات!

أحست حواء ذو النورين بالخجل من نبرة المديح في صوت صديقتها فقالت بحياء:

- أنا لا أجيد الحديث عن نفسي! فكل ما قلته مجرد استعارات لا تعبر حقيقة عن حجم الألم والمعاناة والرعب الذي عشته ومررت به، وما زلت أحمله أنّى اتجهت! لكنني أحاول أن أغلق أبواب الماضي، ونوافذ الذكريات الجارحة، لأني أحس بثمة أشباح تطاردني، ووجوه تراقبني، وجوه بلا ملامح، لا يظهر منها في أي وجه سوى محجرين فارغين!

صمتت حواء تومرت لثوانٍ، ثم سألت بنبرة فيها تعاطف:

- إذًا، ما الذي جاء بك إلى هنا، إلى مراكش، وأين التقيت الشيخ المبروك صاحب الكرامات؟!

سرحت حواء ذو النورين للحظات وكأنها تستعيد ذكرياتها ثم قالت:

- كنت في باريس، عند صديقتي إيفا سميث، صديقتي لبنانية الأصل فرنسية الجنسية، وكانت تعيش في الشقة التي يمتلك الشيخ المبارك شقة فوقها مباشرة، وكنت أسمع ضجيجًا ووقع أقدام، وسحب طاولات وكراسي، يأتي من سقف الغرفة التي كنت أنام فيها، وحين سألتها عن الجيران المزعجين الذين يسكنون فوق شقتها أجابتني بأنه لا أحد يعيش في تلك الشقة سوى شيخ مبروك صاحب كرامات شهيرة، مغربي، يعيش فوق قمة جبل في جنوب مراكش، في مدرسة غامضة، يعتكف فيها مئات الطلبة لسنوات ولا يخرجون، يبقون فيها عشر سنوات إلى عشرين سنة، لا أحد يعرف من أين جاءوا، ولا إلى أين يذهبون، يقال إنهم موجودون في النهار لكنهم يختفون في الليل، وحين يزور أحدهم المدرسة نهارًا لا يجد سوى تكية الشيخ الجليل ذي الكرامات، ولا أدري إن كان هو ساحرًا أم لا؟!

كانت حواء تومرت تصغي إليها مثلما تصغي إلى قصة سمعتها عشرات المرات بل وهي تعرف عنها أكثر من راويها، فابتسمت لها وقالت:

- هناك قصص أخرى عنه، تكشف عن كراماته الجليلة، لكن السؤال هو: عماذا تبحثين أنت؟ ماذا تريدين؟

نظرت حواء ذو النورين بقلق إلى كوب القهوة أمامها مركّزة عليه وقالت:

- لا أدري، صدّقيني إذا ما قلت لك بأنني لا أدري ماذا أريد! ربما الهدوء، راحة البال، النسيان، الأمان، أريد أن أشعر بالأمان، أحس نفسي مطاردة مثل ذئبة جريحة، ربما أبحث عن شيء من السعادة!

أحست حواء تومرت بالتعاطف معها، وكان كلامها مسَّ وترًا في أعماقها فقالت بهدوء:

- أتعرفين، مرة قرأت لأحد المفكرين يقول فيما معناه إن هناك العديد من الدروب التي يمكن أن تقودنا إلى ما نسميه السعادة، لأن كل الأشياء التي سمّيتها أنت: الهدوء، راحة البال، النسيان، الأمان، هي التي تشكل جوهر السعادة، فالسعادة ليست بالضرورة إشباع الحاجات واللذات، وإنما توفير راحة البال والأمان، والإنسان يسعى في حياته إلى كل ذلك، لكنه لا يضمن دربًا واحدًا يقوده إليها فعلًا، وكل الفلسفات والأديان لا تضمن ذلك، فإرادة الخالق القدير لا يفهمها سواه، لذا يجد البشر في التسليم بإرادة القدير نوعًا من الأمان، بل وحين يبالغون في التسليم يشعرون بالسعادة.

سكتت حواء ذو النورين للحظات، كانت تفكر فيما قالته جليستها، ثم قالت:

- ليس لدي أي اعتراض على إرادة القدير، وأسلمت له مصيري، لكني ما زلت قلقة، خائفة، مرعوبة من شيء مجهول! لماذا حصل معي ما حصل؟ لماذا كُتب عليّ هذا المصير!

نظرت حواء تومرت إليها متأملة وكأنها تدرس معاناتها وشخصيتها وقالت:

- سأقول لك شيئًا صديقتي، ولا تزعلي مني!
- قولي، لن أزعل.
- أعتقد أنك جئت إلى هنا خطأً، ربما هروبًا من نفسك، وليس بحثًا عن ذاتك!

نظرت حواء ذو النورين لجليستها للحظات وكأنها تريد أن تستوعب جملتها.. لكنها لم تفهم بالضبط ما قالته فسألت:

- لم أفهمك جيدًا!
- كلامي واضح جدًّا، أنت تهربين من نفسك، لا تريدين أن تعرفي نفسك، لا تبحثين عن ذاتك وتواجهين نفسك بما أنت عليه وما هي عليه!

أحسّت حواء ذو النوريين بشيء من الإهانة..فقالت بنبرة فيها عتاب وانكسار:

- أنا تعبت من المواجهة! لكني عانيت كثيرًا، ولا أدري إن كنت قد عانيت مثلي، ربما لو كنت مكاني لهربت من نفسك أيضًا؟!

ارتبكت حواء تومرت من هذه المواجهة قليلًا، وقالت بنبرة فيها تبرير وموافقة ضمنية:

- ربما، بالتأكيد أنا لم أمر بتجربة مثل تجربتك المأساوية، ولا بمعاناة مثل معاناتك، لكن ما مررت به دفعني للبحث عن ذاتي لا أن أهرب منها! والحقيقة حياتي عادية جدًّا قياسًا لما أخبرتني به إلى الآن! حياة تكاد تكون غير مهمة، لكنها بالنسبة لي حياتي، وذاتي، وربما حياتي العادية لا تعني أنها رخيصة ولا تستحق البحث عن ذاتي! لذا التحقت بالشيخ المبروك صاحب الكرامات، وقبلني أن أكون من مريديه!

شعرت حواء ذو النورين بشيء من الحرج وقالت:

- لم أقصد التفاضل بيننا، وإنما أردت أن أعرف الفرق الدقيق بين الهروب من النفس والبحث عن الذات!

تقبّلت حواء تومرت ما قالته صديقتها بود وتعاطف وقالت لها:

- سأحكي لك قصتي العادية، وستعرفين أن لكل منا معاناته مهما كانت بسيطة، ولكل من طريقه نحو ذاته، ونحو القدير!

صمتت حواء ذو النورين ولم تعلّق، وقالت:

- أنا حواء تومرت، ولدت لامرأة لا تحب زوجها، زوجوها عنوة، فقد كانت أمي لا تحب أبي على الرغم من أنه كان يفعل كل ما تريد وترغب وتشتهي، ومع أنه كان متوسط الحال فإنه عمل المستحيل من أجلها، أما بالنسبة لنا أولاده فلم يستطع أن يوفر لنا كل متطلبات حياتنا، وللإنصاف، أمي أيضًا كافحت معه، خاصة بعد أن مرّ بظروف صعبة وتأزم نفسيًّا، بسبب مغادرته عمله ومصدر رزقه. حينها كنا صغارًا، سأتحدث عن نفسي فقط، بالنسبة لي درست الابتدائية والإعدادية في مدرستين قرب منزلنا، وبحكم ظروفنا المادية فلم أتمكن من الحصول على أغلب الأدوات المدرسية! في الإعدادية كان بعض الأساتذة يساعدونني لأني كنت مجتهدة ولا أتغيب عن المدرسة مهما حصل، أما في المرحلة الثانوية فقد غادرت المنزل إلى مدينة بعيدة جدًّا كي أدرس في الثانوية التقنية، كنت حينها مليئة بالأحلام! كنت أعيش في منزل داخلي، وأوفر معيشتي بالعمل في أحد مقاهي الإنترنت، والمعيشة هنا لا تعني الأكل، وإنما توفير مصاريف التنقل والدفاتر والأدوات، وحين تخرجت من المرحلة الثانوية

بنقطة لا بأس بها ظهر قبولي بإحدى مدارس الهندسة، كان اسمي في اللائحة الرسمية، وهذه المدرسة كانت في مدينة الدار البيضاء! اعذريني إذا وجدت عدم ترابط في سردي لحكايتي، ولكني سأروي لك أهم مفاصلها.

نظرت حواء ذو النورين إليها ولم تعلق سوى بكلمة بالكاد سمعتها الأخرى:

- أنا أسمعك.

- في اليوم الذي رأيت فيه اسمي في الإعلان عن قبولي في مدرسة الهندسة كان اليوم ما قبل الأخير لدفع الملفات والوثائق الرسمية، لم يتوفر لدى أهلي مبلغ التنقل، في اليوم الثاني سألت جيراني كي يقرضوني مبلغ التنقل فحصلت على مبلغ 150 درهمًا، ووصلت الدار البيضاء، وذهبت من محطة القطار إلى المدرسة مباشرة، كنت وحيدة، كل الطلبة جاءوا مع آبائهم، كلهم كانوا أنيقين، بينما جئت أنا بلباسٍ بالٍ يكشف عن فقري وفقر عائلتي، لم يعرني أحد اهتمامًا هناك، كنت أسأل إلى أين أذهب؟ وماذا عليّ أن أفعل! فكان كل شخص يرشدني إلى جهة مختلفة، لكني وبعد حيرتي ويأسي من الآخرين دخلت أحد المكاتب التي بدا لي أنه ذو علاقة بما جئت من أجله، ووجدت في المكتب امرأة عرفت أنها السكرتيرة لأنها كانت تجلس حول مكتب جانبي، ورجل يتصدر المكتب، استغربا دخولي عليهما بهذه الهيئة، لكني لم أبالِ لنظراتهما فشرحت لهما حالتي، فقال لي الرجل المسؤول: اذهبي الآن وتعالي في الغد، فقلت له هذا غير ممكن فاليوم هو آخر أجل معلن لتسلّم الملفات، فقال لي بنبرة فيها انزعاج وغضب غير معلن: الآن ليس لدينا وقت، ولا بد أن تذهبي الآن وتأتين غدًا، فقلت له أنا جئت من مدينة بعيدة، وليس لدي مكان أذهب إليه لذا أرجو منكما أن تأخذا ملفي اليوم، فرفض الرجل المسؤول وقال لا بد أن تذهبي اليوم وتعودين غدًا، فذهبت إلى المحطة، وجلست هناك ليلة كاملة، دون نوم، وفي الصباح عدت إلى المدرسة، وذهبت إلى مسؤول المكتب الذي كنت عنده أمس، وحين طلبت استلام ملفي، قال لي الآن انتهت الآجال لاستلام الملفات، توسّلت إليه وأخبرته بأنه هو من طلب مني الذهاب والعودة اليوم، فأنكر ذلك، توسلت إليه، فقال بلا خجل أو تردد: هل يمكنك أن تدفعي

رشوة. كانت تلك الجملة صادمة بالنسبة لي، كنت مرتبكة، ولم تكن لدي تجربة بمثل هذه المواقف، فلم أعرف كيف أجيبه، حركت رأسي بالإيجاب، لاحظ هو الدهشة على وجهي، وقبل أن يغادر المكتب وقال: اذهبي يا ابنتي، لدينا رقمك، وإذا لم يلتحق أحدهم في لائحة الانتظار سنعيد الاتصال بك!

(صمتت للحظات وكأنها تستذكر المشهد، وواصلت)

- خرجت مذهولة. وصلت باب المدرسة، لكني كنت أريد التسجيل بمدرسة الهندسة، فعدت إلى المكتب، كانت السكرتيرة وحدها، فقلت لها أريد السيد المسؤول عن الشعبة، سألت: لماذا؟ قلت لأسأله كم عليّ أن أدفع رشوة! قالت لي باسمة: هو كان يمزح معك، اذهبي الآن، حتمًا سننتظر إلى أن نتوصل بكل طلبات لائحة الانتظار وإذا لم يأت أحد سنتصل بك! عدت خائرة القوى إلى المحطة! لم أشأ الرجوع إلى مدينتي لأن أهلي لن يصدقوا قولي، فذهبت إلى الجامعة في المدينة لأقدم ملفي، فلم يقبلوا طلبي، كنت بليدة لا أفهم شيئًا مما يدور حولي في هذا العالم! حينها كنت في التاسعة عشرة من عمري، حاولت الالتقاء بالعميد لكن كان ذلك شبه مستحيل، فهو إما غير موجود أو في اجتماع! بحثت عن عمل في المدينة، فوجدت العمل لكن كان من الصعب أن أجد سكنًا، عملت نادلة في مقهى، دون علم عائلتي، كنت أغسل الأواني حينًا، وحينًا أقدم القهوة، وكل خميس لدي يوم راحة، فكنت أذهب في كل خميس لمقابلة العميد، لكن دون جدوى، وكما قلت لم يكن لدي سكن، لذا كنت أنام في المساجد، لا أصلي التزامًا، لكني من أجل أن أحصل على مكان للمبيت كنت أصلي صلاة العشاء في المساجد، وفي كل مرة أصلي في مسجد مختلف كي لا ينتبه لي أحد، وكنت أختفي في المرافق إلى أن يغلق باب المسجد. أهلي ظنوا أني أدرس، أثناء عملي تعرضت للتحرش من قبل رواد المقهى لكني لم أعر ذلك اهتمامًا كبيرًا، كان هدفي أن أقبل في الجامعة. المهم، في أحد الأيام حصل لي شرف لقاء العميد، لكنه قال لي لا يمكنك التسجيل في جامعتنا، أنت من منطقة ورزازات وقبلوكم في جامعة أغادير، ثم إنك تأخرت عن موعد التسجيل، فخرجت أبكي، وشاءت المصادفة أن

ألتقي أحد أساتذتي، كنت قد درست عنده الفيزياء في الإعدادية، فسألني عن سبب بكائي، فأخبرته بقصتي وبجواب العميد، قال لي إنه يحضّر دكتوراه في الكيمياء لكن في القنيطرة، ويعرف المسؤول عن شعبة الكيمياء هناك، وسيتكلم معه غدًا إذا وصل القنيطرة، وكان عند وعده، ففي الغد اتصل بي أستاذي وقال لي إنه الآن في القنيطرة وقد تحدث مع مسؤول الشعبة، وطلب مني أن أحضر في الغد صباحًا للتسجيل. فرحت كثيرًا، لم أنتظر، طلبت من صاحب المقهى أن يسلمني أجري، واتجهت إلى القنيطرة، استأجرت غرفة عند أسرة لمدة شهر. في الصباح اتجهت إلى الجامعة، دفعت طلبي فقُبل بسرعة، لم ألتقِ برئيس الشعبة، لكن ما أن دفعت طلبي في مصلحة الشؤون الطلابية حتى تم قبوله بسرعة، حتى أنهم سألوني عن المنحة مع أني نسيت أمرها! وهكذا بدأت الدراسة في شعبة الكيمياء. (ابتسمت لحواء ذو النورين قائلة بمزاح)، أنا متخصصة في الكيمياء، كنت سعيدة، فأنا أسكن في غرفة مع أسرة طيبة، يأتي إليّ في غرفتي أطفالهم فألعب معهم وأساعدهم في الدراسة من دون مقابل، مما جعل الأسرة أن تعتبرني فردًا منهم، وتنازلوا عن الإيجار مقابل أن أقوم بتدريس الأطفال عند عودتي إلى البيت، لأني أيضًا كنت أعمل مع اتصالات المغرب وأتنقل كثيرًا للإشهار، لكن بعد خمسة أشهر فقدت بطاقتي الشخصية! وانتظرت مجيء العيد لاستحصال بطاقة جديدة من مدينتي، فذهبت في العيد إلى أهلي، وأول شيء طلبته هو بطاقتي التعريفية، فسألتني أمي أين ضيعتي بطاقتك فقلت في الحافلة فقالت غاضبة: تكذبين، وأعطتني ظرفًا وصلهم من مكتب بريد بالقنيطرة، وفيه بطاقتي! وسألتني كيف وصلت بطاقتي إلى القنيطرة، فوجدت نفسي أروي لها حكايتي وكيف بدأت الدراسة بالقنيطرة، فقالت لي: ستعودين للبيت ولن تكملي الدراسة، وفعلًا ذهب أبي إلى الجامعة وسحب ملفي، وهكذا عدت إلى مدينتي، وجلست لمدة سنة في البيت، تأزمت نفسيتي كثيرًا، لاحظ أهلي ذلك، فبعثني أبي إلى إحدى الإدارات بمدينة تيزنيت لأتدرب فيها، وقضيت هناك عشرة أشهر، وبعد ذلك درست بإحدى المدارس الخصوصية لمدة خمسة أشهر كتدريب، لكني ودون علم أهلي سجلت في جامعة أغادير بعد أن توسط لي أحد الأساتذة الذي

تعرفت عليه في مكان ما مصادفة، وهكذا دخلت جامعة أغادير ودرست لمدة سنة، لكن الغريب كانت درجاتي ضعيفة في المواد التي كنت أحصل فيها على أعلى الدرجات سابقًا، كانت صدمة، ظننت ثمة خطأ ما، قدّمت طلبًا لإعادة تقويم إجاباتي، فلم أتلق جوابًا، كانت صدمة قوية أخرى، تأزمت فغادرت الجامعة، كان أهلي لا يعرفون أنني أدرس في أغادير وإنما كانوا يظنون أني أعمل في تيزنيت، بعد ذلك سجلت بالمعهد المتخصص بمهن السينما في ورزازات، درست في المعهد ووفقت بين العمل والدراسة. حصلت على الدبلوم، بعدها درست المسرح، وحصلت على الإجازة المهنية في التنشيط الثقافي والمسرحي وامتياز، كل هذا أتنقل بين أعمال مختلفة، منشطة ثقافية، إشهارية، نادلة في مقهى، منظفة في فندق أو مطعم! عاملة تقنية في السينما، عاملة فلاحية بإحدى الضيعات، وأخيرًا تم قبول في المركز الجهوي لمهن التربية والتعليم، درست لمدة سنة، وتخرجت، بعد التخرج بدأت أعمل معلمة للأطفال في مدرسة بعيدة، في قرية ما، كل هذا أعتبره بحثًا عن الذات، فأنا لم أستقر بمهنة أو دراسة وتنقلت بين مختلف المهن، ولم أستقر. عدم استقراري هو جزء من بحثي عن ذاتي، بعد استقراري في عملي الخير، فرضت أمي عليّ تحمّل نفقات عملية تجميلية لأختي التي احترق جزء من رأسها قبل سنوات، فأخذتُ قرضًا، الطبيبة قالت إن أختي تحتاج لعمليتين! أجرت العملية الأولى، وانتظرت كي تسترجع قواها لإجراء العملية الثانية، وخلال هذه الفترة تعرض أبي لجلطة دماغية! نقلوه إلى المستشفى، لكن بعد إجراء العملية له جاءت الفاتورة وفيها عشرون ألف درهم، ولم أكن أتوفر عليها، طلبت من إحدى صديقاتي الأجنبيات أن تعيرني المبلغ وفعلًا بعثت لي المبلغ! صار لدي قرضان أحدهما للبنك والآخر لصديقتي الأجنبية، وإلى الآن أنا أدفع لتسديد هذين القرضين، إلى جانب أنني كفيلة بأخوتي ومصاريفهم، وهذا ما أزعج زوجي، ربما لم أخبرك أنني متزوجة، ولدي أربعة أخوة وأختان، واحد من أخوتي يعمل فقط، وهو متزوج، لكنه لا يعير أهلي اهتمامًا، هذا الآخر تزوج قبلي مع أنه أصغر مني، أحس بالغبن أحيانًا لكني لا أستطيع أن أرفض طلبًا لعائلتي، أما زوجي فهو معلم مثلي، لكن لا قروض لديه، لكنه مسؤول عن

أمه وأخته وأخيه، لذا أحيانًا أساعده هو أيضًا حين يمر بأزمة ما! ويحصل أن يرد ما أعطيه له بعد فترة، وربما ستستغربين إذا ما قلت لك إننا متزوجان لكننا لا نعيش معًا، ولا نلتقي أحيانًا لثلاثة أشهر متتالية، هو يعيش بمدينة صحراوية بعيدة وأنا بأخرى ونبعد عن بعضنا مئات الكيلو مترات، بيننا الهاتف والواتساب والفيسبوك! هل تشعرين بالملل من حكايتي العادية، فأنت ترين حياتي عادية جدًّا جدًّا، ومملة.

شعرت حواء ذو النورين بالحرج وقالت بنبرة فيها تعاطف:

- لا، أبدًا، على العكس، أرى أنك فعلًا مررت بمعاناة تحاولين أن تستصغريها، بلهجتك الساخرة، فمعاناتك كانت أيضًا كبيرة في تلك المواقف واللحظات التي مررت بها.
- شكرًا على تعاطفك، لكني لم أكمل لك الوجه الآخر من حكايتي، سأتحدث عن الجانب الآخر من شخصيتي.
- وأنا أسمعك.

قبل أن تواصل حكايتها انتبهت حواء ذو النورين إلى صديقتها فلاحظت أنها تنظر إلى مدخل الصالة، ولا إراديًّا التفتت إلى الخلف فرأت الرجل الأشقر الوسيم جالسًا بمفرده حول طاولة لأربعة أفراد، وكان ينظر إليهما، فوجئت، وقبل أن تسأل عنه سمعت صديقتها تواصل حكايتها، فأجلت سؤالها.

- بالنسبة لي أنام بشكل عادي، وقلما أحلم، لكن هناك حلم وحيد يتكرر منذ طفولتي وهو أنني حينما أقع في مأزق ما، أرى أن جماعة مجهولة تلاحقني فأجري وأجري، ثم مثل الطائرة، أبدأ شيئًا فشيئًا بالتحليق والطيران دون إرادة مني، بينما هؤلاء يركضون خلفي لكنهم لا يستطيعون اللحاق بي، ومع ذلك أخافهم لأن أيديهم أحيانًا تمتد لعشرات الأمتار محاولة الإمساك بي، فأرتعب، وأطير مرعوبة. الطيران في الحلم يلازمني منذ سنوات طويلة، أطير وأطير، لكني أحيانًا أخاف الارتفاع فأصرخ بأيٍّ كان كي يمسك بي ليعيدني إلى الأرض، وعادة ما تكون أمي من تمسك بي، وفي الفترات الأخيرة قلت رؤيتي لمثل هذه الأحلام، أو الكوابيس، وحدث ذات مرة أن رويت حلمًا غريبًا رأيته

في المنام لأحد المفسّرين المعروفين في مدينة قريبة فقال لي: أنا لا أفسر لك الحلم إلا إذا اعترفت بأنك زنيت مع قريب لك! عجبًا، لم أعترف بشيء لم أقم به!، لكن الحلم كان غريبًا حقًّا، كنت في الحلم مع زوجي في غرفة نومنا، فجأة نظرت إلى فخذي فوجدت فيه ثديًا، فقلت لزوجي: انظر، يوجد ثدي في فخذي الأيسر، ولم أتذكر بقية الحلم!، انتبهت لنفسي وأنا أسترجع حياتي بأنني أتحول بسرعة في ذائقتي، فمثلًا صرت أحب اللون الأبيض المائل إلى الاصفرار، وكذلك اللون الأحمر الغامق، والأخضر الغامق إلى جانب الأبيض والأسود، بينما كنت أحب الأبيض والأسود فقط، بل صرت أحب الألوان المتناقضة، الأزرق السماوي والرمادي، مثلًا! والغريب عندما أشتري ملابسي بلون معين فأنا أشتري كل ملابسي الداخلية من ذلك اللون. سأخبرك سرًّا، في طفولتي وصباي ومراهقتي تعرضت إلى تحرش جنسي من قبل أخي الذي يصغرني بسنتين، فمنذ أن كنت في التاسعة بدأ يتحرش بي، يأتيني في الليل ويحاول أن يلتصق بي ويرفع ثوبي، وكنت أصده، لكن لا أخبر أحدًا، استمر الحال لست سنوات تقريبًا، كنت أضربه لأني أقوى منه بدنيًّا، وأتشاجر معه، دون أن يعرف أحد السبب، وكنت أهدده دائمًا بأن أخبر أمنا، لكنه كان مدلل العائلة، لذلك كان ينتقم مني نهارًا، وكانت إلى جانب أمي تقف أختي التي تكبرني بخمسة أعوام تدافع عنه، لكني انتبهت وعرفت أنه تحرش بأختي الأصغر عمرًا مني ومنه، وتجرأ معها أكثر، وحينما اشتكت لي أختي، ذهبنا كلانا إلى أمي وأخبرناها بما يجري، لم تصدّقنا، وقالت بأننا نغار منه وتآمرنا عليه! أختي أخبرتني كيف طلب منها ذات ظهيرة أن ينام معها! كانت هي في المطبخ فخافت وجاءت عندي مذعورة، وحينما ألححت بالسؤال أجابتني، وأخبرتني بكل شيء! ما أخبرنا به أمي هزّ أركان منزلنا لكن أمي اتهمتنا، فطلبنا منها أن نعمل اختبارًا بحيث تنام هي في مكان أختي لترى كيف سيتحرش بها، وافقت، لكنها لم تفعل وإنما ذهبت لأخي وأخبرته بالاتفاق، فأخذ يبكي أمامها، لكن لا أعرف ماذا جرى لأنها رجعت واتهمتنا بأننا نتآمر على أخي، فاعتزلتهم جميعًا، ولم أعد أكلّم أمي ولا أبي أو أي فرد في العائلة، لم أخبر أبي لأني كنت أخجل منه. المهم، حصل أني غادرت المنزل في تلك الرحلة

التي رويتها لك، أخي هذا متزوج الآن، الغريب، أمي كانت تكره أبي، ويوميًّا كانت تلعن أمها التي زوجتها لهذا الرجل وضيعت حياتها معه، وكثيرًا ما كانت تقول ذلك بحضوره، وربما هي أيضًا تعرضت لتحرش جنسي في طفولتها، لأنها لم تستنكر ما سمعته مني ومن أختي وإنما رفضت الاستسلام وتقبل ذلك! في مدينتي التي فيها أهلي أردت أن أعيش تجربة حب، لم أحب أحدًا، ولكن لأن جميع الفتيات لديهن أصحاب من الشباب فقد وافقت أن أصاحب شابًّا، لم أود أن أبدو شاذة أمام صديقاتي، استمرت علاقتي بهذا الشاب لأشهر، لم تحدث بيننا أية ملامسة، لكني تركته لأنه تجرأ وقبلني عندما كنا نتمشى ذات يوم في مكان مفتوح، تركته لشهر إلا أنه تقدم لخطبتي من أهلي، ووافقت تحت إصرار أمي، لكنه منذ يوم خطوبتنا صار شرسًا، وأراد بحكم أنه خطيبي أن ينام معي، ففسخت الخطوبة، إلى أن حدث أن التقيت زوجي هذا، في فعالية ما، وأحببته فعلًا، لأنه كان مختلفًا، مثقفًا، وذا أفكار متحررة، ويحلم بوطن تسوده العدالة الاجتماعية والمساواة، عالم المرأة فيه متحررة، لكن حتى هذا الأمر صرت أشك فيه! ففي فترة خطوبتنا، صارحته بعلاقتي السابقة، إلا أن خطيبي السابق شعر بالغيرة، وأراد الانتقام مني، فأخذ يهددني بأن ألتقيه، فلم أستجب له لأنه ليس هناك ما يخيفني في علاقتي به بحيث يهددني، بيد أن هذا الخبيث أرسل لخطيبي الجديد رسالة هاتفية أخبره بأنه نام معي، وكنا قد عقدنا قراننا بالمحكمة، أي صار زوجي، وحين قرأ زوجي التقدمي والمتحرر الرسالة صدقه وكذّبني، لكننا كنا قد عقدنا القران، واحتجت لأطنان من كلمات القسم كي أثبت له بأن خطيبي السابق كذاب وأني بريئة! بل وتبين انزعاجه وتناقض التزامه الفكري حينما طلبت المحكمة بيان صحي بعذريتي، فذهبنا إلى عيادة نسائية لطبيبة عرفنا اسمها من صديق له، وحينما كنا هناك فوجئنا بأن الطبيبة مجازة ويقوم بالفحص مكانها زميل لها، ولأن الوقت كان ضيقًا بالنسبة لخطيبي الجديد كي يستكمل إجراءات الزواج لذا وافق على مضض، بل وظل لشهور عديدة يتأسف بأن هناك من رآني غيره، ولمس ما لدي! بل وحينما نتشاجر كان يذكرني برسالة خطيبي الأول! كنت كلما أحادثه هاتفيًّا أشعر بمهانة كبيرة ومذلة شديدة لكني كنت أدوس على نفسي ومشاعري، وأصطنع

لنفسي حالة العاشقة المولهة التي تعشق برومانسية، لكنني في أعمق أعماقي لست كذلك! ومع ذلك أنا أحبه. أحيانًا كنت أسأل نفسي: هل أنت سعيدة يا حواء، وكنت أسمع نفسي تجيبني، لا أدري... أظن أنني أخلق لنفسي وهم السعادة، بأنني معلمة، ولدي مرتب لا بأس به قياسًا لمصروفي في هذه القرية، وأنني متزوجة قياسًا لمئات الألوف من العوانس، علمًا أن حياتي بهذه الطريقة لا تحسب زواجًا أبدًا، فهي أشبه لصداقة من أجل الجنس لأننا حين نلتقي كل شهرين أو ثلاثة لأيام قليلة معدودة لا نتحدث خلالها بشيء مهم وإنما لا نغادر الفراش تقريبًا! بل الغريب إنني أحسست بميلي نحو النساء، لدي رغبة في أن أنام مع امرأة، ألامسها، وأداعبها! أحب أن أكون إباحية لكن مع نفسي فقط، في مخيلتي وأعماقي! أحيانًا أميل إلى التصوف، لا سيما حينما صُدمت بغيرة زوجي المتحرر ونصير العدل والمساواة. ذات مرة تشاجر معي شجارًا عنيفًا وهددني بالطلاق لأنه قرأ تعليقًا على منشور لي في الفيسبوك من قبل ابن خالتي، وأنا أجبته بتحية وأدب، زوجي اعتبر ذلك خيانة له، وطلب مني إغلاق حسابي على الفيسبوك! هذا هو اليساري التقدمي الذي يحمل أمل تحرير الأمة والشعب! لكني من جهة أخرى ذات كبرياء عالية، أحب ذاتي، لا لأنها مهمة ومتميزة، وإنما لأنها مرت بطريق طويل من أجل أن تتشكل ولا تضيع في الطرقات والدروب الوعرة. منذ لحظة تهديد زوجي لي بالطلاق وإصدار أمره بإغلاق صفحتي على الفيسبوك بدأت رحلتي مع ذاتي، وجدت أنني أستطيع العيش دونه، وجوده معي صار يتجسد في المتعة الجنسية، وفي قناع الحماية الاجتماعية بأنني متزوجة، وهذه نعمة في مجتمع مليء بالمطلقات والعوانس والأرامل، لكن انتبهت إلى أن هذا لا يكفيني، فتوجهت لكتب السحر والتصوف، وغرقت في كتب ابن عربي وأشعار الحلاج، و"منطق الطير" لفريد الدين العطار النيسابوري، ورسائل شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي، والألواح الأمازيغية التي لدينا، وذات ليلة تراءى لي نور أخضر على سفح الجبل القريب من القرية التي أعمل فيها معلمة، بدا لي وكأنه إشارة روحانية خاصة، فقد كان النور الأخضر يتلألأ، بل دخل من شباك غرفتي المطلة على سفح الجبل فأضاء الغرفة، فلبست ثيابي، وتنعلت، وغادرت الغرفة متجهة نحو

النور الأخضر، كنت كالسائرة في النوم، مأخوذ بجذوة روحية، مشدودة للنور الأخضر، وكنت كلما أقترب من مصدر النور أراه يخفت قليلًا، ويصغر شيئًا فشيئًا، وحين وصلت لم يكن هناك نور أخضر، وإنما رأيت الشيخ المبروك ذي الكرامات جالسًا وهو يطالع مخطوطًا قديمًا يحمله بكفيه! وكان يردد بيتًا شعريًّا ويكرره:

لأنوارِ نورِ النورِ في الخلق أنوارُ     وللسر في سرّ المُسرّين أسرارُ.

صمتت لثوانٍ وكأنها تريد أن تتأكد من تأثير حكايتها على حواء ذو النورين، وبعد لحظات واصلت:

- وحين انتبه لحضوري، لم يتوقف عن القراءة، وإنما واصل الدعاء: "يا قيّوم الملكوت، الظلامُ أحاط بي، وحيّات الهوى قصدَتني، وعقاربُ الدنيا لسعَتني، وتماسيح الشهوات لدغتني وتركتني بين خصومي غريبًا. يا أرحمَ عليّ من أبويّ، أنقذني وخلصني من سخطك. أدعوك يا رب بأنين المذنبين، أدعوك يا رب بتأوّه المجرمين، أناديك يا رب نداء غريق في بحر الطبيعة، هالك في مَهْمَهِ الشُّبُهات. ها أنا مطروح على باب كبريائك. أيحسن من لطفك رد الفقير خائبًا؟ أيليق بجودك طردُ الكئيب قانطًا؟ كل عبد إذا استجار بمولاه أجاره. فما لعبدك قد استجار فلا تجيره؟، يا من قذف نوره في هُويّات السابقين، وتجلّى بجلاله على أرواح السائرين، وانطمس في عظمته ألبابُ الناظرين. اجعلني من المشتاقين إليك، العالِمين بلطائفك، يا ربّ العجائب، وصاحب العظائم، ومبدعَ الماهيات، وموجدَ الأنيَّات ومُنزِل البركات ومُظهِر الخيرات، اجعلنا من المخلصين الشاكرين الذاكرين الذين رضوا بقضائك، وصبروا على بلائك. إنك أنت الحي القيّوم، ذو الحول العظيم، والأبدي المتين، الغفور الرحيم".
- ما أجمل هذا الدعاء !!. علّقت حواء ذو النورين.
- نعم، وكان يقوله بخشوع كبير، وصدق، ثم التفت ونظر إليّ نظرة أبوية رحيمة، وقال لي: أنت يا ابنتي في أول الطريق، فالمدينة واحدة، والدروب كثيرة، والطرقات ما زالت مسدودة، فأنت في أول الدرجات! فقلت له: أيها الشيخ الجليل، يا صاحب الكرامات، أعطني كلمة واحدة، مفتاحًا للسر كي أسير في

دربي، فابتسم لي بطيبة منحتني ثقة بنفسي، وقال: كل الكلمات: هو، أنت، أنا. وكلها تغرق في بحر الفناء، فلا أوامر ولا نواهي، قلت: أيها الشيخ المبروك، لم أفهم، نوّر قلبي من علمك الرباني، فقال لي: ثمة أربع درجات نحو الكمال: أولًا ـ درجة من يقولون: "لا إله إلّا الله"، وهي درجتك، ودرجة سائر الناس ممن لا يضيفون الألوهية إلّا إلى الله، ثانيًا ـ من يقولون: "لا هو إلّا هو"، وهؤلاء ينفون عن "الهو" الإلهي كل أنواع "الهو"، أعني لا أحد غيره "هو" يقدر أن يسميه "هو" لأن كل "هو" يصدر عنه ويُشتق منه، وثالثًا ـ من يقولون: "لا أنتَ إلّا أنتَ" وهؤلاء هم الذين لا يسمّون الله بضمير الغائب وكأنه شيء غائب، وينكرون كل "أنت" تريد أن تشهد على نفسها بهذا! ورابعًا وأخيرًا ـ من يقولون: "لا أنا إلّا أنا"، وهؤلاء يلغون الخطاب، لأن كل من يُخاطب تقوم بينه وبين من يخاطبه مسافة، ولهذا يرون أن الصيغة المثلى للتوحد هي "لا أنا إلّا أنا"، وهي صرخة الحلّاج، لكن شاعرًا هنديًّا اسمه "صاحب" اعترض على صرخة الحلّاج، وقال إن من يصل لا يصرخ ولا يشهر عن نفسه وعن بلوغه السر، فالأجراس تصمت حين تصل القافلة. فارجعي يا ابنتي، وابحثي في نفسك عن النور، فقلت له يا سيدي، أريد أن أتبعك، فقال لي، تستطيعين يا ابنتي أن تطوفي في عالم الأنوار وأنت في غرفتك! ابحثي في ذاتك عن ذاتك، وارتقي في مراتب الوجد والكمال، ولن أتركك! وها أنت ترينني جالس هنا، فنحن في مجلسه!

كانت حواء ذو النورين مأخوذة بما روته عن حلم الطيران، فقد عاشته هي حينما طارت في الرابعة عشرة من العمر حينما حلّقت ليلًا فوق سماء بغداد، لكن كان ذلك بإرادتها ولم تكن مطاردة من قبل أحد!..وأيضا كانت تشعر بجذوة هذه اللغة الصوفية التي سمعتها، ومكابدات هذه المرأة في بحثها عن ذاتها! لكنها كانت تريد أن تسألها عن الرجل الأشقر الوسيم الذي انتبهت له قبل أن تواصل حكايتها لذا سألتها:

- هل تعرفين ذلك الرجل الأشقر الذي يجلس حول المائدة في عمق الصالة وحيدًا!

رفعت حواء تومرت رأسها ومالت به جانبًا وهي تتطلع في القاعة، ارتسمت ملامح الدهشة على وجهها وقالت:

- لا أرى أحدًا، ليس هناك رجل أشقر يجلس وحيدًا حول أية طاولة!

التفتت حواء ذو النورين بدهشة وهي تقول:

- كيف؟ كان هنا قبل قليل، وأنا التفت إليه بعد أن رأيتك تنظرين إليه! لكنه الآن غير موجود، أنا رأيتك تنظرين إليه.
- أنا!
- نعم.. أنت..!.
- لم أر أي رجل أشقر يجلس هناك وحيدًا، وإنما رأيت النادل الذي كان يخدمك، وهو يحمل باقة غير عادية من الورود الجميلة لا أدري إلى أين حملها ورأيته يغادر الصالة وهو يحملها! وها هو، يدخل الآن دونها، يبدو أنه حملها لشخص ما، أوف، إنه يؤشر لي بذراعه، يناديني، عفوًا، عليّ الذهاب، سنلتقي بالتأكيد.

التفتت حواء ذو النورين لتتأكد مما تقول صديقتها، وفعلًا رأت النادل الذي يشبه ابنها، ورأت ظهر صديقتها وهي تتجه إليه، وخلال ثوانٍ صارت قربه، تحدثا، التفتا إليها، ابتسما لها وغادرا الصالة، بقت حواء وحيدة على كرسيها حول الطاولة، لكن انتبهت إلى أن الصالة كانت فارغة إلا منها، وكان بعض العاملين في المطعم يرفعون الشراشف عن الطاولات، فأسرعت بمغادرة الصالة، ولم تحتَجْ تلك المسافة التي قطعتها حينما دخلت، إذ وجدت نفسها قرب باب الصالة، فغادرت الصالة وفي نفسها هاجس غريب بأن أشياء غامضة تجري معها.

***

لم تخطُ حواء ذو النورين سوى خطوتين حين رفعت رأسها ورأت حواء الذهبي الغامضة جالسة في لوبي الفندق وأمامها كأس من عصير البرتقال، وعلى الصوفا القريبة المحاذية لباب صالة الطعام كان الشيخ المبروك صاحب الكرامات جالسًا وكأنه ينتظرها، احتارت هي من هذه المفاجئة، فهذه حواء الذهبي الغامضة التي صعدت الطيارة معها من باريس لكنها اختفت في صالة الوصول، وها هي هنا في الفندق نفسه الذي نزلت هي فيه! وأيضًا ها هو الشيخ المبروك يجلس وكأنه ينتظرها!

اقتربت كالمنجذبة نحو الشيخ المبروك الذي رفع رأسه إليها مبتسمًا وقال:

- أهلًا ابنتي حواء، دربك كان طويلًا وعسيرًا، وحزنك مستديم، اسمعي يا بُنيتي، "القلب يتغير، وقلب القلب لا يتغير، والحزن قلب القلب"، هكذا قال النفري، لا ضالة لك عندي يا بُنيتي، عودي لذاتك، فتشي عنها، لا تهربي منها، عودي لباريس، صديقتك إيفا مصابها جلل، وليلها بهيم، وهي تحتاجك، تحتاجك إلى جانبها!

ثم قام عن الصوفا وغادر القاعة دون أن يلتفت وراءه.

لا تعرف حواء ذو النورين ما الذي جرى لها، فقد تلبستها مشاعر جديدة، وكأن شيئًا انقشع من داخلها، فكرت للحظة بما قاله لها الشيخ المبروك، نعم، لقد صدق، هي حزينة جدًّا، كل مباهج العالم لن تغسل مرارة حزنها، لكن عليها أن تنسى هذا الحزن كي تتمتع بوجودها. لا، لا، ألم يقل الشيخ بأن الحزن هو قلب القلب! وهي تعرف بيتًا شعريًّا لنزار قباني بأن الإنسان بلا حزن ذكرى إنسان! لكن عليها أن تروِّض هذا الحزن، وتتصالح معه، كي تتصالح مع حياتها! كانت تحاور نفسها، فجأة تذكرت كلمات الشيخ عن صديقتها إيفا سميث التي قال عنها بأنها تحتاجها إلى جانبها، ومصابها جلل، ماذا يقصد بذلك! فجأة، وقبل أن تتجه إلى حواء الذهبي أخرجت هاتفها من حقيبتها الجلدية، اتصلت بصديقتها في باريس لكن الهاتف كان مغلقًا. حاولت مرة أخرى فكانت النتيجة نفسها.

التفتت إلى حيث تجلس حواء الذهبي، ابتسمت الأخرى لها ووقفت لها وهي تراها مقبلة عليها، وقبل أن تصل إليها بمترين انتبهت إلى الصوفا الفارغة، لم يكن هناك أحد، أحست بالخوف، الصدمة، لكنها تماسكت، فقد رأت ما يكفي من الغرائب والغوامض في هذا الفندق، انتبهت موظفة الاستعلامات إلى وقوف حواء ذو النورين المفاجئ، ظلت تنظر إليها، لكن حواء ذو النورين تداركت الموقف، وقبل أن تقترب حواء ذو النورين من مكتب الاستعلامات، رنّ هاتفها النقال، نظرت إلى شاشته فرأت اسم صديقتها إيفا سميث، ضغطت على زر استلام المكالمة فجاء صوت صديقتها المنتحب.

موظفة الاستعلامات رأت رد فعل حواء ذو النورين أثر استلام المكالمة، وسمعتها تقول:

- ماذا تقولين، متى حصل الحادث، يا إلهي، سأجيئك الآن، الآن فورًا.

وبدا عليها ما يشبه حالة الإغماء، إذ تحركت وألقت بنفسها على أول مقعد في بداية اللوبي، تحركت الموظفة من خلف مكتب الاستقبال واقتربت منها وهي تقول لها بقلق صادق:

- هل أنت بخير مدام؟ هل يمكنني مساعدتك!

نظرت حواء ذو النورين إليها نظرات تائهة وكأنها لا تستوعب الأمر، ثم انتبهت لنفسها، وترقرقت الدموع في عينيها مباشرة وسألت برجاء:

- هل يمكنك أن تساعديني في إيجاد رحلة إلى باريس الآن، فورًا، في هذا اليوم، صديقتي تواجه وضعًا مأساويًّا، ويجب أن أكون إلى جانبها، تعرض زوجها لحادث سير ومات ومعه ابنها الصغير! إنها منهارة، يجب أن أسافر إليها حالًا.

استمعت الموظفة إليها وبدا واضحًا أنها تعاطفت معها وقالت:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، لا تقلقي، سأحاول أن أجد لك رحلة اليوم، فالرحلات التي تتوجه لباريس كثيرة، أية خطوط جوية تفضلين.

- أية خطوط، لا يهم.

- هل تحتاجين شيئًا؛ ماء، عصير؟

- كأسًا من الماء إذا أمكن.

ذهبت الموظفة وجاءت بقنينة من الماء وضعتها أمامها، ثم سألتها:

- هل لديك تذكرة مُرجعة؟

- نعم.

وفتحت حقيبتها وأخرجت التذكرة، وسلمتهما لها، استغربت الموظفة حينما قرأت اسمها: إيفا بتروفنا تومانوفا، انتبهت حواء ذو النورين للموظفة وعرفت أنها ارتبكت من اسمها فقالت لها موضحة:

- هذه أنا، أنا روسية لكن أمي عراقية، لذا أتحدث العربية، لكن اسمي وجنسيتي روسية!

ابتسمت الموظفة بارتباك وقالت:

- لقد استغربت فعلًا، أهلًا بك، سأسعى أن أجد لك رحلة هذا اليوم، هل لديك مانع إذا ما كانت الرحلة ليلًا؟
- لا مانع، أفضل أن تكون بأقرب فرصة اليوم، يعني خلال الساعات المقبلة!
- سأسعى إن شاء الله!

ما أن استدارت الموظفة متجهة إلى مكتب الاستعلامات حتى غاصت هي في أعماق نفسها وذاكرتها، ونظرت إلى الجهة التي رأت الشيخ المبروك ذا الكرامات فيها فلم تجده لكنها تذكرت كلماته، "دربك كان طويلًا وعسيرًا، وحزنك مستديم، اسمعي يا بُنيتي: القلب يتغير وقلب القلب لا يتغير والحزن قلب القلب، هكذا قال النفري، لا ضالة لك عندي يا بُنيتي، عودي لذاتك، فتشي عنها، لا تهربي منها، عودي لباريس، صديقتك إيفا مصابها جلل، وليلها بهيم"، وسألت نفسها: "كيف عرف هذا الشيخ المبروك بأن صديقتي إيفا تمر بمصيبة! وما معنى، عودي لذاتك، عودي لباريس"، ولم تجد جوابًا.

وبعد دقائق، استوعبت الموقف، لكنها شكّت بأن الاتصال من صديقتها قد حصل، فنظرت إلى الهاتف النقال وأخذت تقلّب المكالمات الفائتة، وفعلًا وجدت اتصالًا من إيفا سميث!

قامت من مكانها، توجهت إلى مكتب الاستعلامات، كانت الموظفة تبحث في الكمبيوتر، التفتت إليها محاولة أن تطمئنها وقالت:

- أنا أبحث، هناك عروض مختلفة، سأرتب لك أفضل رحلة.
- ألف شكر لك، سأصعد لغرفتي لأرتب حقيبتي.
- سأتصل بك ما أن أحصل على رحلة قريبة جدًّا.
- سآخذ حقيبتي وأنزل بعد قليل.

واتجهت إلى الممر الجانبي حيث المصعد.

***

لا تعرف كيف وجدت نفسها في غرفتها. فالصدمة كبيرة. حاولت أن تتصل بصديقتها إيفا سميث لتواسيها أو تستفسر منها أكثر لكن الهاتف كان مغلقًا، أخذت تلقي

بثيابها في حقيبتها دونما ترتيب. وكذا مواد التجميل لملمتها من غرفة الحمام، وكانت تهم بإغلاق الحقيبة حينما رن هاتف الغرفة، فجاء صوت الموظفة:

- مدام، وجدت لك رحلة قريبة جدًّا، تنطلق بعد الثالثة ظهرًا بعشرين دقيقة، وهكذا سيكون لديك الوقت الكافي لترتيب وضع إقامتك في الفندق وأيضًا الوصول إلى المطار في وقت مناسب!
- طيب، أنا الآن نازلة، احجزي لي لطفًا على رحلة ما بعد الثالثة.

***

سلّمت حواء ذو النورين حقيبتها وأخذت بطاقتها من موظفة الخطوط، وقبل أن تصل إلى شباك تفتيش الجوازات ملأت بطاقة المغادرة، مرّت بمكتب تفتيش الجوازات، كانت الشرطية امرأة، نظرت إلى حواء ذو النورين، ودون أيّما تعليق ختمت جوازها وختمت على بطاقة المغادرة التي احتفظت بها.

دخلت إلى قاعة الانتظار، جلست على مقعد هناك، التفتت ناحية مكتب تفتيش الجوازات فلمحت حواء الذهبي عند مكتب التفتيش، انتظرت أن تنهي معاملة التفتيش وتدخل قاعة الانتظار لكنها لم تدخل، استغربت حواء ذو النورين الأمر، قامت من مكانها واقتربت من خلف مكتب شرطة الحدود ونظرت لطابور المسافرين إلى باريس فلم تجد حواء الذهبي بينهم.

لم يبق على الإقلاع سوى نصف ساعة، أخرجت جهاز الهاتف النقال وطلبت صديقتها إيفا سميث فرن الهاتف، وسمعت صوت صديقتها، وقبل أن تستفسر منها عن الحادث قالت لها بأنها الآن في المطار وستصل باريس في حدود الثامنة، وأن لديها عنوانها في باريس فلا تكلف نفسها، ستأتي إليها في التاكسي، ثم استفسرت منها تفاصيل ما جرى، وأحسّت بأن صديقتها حزينة ومنهارة لفقدانها ابنها وليس زوجها، وحين سألتها عن زوجها، وهل كانا وحدهما في السيارة، أخبرتها إيفا سميث بصوت لا أثر للحزن فيه، بأنهما لم يكونا وحدهما، فقد كان هناك شخص ثالث هي زوجته التي لا تعرف هي عنه شيئًا!

أحسّت حواء ذو النورين بالغصة، لم تستطع أن تواصل الكلام، كانت مصدومة أيضًا، وأدركت مصاب صديقتها إيفا سميث الجلل.

# البـــاب الســـادس

## الشفقة

دخل آدم بوناروتي إلى الفندق فواجهته إيفا مادهوري، كانت ابتسامة حزينة قد ارتسمت على وجهها لكن عينيها تألقتا حين رأته. عند مكتب الاستقبال كان ثمة نزيل إيطالي يبدو أنه لا يعرف المدينة يسألها عن كيفية الوصول إلى ساحة الكاتدرائية مشيًا على الأقدام، كانت هي تشرح له وتشير بذراعها بأن يمشي يمين الباب إلى أن يصل الشارع العام ثم يتجه يمينًا في الشارع العام الذي سيوصله إلى الكاتدرائية.

وقف أمامها ووضع لوحته على طاولة مكتب الاستقبال الأمامي، رفع القراص المثبت للأوراق على اللوح وسحب من تحت الورقة العليا ذلك التخطيط الذي رسمه لها، تألقت عيناها وارتسمت ملامح الإعجاب على وجهها الأنيق، وانقشعت عن وجهها الابتسامة الحزينة، وقالت له بنبرة مليئة بالفرح الطفولي:

- هذه أنا؟
- ومن تراها يمكن أن تكون؟ أجبها آدم بوناروتي بمرح.
- يا للروعة، شكرًا لك، يبدو أنك حفظت ملامحي في ذاكرتك جيدًا، لكن هل أنا حلوة هكذا فعلًا!
- في الواقع أنت أحلى..قال بنبرة مرحة ومشاكسة.
- شكرًا، لكني أريد أن ترسمني على لوحة كبيرة وبالألوان وليس تخطيطًا بالقلم.
- سيكون، حينما تودين ذلك!
- أود، من كل قلبي.

ومدّ لها بالتخطيط كي تأخذه، لكنها امتنعت عن ذلك وقالت له بخجل:

- لا أستطيع أن آخذه، اتركه عندك في شقتك.

فوجئ برفضها فسأل بفضول:

- لماذا؟

نظرت إليه مستغربة أنه لم يدرك السبب وقالت موضحة بارتباك:

- لأني لا أستطيع أن آخذه معي إلى البيت، سيسبب لي مشكلة كبيرة، ربما سأتعرض بعدها للضرب أو الطلاق.

نظر آدم بوناروتي إليها بإحباط وقال:

- فهمت، سأحتفظ به في شقتي.

- أحسن.

- لكن ما لي أراك حزينة!

ارتسمت ملامح الحزن على وجهها مرة أخرى، واختفت بهجتها، وقالت:

- لقد أخبرتك عن وضعي في البيت، وضعي سيئ جدًّا، لا أدري ماذا يطبخ لي زوجي مع صديقه المترجم، لكني فهمت بأن الحديث يدور عن زواج سري!.. وعن تلبس بالجن..ومحاولات لطرد الجن..و..

ولم تستطع أن تواصل حديثها، فأثناء ذلك وصل المصعد، القريب من المكتب، وخرجت زميلة لها وبيدها دفتر ملون، لم تكن التونسية التي رآها في المرة السابقة، وإنما بدا له أنها من أمريكا اللاتينية، أخذ آدم بوناروتي التخطيط وأدخله ضمن الأوراق المثبتة على اللوح، رأت آدم بوناروتي وزميلتها إيفا فأدركت بحسها الأنثوي أن هناك ما يربط بينهما، ابتسمت وهي تقترب من المكتب وقالت لإيفا مادهوري:

- المنظفة وجدت دفترًا مكتوبًا بلغة غريبة، أعتقد لغة عربية، أو فارسية، سنضعه في خزانة المفقودات، فربما يرجع صاحبة ويسأل عنه!

انبرى آدم بوناروتي قائلا:

- يمكنني أن أرى الخط، لأني أعرف العربية.

نظرت إليه الموظفة بتردد ووضعته أمامه، فتح آدم بوناروتي الدفتر فعرف أن لغة الكتابة هي العربية، وقال:

- إن الكتابة هي العربية، يعني أن صاحبها إما عربي أو أوروبي لكن أصله عربي.

نظرت إيفا مادهوري إليه بتساؤل وقالت:

- ألم تكن تسأل عن المرأة التي نزلت عندنا، الألمانية التي من أصل عربي!

ثم التفتت إلى زميلتها التي سحبت الدفتر، وسألتها:

- في أية غرفة وجدت المنظفة هذا الدفتر؟!

- في الطابق السادس.

كان آدم بوناروتي مندهشًا من تناسق المصادفات الغريبة، فسأل:

- هل ممكن أن أتصفح الدفتر مرة أخرى؟!

نظرت المرأتان لبعضهما البعض ومدت الموظفة الدفتر له قائلة:

- تفضل.

فتح آدم بوناروتي الدفتر فواجهته الجمل الأولى التي أدرك من خلالها أن الدفتر يعود إلى حواء الحلو الألمانية التي من أصل لبناني، "كل شيء بدأ من باب الفردوس"، نعم، " كل شيء بدأ من باب الفردوس"، إنها هي، لأن كل شيء بدأ من باب الفردوس، رفع رأسه وقال:

- ربما هذا دفتر صديقتي حواء الحلو، التي كانت هنا في فندقكم وغادرت قبل أيام.

ابتسمت الموظفة الأخرى وقالت:

- ولكننا لا نستطيع أن نعطيك الدفتر، فهو يخصها هي.

ارتبك آدم بوناروتي وقال:

- أوكي، لم أطلبه منكم.

- سأضعه في خزانة المفقودات، ويمكنك الاتصال بها، كي تتصل هي بنا وترسل لنا عنوانها في ألمانيا كي نرسله لها، وهي ستقوم بدفع أجور البريد هناك!

أحس آدم بوناروتي بالحرج أمام إيفا مادهوري وقال:

- أنا لا أعرف عنوانها هناك.
- طيب اتصل بها، قالت إيفا مادهوري.
- لا أعرف رقم هاتفها، أجاب آدم بوناروتي.

نظرت المرأتان لبعضهما البعض بتساؤل، ثم قالت الموظفة:

- لكنك تقول إنها صديقتك.

أحس آدم بوناروتي بالارتباك وقال:

- نعم، تعرّفت عليها هنا، عند باب الفردوس الذي ذكرته في يومياتها، لكننا لم نتبادل العناوين ولا أرقام الهواتف، كنا نلتقي في الأماكن التي أتواجد للرسم فيها ثم ننطلق فيما بعد إلى جهات أخرى.

كانت الموظفة الأخرى تنظر بتركيز إلى وجهه وكأنها تريد أن تتبين إن كان صادقًا فيما يقول أم لا، ثم عقبت:

- مفهوم، يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نعمل شيئًا في هذه الحالة، إلا إذا هي انتبهت لفقدان الدفتر، وإذا كان يهمها الدفتر فبالتأكيد ستتصل بنا، وربما ستتصل بكل الأماكن المحتملة في نظرها.
- بالتأكيد، قال آدم بوناروتي.

نظرت الموظفة إلى إيفا مادهوري وابتسمت لها بطريقة ذات معنى، ثم التفتت إلى آدم بوناروتي وقالت:

- آسفة للمقاطعة، يبدو أنكما كنتما تتحدثان في أمر خاص.

أحست إيفا مادهوري ببعض الحرج ولكي تزيل الشكوك عند زميلتها قالت لها:

- لقد رسم تخطيطًا لي.

توقفت الموظفة الأخرى، ابتسمت بفضول، فبادر آدم بوناروتي وأخرج التخطيط من تحت الأوراق لتراه، وارتسمت على وجهها علامات الدهشة وقالت:

- واو، أنت رسام بارع، هذا الوجه، الابتسامة، النظرات، رسم لكن وكأنه ينطق، جميل جدًّا، هل يمكنك أن ترسم لي تخطيطا مثل هذا؟

ابتسم آدم بوناروتي لها وقال:

- بكل سرور.

ابتسمت الموظفة وقالت:

- لكن ليس الآن، الآن عليّ إعداد قوائم النزلاء لهذا الأسبوع، لكن كما أرى أنك ستزورنا كثيرًا.

ونظرت إلى إيفا مادهوري بتعاطف وعلى وجهها ابتسامة مشجعة.

في تلك اللحظات دخل رجل وامرأة إلى الفندق وتوجها إلى مكتب الاستقبال وقدما أوراق حجز لهما، وقبل أن تبدأ إيفا مادهوري بتسيير شؤونهما قالت له:

- انتظرني هناك في اللوبي، حينما انتهي سآتيك وأشرح لك كل شيء!

- وهو كذلك.

واتجه آدم بوناروتي نحو الممر على اليسار من مكتب الاستقبال حيث الممر المطل على الشارع والذي تتفرع منه صالات صغيرة، وجلس على أحد المقاعد هناك وهو ينظر إليها وهي تقوم بواجبها مع النزلاء الجدد.

*******

- ما بك؟ لماذا أراك حزينة برغم محاولاتك أن تبدي طبيعية! ثم لماذا خرجت صباحًا دون أن توقظيني! قال آدم بوناروتي بلطف ومودة.

- لم أشأ أن أوقظك لأني نظرت إليك فوجدتك نائمًا كطفل، أشفقت عليك.

- أشفقت عليّ؟!

- نعم، أشفقت عليك، ماذا؟ أتجد الشفقة أمرًا معيبًا أو سيئًا، نحن نحتاج لمن يشفق علينا أحيانًا، أليس كذلك!

كان ينظر إليها وهي غارقة في المقعد العريض أمامه فبدت له وكأنها طفلة مليئة بالأنوثة، ركّز نظراته على عينيها المترعتين بالحزن وأحس بأنها حكيمة غامضة، وسأل نفسه "من أين لها هذه الخبرة بالنفس البشرية وحاجتها العميقة أحيانًا إلى الشفقة! كيف تمكنت أن تغوص عميقًا إلى حساسية النفس البشرية، ربما هي حساسية النفس المقهورة والمذلة والمهانة؟!"، انتبه إلى أنها كانت تنتظر إجابته. فقال لها:

- الشفقة شعور إنساني رائع يمتزج فيه الحزن الشفيف مع التعاطف، هي مشاعر راقية بعيدة عن أنانية الذات وحبها، بل كثيرًا ما تقود إلى الحب، وأحيانًا تنبع الشفقة من الحب، فحينما نفكر بتعب أمهاتنا أو آبائنا، أو حينما تنظر الأم لطفلها الضعيف الهزيل وهو يمرض فإنها تنحني بكل كيانها مثل شجرة أثقلتها الشفقة عليه. الشفقة شعور عظيم، علما أن شاعراً عراقيًا شهيرًا لدينا يستنكر كلمة "خطية"..وهي كلمة تتوهج بمشاعر الشفقة، ويعتبرها أقسى من الموت.. والموت لديه أهون من "خطية".. لكن لم تخبريني بعد. لماذا أراك حزينة؟

صمتت للحظات، ارتبكت قليلًا، ثم قالت:

- الآن أنا في العمل، ليس لدي الوقت للحديث هنا، لكني سأمر عليك بعد نهاية دوامي قبل أن أذهب إلى البيت!
- هل حصل لك شيء ما في البيت؟

تلفتت نحو مكتب الاستقبال فرأت زميلتها تتحدث مع أحد النزلاء الأوروبيين، التقت نظراتهما، ابتسمت صديقتها لها، فأحست ببعض الأمان، ثم التفتت إلى آدم بوناروتي وقالت:

- نعم، أخبرتك عن الوضع السيئ في البيت وما سمعته هذا الصباح، فقد حدث اليوم في الصباح المبكر، فبعد أن خرجت من عندك، اتجهت للبيت مباشرة، ولا أخفيك، كنت طوال الطريق إلى البيت أعيش مشاعر متناقضة ما بين فرحي بلقائك وتأنيب ضميري لأني خنت زوجي لأول مرة، كنت أشتم نفسي طوال الطريق وأصرخ بنفسي بأني صرت عاهرة، قحبة، وكنت أهوّن على نفسي بالاستغفار وبقراري بأن أقطع علاقتي بك مع أنها علاقة كنت أحلم بها منذ سنين، ولا أطيل الحديث عليك، فهذا وقت عملي..المهم جين دخلت الشقة، فتحت الباب بهدوء شديد كي لا أوقظه، فهو يسهر عادة مع الأفلام الهندية والأفلام التي بلهجتنا حتى ساعات الفجر الأولى، لكني سمعت أصواتًا تأتي من المطبخ، كان صوت زوجي وصوت المترجم وهما يتحدثان بلغتنا طبعًا، تنصّت للحديث قبل أن أدخل غرفة النوم التي بابها يقع في الممر، سمعت أنهما يتحدثان عن تفاصيل امرأة ما بأن الجن قد تلبسها..ثم صار الحديث

يدور حول زفاف ما، وكان المترجم يحدثه عن عدد ضيوفهم من الأقرباء. أول الأمر ظننت أن المترجم يريد تزويج ابنته ويطلب المساعدة من زوجي أو يشاركه الأخبار لأنه صديقه الوحيد، لكني صُعقت حينما سمعت زوجي يقول له بأنه لا أحد لديه في إيطاليا من طرفه، سواي، وعليّ ألّا أعرف شيئًا الآن، حينها فهمت أن زوجي يريد أن يتزوج من ابنة المترجم! لحظتها أردت أن أدخل عليهما وأصرخ نادبة حظي، لكني شعرت بارتجافة في كل جسدي وخوف من زوجي، لا أعرف، أحسست أنه طعنني في شبابي وأنوثتي، علمًا أن ابنة المترجم ليست جميلة، بل هي أصغر مني بست سنين، هي في الرابعة عشرة من العمر، لكني شعرت بالحزن والوحدة والغيرة، نعم شعرت بالغيرة، لكني أيضًا سألت نفسي: كيف سيتزوجها وهو عاجز؟! ولم أجد أمامي سوى أن أدخل غرفة نومي وألقي نفسي بثيابي على السرير دافنة رأسي في الوسادة ومتخفية تحت اللحاف بينما كنت أبكي بصمت وحرقة، لكني وأنا في الطريق متجهة إلى الفندق لاستلام عملي بعد الظهر جاءني اتصال من المترجم، وطلب فيه أن يراني، ولم يحدد الوقت!

- وماذا ستفعلين الآن؟ هل أخبرك زوجك أو المترجم بأي شيء يخص ما سمعته أنت؟
- لا، لم يخبرني أحد، لا هو ولا المترجم، وربما اتصال المترجم سيكون بهذا الخصوص، لا أعرف ماذا سأفعل، هل هذا الأمر مقبول هنا في إيطاليا بزواج البنت في الرابعة عشرة من العمر!
- لا طبعًا، هذا الأمر غير مقبول قانونًا هنا في إيطاليا، لكني أعتقد أنه سيكون زواجًا دينيًّا إسلاميًّا ولا يسجل في المحكمة.
- نعم، سيأتون بشيخ وشهود في البيت.
- وكيف كان زوجك في تعامله معك بعد أن سمعت ما سمعت؟!
- كان مرتبكًا قليلًا، ويتجنب نظراتي، على غير عادته حيث كان ينظر إليّ نظرات مفترسة وعصبية ترعبني.

نظر إليها، أحس برغبة في أن يقوم ليحضنها، لكنه انتبه إلى أنهما ليسا وحدهما، وقال لها متسائلا:

- لكن غريب هذا آدم نعمتدار، كيف سيتزوجها وهو عاجز، إنه يظلم هذه الفتاة أيضًا؟

نظرت إليه للحظات ثم خفضت رأسها وأخذت تنظر إلى الشارع عبر الزجاج وقالت:

- هو يعتقد أنني مسحورة، وملعونة، وبسببي تم سحره كي لا يتقرب مني، أنا فقط وليس النساء الأخريات، وربما بزواجه من ابنة المترجم سيفك السحر عن نفسه، لكنني لا أظن ذلك، فهو مريض على الرغم من مكابرته، فهو مصاب بالسكر وضغط الدم، ولديه التهابات في القولون واضطرابات في الغدة الدرقية، ونسبة الدهون عنده عالية بل وخطيرة، وقد شخّص الأطباء ذلك، لكنه يكابر ولا يأخذ الأدوية ولا يلتزم بها قط، بل إن طبيبه الحقيقي هو المترجم الذي يكتب له الآيات على ورقة ثم ينقعها له في كوب ماء ليشربها، أو يكتب له الرقى والأدعية والتعاويذ، هو يشعر بأنه مخنوق في إيطاليا، هو يهدد في لحظات غضبه بالعودة إلى كيرالا، هو يقول إن الحرية التي يرى الناس تعيشها هنا تخنقه وتضايقه، ويرى أن نهاية العالم مقبلة.

شعر آدم بوناروتي بالتعاطف معها وقال:

- العبيد لا يشعرون بالحرية، هناك أرواح عبدة، وهناك أرواح حرة، أرواح العبيد لا تستنشق نسائم الحرية، وتنزعج من نور الشمس، وأرواح الأحرار تتوهج وهي في جب مظلم، العبيد لا يشعرون بالحرية حتى وإن تحرروا.
- وأنا، كيف تراني، هل أنا روح عبدة، أم حرة!..سألته مستفسرة بحزن.
- لا أدري، فنحن لم نتعارف إلا البارحة، لكنني أحس أنك روح متمردة، تناضلين من أجل كسر قيودك واستعادة إرادتك الحرة.
- وكيف يمكنني أن أجسد إرادتي الحرة، أنا أخاف من كل خطوة أخطوها، قبل أن ألتقيك كنت أخاف من ظلي وأنا أمشي في الشارع أو الأزقة الجانبية، أو أكون في قطار الأنفاق. أتعرف، أنا كنت أخاف أن أجيب على تحية الصباح أو المساء لجيراني الذين أقابلهم مصادفة في المصعد، أظل صامتة كالخرساء! مع العلم حينما أكون في عملي أكون نشطة جدًّا وجريئة في الحديث مع الناس!

ثم قامت، نظرت إليه بمودة وقالت:

- عليّ أن أرجع لعملي، سأمر عليك بعد الدوام، أو سأطلب من صديقتي أن تسمح لي بالخروج قبل الوقت، سأكون عندك ما بين السابعة والثامنة، هل ستنتظرني في البيت!

شعر آدم بوناروتي بفيض من مشاعر المودة الرقيقة نحوها، وقال بحرارة:

- طبعًا، طبعًا، سأنتظرك.

وقبل أن تتحرك وتستدير ذاهبة قال لها:

- طيب إيفا مادهوري، لدي طلب، ربما يمكنك إنجازه وربما لا!
- ما هو؟ قل.

خفض صوته وقال بما يشبه الهمس:

- الدفتر الذي يعود للبنانية حواء الحلو، هل يمكنك أن تحمليه لي؟! أحب أن أعرف ما فيه، فقد ذكرت أن كل شيء بدأ من باب الفردوس، وأنا التقيت بها أول مرة هناك، فأحببت أن أعرف ماذا كتبت أيضًا.

ارتبكت إيفا مادهوري قليلًا وأحست بحرج وقالت:

- لا أعدك بذلك، الأمر ليس سهلًا، فهذا يعني أنني أخذت شيئًا من خزانة المفقودات.
- لكني لن آخذه وإنما أقرأه وأرجعه، عمومًا، لا تشغلي بالك، سأنتظرك في الشقة، بالمناسبة، أنا إلى الآن لا أعرف رقم هاتفك.

التفتت إليه وسألت:

- هل لديك قلم؟! وأعطني التخطيط الجميل الذي رسمته له.
- وبسرعة أخرج هو قلمًا من أقلام التخطيط، وسحب الورقة التي رسمها عليها، أخذت هي التخطيط وقلبته، وكتبت على ظهرها رقم هاتفها، وقالت وهي تتحرك ذاهبة:
- رقمك عندي، لكني لم أتصل بك عليه بعد، لا أريد أن أحفظه باسمك خوفًا من تفتيش زوجي، بعد قليل سأحفظه باسم أنثى كي لا يشك إذا ما فتش مرة، هل يضيرك ذلك!

- لا، أبدًا، المهم يمكنك أن تتصلي بي دون أن يسبب لك ذلك مشاكل مع زوجك.

ابتسمت له لأول مرة من حديثهما تلك الابتسامة الساحرة وقالت:

- إذا حصل وحقق معي عن الاسم، سأقول له بأنك زميلة جديدة لي في العمل.

ابتسم هو لها، تألق بريق في عينيها، وقالت له:

- إلى اللقاء، بعد ساعات.

- إلى اللقاء.

توجهت إلى مكتب الاستقبال بينما كان هو يتأمل مؤخرتها المتناسقة والمثيرة ويعد نفسه بتأملها هذا المساء عارية، ثم أخرج هاتفه وسجل الرقم الذي كتبته على ظهر تخطيطها.

***

ما أن صار آدم بوناروتي على بعد أمتار من الفندق حتى رنّ هاتفه النقال، نظر إلى شاشة الهاتف فعرف أنها هي، ابتسم مع نفسه وضغط على زر قبول المكالمة:

- أهلًا.

- لقد سجّلت رقمك تحت اسم حواء العراقية.

- حواء العراقية، ههههه، لا مشكلة لديّ، ما دام يضمن لي أن أسمع صوتك!

- أحبك، وأريد أن أبقى معك.

- وأنا أحبك أيضًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

***

لم يرغب آدم بوناروتي الذهاب إلى مركز المدينة السياحي وإنما توجه إلى ساحة

سان باولو القريبة من الفندق ومن شقته، حيث هناك زوار كثر أيضًا، وجلس على أريكة في الساحة، ونصب ستانده الصغير ووضع لوح الأوراق عليه، فاقترب منه شاب بصحبة فتاة، تحدثا معه بالإنكليزية عن سعر التخطيط، ثم جلست الفتاة ليرسمها.

# الـبـاب السـابـع

# محنة آدم الشبيبي

منذ توديعهم لحواء العذابي ورؤيتهم لقابيل العباسي وهو يغادر إلى بيروت في التاكسي نفسه وهم يقلبون الأمر دون الوصول إلى يقين في تفسيرهم، ناقشوا الأمر في المقهى والمطعم، وهم يتجولون في باب توما، أحيانًا كان النقاش يتوقف عندما يتصل آدم الشبيبي بحواء الزياني التي غادرت إلى حلب لزيارة ضريح الشيخ شهاب الدين السهروردي، لكن هاتفها كان مغلقًا، ثم يعاودون النقاش متسائلين عن سبب إغلاقها لهاتفها، وأيضًا يعاودون النقاش حول حواء العذابي وقابيل العباسي، ولم يتوقفوا إلا حينما دخلوا السوق واشتروا فاكهة وخضراوات وثلاثة أنواع من الجبن ونوعين من الزيتون الأخضر والأسود وكرزات ومواد غذائية للأيام المقبلة، وعصرًا عادوا إلى البيت.

حواء الفارسي لم تشاركهم النقاش إلا نادرًا، لا سيما حينما كان يدور النقاش حول حواء العذابي. في أعماقها كانت تحاور نفسها قائلة: "هذه المرأة غريبة فقد قضت على عائلة كاملة وكأنما لم يبق من الرجال في العالم إلا أخوة زوجها؟! ناهيك أنها كما قالت تزوجت عن حب ورضا!"، لكنها في الوقت نفسه منحتها العذر لأن للشهوة أحكام ومنطق لا يعرف العقل ولا الضمير والأخلاق، وهي نفسها تعرف هذه الحقيقة، فهي تزوجت آدم أبو التنك لكنها تدرك جيدًا أنها ترغب في آدم الشبيبي وتريده.

أعدّت لهم شايًا وحملت لهما بعض الكرزات في صحنين ووضعتهما على الطاولة التي تتوسط تلك الزاوية التي بمثابة صالة البيت، وقبل أن تحمل الشاي قال لها آدم أبو التنك بأنه يحب أن يشرب الشاي في كوب كبير وليس في استكان، ابتسمت له وقالت: تكرم!

حملت صينية الشاي واتجهت صوبهما، كانا لا يزالان يتناقشان حول حواء العذابي وقابيل العباسي، لكنها اندهشت حينما سمعت زوجها يقول بتوجس:

- أظن أنه ثمة علاقة بين هذه المرأة حواء العذابي وقابيل العباسي، فالقصة مريبة، كيف جاءت إلينا، بينما نحن لا نعرفها، وروت لنا قصة غامضة غير قابلة للتصديق، ورغبتها في أن نذهب للزبداني، ثم انقلابها المفاجئ على ذلك ورغبتها الفورية للذهاب إلى بيروت.

- لكنها لو كانت كما تقول على علاقة بقابيل العباسي فلماذا لم تسألنا أبدًا عن زوجته الهاربة حواء ذو النورين! علّق آدم الشبيبي.

صمت آدم أبو التنك للحظات وقال مستسلمًا:

- نعم، أنت محق، هي لم تسأل أبدًا عن حواء ذو النورين، لكن من يعلم، ربما أمامنا لم تسأل.

ثم التفت إلى زوجته التي جلست على الصوفا قربه وسألها:

- ألم تسألك البارحة عن المرأة التي رافقت حواء الكرخي والتي اسمها حواء ذو النورين؟

شعرت حواء الفارسي بالأهمية لأن عليها أن تقول كلمتها في هذا الأمر، لا سيما وأنها عرفت سر رغبة ضيفتها في الذهاب إلى بيروت، فقالت:

- أنتم الرجال تبالغون دومًا في تفسير الأمور وتحملونها أكثر مما تحتمل! فما علاقة حواء العذابي بهذا الذي تسمونه القاتل قابيل العباسي! ربما مجرد مصادفة لا أكثر أنه جاء ليركب السيارة نفسها والتي كانت حواء العذابي فيها! فهي طوال الليلة البارحة كانت تتحدث عن رغبتها في السفر إلى بيروت لإجراء عمليات تجميل كاملة لجسدها، تكبير صدرها ومؤخرتها، وشفط الدهون من جسدها، أما رغبتها الحقيقية فكانت، وعفوًا من هذه الكلمة، أن تتحول إلى قحبة!

بهت كلاهما وهما يسمعانها، لا سيما جملتها الأخيرة التي قالتها بسلاسة وعدم تردد، وقالا في صوت واحد تقريبًا:

- ماذا؟
- نعم، لماذا تندهشان، هذه كانت رغبتها الحقيقية، قالت إنها لا تشبع من الرجال وعاشت حياة زوجية مضطربة، والغريب أنني حين سألتها بأن صدرها جميل فلماذا تريد تكبيره بالسليكون أجابتني بأن زوجها كان يتمنى لو كان أكبر، وكذا مع مؤخرتها. فقلت لها لكن زوجك الآن قد مات، قالت هي تعرف بأنه قد مات، لكنها تريد أن تحقق له رغبته وهو ميت!

أحس الآدمان بالإحباط مما سمعا، فقد كانا يبالغان في تفسير ما جرى في كراج السيارات، كما أدركا الآن لماذا كانت حواء الفارسي صامتة ولا تشاركهما حماسهما في تحليل الأمر لأنها كانت تعرف حقيقة هذه المرأة وما تريده! فقال آدم الشبيبي معلقًا:

- ولماذا لم تنورينا بهذه المعلومات عنها بينما نحن منذ ساعات نتناقش كالببغاوات في تحليل وتفسير الأمر وتوغلنا في نظرية المؤامرة بعيدًا، بينما أنت ببعض جمل نسفت كل ما قمنا به من تحليل، لكن هل هي فعلًا تريد أن تكون ما قلت أنت، أن تكون قحبة، بعد أن تجري عمليات التجميل!
- نعم، فعلًا هذا ما تريده أو تتمناه، وقد قالت إنها كانت تتمنى أن تكون عاهرة وهي في العراق، لكن وضعها العائلي والخوف من التشهير الاجتماعي منعها من أن تكون كذلك، لكنها أيضًا كما روت لي كانت متعددة العلاقات، لكن بحذر شديد، وهي تشعر في أعماقها بأنها قحبة، لذا وبعد ما حصل لها، تريد أن تكون كذلك في مجتمع لا يعرفها، ولا يعرف اسمها، ولا أصلها وفصلها، ومن المؤكد ستتخذ اسمًا ولقبًا آخر! تريد أن تعيش حرة.

أحس الآدمان بأنهما أمام امرأة جريئة، فليست هي حواء الفارسي البسيطة والساذجة كما تصوراها، وأن سكوتها عند مناقشاتهما لا يدل عن عدم المعرفة وإنما على العكس لأنها تعرف أكثر منهما لذا تسكت عن هذه المناقشات التي لا تقود إلى حقيقة ما جرى ويجري! بيد أن زوجها علّق بغضب مكتوم قائلا:

- طيب، ما هي الحرية التي تريدها هذه المرأة، كل شيء كان لديها، حتى حرية العلاقات الجنسية، لم تكن أسيرة زوجها.

صمت آدم الشبيبي للحظات ثم قال وهو ينظر إلى نقطة خارج المكان:

- ليس الأمر متعلقًا بالحرية الجنسية وحدها، أعتقد أن في روحها عاصفة تمرد، عاصفة تمرد صاخبة تقتلع كل شيء. أعتقد أنها لا تريد أن تفعل شيئًا في السر، لذلك اعترفت لحواء وبشكل مباشر وواضح بأنها تريد أن تكون عاهرة..!

نظرت حواء الفارسي إليه وكانت مغتاظة من تعاطفه مع تلك المرأة، وقالت:

- لكنها كما روت لي بأن زوجها كان يمنحها حرية الحركة، تذهب إلى أي مكان وفي أي وقت، وبأي شكل من الثياب، لكن كل ذلك لم يكن يكفيها، حتى العلاقات الخاصة مع حميها ومع مديرها لم يكفياها، كانت تريد أكثر، تبحث عن شيء هي نفسها لا تعرفه، لكن البارحة فقط فجأة قالت لي:" أتعرفين يا حواء ما أود تحقيقه، وأجد نفسي فيه!".. ظننت أنها ستقول لي بأنها ستفتح مشروعًا خاصًّا أو شيئًا من هذا القبيل، وإنما قالت: أريد أن أكون قحبة، في أعماقي تسكن قحبة، كل حياتي يبدو أنها كانت تمهد لهذا، لكني لم أكن حرة، الآن سأكون حرة، لا سيما إذا ما ذهبت إلى بيروت!

لم يعلقا بشيء، كانا مندهشين مما سمِعا، وانتبه آدم الشبيبي إلى أن حواء الفارسي أخذت تردد كلمة "قحبة" بمتعة خاصة، وكأنها تعبر عن رغبتها هي في أن تكون قحبة! صمتهما كان دافعًا لها كي تواصل كلامها، فقالت:

- قالت لي بأن زوجها مثل صياد السمك، فالصياد الذي يعرف أن في صنارته سمكة، يعرف أيضًا أنها لن تفلت منه، لذا فإنه يمنحها حرية الحركة ومحاولتها التمرد أحيانًا للتحرر من الصنارة، لكنه حينما يشاء، وفي اللحظة التي يقررها هو، فإنه يسحبها من خيشومها، بهدوء أو بعنف، كما يشاء، فهي ملكه أولًا وأخيرًا.

نظرت حواء الفارسي إليهما فقرأت الدهشة في أعينهما لكن في الوقت نفسه أحست برعشة تسري في جسدها حين تخيلت الصياد والسمكة، واستغربت هذا الشعور الذي لم تجربه حينما سمعته من ضيفتها أول مرة، وواصلت:

- الغريب أنني سألتها لِم تتمنى هذا الأمر المرفوض اجتماعيًّا وأخلاقيًّا، هل هي محتاجة للمال؟ وإذا كانت كذلك فيمكنها أن تعمل! أجابتني بأنها ليست محتاجة للمال، بل معها ما يكفيها لفترة طويلة، بل وربما ستدفع للرجال الذين

ترغب فيهم، هي في نهم وجوع دائم للرجال، وهي تجد أن هذا لا يتحقق إلا حينما تكون قحبة، تنام يوميًّا مع أكثر من رجل، لكن هي واهمة؛ فالحرية وهم، فحتى هاتيك النساء لديهن قيودهن الخاصة والصعبة، الحرية وهم.

ظل الآدمان صامتين، فجأة قال آدم الشبيبي وهو ينظر إلى كوب الشاي الذي أمامه بتركيز:

- لا أعتقد أن الحرية القصوى تكون في الحرية الجنسية فقط، أنا مثلًا لا أجد حريتي الجنسية حينما أكون مع المرأة، أريد أن أكون وحدي، أريد حريتي في العزلة.

فأجابت بحماس مشوب بغضب:

- لكني أعرفها، هي لا تريد العزلة، بل هي تخاف العزلة، تخاف أن تكون وحدها في غرفة مثلًا، ربما هي واهمة..إنها إنسانة غريبة، كانت ترفض بقوة أي حديث عن الأخلاق والسمعة والشرف..بدت وكأنها منجذبة لهذا المصير، بل إنها كانت مبتهجة بهذا المصير.

رفع عينيه إليها بانكسار وقال بنبرة فيها عتاب لسوء الفهم الذي بينهما:

- أنا أتحدث عن مفهوم الحرية، يعني أن تقومي بفعل شيء لا يمكنك أن تقومي به اجتماعيًّا، أو تمتنعي عن أن تقومي بشيء يُفرض عليك القيام به.

صمتت حوء الفارسي لثوانٍ وقالت باستسلام:

- إذن، أنا بهذا المعنى لستُ حرة، أنا مقيدة، فأنا لا أستطيع القيام بفعل شيء يحرجني اجتماعيًّا، حتى لو رغبت في ذلك.

فقال بهدوء بارد:

- نعم، للمجتمع قيوده الثقيلة، لذلك نحن لسنا أحرارًا كما نتوهم أو نعتقد..!.

فردت بيأس:

- هي قيود، بغض النظر عن طبيعتها..سواء كانت اجتماعية أو غير اجتماعية..

نظر إليها وإلى زوجها آدم أبو التنك الذي كان يتابع الحوار بين زوجته وصديقه باهتمام وقال:

- لكن من حقنا أن نجسد إرادتنا في الحرية.

نظرت إليه وكأنها تستغرب إجابته.. وكأنه يدعوها لفعل شيء غير مقبول اجتماعيًا، فسألت:

- كيف ممكن أن تتجسد هذه الإرادة؟

فقال بعفوية وببساطة كجواب جاهز:

- من خلال وعينا لوجودنا..ومن خلال تجسيد إرادتنا لهذا الوعي.

نظرت إليه لثوانٍ وقالت:

- الوعي قيد.

نظر إليها وكأنه يريد أن يحسم الحوار عن حواء العذابي، واستاء قليلًا من صمت زوجها، فقال:

- لا، الوعي نور، يضيء السلسلة الثقيلة وحلقاتها التي نحن مقيدون بها، دون نور الوعي سنكون كمن هو مقيد بالسلاسل في الظلام ولكنه لا يراها، يحس بها ولا يراها.

أحسّت حواء الفارسي بأنه كان يقصدها في كل كلمة، وكأنه يدعوها لتحطيم القيود، هكذا تلقت كلامه، بينما كان هو يتحدث عن نفسه، والقيود المظلمة التي قيّدته بسلسلة لا يستطيع الفكاك منها، هو يشعر بثقل الجغرافيا والمكان، وفي أعمق أعماقه كان يفهم رغبة حواء العذابي بالانتقال إلى بيروت والضياع في المكان، حيث لا أحد ممن تلاحقها أشباحهم. أما آدم أبو التنك فوجد أن كلاهما يتحاور لكنه يدور حول الموضوع ولا يتوجه إلى لب المشكلة، لذا قطع صمته وقال:

- أنتما تتحاوران بقضايا الحرية والإرادة وقصة هذه المرأة حواء العذابي، لكنكما لا تذهبان إلى جوهر المشكلة، وهو الصراع الطبقي في المجتمع العراقي وما يجري فيه من تحولات منذ عقود. هذا المجتمع الذي عرف حربًا لسنوات وحصارًا ظالمًا لسنوات أخرى، وشهد احتلالًا عسكريًا، وحكومة إمبريالية سلّمت البلاد للأحزاب الإسلامية عمدًا من خلال انتخابات شكلية مزورة. أنتما تحدثتما بشكل مجرد، لكنكما لم تفكرا بأن هذه المرأة خرجت من مجتمع هو

ليس سوى غابة. أتعرف يا آدم، أنت تحدثت لي مرة عن قانون الغابة، قلت لي حينما يحاول البشر أن يصفوا شيئًا بالشراسة والخروج على القوانين يقولون هذا قانون الغاب! لكنهم ينسون ويتناسون بأنه حتى الغابة يحكمها "قانون" هو "قانون الغاب"! وهذا القانون ليس كما يُفهم عادة بأنه البقاء للأقوى، وللأعنف، وللنهب والسلب، وللبطش، وإنما هو يعني الحفاظ على الغابة والدفاع عنها، والاكتفاء عند الشبع، وتوفير إمكانية البقاء حتى للضعفاء فيها! لكن بعض البلدان، ومنها العراق، لا يسودها أي قانون، بلدان خارج القانون، حكومات خارج القانون، وشعوب خارج القانون، بلدان قانونها فاسد، وقضاتها فاسدون، وسلطتها التشريعية فاسدة، حكامها فاسدون، وشعوبها فاسدة! للغابة قانون، لكن بعض البلدان، ومنها العراق، لا ترقى إلى أن تكون غابة! كلامك كان صحيحًا ودقيقًا، هذه البلدان لا يسكن فيها مواطنون عاديون وإنما مسوخ، أشباح، جثث تمشي، زومبي! وهذه المرأة حواء العذابي، استنادًا لما قالته حواء من خلال حوارها معها البارحة حينما كانتا لوحدهما، هي نموذج اعتيادي لهذه المجتمعات التي لا ترتقي حتى ليحكمها قانون الغاب، فأقصى ما تتمناه هو أن تكون قحبة! وربما هي كانت قحبة أصلًا، بمفهومها، أي ليست عاهرة وموسًا تبيع جسدها للحاجة المادية، وإنما تمارس من أجل إرواء رغبتها ومتعتها، لكن هؤلاء الناس أمثالها خطرون؛ لأنهم مستعدون لكل شيء، ففي لحظة محاصرة وحين يشعرون بالخطر يتحولون إلى أفاضل وفاضلات، وعفيفين وعفيفات، وملتحين ومحجبات، بل يمكن أن يتحولوا إلى مخبرين ومخبرات وحتى إلى قتلة.

نظرت حواء الفارسي إلى زوجها باعتزاز، فقد أعجبها كلامه وتحليله، وقالت:

- صح، والله كلامك صحيح، بلداننا لا ترتقي حتى لقانون الغاب. بلدان مثل السمكة، فسادها وعفونتها تبدأ من الرأس، من الحكام أنفسهم، هم رأس الفساد وينهقون ليل نهار بالحديث عن النزاهة وملاحقة المفسدين!

لم يجد آدم الشبيبي ما يقوله، ففي كلام صديقه الكثير من الصواب والحقيقة، لكنه تمتم بصوت خفيض وكأنما يحدث نفسه:

- يا ليت الأمر ينتهي بالسرقة، والفساد، وإنما ينتهي عادة بالقتل! لكن دائمًا يراودني السؤال: ما العمل؟!

وقبل أن يجيب آدم أبو التنك رن هاتف آدم الشبيبي، نظر إلى الشاشة المضيئة فبدا الاهتمام على وجهه وأجاب:

- نعم، (صمت)، أين أنت؟ في حلب، أنا لم أستطع المجيء لأنك أرسلت رسالة عبر الهاتف وأغلقت الهاتف بعدها ولم أستطع أن أستفهم منك، ناهيك أننا هنا كنا مشغولين، متى ترجعين؟ ماذا؟ من هؤلاء الذين ستذهبين معهم؟! فرقة إنشاد صوفي؟ متى ترجعين؟ لا تعرفين، ما معنى لا تعرفين؟ ماذا، لا أسمعك، طيب، طيب لماذا لا ترجعين إلى دمشق ونلتقي هنا، لماذا تريدينني أن أكون معك في حلب؟ لم أسمعك جيدًا، طيب طيب، سأجيء غدًا.

كانت حواء الفارسي وزوجها ينظران إليه بانتباه ويشاركانه الانفعال وهو يتكلم مع حواء الزياني التي أدركا أنها هي من خلال حديثه عن حلب وفرقة الإنشاد الصوفي، لكنهما فوجئا حينما سمعاه يقول: سأجيء غدًا!

حين أنهى المكالمة كان متوترًا، بدا لهما وكأنه لا يحس بوجودهما ومنشغل مع ذاته، فسأله آدم أبو التنك:

- ماذا هناك؟ تبدو متوترًا، هل هناك شيء ما حدث؟

انتبه لوجوده الشارد عنهما، ارتبك قليلًا وقال:

- هي في حلب، وتريد أن أذهب إليها، وجدت فرقة إنشاد صوفية، ذهبت معهم، لا تعرف متى تأتي، أنتما تعرفان أنها بالنسبة لوضعي نوع من الحل، فالارتباط بها يمنحني فرصة الخروج من سورية، وهي موافقة على الزواج مني هنا، ويمكننا تصديق الزواج في سفارة المغرب والجزائر، وبالتالي يمكنني الحصول على تأشيرة للسفر معها، إذا تخلفت عن السفر فربما ستستاء من ذلك وتعتبره إهانة لها، وربما ستتراجع عن الارتباط بي، أنتما تعرفان أن غرضي من هذا الزواج هو الخروج من هنا لا أكثر! وحتى هي تعرف ذلك!
- لكن يا صديقي الوضع الآن متوتر، ممكن أن يتفجر في أي وقت، قيل هناك كتابات على الحيطان ضد السلطة ظهرت في درعا.

- وماذا عليّ أن أفعل يا آدم، أنا مضطر للسفر، هي فرصة نادرة بالنسبة لي، فهي موافقة على الزواج فقط من أجل مساعدتي، وهي تعرف أن زواجنا هو اتفاق إنساني لمساعدتي أكثر مما هو زواج وحب بين رجل وامرأة، وقد ألحّت عليّ بالمجيء وإلا ستزعل.
- لكن برغم ذلك الطريق غير آمن.

فجأة أشارت حواء الفارسي إلى زوجها بما معناه أن يذهب معها، وقالت له:

- تعال معي.

نهض كلاهما وسبقته إلى غرفة النوم، بقي آدم الشبيبي وحده جالسًا على الصوفا التي يتخذ منها سريرًا، بعد قليل خرج آدم أبو التنك، عطف على زاوية الصالة وقال لصديقه:

- أنا خارج، سأعود بعد ساعة أو أكثر قليلًا.
- هل آتي معك؟
- لا. لا. ابق أنت، سأعود.

غادر آدم أبو التنك البيت على عجل وكأنه في مهمة، استغرب آدم الشبيبي خروجه المفاجئ، لكنه أدرك أن زوجته طلبت منه شيئًا ما فخرج، "ربما لتبعده عن البيت!" هكذا مرقت في باله خاطرة.

ظلت حواء الفارسي في حجرتها لدقائق بعد مغادرة زوجها، كان هو وحده في زاوية الصالون، خرجت، اتجهت إلى الباب الخارجي وتأكدت من إغلاقه، ثم جاءت إلى زاوية الصالة حيث آدم الشبيبي..جلست على الصوفا المقابلة له، ظلت صامتة لكن كان واضحًا أنها تريد أن تقول له شيئًا مهمًّا.

كان آدم الشبيبي يتأمل حركاتها وينتظر ما ستقوله له، نظرت هي إليه بتركيز وقالت:

- أتعرف يا آدم بأن الحب قدر؟! ولا يستطيع الإنسان أن يقرر من يحب، فالحب يأتي دون أن ندعوه!

فوجئ بكلامها، فقال:

- الحب أم الرغبة؟! هل...

قاطعته وكأنها لا تود الخوض في نقاشات سوف يغلبها فيها وتتوه فيها عن غايتها، فقالت:

- قبل قليل حين قلت بأنك ستذهب إلى حلب لتلتحق بتلك المغربية الجزائرية شعرت بالغيرة، بل، الأصح اكتشفت بأنني أجهل مقدار حبي لك، لم أكن أتخيل أنني أحبك كل هذا الحب، وأنني سأفقدك، وسترحل مع امرأة أخرى.

أحس آدم الشبيبي بشعور من الفرح الدافئ يغمره، لكنه أراد أن يبدو أخلاقيًّا ومتماسكًا فقال لها:

- لكنك الآن متزوجة، وعليك أن تكوني قوية ومتماسكة.

فقاطعته بغضب مكتوم وكأنها تؤنبه:

- لا تطالبني بقوة أنت نفسك لا تمتلكها!

- لكن...

- لا تتلكن، سأقول لك ما تجهله أو لا تجهله وإنما تتظاهر بالجهل، إن صديقك عاجز جنسيًّا، وهو لم يستطيع أن يمسني، وأنا بزواجي منه حكمت على نفسي بالحرمان من حيث لا أدري، ولكي أقاوم أي انزلاق قد يسيء إليه عليّ أن أحتمي بالأمومة، لذا أريد منك طفلًا! أريد الآن أن تمنحني طفلًا، أنا في أوج تفتحي الآن، في فترة خصوبتي.. ويمكنك أن تزرع في رحمي بذرة تجعلني أمًّا!

- ماذا تقولين يا حواء؟! قال آدم الشبيبي مرعوبًا.

- ما سمعته مني بوضوح.

- وصديقي، زوجك؟!

- هذه ليست مشكلتك، أنا سأواجهه! هو يعرف أنني كنت متزوجة!

- ماذا؟ كنت متزوجة!

- نعم، يعرف قصتي، واتفقنا أن نعيش هكذا، هو إنسان متفهم، كنت أداري وحشتي ورغباتي عندما كنت أحتضن الطفل هابيل، لكن غيبته واختطافه دفعتني لأفكر بإنجاب طفل مني، ولا أجد إنسانًا أحب أن أنجب منه سواك، لأني أحبك!

كان آدم الشبيبي يستمع لها وفي الوقت نفسه يحلل ويتخيل أحداثًا ومصائر مختلفة، فقال لها وقد بدأ يلين لفكرة الطفل أكثر مما يفكر في رغبته الجنسية في مضاجعتها فقال:

- لكنه صديقي! ثم إنه سيأتي بعد قليل.

نظرت إليه بحزم وكأنها تحسم موقفًا وقالت:

- اسمعني آدم، كما قلت لك، رغبتي في الطفل وفي أن أكون أمًّا هي الأساس وليست مجرد شهوة ورغبة في خيانة صديقك، وعليك أن تعلم بأنني قد أكون مخطئة بتصرفي هذا، وقد أبدو سيئة الأخلاق، لكنني مخلصة في طلبي، أريد منك طفلًا، وهذا الأمر لا يحققه لي صديقك العاجز، إذا لم تقم بذلك، فسأذهب إلى غيرك، لأنني أريد أن أكون أمًّا.

كان آدم الشبيبي يفكر مع نفسه بهذه المرأة الشابة التي تنظر إليه كإله بينما هو يعرف نفسه جيدًا،.." أنا إنسان رعديد، جبان كفأر، معقّد النفس، مشوش الأفكار، معطوب من الداخل ولا يصلح لشيء، انتهازي، وربما هو نذل دون أن يطلق على نفسه هذه العبارة، بينما هي البسيطة لكن حرّة النفس، الواضحة مع نفسها، الشجرة المنسجمة مع جذورها، المنسجمة مع تهورها؛ لذا فهي تنظر بلا مبالاة وازدراء لكل القيل والقال. هذه المرأة الشابة التي تبدو مهيبة وشامخة وهي تخطو نحو الخطيئة! لا، لا، إنها امرأة تحب، وكل حديثها عن الأمومة ليس سوى ترهات وحجة لكي تحظى بلحظة مع هذا الرجل الوهم الذي في ذهنها، والذي هو أنا! هو يعرف أنها لا تعرفه جيدًا، هي تعرف المثقف النطاط بالجمل الرشيقة والأفكار العظيمة، لكنها لا تعرف كم أنا جبان، ووصولي، وقرد نطاط!" ..هكذا كان يحدث نفسه..ووجد نفسه يقول لها متمتاً باستسلام:

- وإذا عرف زوجك! .

- لن يعرف، من أين له أن يعرف، ولا أعتقد أنك تمتلك الجرأة بحيث تخبره!

هكذا قالت له بلغة صارمة ممزوجة بسخرية مبطنة، وواصلت:

- وحتى إذا ما حصل الحمل، وهو حينها سيعرف أنه ليس منه، فأنا من سيواجهه، ولا تتصور أنه سيعارض، فهو يعرف بأنه لن يستطيع أن يحقق لي هذا الأمر، أتمنى أن تفهمني، غدًا ستسافر، وزوجي سيرجع ربما خلال ساعة، لأنه سيأتي ببعض المشروبات، وأيضًا يتفاهم مع أحد سائقي التاكسي على خط حلب،

فكما قال لي بأن الوضع سيئ وتحدث اختطافات على الطريق! آدم، أرجوك قم معي إلى غرفة النوم!

ظل آدم الشبيبي صامتًا، ينظر بسبب ارتباكه إلى الأرض. فاجأته بجرأتها وبتبريراتها، وأدركت أنه لا ينفي رغبته فيها، لكنه يعارضها أخلاقيًّا وأن عليها المبادرة، فقامت عن الصوفا، وتقدمت منه، مدت يدها إليه، نظر إليها، لم يمد يده، لكنها أخذت من يده دون إرادته، وسحبته، فقام معها بممانعة. مشت وهي تجره من ذراعه خلفها واتجهت إلى الغرفة. عند الباب سحب كفه من كفها، واستدار فمسكت به محتضنة إياه من الخلف، أحس بطراوة نهديها الصغيرين وما تحت سرتها على مؤخرته، تخشب في مكانه. كان يعاني من ضغط شبقه الجنسي ومن مثاليته اليائسة، وفجأة، تفجرت الينابيع في أعماقه، التفت إليها، مسك بكتفيها، وأخذ يدفعها للمشي إلى الوراء، أدخلها الغرفة، ودفعها على السرير، أطبق الباب..وأدرك وهو يقوم بذلك بأنهما كانا يكذبان باسم الأمومة والأخلاق والصداقة، فهما ذئبان جائعان، كل منهما يلتهم جسد الآخر ويمتص منه رحيق اللذة بكل عنف!

وحين عاد آدم الشبيبي إلى الصالة بعد حوالي خمس وأربعين دقيقة كانت هي لا تزال ترتعش على السرير في غرفتها من كثافة اللذة.

***

في تلك الليلة كانت الأجواء رائقة، فقد أعدّت حواء الفارسي عشاء لذيذًا ومتنوعًا، وكان قد أتى آدم أبو التنك بقنينتين من النبيذ، وأوضح لصديقه بأنه اتفق مع سائق سوري من معارفه على أن يأخذه في سيارته إلى حلب. وأخذ يروي لآدم الشبيبي عن مظاهرة لبعض المثقفين والفنانين ضد النظام مطالبين بالديموقراطية، لكن الشائعات تتحدث عن تحرك النظام بالعنف في درعا، وهناك انفلات أمني في حلب وحمص، وريف دمشق، وأخذ آدم الشبيبي يلعن جنون هذه المهوّسة بالسهروردي بحيث تجرجره خلفها في مثل هذه الظروف.

كانت حواء الفارسي مسترخية وثمة توهج يشع من عينيها، ثمة طمأنينة تشع من كيانها بحيث يشعر الناظر إليها بالراحة وما يشبه الخدر.

لم ينم آدم الشبيبي تلك الليلة، وربما لم يستطع أن يغلب النعاس الذي هجم عليه في ساعات الفجر المتأخرة، بحيث لم يطل نومه أكثر من ساعتين، كان يفكر بما جرى بينه وبين حواء الفارسي، وأحس أنه يحبها كثيرًا، وتمنى لو تحصل معجزة بحيث تُحل أموره كلها وهو في دمشق بحيث يبقى معها، كان يشعر بأنه وجد حبه الحقيقي، وأخذ يفكر بأنه حين يعود مع المغربية حواء الزيّاني سيعقد قرانه هنا، وسيحصل من سفارة المغرب على تأشيرة السفر، لكنه سيبقى بعض الوقت هنا مع حواء الفارسي. أحس أن شهوته استيقظت من سباتها وكأنها تمساح أخذ يتحرك من تحت الوحل والأشنات التي تغطيه!

في تلك الليلة كانت حواء الفارسي تخرج من غرفة النوم متحججة مرة لشرب الماء من المطبخ، ومرة للذهاب إلى الحمام، وكانت كل مرة تقترب من الزاوية التي ينام هو فيها، تحاول أن تتأكد من يقظته ومنامه، كانت لديها الرغبة في أن تنام بجانبه ويضاجعها سريعًا دون أن ينتبه زوجها، لكنها لم تفعل شيئًا، كانت تقف للحظات تتأمله، ثم تمضي، وكان هو على الرغم من رغبته فيها يمثل دور النائم نومًا عميقًا حين تقف لتتأكد من نومه أو يقظته، كان يعرف أنه جبان ولا يحب المغامرة وليس لأي سبب أخلاقي.

وكان حين يتأكد من دخولها غرفة النوم يسرح ثانية في أفكاره وحواره مع نفسه، كانت تمر به لحظات يشتم فيها نفسه ويقول لها بصوت مسموع في ذهنه: "أنا منحط، سافل، شرير، خائن، كيف فعلت ما فعلت بزوجة صديقي الطيب، المتفضل عليّ بإيوائي في بيته، كيف دنت نفسي لألوث شرفه. وبغض النظر عمّا قالته هذه الأفعى عن عجزه الجنسي وحبها لي ورغبتها في ابن مني، ما كان عليّ أن أنحط وأنحدر وألبي دعوتها! كم أنا تافه وغائص في الوحل، بينما فمي ينطق بأجمل الأفكار والكلمات، وروحي تتوهج سامية بمقولات المفكرين والرجال الأبرار! ما الذي فعلت بنفسي؟! ثم ماذا لو حملت فعلًا مني، أتكون من الشهامة أن أترك ابني أو ابنتي ليربيها شخص آخر؟! وظل يحدث نفسه هكذا، إلى أن مسته ريشة الوسن فنام دون أن يعرف كيف!

***

في ضحى اليوم التالي وبعد الفطور تعالى صوت سيارة تدخل الزقاق وصوت

زمور السيارة قرب بابهم، فعرفوا أنها سيارة التاكسي جاءت لتقله.

وعلى الرغم من أن الحديث دار عن السفر إلى حلب على أن يرجع مع حواء الزيّاني إلى دمشق لعقد قرانهما، إلّا أن الجميع تملكه إحساس بأن هذا اللقاء هو الأخير بينهم.

***

غادر آدم الشبيبي دمشق متجهًا إلى حلب. أخذ معه جواز سفره فقط، وحقيبة جلدية فيها ما تبقى من مخطوطات آدم البغدادي التي لم يقرأها بعد، لا سيما تلك التي تحمل اسم "متاهة الله".

كان قلقًا ولا يعرف سر قلقه، يحس كأنه مطارد أو متهم ومطلوب من جهة مجهولة. وزاد من قلقه رؤيته لقطاعات عسكرية جرارة تسير في الاتجاه نفسه إلى شمال البلاد. أترى ما قاله صديقه عن توتر الوضع السياسي صحيحًا! وهل تُرى ما قاله عن الخطف في الطريق إلى حلب خطير فعلًا؟! وأحس برجفة تسري في جسده!

كان هو يجلس في صدر سيارة التاكسي بينما في القسم الخلفي ثمة رجل وامرأته وابنته، ولكي يطرد الخوف من نفسه ويبعد عن نفسه التفكير في احتمالات الخطف على الطريق، أخذ يثرثر مع السائق بحكايات لا معنى لها بالنسبة له، كان يخاف من الصمت والسكوت، يريد أن يتكلم ويتكلم، المهم ألا يصمت ويسكت حيث عندها يبدأ في التفكير! واستغرب من نفسه إذ اكتشف كم هو ثرثار!

***

طُرق الباب، لم يكن قد مضى على سفر آدم الشبيبي سوى خمس ساعات، حين فتحه آدم أبو التنك وجد أربعة رجال بملابس مدنية، كانت حواء الفارسي لحظتها في المطبخ، فوجئ هو، أدرك مباشرة أنهم من رجال جهاز المخابرات العامة المعروف بجهاز أمن الدولة، وعلى الرغم من أنه كان مطمئنًّا لأنه على علاقة طيبة بهذه الأجهزة لأنه هنا في دمشق منذ ما يتجاوز ربع القرن، وهم يعرفونه جيدًا كمعارض عراقي يساري!

لكنه مع ذلك توجس شرًّا، وعند الباب سألوه عن اسمه، مع أنهم يعرفونه، ثم سألوه عن حواء الساري الدنماركية، وصديقتها حواء الزيّاني التي شوهدتا قبل أيام في مقهى الروضة، كما شوهد هو وزوجته ذات مرة وهما يتحدثان معهما، وسألوه عن مكانهما!

ولكي يبرئ ساحته من هذه الشبهات دعاهم إلى الدخول والجلوس في البيت للحوار والاستفسار بهدوء! وافقوا، وحين صار مع الرجال الأربعة في زاوية الضيوف طلب من زوجته، التي كانت واقفة كالمصعوقة بباب المطبخ، إعداد الشاي أو القهوة للضيوف.

أعاد رجال الأمن طرح الأسئلة على آدم أبو التنك، جاءت زوجته إليهم بالشاي والقهوة في صينية كانت ترتجف في يديها على الرغم من أنها تمسكها بكفيها الاثنتين، أخبروه بأنهم يعرفون أنه شخص مسالم ومتعاون ولا غبار عليه، لكنهم يسألون لأنهم شاهدوه مع شخص عراقي آخر كان يجالس هاتين المرأتين، حواء الزيّاني المغربية الجزائرية والدنماركية حواء الساري، سألوه بالتخصيص عن حواء الساري الدنماركية التي شوهدت في مناسبة أخرى بصحبة إرهابي سوري اسمه آدم الحمصي الذي ينتحل صفة ضابط في الاستخبارات! أجابهم آدم أبو التنك، محاولًا السيطرة على ارتباكه، بأنه لا يعرف هاتين المرأتين جيدًا، ومعلوماته عنها مستقاة من صديقه العراقي، فهذه المغربية جاءت لتزور ضريح المتصوف شهاب الدين السهروردي، وإنها مع صديقتها الدنماركية كانتا تعيشان في بيت مستأجر بحارة اليهود، لكنهما اختفيتا، أما صديقه العراقي فهو شاب أعزب مثقف، جالسهما دونما معرفة سابقة بهما فقد تعرف عليهما في المقهى! وراودته فكرة أن يتزوج من المغربية ليسافر معها إلى المغرب؛ لذا كانت المغربية أحيانًا تتصل بصديقه، لكنها اختفت منذ أيام، وظهرت فجأة في حلب، صديقي فكّر ألّا يفقد فرصة الزواج منها، لكن الأمر غير مؤكد، وقد سافر إليها اليوم صباحًا! أما فيما يخص المرأة الدنماركية فلا يعرف عنها شيئًا سوى إنها صديقة المرأة المغربية التي ينوي صديقه الزواج منها، فأوضح أحد الرجال الأربعة الذي كان كما يبدو هو المسؤول عنهم بأن الدنماركية شوهدت مع الإرهابي آدم الحمصي، أما المرأة الأخرى فيبدو إما أنها مجنونة جاءت فعلًا لزيارة ضريح المتصوف السهروردي الذي مقام ضريحه في حلب أو أنها على صلة بعصابات الإرهابيين الذين يريدون تدمير البلاد والذين ينشطون في حمص وحلب!

كانت حواء الفارسي مرعوبة مما سمعت من أخبار، انقبض قلبها، شعرت بالخوف على آدم الشبيبي، وأحست بالألم لحظِّ حبيبها العاثر، فما أن يفتح أمامه باب للخلاص من هذا الحصار الذي يجد نفسه فيه إلا وتواجهه كارثة ليس سهلًا الخلاص منها.

ما أن خرج رجال الأمن من البيت حتى أرسل آدم أبو التنك إلى صديقه رسالة يقول فيها: "أنصحك ألّا ترجع، السفراء الأربعة سألوا عنك، وعن خطيبتك، دبِّرا أمركما! انتبه لنفسك".

## البـاب الـثامـن

# الحداد يليق بإيفا مادهوري

رنّ جرس الباب، كان يظن أنها إيفا مادهوري، حين فتح الباب وجد رجلًا أشقر وسيمًا، ابتسم الرجل له، في تلك اللحظة مرق في ذهن آدم بوناروتي خاطر بأنه قابل هذا الشخص، لكنه لم يتذكر أين ومتى؟!

- هل تسمح لي بالدخول؟!
- عفوًا! قال آدم بوناروتي مستغربًا.
- أقصد هل تسمح لي بالدخول!
- لم أفهم ما تقصد، بأية صفة تريد الدخول؟!
- ألم تنتظرني؟
- أنا أنتظرك؟
- نعم، ألم نتقابل من قبل هنا!
- متى؟! لا أذكر ذلك؟ هل لك أن توضح لي ما الأمر؟!

ابتسم له الرجل الأشقر الوسيم، وقال بما يشبه المزاح:

- عجيب أمرك يا آدم، هل تنسى الوجوه بهذه السرعة؟! يفترض بك وأنت الرسّام أن تتذكر الوجوه، وألا تنساها، لا سيما وجه مثل وجهي!
- عفوًا، لماذا تحدثني بالألغاز، من أنت؟
- ألم ترني في إحدى حجرات هذه الشقة حينما كانت حماتك إيفا ماريا بوناروتي موجودة عندك، وقطعت شيئًا من قضيبك؟!

شحب وجه آدم بوناروتي وسرت رجفة في جسده. وأحس بهلع يغمر نفسه، وفكر لثوانٍ بهذا الذي يقف أمامه ويعرف سره العميق..لكنه تماسك وقال بنبرة فيها ارتجاف وارتباك واضح:

- من أنت؟

ابتسم الرجل الأشقر الوسيم ابتسامة طيبة وكأنه يطمئنه وقال:

- أنا..؟ ألم تعرفني بعد؟ ألا تعرف نفسك؟ من يعرف نفسه يعرفني؟ ألا تدعني أدخل؟ دعني أدخل وسأخبرك من أنا ولماذا جئتك.

تنحّى آدم بوناروتي جانبًا لا إراديًّا فمرق الرجل الأشقر الوسيم داخلًا الشقة، وجلس على المقعد الذي كان يجلس هو عليه عادة، تبعه، لم يجلس وإنما ظل واقفًا إلى جانب حمّال اللوحة المعدة للرسم، صامتًا وهو ينتظر بتساؤل إلى الآخر منتظرًا منه أن يعرّف بنفسه.

انتبه الآخر لوقوف آدم بوناروتي وانزعاجه المكتوم من تصرفاته، فابتسم وقال له:

- ألم ترني في هذه الغرفة..( وأشار إلى الغرفة المغلقة )، طيب، أنا أعرف أنك غاضب من تصرفي المشاكس ومماطلتي في الكشف عن نفسي، لكني ما جئت لأحدثك عن نفسي، وإنما جئت لأحدثك عن نفسك، وعن إيفا مادهوري، ذلك الجمال البريء، سوسنة الحقول البعيدة، عشبة القرى العطشى، بومة البيوت المعتمة والرطبة..ملاك الخطيئة المقدسة..أغنية الوديان التي يغمرها الضباب..! جئت لأقول لك، حذار يا آدم بوناروتي من الأيام المظلمة، لا تأتمن لشهوتك العمياء، فهي كالأفعى ستقودك إلى مغارات مظلمة.. ما كان سيكون مرة أخرى، وسيتكرر دائمًا، ومع ذلك فما كان لم يكن أصلًا موجودًا ولم يحدث أبدًا.. هذا زمنٌ ترى الحكماء فيه أغبياء والأنبياء عميان.. حذار يا آدم بوناروتي من نفسك..تتبع حفيف جناح الملاك إيفا مادهوري..هي سوسنة الحقول البعيدة..وأغنية الوديان التي يغمرها الضباب..هي ملاك الخطيئة المقدسة التي ستقودك إلى الله.

أمتدت لحظات صمت بينهما..فجأة قام الرجل الأشقر الوسيم ..نظر في عينيّ آدم بوناروتي للحظات ثم توجه إلى الباب خارجًا، وعند الباب التفت إليه وقال:

- الأرض ليست مكانًا للحقيقة، فالحقيقة هناك في البعيد، حيث أولئك الذين يسكنون قلبك، هناك في سماء النور.

وغادر غالقًا الباب خلفه. ظل آدم بوناروتي جامدًا في مكانه للحظات كالمشلول، فجأة انتبه إلى نفسه، وقرر ألّا يدع الرجل الأشقر الوسيم يغادر دون أن يعرف كل هذه الألغاز التي ألقى بها أمامه، جاء وذهب دون أن يعرّف بنفسه، وحين فتح الباب، لم يجد له أثرًا، المصعد لا يزال واقفًا أمام الشقة. مدّ رأسه ليتابع حركة السلّم، لم يجد أثرًا لأي صوت خطوات أو ظلًّا لأحد! ومن مكانه صاح بأعلى صوته:

- يا أنت، أيها الرجل الغامض، يا أنت، أين اختفيت؟!

فجأة تعالت ضحكة هزت المبنى كله، نظر إلى الأسفل فلم يرَ سوى ظلمة تفتح شدقيها له وكأنها تريد أن تبتلعه.

فزّ آدم بوناروتي من غفوته على صدى تلك الضحكة المجلجلة. كانت الشقة معتمة، فقد هبط المساء دون أن ينتبه، لقد عبّ قنينة من النبيذ وحده أثناء انتظاره لإيفا مادهوري، انتبه إلى أن جسده مبتل بعرق بارد، تذكر كل شيء عن الرجل الأشقر الوسيم، نظر إلى شاشة هاتفه النقال ليعرف الوقت، انتبه إلى أن الوقت تجاوز الثامنة مساء بعشرين دقيقة، لقد قالت له بأنها ستكون بين السابعة والثامنة عنده، وقام عن مقعده الذي كان الرجل الأشقر الوسيم قد جلس عليه في رؤياه، اتجه إلى حيث أزرار الكهرباء، ضغط على أكثر من زر فأضاء الشقة نور باهر.

حين صارت الساعة التاسعة اتصل بالفندق، أجابته الموظفة التي التقاها عصرًا هناك، عرّف بنفسه، وسأل عن إيفا مادهوري، فقالت له زميلتها في العمل، بأن شخصًا ما جاء إلى الفندق، لا تعرف إن كان زوجها أو قريب لها، إذ رأتها ترتبك عند رؤيته.. تحدث الرجل معها بلغتهم..ازداد ارتباكها..طلبت منها أن تسمح لها بالخروج، كان ذلك الساعة السادسة.

أحسّ آدم بوناروتي بانقباض في صدره، واقشعرت جلدة رأسه، لم يكن ما قالته زميلتها مريحًا له، هي أخبرته بأن المترجم اتصل بها ويريد مقابلتها، فمن يا تُرى جاءها إلى الفندق، زوجها أم المترجم! الأمور تنبئ بشيء مريب! وفجأة، تذكر تحذيرات الرجل الأشقر الوسيم الذي جاءه في الرؤيا عند غفوته: "جئت لأحدثك عن نفسك، وعن إيفا

مادهوري، الجمال البريء، سوسنة الحقول البعيدة، عشبة القرى العطشى، بومة البيوت المعتمة والرطبة! جئت لأقول لك، حذار يا آدم بوناروتي من الأيام المظلمة، لا تأتمن لشهوتك العمياء، فهي كالأفعى ستقودك إلى مغارات مظلمة.. ما كان سيكون مرة أخرى، وسيتكرر دائمًا، ومع ذلك فما كان لم يكن أصلًا موجودًا ولم يحدث أبدًا.. هذا زمنٌ ترى الحكماء فيه أغبياء والأنبياء عميان.. حذار يا آدم بوناروتي من نفسك..تتبع حفيف جناح الملاك إيفا مادهوري..هي سوسنة الحقول البعيدة..وأغنية الوديان التي يغمرها الضباب..هي ملاك الخطيئة المقدسة التي ستقودك إلى الله."، ما معنى ذلك!. ظل يفكر بتلك الجمل الشعرية..باحثًا عن دلالالتها الخفية.

توجه آدم بوناروتي إلى المطبخ، أعدّ لنفسه كوبًا كبيرًا من القهوة النسكافيه، عاد إلى الصالة، ظل يرتشف جرعات كبيرة من القهوة، أحس في أعماقه رغبة في أن يرسم لوحة زيتية بالألوان لإيفا مادهوري، هو لا يحتاج لوجودها أمامه، فهي متوهجة في أعماقه، يراها بعين أعماقه!

قام إلى لوحة الألوان، كان قد وضع لوحة بيضاء على المسند الخشبي، مدّ يده لعصارة اللون الأحمر، وفي تلك اللحظة رنّ جرس الباب، ارتعش قلبه لهفة، ترك لوحة الألوان جانبًا، وهرع إلى الباب، حين فتح الباب ارتمت بين ذراعيه وهي ترتعش! أخذها بحضنه، دخل بها إلى الشقة وأغلق الباب.

لم يجلسا، ظلا واقفين قرب الباب، كانت ترتعش بين أحضانه مثل حمامة عطشى هدّها التعب ومكسورة الجناح. لم يتكلما، إلى أن هدأت شيئًا فشيئًا، فقادها إلى الصوفا، وأجلسها هناك. ذهب إلى المطبخ، فتح الثلاجة، سكب في قدح بلوري ماءً باردًا، حمل لها الكأس، مدّها لها، أخذته، ارتشفت منه رشفة كبيرة، ووضعت الكأس على الطاولة القريبة، نظرت إليه وقالت:

- أنا آسفة، لقد تأخرت عليك.
- لا عليك، قلقت عليك، قلت إنك ستكونين بين السابعة والثامنة، لكنني بعد التاسعة اتصلت بالفندق فأخبرتني زميلتك بأن رجلا ما جاء وذهبت معه!
- نعم، إنه المترجم.
- وماذا أراد..؟!

صمتت للحظات، ثم قالت:

- يريدني أن أكون قحبته من جهة، ومن جهة أخرى يحدثني عن الدين، والتقوى، وعن بلاد الكفار التي تهين ديننا الحنيف، وإن علينا أن ننتقم منهم لنصرة ديننا!

صُدم آدم بوناروتي لما سمع ولا إراديًّا قال:

- لم أفهم!

- سأفهمك،

صمتت إيفا مدهوري للحظات، ثم قالت وكأنها تستحضر شريطًا سينمائيا:

- لقد جاءني المترجم الساعة السادسة إلى الفندق. طلب مني أن أذهب معه ليحدثني، قلت له نجلس في لوبي الفندق ونتحدث، لكنه رفض، قال إنه يفضل أن نجلس بعيدًا من هنا وفي مكان بعيد عن الأنظار لأن كلامه مهم جداً!..فطلبت السماح من زميلتي وقلت لها سأعود لألزم بهذه الساعات التي أخرج فيها. ذهبت معه، وكلي توقع بأنه سيحدثني عن زواج ابنته من زوجي، دار بي في أزقة لم أمر بها سابقًا، كان طوال الوقت صامتًا لا يتحدث، وأنا أتبعه مثل حمل وديع، وتابع ذليل. مشينا بين الأزقة لأكثر من ساعة..إلى أن توقف عند بناية شبه قديمة..دخلنا المبنى، صعد بنا المصعد العتيق إلى الطابق الثامن، حين خرجنا أحسست أننا في عزلة عن العالم وعن فلورنسا..وعن إيطاليا. كانت البناية شبه مهجور..لم أسمع ضوضاء أو ضجة أو ما يشير لوجود حياة وسكان فيها. أخرج من جيبه مجموعة من المفاتيح، فتح باب الشقة ودعاني للدخول أولًا، دخلت، دخل بعدي وأغلق الباب بالمفتاح من الداخل.. أرتبت من هذه الحركة.. كانت الشقة وكأنها معدّة بكل شيء، شقة للمسرات والمتع المحرمة. سار أمامي ودخل قبلي إلى غرفة الاستقبال المؤثثة على الطريقة الشرقية، من أفخر أنواع السجاد المفروشة على الأرض مع المتكآت والوسائد الجميلة.. غرفة تشي بثراء صاحب الشقة..ولم أكن أعرف إن كانت هذه شقته أو لا..! جلس هناك، ودعاني إلى الجلوس بالقرب منه، لكنني على الرغم من ارتباكي جلست على السجادة في الجهة المقابلة له!

- هل عرفت عنوان الشقة والمكان والشارع، والزقاق! سأل آدم بوناروتي بتوتر.

- لا، كنت أتبعه وأنا خافضة رأسي وأفكر بألف قصة وقصة، وحينما خرجت كنت كالتائهة!

- أكملي.

- أخذ يكلمني عن ماضيّ، كان يعرف كل شيء عن عائلتي، ركّز في حديثه عن أختي التي هربت مع شاب بعمرها فقطع زوجها رأسها، وتحدث عن أخي بكلام بذيء بأنه مخنث، و... و... ثم تحدث عن أمي بمعلومات غريبة، بأنها كانت عشيقة زوجي آدم نعمتدار، وأنه هو الذي أخذ بكارتها، لكنه أقنع والدي بالزواج منها، لا سيّما وأن والدي كان فقيرًا معدمًا، وكان لا يحلم بأن يتزوج ذات يوم، وأن آدم نعتمدار ظل يختلي بأمي كل مرة حين يزور قريتنا. صدمتني هذه المعلومات، ولا أدري إن كانت صحيحة أم هو اختلقها لإذلالي! ثم أخذ يحدثني عن فساد أصلي العائلي، وأخذ يحدثني عن نفسي، وكيف أنا كنت مثل كلبة شبقة، وكيف أغريت آدم نعمتدار الذي كان يعاملني كابنته، وكيف كنت أتقصد أن أترك باب الحمام مفتوحًا كي يدخل ليراني عارية! إلى أن جاء في ختام كلامه إلى ما ينويه ويريده، فأخذ يتهمني بأنني فاسقة لا أشبع من الرجال، وهو يعرف بأنني أنهكت زوجي، وأنني سحرته بجسدي، وأنه يريد أن يخلّص صديقه من مأساته التي حطّمت رجولته، لذا فهو سيزوجه ابنته، لكن قبل ذلك سيخلّصه من سحري، وبعد أن تشاورا، هو وزوجي، مع الرجال الصالحين من ذوي الكرامات قالوا لهما بأنه يجب أن يدنسني رجل آخر غير زوجي، واتفق هو مع زوجي على أن يحل عقدته، وأنه قرر أن يضاجعني، لذا عليّ أن أقبل هذا الوضع، وأن أتعرى وأستلقي كي يضاجعني!..هكذا تحدث وكأنه يتحدث عن شراء كيلو من البصل..

- وهل فعلت ما أراد؟!

صمتت إيفا مادهوري للحظات، كان هو يعتقد بأنها فعلت ذلك لكنها تخجل من البوح، بيد أنها واصلت:

- في البداية رفضت، وقلت له، هذا لا يجوز، هذا زنا وحرام، فأخذ يحدثني عن الدين والشريعة، والجن والسحر الذي تحدث عنهما القرآن، وأنني صرت

بعيدة عن الدين؛ خرجت عن الطاعة، تبرجت، ونزعت الحجاب وأخذت أعمل في الفنادق، وأن علينا أن ندافع عن ديننا وأن ننتقم من الذين يهينون شريعتنا، و... و... و... ثم قفز إلى حيث أجلس، وأخذ يتغزل بي، وبجمالي، وأنه عشقني من أول مرة رآني فيها، وأنه يريدني أن أكون له، وأن أصير عشيقته، قحبته، نعم، استخدم هذه الكلمة؛ وقال لي بأنه يعرف أن زوجي لا ينام معي، وأنني شبقة مثل كلبة، وقال لي بأنه سيحدث زوجي لكي يمنحي حرية أكثر..و.و. ...كنت تعيسة جداً.. أحسست نفسي مثل عصفور في قفص..لا أعرف كيف أتخلص من هذه المصيبة التي وجدت نفسي فيها..تذكرتك في تلك اللحظات..وقررت مع نفسي بأن أفضل الموت على أن أمنح نفسي له.. وفجأة راودتني فكرة جهنمية؛ فكرة وجدت فيها خلاصي مهما كلفتني من ثمن.. فقد أبديت بعض الليونة، وقلت له عليّ أن أغتسل، لكنه لم يصدقني.. ظل ينظر لي للحظات وكأنه يدرس سر انقلابي وقبولي بعرضه..فقال لي بأن الحمام يقع إلى جانب المطبخ، وأنه سيعدّ الفراش الوثير، ونبهني بألّا أتأخر!

بدأ التوجس والقلق يسري في نفس آدم بوناروتي وقال لها بتوتر:

- وماذا فعلت..؟!

نظرت إلى وجهه للحظات وكأنها تريد أن تقرأ ما يدور في ذهنه، ابتسمت ابتسامة رضا برغم التوتر الذي على وجهها وقالت:

- لا أعرف كيف تملكتني تلك الفكرة، ومن أين أتيت بكل تلك العزيمة والإرادة لتنفيذ ما يعتمل في روحي؛ لأرد على تلك الإهانات التي سمعتها منه حتى وصل الأمر لشرف أمي، ذهبت إلى المطبخ..كنت أبحث عن شيء ما ينقذني من هذه الورطة التي أنا فيها..فتحت الدولاب كان هناك بعض الصحون.. فتحت جارور الكاونتر في المطبخ..كانت هناك ملاعق وسكانين..فتشت بين السكاكين..أخذت سكينًا ذا نصل حاد جداً ويمكنني حمله بخفة..أخفيته في بنطالي من الخلف..دخلت الحمام، فتحت الحنفيات وطرطشت بالماء كي يظن أني أغتسل..بقيت في الحمام محتارة..متوترة..راودني خاطر بأن يمكنه من صدي قبل أن أقوم بأي شيء..فجأة سمعت صوته يناديني بأن أسرع..

لحظتها اجتاحتني قوة لا أعرف من أين جاءت..وخرجت إليه ..كنتُ لحظتها لست أنا..كنتُ كائنًا آخر.....حين دخلت غرفة الاستقبال رأيته قد أعد الفراش في وسط الغرفة، وتمدّد عاريًا، منتصب القضيب..كان مسترخياً..اقتربت منه، ولكي أزيل الشك لديه، وأتمكن منه جيدًا نزعت قميصي وأنا في طريقي إليه.. اقتربت منه أكثر..جلست على فخذيه.. هو لم يصدق ما يجري معه، كان ينظر لي بولهٍ..أخذت أنزع عن نفسي السوتيان، كان هو مسترخيًا، مؤملًا نفسه بمتعة ساخنة، كان كالمشدوه ينظر لنهدَي، وبسرعة خاطفة مسكت بقضيبه..وبلمح البصر، مددت يدي إلى السكين..سحبت السكين الحاد، وبضربة قوية قطعت نصف قضيبه، وتفجر الدم....ظل هو يتلوى، ووجدت نفسي كالمجنونة أطعنه في صدره وبطنه، تناثر الدم ونقع الفراش بسرعة. كان هو يصرخ متوجعًا.. كان خائفًا..عاجزًا..منذهلًا..واستغربت لحظتها بانهياره السريع..فبعد أقل من دقيقتين أغمي عليه..أو أنه مات..لا أعرف.. لكن الغريب، بعد لحظات من هوس الطعن انتابني هدوء شديد..، ألقيت السكين جانباً..قمت إلى ثيابه أفتش في جيوب بنطاله وجاكيته بحثًا عن المفاتيح.. وجدتها..لا أعرف من أين يأتي الهدوء للقاتل بعد اقتراف الجريمة..أخذت السكين ثانية..حملت قميصي وسوتياني..ذهبت إلى الحمام، نظفت وجهي وصدري مما تناثر من دم عليه، لبست سوتياني وقميصي، وأخذت السكين إلى المطبخ، غسلتها جيدًا، ومسحت آثاري عن مقبضها، أخذت حقيبتي وخرجت بعد أن أغلقت الباب بالمفتاح ورائي، ومن باب البناية أخذت تاكسي متجهة إلى الفندق، وقبل أن أصله نزلت، وجئتك!

كانت تتحدث بهدوء وكأنها تروي قصة لا تخصها..ارتعب آدم بوناروتي، كان يرتجف وهو يسمع روايتها لما حدث، تذكر ما جرى له مع حماته إيفا ماريا بوناروتي التي قطعت قضيبه أيضًا، لكنه وجد نفسه يسألها:

- هل رآك أحد ما وأنت معه، أو خارجة من المبنى..؟!
- لا، فقط زميلتي في العمل رأته حينما جاءني إلى الفندق وأراد أن يتحدث معي! وبالمناسبة، جئتك بدفتر مذكرات صديقتك، أخذته دون أن تعرف زميلتي في العمل، لكن أرجوك، أريد أن أرجعه إليها غدًا.

فتحت حقيبتها اليدوية وأخرجت الدفتر الذي رآه في مكتب الاستقبال. أخذه دون أن يفتحه، وضعه على الطاولة الصغيرة أمام مقعده.. وسألها:

- وماذا ستفعلين الآن؟ ماذا سيحدث؟! هل تتوقعين بأنك ستكونين مشبوهة؟!

نظرت إليه للحظات وكأنها أدركت هول ما قامت به..فقالت بارتباك:

- لا أعرف، لا أعتقد، لم أترك أثرًا خلفي، ولا أحد سيجد علاقة بيني وبينه، بل ربما سيتم التحقيق مع زوجي، وربما سيفسر الأمر بانتقام من شاب كان يحب ابنته! إلّا إذا انتبهوا لزيارته لي في الفندق. لا أدري، ربما إذا ذهبتُ واعترفت، لكني لم أندم على ما فعلت! سنرى كيف تجري الأمور بعد اكتشاف الجثة، هذا إذا كان قد مات فعلًا!.

- ألست متأكدة من موته؟! سأل آدم بوناروتي بدهشة وخوف.

- لا، لكنه نزف وبشكل سريع الكثير من دمه حينما قطعت نصف قضيبه، كما أني طعنته في صدره وبطنه. أغمي عليه أو مات لا أعرف!..المهم عليّ الآن أن أذهب إلى البيت كي لا يشك زوجي بي..!..سأمر عليك غدًا صباحًا..دوامي بعد الظهر لكني سأقول لزوجي إن صديقتي مجازة قبل الظهر وعليّ الحضور للعمل بدلا عنها.

- إذن سأنتظرك غداً صباحا..انتبهي لنفسك..سنرى ما تكشفه الأيام المقبلة!.

وعند باب الشقة من الداخل ضمّها إلى صدره..أحس بجسدها يرتجف..فضغط عليها محتضنًا إياها بقوة كي يوقف ارتجاف جسدها. رفع وجهها إليه وقبّلها بحنان.. للحظات أحسّت هي بالأمان..!..

بعد لحظات غادرتْ الشقة..رآها تنزل السلّم بسرعة وعجل دون التفات إليه. أغلق باب شقته. كان دفتر المذكرات على الطاولة.

جلس على مقعده الأليف..ظل يفكر بالجريمة التي اقترفتها إيفا مادهوري..وسأل نفسه إن كان سيجد نفسه متورطا إذا ما تم الكشف عنها من قبل الجهات المختصة..!!.. أحس بضيق نفسي.. تذكر كلمات الرجل الأشقر الوسيم: " إيفا مادهوري ملاك الخطيئة المقدسة التي ستقودك إلى الله "..وابتسم مع نفسه بحزن وهو يفكر بمعنى هذه الجملة..

فجأة..أحس بنفسه وكأنه يستيقظ من سبات..قام عن مكانه..اتجه نحو مسند اللوحات.. أخذ علبة الألوان الزيتية.. أخذ الفرشاة وبدأ يلون اللوحة محاولًا رسم بورتريه لإيفا مادهوري.

كان يرسم بشكل محموم وكأنه يلهث راكضًا وراء ملامحها الهاربة..وكأنه سيفقدها..!..لم ينتبه للوقت..كان يتوقف للحظات كي يرتشف شيئًا من النبيذ ثم يواصل تلوينه..وحين برزت ملامح الصورة توقف..لكن اللوحة لم تكن سوى ابتسامةٍ وعينين حالمتين وسط ألوان ملتهبة..ولم يكن لأي أحد أن يعرف أن هاتين العينين والابتسامة العذبة هي لإيفا مادهوري.

كان بين فترة وأخرى يبتعد عن اللوحة لمسافة وينظر إليها متأملًا..انتبه إلى أنه كلما تراجع عن مسند اللوحات لمسافة أكبر كلما برزت العينان واتقدتا وتألقت الابتسامة..!.. فجأة شعر بإرهاق مفاجئ..وضع لوحة الألوان الزيتية جانبًا.. وجلس على مقعده الأثير يتأمل اللوحة وبيده كأس النبيذ الذي كان يرتشف منه بين فترة وأخرى.

كان راضيا عمّا أنجزه..وشعر بحنين إلى إيفا مادهوري..تمنى لو كانت موجودة ورأت اللوحة..انتبه لأصوات أجراس كنيسة قريبة..إنه منتصف الليل..وفي تلك اللحظة بالذات سمع طرقاتٍ شديدة ورنين جرس الباب معًا. سأل نفسه: " من تُرى يأتيه في هذا الوقت!؟ أيمكن أن تكون إيفا مادهوري..!؟"..وقام على عجل ليفتح الباب.

فوجئ آدم بوناروتي بثلاثة رجال يقفون أمام الباب..وخلفهم خمسة من رجال الشرطة..وقبل أن يفتح فمه أبرز أحدهم له بطاقته المهنية الرسمية..فقد كان الرجل من قسم التحقيقات الجنائية..! وبادره الرجل قائلًا:

- ليلة سعيدة..هل أنت السيد آدم بوناروتي..؟
- نعم..قال آدم بوناروتي لا إراديًا
- هل تسمح لنا بكلمتين معك..؟
- تفضل..
- هل يمكننا الدخول لبعض الوقت..؟
- لا مانع..تفضلوا..

ودخل الرجال الثلاثة بينما بقي الشرطة الخمسة ينتظرون عند الباب المفتوح.

حين صار الرجال الثلاثة في الصالة جلس الرجل المسؤول الذي كلمه على الصوفا دون استئذان بينما ظل الآخران واقفين..وبإشارة من يده دعى الرجل المسؤول آدم بوناروتي للجلوس فجلس دونما كلمة.

- هل تعرف يا سيد بوناروتي امرأة هندية مسلمة باسم إيفا مادهوري نعتمدار..!

صُدم آدم بوناروتي بالسؤال وفكر بسرعة مع نفسه بأنه ليس صحيحًا أن يتنكر لعلاقته بها فما داموا قد وصلوا إليه فهذا يعني أنهم يعرفون عنهما كل شيء..فقال بتوجس:

- نعم أعرفها..تعرّفت عليها قبل أيام..!
- نعرف ذلك..رد الرجل المحقق ثم واصل:
- هل كنت تعرف أنها إرهابية وأنها على صلة بإرهابيين..وأنها مجرمة قتلتْ شخصًا بعدما استدرجته إلى شقة في بناية شبه مهجورة بأطراف فلورنسا..!.
- ماذا..؟..ردّ آدم بوناروتي بصوت مصدوم وعال لا إراديًا.
- ما بك..؟ ألم تكن تعرف ذلك..؟

انتبه آدم بوناروتي لجملته الأخيرة.." ألم تكن تعرف ذلك"..والتي فيها اتهام مبطن..فصار على حذر من ردود أفعاله..وقال:

- لا أعتقد الأمر كما تظنون..هي ليست إرهابية..هي فتاة بسيطة مظلومة..

نظر المحقق إلى أصحابه نظرة خاصة..ثم التفت إلى آدم بوناروتي قائلًا:

- حدثنا عمّا تعرفه عنها..لأن صاحب الشقة الأصلي الإيطالي جاء ليستلم إيجاره من المستأجر الهندي المسلم والذي لم يدفع الإيجار منذ ثلاثة أشهر..اتصل به..ولمـّا لم يجبه المستأجر قرر التوجه للشقة..وحين وصل طرق الباب فلم يفتح له..لكنه سمع أنينا وصوت استنجاد من داخل الشقة..ففتح الباب بمفتاحه الخاص..وهناك وجد شخصًا غارقًا بدمائه..ليس الرجل الذي استأجر منه الشقة وإنما رجلًا آخر..وكان الرجل يئن..وحين حاول أن يعرف منه شيئًا تمتم الرجل باسم إيفا مادهوري نعمتدار..اتصل الرجل بنا..وخلال لحظات..

عرفنا أن المستأجر الأصلي هو أحد المشتبه بهم والمطلوبين عالميا ضمن التنظيمات الإرهابية الإسلامية وإنه غادر إيطاليا بطريقة ما..وعرفنا عنوان الفتاة وزوجها..ومكان عملها..وأخبرتنا الموظفة في الفندق بأن رسامًا جاء إليها.. ثم أنها خرجتْ مع رجل هندي..وشاهدنا الفيديو الخاص الموجود في مكتب استقبال الفندق..وهكذا عرفنا صلتك بها..أما الرجل الآخر الي اتضح أنه مترجم كان يعمل في دائرة لكنه ترك العمل منذ سنتين.. وتدور حول نشاطاته بعض الشبهات..لذلك نريد أن نعرف طبيعة صلتها به ..ولماذا حاولت قتله.. فهل يمكنك أن تساعدنا في الوصول إليها..!!..لأنها اختفت..لم تذهب إلى بيتها..ولا نعرف أين هي الآن..!

صُدم آدم بوناروتي بهذا الكم من المعلومات..وقرّر مع نفسه أن يخبرهم بكل شيء روته هي له..لأنه كان على يقين بأن إيفا مادهوري بريئة..وهكذا بدأ يروي لهم قصته معها..وقصتها التي روتها له بالتفصيل..!.

***

استوعب المحققون الإيطاليون القصة التي رواها لهم..وتعاطفوا مع إيفا مادهوري..وكانوا كلّما روي لهم معلومة جديدة يقوم الرجلان الآخران بالتأكد من صحتها فورًا بالاتصال هاتفيا مع الجهات المعنية..وفعلا تأكدوا من أن المترجم الذي نُقل إلى المستشفى، والذي كان في حالة خطرة، بأن لديه ابنة تبلغ الرابعة عشر من العمر..وعلموا من جيرانه بأنها مخطوبة لصديق والدها وهو رجل مسن اسمه آدم نعتمدار وستتزوج قريبًا..ولكي لا يُتهم بالتستر على جريمة قتل أخبرهم آدم بوناروتي بأنها خرجت من عنده قبل مجيئهم بعشر دقائق..وأنها قررت أن تبلغ زوجها بالأمر ثم تبلغ الشرطة بما قامت به..فأكدوا له بأنها لم تصل إلى بيتها ولم تخبر زوجها الذي فوجئ بما قامت به..وصار يصرخ مرعوبًا..بأنها مجنونة وأنها ستقتله أيضاً..!!..وأشار المحقق بأن هذه المجموعة المكونة من زوجها والمترجم ومستأجر الشقة الأصلي الذي غادر إيطاليا وآخرين كانوا تحت المراقبة كتنظيم إرهابي مشتبه به لكن دون أن يتم التحقق من نواياهم فعلياً..وشكروه على تعاونه معهم..وأعطاه المحقق بطاقته الشخصية راجياً بأن يتصل به إذا ما اتصلت هي به..!!..

حين غادر المحققون وبقية رجال الشرطة كانت الساعة قد بلغت الثانية فجراً.

ظل آدم بوناروتي مصدومًا من كل الأحداث التي سمعها سواء من إيفا مادهوري أو من المحقق..لكنه كان مرتاح الضمير لحدٍ ما لأنه دافع عن إيفا مادهوري وعن براءتها لاسيما فيما يخص علاقتها بالإرهابيين..بيد أن الهواجس السلبية لم تتركه..فقد كان يفكر بإيفا مادهوري ..أين اختفت..؟ وكيف لم تذهب إلى البيت..؟ ولماذا لم تتصل به إذا كانت قد واجهت صعوبة ما..؟ ولكي يبعد الأفكار السلبية عن نفسه أخذ دفتر المذكرات الذي كان على الطاولة والذي لم يثر انتباه المحققين بشكل استثنائي مع أنهم سألوه عنه وأجابهم بأنه دفتر يخط فيه خواطره..فتح الدفتر بهدوء..وقرأ:" كل شيء بدأ من بوابة الفردوس، كل شيء..متاهة الأنبياء..ومتاهة الإنسان والوجود البشري..كل شيء بدأ من الجانب الخارجي لبوابة الفردوس..".

لم يستمر في القراءة..إذ سمع طرقاً خفيفًا على الباب. ظن أول الأمر أنن المحقق قد عاد ليستفسر عمن شيء ما، لكنه وهو يتجه إلى الباب، استبعد ذلك..فالشرطة لا تطرق الأبواب طرقاً خفيفاً..لكن ثمة هاجساً غمره في تلك اللحظة.. وبدون أن يسأل عن الطارق فتح الباب فوجد إيفا مادهوري التي ألقت بنفسها بين أحضانه وهي ترتعش..!.

قالت له بسرعة بأنها رأت المحققين والشرطة عنده لكنها اختبأت إلى أن خرجوا.. فأخذها وهي بين أحضانه إلى الصالة ..أجلسها على الصوفا..كانت مرتبكة وخائفة.. قالت له على عجل بأنها ذهبت إلى شقة زوجها لكنها وجدت سيارة شرطة هناك فتراجعت خائفة ولم تدخل البناية..فأخبرها بأن المترجم لم يمت..وأنه مشتبه به مع زوجها وآخرين كتنظيم إرهابي..!.

صُدمت إيفا مادهوري حين سمعت ذلك..أخبرته بأنها خمّنت ذلك..لكنها لم تكن على يقين..بل لديها بعض التفاصيل عمّا كانوا يخططون له من عمليات تخريبية..صُدم هو بهذه المعلومات..وطلب منها بأن يتجها فوراً إلى الشرطة وأن أي تأخير ليس في صالحها..وفورًا أخذ بطاقة المحقق التي وضعها داخل الدفتر واتصل بصاحبها..وقال بسرعة:

- هي عندي..ولديها معلومات..نحن في البيت.. طيب..أنتم قادمون..هذا أفضل..نحن بالإنتظار.

نظرت إليه مندهشة..فقال لها مهدئًا:

- لا تخافي..أنا أريد أن أحميك..أنت بريئة..وأنا على يقين من ذلك..بل إن اخبارهم عمّا تعرفينه عن زوجك والمترجم والآخرين سيساعدك ويثبت براءة موقفك..!..لا تخافي..أنا أحبك..أنت سوسنة الحقول..ملاك الخطيئة الذي سيقودني إلى الله..!

لم تفهم الجمل الأخيرة التي قالها..لكنها تأكدت إنه معها.. وأنه يحبها ويثق بها.. وإنها تنتمي له..له وحده.

لم يمض سوى دقائق على اتصاله بالمحقق حتى سمعا طرقا قويا على الباب.. ظنه آدم بوناروتي المحقق ورجاله..لكنه استغرب سرعة وصوله..حين فتح الباب وجد أمامه رجلًا ضخمًا..ملتحياً..دفعه الرجل فجأة إلى الداخل..وتبعه رجلان آخران ملتحيان..!.

***

حين وصل المحقق ورجاله إلى شقة آدم بوناروتي وجدوا الباب مفتوحًا.. توجسوا أمراً مريباً..وفعلاً..حينما دخلوا وجدوا جثتين مقطوعتي الرأس..والدماء تملأ الصالة..وليس هناك من أثر للقتلة..تأكدوا من أن الجثتين تعودان لآدم بوناروتي وإيفا مدهوري نعتمتدار..ولم يترك القتلة آثاراً تدل عليهم..كان المحقق ورجاله في حيرة.. متى جرى كل ذلك؟ أمن المعقول بأن القتلة كانوا في المبنى حينما كانوا هم يحققون مع آدم بوناروتي..!؟..أم أنهم كانوا يتتبعون خطى إيفا مادهوري ووصلوا إلى شقة آدم بوناروتي..؟ أترى هناك من رآهم يدخلون؟.

جاءت سيارات الإسعاف..نقلوا الجثتين مقطوعتي الرأس..أغلقوا الشقة..وربطوا الأشرطة الصفراءعند بابها.

***

كانت الشقة فارغة..مظلمة..وعلى المسند الخشبي لوحة إيفا مادهوري التي شهدت

عيناها المتقدتان الجريمة والقتلة الملتحون.. بينما من الغرفة المغلقة فُتح الباب..خرج الرجل الأشقر الوسيم إلى الصالة..ضغط على زر الكهرباء فأضاء الشقة نور باهر.

توجه الرجل الأشقر الوسيم إلى حيث الصوفا..جلس على المقعد الذي كان آدم بوناروتي يجلس عليه عادة..مد يده إلى دفتر المذكرات..تصفحه..توقف عن الصفحة الأولى حيث تبدأ المذكرات وقرأ: "كل شيء بدأ من بوابة الفردوس، كل شيء..متاهة الأنبياء..ومتاهة الإنسان والوجود البشري..كل شيء بدأ من الجانب الخارجي لبوابة الفردوس..".

**بدأت الكتابة في هذه المتاهة في: 18. 10. 2016**

**وانتهيت من الكتابة فيها في: 13. 12. 2017**

**كُتبت في: برلين، الجزائر، أربيل، وبرلين.**